
دكتورة
سناء الخولي
أستاذ ... الاجتماع
ووكيلة كلية التربية جامعة الإسكندرية
دار المعرفة الجامعية
١٩٨٩
Bibliotheca Alexandrina
0101272

التغير الاجتماعي والتحديث

دكتورة
سناء الخولي
أستاذ علم الاجتماع
ووكيل كلية التربية بجامعة الإسكندرية

١٩٨٨

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - اسكندرية
ت ٤٨٣-١٦٣ ٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لا يمكن اعتبار التغير الاجتماعي موضوعا جديدا فى تاريخ الفكر الاجتماعي ، فقد كرس كثير من الفلاسفة الاجتماعيين وكذلك العلماء الذين عاشوا فى الماضي قدرا لايستهان به من تفكيرهم فى محاولات جادة ومتكررة لفهم التغير الاجتماعي . وقد يرجع هذا الاهتمام الى الانهيار المفاجيء والمثير لكثير من الشعوب والامم على مر العصور ، مما دفع بهؤلاء الفلاسفة والعلماء الى التفكير والبحث عن الأسباب أو العوامل التى أدت الى مثل هذه الظواهر الملفتة للنظر والتأمل .

وقد اختلف العلماء فى اختيار المصطلح المناسب لهذه الظاهرة فكانوا يطلقون عليها أحيانا مصطلح « التطور » أو « النمو » وكلاهما يحمل معنى « التقدم » الا أنه بمرور الوقت بدأ العلماء يستخدمون مصطلح « التغير الاجتماعي » باعتباره مصطلحا محايدا لايحمل معنى التقييم ، وانما يصف التغير كما يحدث فى الواقع دون أن يشير الى التقدم أو التخلف ، وهكذا بدأت النظرة الى التغير تتخذ مسارا آخر حيث اهتمت كثير من الدراسات المعاصرة بمشاكل التغير الاجتماعي ، وخاصة عند علماء الاجتماع الشبان الذين طوروا أدواتهم ووسائلهم لكى تتلاءم مع دراسة مثل هذه الموضوعات ، وبهذا أكدوا على ضرورة التحرك من المكتب أو المكتبة الى العمل الميداني فى حقل الواقع . ومع ذلك فان الملاحظات التى يمكن للفرد أن يحصل عليها بنفسه هى فى الواقع ملاحظات معاصرة ، ولذلك فان أى دراسة لابد أن تشمل الناحيتين النظرية والميدانية العملية .

وقد يرجع الدافع الى هذا الاسلوب من الدراسة الى المعارف النامية وتزايد المعرفة التى تشير الى أن البناءات الاجتماعية لاتكون ثابتة بصفة دائمة ، أو أنها متكاملة أو تعمل فى تناسق وانسجام طوال

الوقت • بل على العكس فقد تبين أنها غير ثابته وتتمزق بفعل الخلافات والنزاعات • وقد ترتب على هذه الملاحظه الاخيرة أن علـم الاجتماع الذى يضع الحقائق أمامه فى المحل الاول ينبغى أن يفرد مكانا واضحا بين اهتماماته لتحليل ودراسة التغير الاجتماعى •

وقد ظهر موضوع التغير الاجتمـاعى فى كثير من مؤلفـات علم الاجتماع كموضوع مستقل بذاته ، ولعل ذلك يرجع الى رغبة الدارسين فى فهمه وتحليله ، لان التغير الاجتماعى يكون دائما بالاضافة الى شىء ما في المجتمع وليس شيئا قائما بذاته ، لأنه من الممكن أن نتكلم عن تغير النظم والانساق الاجتماعية أو تغير العادات والتقاليد أو القيم الخ ••

ومما نود أن نشير اليه فى هذه المقدمة هو أن معظم الناس فى العصر الحديث يرغبون بأى تغـير أو تحسن فى حياتهم ، ويشاركهم علـماء الاجتماع فى تطلعهم العام كمواطنين • الا أن سرعة وقع التغير جعـل كثيرا من الناس فى حـالة اضطراب وارتباك ، فضـلا عن أن كثيرا من التغيرات قد تؤدى الى خسائر وليس الى مكاسب كما هو متوقع • كما أن حالة الأمن والاستقرار التى كان الناس يستمدونها من خلال توافق البناءات الاجتماعية بدأوا يفقدونهـا تدريجيا من خـلال تغير العادات والاتجاهات والمعارف القديمة •

هذا ويمكن للعامل السياسى أن يلعب دورا بارزا وفعالا فى حدوث التغير الاجتماعى لان الاهتمام بـه يمكن أن يكون أكثر قـوة عند من يشعرون بأن العالم يجب أن يتغير لانه بصورته الحالية أصبح غير ملائم الى حد كبير • وقد ينظر آخرون الى التغير الاجتماعى من خلال اهتمام عملى وواقعى حين يرون الأشياء تتغير بالفعل . ولكن اذا كان لابد أن تتغير فى الاتجاه الذى نريده ، فلا بد أن تخضع فورا للضبط والتخطيط •

ومن هنا بدأ الحوار حول ماسمى بالتحديث كاتجـاه (عالمى)

جديد نحو التغيير المتعمد ، وقد بدأ هذا الانجـاه أولا فى دول أوربا العربيه وأمريكا والتى أصبحت الآن تسـمى بالدول المتقدمـة فى عالم اليوم (وهى ليست وحدها كذلك بالفعـل) وخاصة فى طريـق تغيير مجتمعاتهم وتحديثها . ومازالوا حيث أصبحوا الآن روادا فى هذا المجال. كما أصبحوا نموذجا تحاول الدول النامية الاستفادة منه أو السير على منواله ، وهكذا بدأ هذا الاتجاه نحو التحديث يظهر فى مجتمعات العالم الثالث • ومن المعروف أن هذه المجتمعات ظلت ولسنوات طويلة ترزح تحت وطأة الاستعمار والجهل والتخلف ، الا أنها بـدأت تحصل على استقلالها تباعا ومن ثم سارت فى الطريق نحو التنمية والتحديث ، الا أن معظمها لم يصل الى هدفه المنشود بعد ، فهى لم تعد الآن مجتمعات متخلفة ، ومع ذلك فأنها لم تصبح بعد مجتمعات متقدمة ولهـذا يطلق عليها مصطلح « مجتمعات مستحدثة » أى مجتمعات مازالت فى الطريق بين التخلف والتقدم •

هذا وقد جاء الفصل الاول فى هذا الكتاب يحمـل عنوان « مدخل لفهم التغير الاجتماعى والتحديث » حيث تضمن تحليلا للتغير الاجتماعى فى علم الاجتماع من خلال دراسـات التقدم الانسـانى ، والتحليلات السببية الأمر الذى كان لابد أن نستعرض معه بعض التصورات التى تختلط أحيانا بمفهوم التغير مع أنها غير ذلك ، ثم انتقلنا الى القاء الضوء على الثورة الصناعيـة فى الغرب وأثرهـا فى ظهور دراسـات التغير الاجتماعى ، وكذلك بعض الملاحظات على نظريات التغـير الاجتماعى والموقف الحالى من دراسات التغير ، وكان من المناسب بعد ذلك القـاء الضوء أيضا على التحليل المقارن للتغير ، وأخيرا الخصائص الرئيسية للتحديث ومشاكله فضلا عن شروط التحديث المتمثلة فى خـلق مراكز توجيه مركزية وتشجيع الحكم المحلى ، واعطاء المرونة الكافية للطبقات الاجتماعية وبناء صفوات التحديث ودعم حركاتها •

وقد تناولنا فى الفصل الثانى « أنماط التغير » واكتفيت باستعراض

ثمانية منها فقط باعتبارها أهم الأنماط مثل : التطور ، والثورة ، والانتشار ، واكتساب الخصائص الحضرية ، والتحديث ، والتصنيع ، والحضرية ، وأخيرا التحول الى البيروقراطية •

وجاء الفصل الثالث محاولة لمعرفة « ردود الفعل للتغير » سواء كانت سلبية أو ايجابية ؛ ولهذا ضمنته استعراضا للبواعث الاجتماعية للتغير ، والمنطلقات الثقافية والاقتصادية له ، وهذا أدى الى تحليل كيفية مقاومة الناس فى المجتمع للتغير من خلال معرفة المعوقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية •

وليس هناك شك فى أن تكون للتغير وطأة على المجتمع وكذلك تكاليف ، ولانقصد بالتكاليف التكاليف المادية ولكن التكاليف النفسية والاجتماعية التى يدفعها الناس فى سبيل تحقيق التغير،ولهذا كان الفصل الرابع يدور حول « وطأة التغير وتكاليفه » لتحليل التأثيرات الاجتماعية للاختراعات والتجديدات ، والتكنولوجيا والحياه اليومية للانسان ، والاستجابات للتغير ، وعلاقة كل ذلك بالتفكك الاجتماعى • وقد وجدت من المناسب فى نهاية الفصل أن القى نظرة على احتمالات التغير فى عالم الغد وهى نظرة تنبؤية لما يمكن أن يكون عليه العالم فى المستقبل من خلال رؤية التغيرات فى الماضى والأوضاع الحالية •

اننى أعلم أن التغير لايترك مجالا فى الحياه الا وطرقه ولكنى هنا قصرت معالجتى على المجال الاجتماعى ؛ ومن ثم جاء الفصل الخامس عن « مجالات التغير » حيث ركزت على التغيرات التى تعرضت لها النظم الاجتماعية الرئيسية ابتداء من « الأسرة » والتغيرات التى لحقت ببنائها ووظائفها ، والطلاق ، وعمل المرأة ، والتنشئة الاجتماعية ، كما تعرضت لدراسة التغيرات التى لحقت « بالسكان » من حيث نتائج معدلات النمو السريع ، وأهم التحولات الديموجرافية المترتبة على ذلك مثل : الاخصاب والخصوبة ، والوفيات ، والهجرة • كما تعرضت بعد

ذلك للتغير فى « التعليم » من حيث وظائفه ، ودوره فى تشكيل الشخصية الاجتماعية ، وأثر التعليم فى التكامل الاجتماعى ؛ وأخيرا أهمية التعليم الفنى فى المجتمعات الصناعية الحديثة . وفى نهاية الفصل تعرضنا للتغير فى النظام الاقتصادى من خلال دراسة التغيرات التى لحقت بالانتاج والتوزيع والاستهلاك .

أما الجزء الثانى من الكتاب فقد خصص كلية لاستعراض وتحليل بعض الدراسات المتعلقة بالتحديث فكان الفصل السادس يحمل عنوان « التحديث : منظوراته وظروفه الموضوعية » حيث حاولت تقديم تعريف للتحديث ثم انتقلت الى دراسة التغير كشرط للحياه الحديثة وذلك من خلال العالم القديم والعالم الحديث ، وانتشار خصائص التحديث ، والعلاقات بين المجتمعات ، ثم تكلمت بعد ذلك عن الدافع الى التحديث ومستقبل التحديث وأخيرا واجبات المجتمع الحديث .

ويدور الفصلان السابع والثامن حول « تحديث المجتمع والثقافة » حيث تناولت بالتحليل تحديث العلاقات الاجتماعية من خلال تغير علاقات العمل ، وتغير العلاقات الأسرية ، والتغيرات التى تحدث فى الجماعة المحلية ، والحياه داخل المنظمات ، وأخيرا تحديث الانسان وتحديث العلم كما تكلمت عن مشاكل التحديث فى العالم الثالث من خلال محاولة رسم طريق جديد للتحديث فيه .

وعموما فاننى أحاول منذ سنوات أن أقدم للمكتبة العربية كتابا يقدم تحليلا واضحا ومسايرا للعصر عن المنظورات العديدة والمختلفة ، والاتجاهات والمصادر ، والمصادر والوسائل والعمليات والنماذج المتبعة ونتائج التغير الاجتماعى ، أى أننى أردته كتابا يضع فى الاعتبار العوامل التى يمكن من خلالها دفع التغير أو اعاقة تقبله فى مجتمع متعدد الطبقات والتى قد تؤكد النتائج غير المقصودة وما يتكلفه كلا من التغير

المخطط وغير المخطط مما يحتم ضرورة النظر فى طرق خلق وأساليب تقييم التغير ، والتى لاتكون محدودة فى اطار نظرى واحد . وقــد وضعت فى حسابى كل هذه الاعتبارات أثناء كتابه هذا الكتاب على أمل أن أقدم تقريرا وتحليلا للتغير الاجتماعى والتحديث وردود الفعل لكل منهما فى عالم اليوم . والله ولى التوفيق

سناء الخولى

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

الفصل الأول

مدخــل لفهم التغير الاجتماعى والتحديث

- ❋ نظرة مبدئيــة
- ❋ تحليل التغير الاجتماعى فى علم الاجتماع
  - اولا : التقدم الانسانى
  - ثانيا : التحليلات السببية
- ❋ تصورات خاطئة عن معنى التغير
- ❋ الثورة الصناعية ودراسات التغير الاجتماعى
- ❋ ملاحظات على أزمة نظرية التغير الاجتماعى الحالية
  - أ ـ التغير الاجتماعى كعملية تطورية
  - ب ـ التغير الاجتماعى كعملية دائرية
  - ج ـ التغير الاجتماعى كحتمية اقتصادية
  - د ـ الموقف النظرى المعاصر لدراسة التغير الاجتماعى
- ❋ التحليل المقارن للتغير
- ❋ الخصائص الرئيسية للتحديث ومشاكله
- ❋ شروط التحديث الناجح
  - أولا : مراكز قويه وحكم ذاتى بنائى ومرونه للطبقات الاجتماعية
  - ثانيا : بناء صفوات التحديث وحركاتها •

الفصل الأول

مدخل لفهم التغير الاجتماعى والتحديث

نظرة مبدئيـة :

يشغل تحليل التغير الاجتماعي مركزاً رئيسيا في البحث منذ بداية ظهور علم الاجتماع الحديث • ويعتبر التغير موضوعا من الموضوعات التى صاحبت علم الاجتماع منذ نشأته ، والدليل عـلى ذلك أن نمو علم الاجتماع من خلال اهتمامه بالمجتمعات الصناعية الحديثـة التى تعتبر تطورا طبيعيا للمجتمعات التقليدية أو النامية ظل موضوع التغير مصاحبا لهذا النمو من حيث الاهتمام به طوال الوقت • هذا وقـد كرس معظم الفلاسفة الاجتماعيين الكبار وكذلك العلماء الذين عاشوا فى الماضى قدرا لا يستهان به من تفكيرهم فى محاولة لفهم التغير الاجتماعى • ذلك لان السقوط المثير والمفاجىء لكثير من الشعوب والأمم على مر العصور كان سببا فى ظهور التفكير فى الأسباب أو العوامل التى تؤدى الى مثل هذه العمليات • وفيما بعد أصبح الاهتمام الأساسى لعلم الاجتماع بطبيعـة المجتمع الحديث (الذى أوجـد فى ذاته النزعة الطبيعيـة الى التغير المستمر) يؤكد مرة أخرى هذا الاهتمام • وقد زادت الدراسات الاخيرة عن المجتمعات النامية من هذا الاهتمام بالتغير الاجتماعى •.

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالميـة الأولى كان علم الاجتماع ينظر للتغير الاجتماعى باعتباره تقدمـا أو تطورا • ويمكن أن نجد بعض المحاولات الاولى فى هذا الاتجـاه فى النظريات التطورية الكبيرة التي وصفها كل من كومت وسبنسر وهوبهاوس فى علم الاجتماع ، وتايلور وويستر مارك فى الانثروبولوجيا [1] • وكان مفهوم

من أجل مزيد من التفاصيل ومناقشة هذه النظريات المختلفة انظر :
P. A. Sorokin :
«(Contemporary Sociological Theories». New york : Harper and Brothers. 1982.

العام عند هؤلاء العلماء ببساطة هو أن كل المجتمعات فى كل مجالات الحياه الاجتماعية تمر فى مراحل متشابهة من التطور (الا اذا كان هناك عوائق) وتتحرك من الأبسط الى الأقل تعقيدا الى الاقل اختلافا ثم الى المراحل المعقدة والمختلفة التى تبلغ أوجها فى المجتمع الصناعى الحديث • وقد رفض « دور كايم » هذا الاتجاه التطورى ورغم ذلك فأن اتجاهه العام فى تصنيف المجتمعات كان يعتمد على مخطط تطورى ، لذلك كان تقسيمه للعمل فى المجتمع يهتم بعملية التطور من المجتمعات البدائية الى المجتمعات الحديثة •

ان مفهوم « التطور الاجتماعى » بهذا المعنى مشتق مباشرة من نظريات التطور البيولوجى التى ازاحت بقوة (فى القرن التاسع عشر) تأثير فلسفة التاريخ على علم الاجتماع • وقد عقد « سبنسر » فى مؤلفاته الشهيرة مناظرة بين المجتمع والكائن الحى ، وبين النمو الاجتماعى والنمو العضوى ، وقد تأثر فى هذا بدون شك بالنظرية الداروينية فى النشوء والارتقاء ، والآليه التى يحدث بها التطور • فالمجتمعات فى رأيه تتطور بطريقة تلقائية من حالة يعمل فيها الناس نفس النوع من العمل الى حالة من التخصص والتعاون •

والى جانب هؤلاء الذين يؤكدون على المسارات الموحدة التخطيط عن التطور نجد هؤلاء العلماء (الذين يتبعون مفكرين من أقدم العصور كالمؤرخ الرمانى بوليبيوس أو الفلاسفة العرب فى القرون الوسطى مثل ابن خلدون) حيث يضعون قوانين النمو فى أى مجتمع فى مصطلحات دورة « الميلاد » و « النمو » و « الانهيار » كما يمكن اعتبار عالما الاجتماع الايطاليين « باريتو » و « موسكا » من أشهر أصحاب نظريات النمو فى العصر الكلاسيكى لعلم الاجتماع (١) • ويمكن

---

1) James H. Meisel (ed.), «Pareto and Mosca». Englewood Clifps. N.J; Prentice Hall, 1965.

أن نجد هذه القضية أيضا فى أعمال عالم الاجتماع المعاصر « بتريم سوروكن » الذى يؤكد بالرغم من هذا على الاختلافات الموجودة بين مختلف الحضارات والتى يميز بينها طبقا لاتجاهاتها القيمية الرئيسية (١)

وعلى خلاف قضايا النمو العام نجد القضايا التى تهتم باتجاه النمو فى أحد الانماط الخاصة للمجتمع وخاصة المجتمع الغربى (أى المجتمع الأوربى وأمريكا الشمالية) • ومن أفضل الامثلة على هذا الاتجاه نجد : توكو فيل (٢) بتأكيده على انهيار الهيئات الوسيطة المختلفة (مثل المنظمات الطوعيه الحديثة) والنمو الممكن للمجتمع الجموعى • وكذلك تنبأ كارل ماركس (٣) بانتقال المجتمع الحديث من الرأسمالية الى الشيوعية مرورا بالاشتراكية • وأهتم « ماكس فيبر » (٤) بالعقلانية والبيروقراطية والنزعة الى التحيز فى حياة المجتمعات الحديثة • وحاول « كارل مانهايم » (٥) تشخيص الموقف الاجتماعى المتميز للعالم الغربى فى أواخر الثلاثينات وأوائل الاربعينات بصيغ مشتقة من ماركس وماكس فيبر •

وبالرغم من أن هؤلاء المفكرين (باستثناء ماكس فيبر) كانوا مهتمين غالبا بنمو المجتمع الغربى (أوربى أو أمريكى) فان محاولاتهم

---

1) P. Sorokin, «Social and Cultural Dyamics», New York : American Book Company, 1937.

2) A. de Tocquevillc, «The Old Reginc and the French Revolution». (Translated by Stuart Gilbert). Garden City : Doubleday, 1955.

3) Karl Marx, «Early Writings (Translated and édited by Thomas Bottomore). London : C.A. Watts, 1963.

4) Ma Weber, «The Theory of Social and Economic Organization», Transtated and edited by Talcott Parsons and A.M. Henderson). Newyork : Oxford University Press, 1947.

5) Karl Mannheim, «Freedom, Power and Democratic Planning». London : Routledg e and Kegan Paul, 1951.

بشرح هذه الاتجاهات جعلتهم يؤكدون بعض الخصائص المعينة للانظمة الاجتماعية أو بعض الآليات الاجتماعية المعينة كأول دوافع للتغير الاجتماعى والتى يفترضون أنها يمكن أن تكون صادقة بالنسبة لكل المجتمعات البشرية • وعلى سبيل المثال نجد أن «ماركس» أطلق حكما بأن العلاقات بين عناصر الإنتاج وبين التلاحم المتبلور لصراع الطبقات يكون نقطة محورية لطبيعة المجتمعات عموما • وأنها هى الدافع الأول للتغير الاجتماعى • وعلى عكس «ماركس» فان « فيبر » وجد أن دفعة الشخصيات أو الجماعات الكاريزمية هى احدى قوى التغير فى المجالات الرئيسية للحياة الاجتماعية ـ فى الدين وفى السياسة وحتى فى الاقتصاد ـ (كما تصورة قضيته الاخلاقية عن العقيدة البروتستنتيه التى تربط بين تطور الرأسمالية الحديثة مع الكالفينية والبيوريتانية) •

وهناك مدخل آخر مختلف نوعا ما بالنسبة لدناميات التغير الاجتماعى يظهر فى أعمال « باريتو وموسكا » • حيث أكدا على دورة الصفوة (وهو التغير من نموذج للصفوة الى آخر، واضعاف الصفوة الموجودة من خلال التشتت واحلال صفوة أقوى محلها) وذلك باعتبار أن هذه الدورة هى المحرك الأول للتغير الاجتماعى • وكانا بهذا قريبين جدا من « فيبر » فى تأكيدهما على الأدوار التى يقوم بها الخاصة أو المجموعات المختارة للملتزمين وقريبين أيضا من « ماركس » فى تأكيدهما على أهمية علاقات السيطرة على عمليات التغير •

وقد أدى البحث فى العشرينات والثلاثينات عن « عوامل » التغير الى اختيار التكنولوجيا والاختراعات التكنولوجية على أنها أهم هذه العوامل • وقد يكون أهم ما يصور هذا المدخل هو ما نجده فى البحث السوسيولوجى الحديث عند « وليم اجبرن » ، فقد برهن خلال مجموعة من التحليلات على أهمية التجديدات التكنولوجية باعتبارها من أهم دوافع التغير وأوضح كيف أن المجالات الأخرى للحياة الاجتماعية

والثقافية تتجه الى التخلف وراء مثل هذا التجديد » (١) .

وترتبط القضية الثالثة بالقضية السابقة حيث تهتم بالتأثير المختلف لمثل هذه العوامل الخاصة بالتغير على الاجزاء المختلفة للمجتمع وتهتم بالاختلافات في طبيعة دوافع التغير التى تفد من الاجزاء المختلفة للنظام الاجتماعى . وقد صور هذه القضية « ماكيفر » ، الذى يتبع الاسلوب الانائى فى التحليل — الطرق التي تميل فيها المجالات الاجتماعية والثقافية والتكنولوجية الى تنمية نماذج مختلفة للتغير ، وكيف يكون لها تأثيرات مختلفة على المجالات الأخرى . وكيف تتقارب هذه العوامل المختلفة للتغير والاستجابات المختلفة لتلك المجالات بالنسبة لها (٢) .

واذا حاولنا تصنيف الانماط العديدة والمتنوعة التى يطلق عليها مصطلح « التغير الاجتماعى » والتى تعنى أى تغييرات فى السلوك الاجتماعى لأى جماعة أو مجتمع ، فانه سوف يتبين لنا بوضوح لماذا تكون بعض هذه التغيرات أصعب من غيرها من حيث التنفيذ ، ومن الملائم هنا أن نبدأ بتمييز منهجى أساسى وهو الاختلاف بين :

أ — تحليل احداث هامة تسمى أحيانا تاريخية أوفردية (أى متعلقة بشخصية معينة) .

ب — البحث الموجه لاكتشاف القوانين الاجتماعية .

ولايمكن النظر الى أحد هذين البندين باعتباره أكثر أهمية من الآخر من الناحية العملية ، لان كلا منهما يحاول أن يكتشف لماذا تحدث

---

1) O. Dudley Duncan (ed.), William Ogburn on Culture and Sacial Change Selected ; Papers in the Heritage of Soiology Series, Chicago :
2) William Coode, «Princi ples of Sociology» Mc Graw Hill Inc NewYork, 1977. P. 461-462.

التغيرات.أما الاختلاف بينهما فيظهر في أن الأحداث في النمط الاول تكون أحداثا فريدة فالثورة الفرنسية مثلا لم تحدث الا مرة واحدة . وقد كانت حادثا ملموسا . ولم تظهر أي ثورة أخرى مطابقه لها تماما ، اذ ان هناك عوامل لاتعد ولاتحصى أو أسباب شكلت خصائصها . وقد تأثر نتيجة لذلك كل شيء داخل فرنسا وخارجها في ذلك الوقت . من المناخ العام للمجتمع حتى الافراد العاديين ، أما القوانين الاجتماعية فانها تساعدنا في فهم أو تحليل الظاهرة الاجتماعية مثل :

١ — نقص البضائع أو زيادة طبع النقود يؤدي الى التضخم .

٢ — في فترات الاضطراب الاجتماعي تبدأ كثير من العادات التقليدية في الانهيار .

ويمكن ان نقدم مثالا أكثر بساطة يصلح أن يكون فرضا وهو : اذا أراد الزوجان الحديثان أن يكونا مستقلين أقتصاديا فان زواجهما سوف يتأخر نسبيا . وقد يصل الى أواخر العشرينات من أعمارهما . ولكن اذا اتسعت الفرص الاقتصادية بحيث تسمح للناس بأن يصبحوا مستقلين في سن مبكرة (مثلما حدث عندما بدأ نظام المصنع) عندئذ يمكن لسن الزواج أن ينخفض ويمكن اعتبار هذه القضية نموذجا للتغير الاجتماعي ، ورغم ذلك فهذه القضية لا تتعلق بزمن معين أساسا . لان هذه العلاقات يمكن أن تكون ملاحظة تحت ظروف شديدة التنوع وفي أي عصر من العصور .

تحليل التغير الاجتماعي في علم الاجتماع

اولا : التقدم الانساني

لم يكلف المفكرون الكبار في الماضي أنفسهم مشقة البحث عندما كانوا يحاولون دراسة معني النهضة الاقتصادية الانسانية البحث عن

الشعوب التى تكتنف التوصل الى معلومات محددة أو ربما لهـا طبيعة مدية حول هذا الموضوع . وينبغى هنا أن نلاحظ أن الفلاسفة الاوائل والمفكرين الاجتماعيين المعاصرين لهم كانـوا من الاخلاقيين ولهذا كان شغلهم الشاغل البحث عن اجابة للأسئلة الدينية أو الاعتقادية التى تتعلق بأصل الانسانية ، ولهذا فان أغلب مثل هذه التحليلات لم تكن أوصافا امبيريقية للمأساة الانسانية الكبرى ، بل انها كانت فى الحقيقة اعتبارات أخلاقية بحتة ؛ ولهذا كان أغلب الاخلاقيون يميلون الى الاعتقاد بأن كل جيل يبتعد بشكل أو بآخر عن فضيلة مـا كانت تميز المـاضى الذهبى للانسان (طرد آدم وحواء من جنة عدن) والحق أنه حتى القرن الثامن عشر لايمكن أن نجد شيئا مختلفا اختلافا أساسيا عما ذكرنا حتى جاء بعض الفلاسفة الذين حاولوا تأمل التغيرات التى تحدث فى المجتمع عبر عدد من الاجيال الامر الذى جعلهم فى النهاية يؤمنون بالتقدم ويؤكدون دائما فى كتاباتهم أن الحاضر أفضل من الماضى ويظل المستقبل أحسن من الاثنين (١) . ومن الملاحظ أن مفاهيم التطور الاجتماعى والنمو الاجتماعى التى ناقشناها فى المقدمة ترتبط بشدة بفكرة « التقدم » ومن المناسب هنا أن نشرح معنى التقدم الاجتماعى ، فالتقدم كلمة تقوم على حكم تقيمى خالص حيث تفترض أن التطور أو النمو أو التغير الاجتماعى كظاهرة يستهدف بالضرورة خيرا أو ينتهى الى منفعة ، علما بأن هذه الظواهر قد تؤدى الى انحلال بعض النظم الاجتماعية وتفككها . اذن ، ماهى المعايير التى تحدد معنى التقدم ؟ ان أكثر هذه المعايير قيمة هى معايير بالنسبة لما تضيفه عليها نحن من قيمة . ولكن هل يمكن أن يصدق هـذا التقييم على كل المجتمعات البشرية ؟ ان الاحكام المطلقة انتهى عهدها ، وماهـو فاضل فى مجتمع قد يكون مشينا فى مجتمع آخر . ثم اننا حين نحكم فى مثل هذا الموقف فاننا نحكم بمقاييسنا التى هى فى آخر الأمر تعبير عن

---

1) William Goode, Ibid, P. 464.

أوضاعنا الخاصة ، اننا لن نجد الدليل الحاسم الا فى المعايير الموضوعية التى تعتمد على حقائق ثابتة ولعلنا واجدون ذلك فى التقدم العلمى ، وما حققه من تقدم ، فمعارفنا اليوم تقوم على أسس تجريبية صادقة ، وبذلك المعنى لانستطيع القول بأن الناس الذين يمتلكون نسقا اجتماعيا وماديا أكثر تطورا هم « أفضل » صلاحية للبقاء أو أكثر أخلاقا أو صحة أو أكثر سعادة عن أولئك الذين ينتمون الى مجتمعات بدائية بسيطة . فمكانة الناس فى سلم التطور يجب الا يعتمد على أحكامنا واعتقادنا (١) .

وعموما فقد أهملت فكرة « التقدم » منذ نهاية القرن التاسع عشر ليس فقط فى علم الاجتماع بل فى النظرة العالمية للتفكير فى المجتمعات المختلفة وخاصة فى الدول الكبرى المتقدمة اجتماعيا . وهذه الظاهرة ذاتها تستحق دراسة سوسيولوجية . وقد ظهرت بالفعل مجهودات مستمرة هدفها أن تخلق من علم الاجتماع علم التحرر من القيمة وفى خلال نفس الفترة نما فى التفكير الفلسفى فكرة النسبية الاخلاقية مما أسفر عنه الاعتقاد بأن عالم الاجتماع يستطيع بل يجب أن يتجنب الأحكام القيمية .

ثانيا : التحليلات السببية

ان أى اتجاه يستمر خلال فترة من الزمان لا يمكن أن يتحول الى قانون حتى لو استمر لفترة أطول مما كان متوقعا ، ذلك لاننا من خلال ما نعلم الآن ننظر الى مثل هذا الاتجاه على أنه مجرد عملية تاريخية ، ولهذا فان معدل الطلاق فى عدد كبير من البلاد ولنأخذ الولايات المتحدة مثلا استمر فى الارتفاع منذ الحرب الأهلية ، ولكن هذا الارتفاع لايمكن

---

(١) عبد الجابل الطاهر « مسيرة المجتمع : بحث فى نظرية التقدم الاجتماعى » المكتبة العصرية بيروت ، ١٩٦٦ .

النظر اليه على أن حادث تاريخى فريد ، لم يحدث فى أى مكان آخـر فى نفس الزمن كما أننا فى نفس الوقت لانستطيع أن نجزم عما اذا كـان مثل هذا الارتفاع سيحدث فى المستقبل ، وكما هو الحال دائما بالنسبه لنا كدارسين للمجتمع فاننا لا نستطيع أن نجزم بشكل محدد لماذا يحدث تغير تدريجى هنا وتغير يأخذ شكل القفزات هناك •

ولما كانت الاحصاءات تنقصنا عما يحدث فى المجتمع المصرى وخاصة منذ بداية هذا القرن فأننا قد نستفيد من تجربة مجتمعية أخرى دون أن يكون اختيارنا له تفضيل ايديولوجى ومثـال ذلك أنـه يمكن ملاحظـة الاتجاهات الآتية فى الولايات المتحدة منذ سنة ١٩٠٠ •

— معدلات مرتفعة بصدد النساء اللائى ينضمون الى قوة العمل •

— ارتفاع معدلات التعليم العالى •

— ارتفاع معدلات الدخل على المستوى الفردى والقومى •

— ارتفاع معدلات الضرائب •

— تعاظم القوة والمسئوليات التى تناط بالحكومة الفيدرالية •

— ارتفاع معدلات التوقعات المستقبلية للحياه •

وربما أمكن لبعض من يقرأون لنا أن يقدروا التأثـيرات السببية التى أدت الى خلق هذا الخليط من الاتجاهات ، لكن ينبغى أن نقول أن كثيرا من هذه الاتجاهات هى أحداث فريدة ولهذا يصبح من الصعب أن تطور افتراضات عامة يمكن أن تصلح لتفسير أى من هـذه الاتجاهات بشكل دقيق • ولكن ربما ظهر اتجاه فكرى يمكن أن يوحى أو يشير الى مجموعة ضئيلة من العوامل لعبت دورا أساسيا فى كل من الاتجاهات التى ذكرناها من قبل ، ولكن الشيء الذى نؤكده هنا أننا لانستطيع أن نقدم

تفسيرا يمكن أن يستوعب كل هذه الاتجاهات فى وقت واحد ومعنى ذلك أننا قد نعثر على سبب يفسر ارتفاع معدلات الضرائب لكننا لانستطيع بنفس الدرجة أن نعمم هذا السبب على زيادة معدلات النساء فى قوة العمل •

ومع ذلك ، فان أحد التفسيرات ذات الصبغة الشمولية لمثل ماذكرنا سواء فى الولايات المتحدة أو غيرها كان محاولة «كارل ماركس» [1] تفسير ذلك الاتجاه الذى أدى الى تفكك العائلة فى ظل نظام المصنع الحديث الذى بدأ ينمو فى عهده أى فى السنين المبكرة فى القرن التاسع عشر • لقد استقى تفسيره هذا من المعلومات التى توفرت لديه من تقارير ميدانية على نطاق واسع زودته بها الحكومة البريطانية نفسها عن طريق موظفيها أو مفتشيها، فقد أثبت «كارل ماركس» أنه كلما انخفضت الأجور وكلما كان على كل فرد فى الاسرة أن يعمل لكى يعيش ومثل هذه التغيرات كانت واضحة للعيان ، فان اهمال الأطفال ، وعدم وجود الوقت الذى يمكن أن تقضيه العائلة فى نشاطات أسرية ، وفشل النساء فى صنع الملابس أو الطبخ ، وانهيار المهارات المنزلية ، وفقدان التكامل العائلى وتزايد مشاركة النساء المتزوجات فى قوة العمل كل هذا كان دليل «كارل ماركس» على التفكك الظاهر للاسرة فى مطلع العهد الصناعى •

ولعلنا نذكر هنا على سبيل المثال أنه منذ عهد المؤرخين اليونانين الاوائل حتى اليوم حاول المحللون الاجتماعيون أن يبحثوا عن تحليلات سببية للأحداث الجارية ، [1] أن مثل هذا التفسير الذى ينجم عن هذا التحليل لمثل هذه الاحداث لم يكن يهدف الى التوصل الى تقييمات لها صدق عام أو الى محاولة التوصل الى افتراضات علمية يمكن اختبارها ، بل انها كانت تهدف أكثر من أى شىء آخر الى محاولة استخدام القوانين

---

1) Karl Marx. «Capital,» N.Y. Modern Library, 1936. PP. 429.

الاجتماعية أو التعميمات لمحاولة فهم أحداث تاريخية محددة مثل معاناة النساء . والاصلاح . أو التصنيع الحادث فى اليابان • ولهـذا فان التفسيرات تمتد من العوامل الاجتماعية التى تنطبق على مجتمع بعينه فى وقت معين حتى التعميمات التى يتوقع أن تنطبق على أى موقف اجتماعى فى أى مكان أو زمان ، ومع ذلك فان بعض هذه التعميمات ليست أكثر من الانطباعات العادية للفكر غير المتعمق ويضرب المثل على ذلك بأن زواج أبناء العمومة أمر شائع فى ريف كثير من المجتمعات لان الأسر تريد أن تظل ملكية الأرض داخل اطارها ، أو أنه فى حـالات التغير الاجتماعى السريع قد يدخل الآباء والأطفال فى تنافس أو صراع اجتماعى متزايد لان الطفل سرعان ما يتوافق مع الثقافة الجديدة على عكس مـا يفعل الآباء •

لكن التفسيرات مع ذلك يمكن أن تكون أكثر دقـة وموضوعية ، ذلك أن بعض التعميمات يمكن التوصل اليها لتفسير الوضع الفريد للتصنيع اليابانى فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ويمكن أن يتضمن ذلك ما يلى :

١ ــ من الضرورى لتغيير مجتمع اقطاعى يعيش فى سـلام الى مجتمع صناعى أن نكسب تأييد وتعاون الارستقراطية لان هذه الطبقة تملك بين يديها مقومات الاستقلالية الذاتية والقوى الحربية •

٢ ــ من السهل أن نفعل ذلك اذا روضت الارستقراطية أو اذا أمكن اقناعها بأنها تضحى من أجل الخير العام (مثال ذلك محاولة اقناع هؤلاء بأن تصنيع اليابان هو محاولة للدفاع عنها ضد الغرب الامبريالى)

٣ ــ يحتمل أن تتعاون جميع الشرائح الاجتماعية أكثر وأكثر اذا أعطيت فرصا مهمة فى النظام الجديد أو اذا دفـع لها أكثر وذلك كمـا حدث بالنسبة لافراد اليابان الكبار من أجل اقناعهم بالتخلى عن بعض امتيازاتهم القديمة •

٤ — ان الامة التى بنت حياتها على العمل الشاق والتى تبنى بشكل متواصل من أجل التوصل الى أمه أكثر قوة ومناعة والتى قررت كذلك بشكل جماعى أن تستثمر كل جهودها بصورة مكثفه للتوصل الى النمو التكنولوجى يمكن أن تصل الى مرحلة التصنيع بسهولة اذا قورنت بأمة تستمتع بالجهالة ولا تعرف للوقت قيمة ، وتصرف فائض طاقتها وجهد عملها على الغيبيات والتفاخر •

٥ — اذا حدث أن أمة افتقدت المصادر الاساسية كالذهب والفضة من أجل التجارة فأنها لكى تصل الى مرحلة التصنيع الكامل فانها ينبغى أن تعتمد من أجل التوصل الى رأس المال المستثمر على الاقتصاد القائم بالفعل •

ان هذه الاقوال التى اتخذت صفة التعميمات الواسعة النطاق لم يقصد بها أن تكون شرحا كاملا للتصنيع الذى حدث فى اليابان وانما قصد بها تطور عملية البحث عن أنماط واسعة أو انتظامات اجتماعية لها معنى يمكن أن تصلح لتفسير أحداث اجتماعية لها تأثيرات بعيده وعميقة ويمكن أن تصلح للتطبيق على مجتمعات عديدة ، كل هذا من أجل النجاح فى تفسير عملية تاريخية كبرى أو حدث اجتماعى هام (١) •

وبعد استعراض هذه الصعوبات التى اعترضت مسيرة الدراسة والبحث فى هذا المجال وخصوصا فى بداية ظهور الاهتمام به نستطيع أن نقول أنه على الرغم من الصعوبات أو التعقيدات التى تصاحب التغير أو يثيرها الا أنه يعبر عن العملية الجوهرية التى تتيح للمجتمع البقاء والاستمرار فى الوجود • فقد أصبح من المتعارف عليه أن المجتمعات المختلفة تتخلص من القديم الذى أصبح غير ملائم وغير مناسب ، وتخلق

---

1) William Coode, op. cit. pp. 464-465.

التجديد الذى يساير العصر والذى يواجه مطالبها واحتياجاتها • وقد يشار الى هذا التغير على أنه تغير اجتماعى ، أو تغير ثقافى ، أو أنه مزيج منهما معا ، وقد تكون عملية التغير بطيئة أو سريعة ، تدريجية أو ثورية، لكن التغير فى حقيقة الأمر يفهم عند الكثيرين على أنه عملية تحافظ على كيان المجتمع وتلائم بين تنظيماته وتؤلف بينها وتنسقها ، فالانسان فى كل أرجاء العالم لا يكف عن اكتساب الخبرات ، ولا يكف عقله عن التفكير، لان حياته فى واقع الامر لا تصلح بغير هذا • وكلما اكتسب الانسان خبرة أو استفاد فكرا تفتحت أمامه طرق أوسع وفرص أفضل فى الحياة • هكذا نتبين أنه على قدر ما فى مصطلح التغير الاجتماعى من مظهر البساطة النسبية الا أن مفهومه السوسيولوجى شامل واسع النطاق يحتاج الى تحديد موضوعى دقيق •

هذا ويعنى التغير الاجتماعى (**بالنسبه لعلم الاجتماع) ظهور اختلاف يمكن ملاحظته فى « البناء الاجتماعى » أو فى « العادات المعروفة» أو فى « معدات أو آلات » لم تكن موجودة من قبل • أو بمعنى آخر ، يشير التغير الاجتماعى الى « العملية التى تؤدى الى اختلاف الموضوع » (نظام — نسق — قاعدة — قيمة — ، اداة الخ •) بالمقارنة بحالة سابقة له فى مدى قريب أو بعيد •**

وعملية التغير الاجتماعى على هذا النحو ليست مجرد اضافة آلية أو اقصاء لبعض الأنماط والسمات السابقة بطريقة كمية ، وانما هى الى جانب ذلك عملية اضافه وتعديل كيفيه لسمات ثقافية مختلفة •

هذا وقد شغلت حقيقة التغير الفكر الانسانى وبقيت من أكبر المشاكل المحيرة فى العلوم الاجتماعية ، ويبدو ذلك اذا تساءلنا عن اتجاه التغير الاجتماعى نحو هدف أيجابى معين أو نحو خلق الكوارث والأزمات، أو عن شكل التغير الاجتماعى ، هل هو اليوم اسرع من الامس ؟ وهل سيكون أكثر سرعة فى المستقبل ؟ أو عن مصدر التغير الاجتماعى هل

هو استعاره من الخارج أو يقوم على الاختراع المستقل النابع من داخل المجتمع ؟

كل هذه الاسئلة ومحاولة البحث عن اجابه مقنعه ومنطقيه وعلميه لها شغلت الكثير من علماء الاجتماع الذين اجتهدوا فى محاولة الاجابة عليها ، وهكذا خرجت نظريات ذات اصول مختلفة ووجهات متباينه كما أشرنا من قبل . الا أن مفهوم الاجابة عليها من ناحية اخرى يشكل اطار المفهومات التى توجه البحث الاجتماعى فى التغير على مستوى المجتمع ككل أو على مستوى نسق أو نظام أو تنظيم فيه . والمستقرىء لدراسات علماء الاجتماع الذين انفقوا قدرا ملحوظا من جهودهم العلميه فى دراسة التغير يجد أن ماده كثيرة قد كتبت عن مسألة العلية فى التغير ، ومن المألوف فى المقدمات التى تصدر بها دراسات التغير أن نجد هذا التساؤل الهام .

ما سببه التغير الاجتماعى ؟ وهل يستطيع عامل واحد أن يفسر التغير بأسره ؟ أم تفسره عوامل مختلفة تعمل معا ؟ أو ما هى الضرورة فى ضبط التغير الاجتماعى ؟ وهل نستطيع أن ننظمه أو نقوده فى اتجاه رغباتنا ؟

تصورات خاطئة عن معنى التغير :

١ — الصراع والتوتر

ان الصراعات والتوترات ومظاهر عدم الانسجام متضمنه بشكل دائم فى السلوك الاجتماعى بغض النظر عما قد يظهر على البناء الاجتماعى من ثبات أو مرونه ، ويعبر علماء الاجتماع عن ذلك بعدد من المصطلحات مثل « توترات الأدوار » أو « صراعات المركز » أو « التناقضات المعيارية » وما الى ذلك ، ومعنى هذا أن هناك علامات أوليه للانحراف والاغتراب واللامعيارية موجوده بصفة دائمة فى البناء الاجتماعى .

ان هذه المسائل جميعا بغض النظر عن صفتها الديناميه ليست تغيرا على الرغم من أنها قد تكون مرتبطة بالتغير ، وهذه النقطة غاية فى الاهمية فى دراسة السلوك الاجتماعى ، حيث يعتقد أحيانا أنه نظرا لوجود التوترات والصراعات الداخليه بصفة دائمة فى التنظيم الاجتماعى أو الجماعة فمن لتغير لابد ان يحدث • ولكن هذا القول بعيد عن الحقيقه ، والدليل على ذلك أن هناك أعداد كبيرة من الناس خلال تاريخ الانسانية لم يتعرضوا للتغير الا قليلا ، ومن الخطأ أن نقول أن هؤلاء لم يواجهوا صراعات الدور أو المركز أو المصلحة من خلال ثقافاتهم الثابتة نسبيا فنظام الطائفه فى الهند ونسق الأسرة الأبويه فى الصين عاشوا فترات طويلة جدا دون أى تغير يذكر فاذا صدقنا أن هذه النظم كانت بدون صراعات دور أو مركز أو معيار أو بدون انحراف ظاهر أو لا معيارية أو اغتراب فاننا بهذا نصدق شيئا خاليا من أى معنى •

ان « التغير » شىء آخر لأنه يعنى فى جوهره تتابع الاختلافات خلال الزمن فى وحده مستمرة ، فاذا لم يتوفر لدينا وحده مستمره بغض النظر عن كونها شجره أو كائنا حيا أو دوله أو نسقا قرابيا أو دورا اجتماعيا أو معيارا فلن يكون لدينا شىء نتحدث عن تغيره •

٢ — الدوام

واذا استقرأنا كل ما تحت أيدينا من مادة امبيريقية ، يظهر لنا أنه فى تاريخ أى شكل من أشكال السلوك تشغل مسأله « الدوام » مكانا مرموقا على الرغم من أن كثيرا من مظاهر الصراع والتوتر والعدوان تكون كامنه ، لكننا اذا حددنا أنفسنا فيما نستطيع أن نلاحظه فاننا لا نستطيع أن نجد مثل هذا التغير الذاتى فى أى بناء اجتماعى • ان ما نلاحظه وما نتوقع أن نجده هو « الدوام والاتصال » • والسؤال الذى يقفز الى الاذهان فى هذا الصدد هو لماذا نشغل أنفسنا بفكرتى الدوام والاتصال فى السلوك الاجتماعى • قد يكون ذلك بسبب خلط التغير بمجرد

التفاعل الاجتماعى أو التنقل أو الحركة الفيزيائيه من مكان الى آخر أو من مهنه الى أخرى وهكذا ، فاذا أراد أحد أن يعرف هذا كله بأنه تغير فهذا ممكن ، ولكن اذا كان بصدد البحث عن أسباب تغير نموذج أو بناء فى نظام اجتماعى فانه يكون ببساطه مهتما بمسألة اخرى • ذلك أن التفاعل الاجتماعى لا يتوقف مثلــه فى ذلك مثــل الصور العديــده للانحراف واللامعيارية والاغتراب وهذه جميعا تتقابل مع الاتصـــال والدوام فى النماذج الاجتماعية ويكفى هنا أن نضع فى الاعتبار عدد توترات الأدوار التى ظهرت فى تاريخ الأسرة فى الغرب خلال الألفى سنه الماضية ، لكن عدد التغيرات التى حدثت فى الأسرة وتغيرات الأدوار الهامه فيها كانت قليله للغاية ، لأن أغلبها يرتبط مباشرة باحداث خـــارج الأسرة أى فى ميادين أخرى فى المجتمع يكون لها تأثيرا أساسيا عليها •

واذا كان التغير « دائم » و « مظهر » داخلى للحياة الاجتماعية ، فمن الاحرى أن نجده أكثر وضوحا فى هذه الايام فى ميــدان الثقافة الإنسانية التى هى بطبيعتها أكثر عرضة من خلال معاييرها للتغير ،ويكفى هنا أن نشير الى العلم أو الى المعرفة الانسانية وتتابعها ، اننا اذا ركزنا انتباهنا على العلم ككل على مدى القرون الماضية وفى جميع أنحاء العالم فلا شك أننا سنجد تغيرا ملحوظا ، لكننا اذا استنتجنا من ذلك أن التغير دائم فى العلم فان ذلك يعتبر قلبا للحقائق ذاتها •وقد لاحظ «توماس كن» فى كتابه « بناء الثورات العلمية » (١) مقاومه العلم للتغير فى كثير مـــن ميادين العلوم الطبيعية خلال القرون الماضية ، كما أن « روبرت ميرتون » قد أوضح فى دراسته السوسيولوجيه لطبيعه السلوك العلمى أن التنافس بين العلماء فى جميع الميادين على السبــق فى الاكتشافات لم يؤثــر فى محاولتهم فى الدفاع عن مدارسهم العلمية المستقرة ولا عن أفكارهم التى

---

(١) راجع ماكتبه Friedricks عن افكار توماس كن Thomas Kuhn فى كتابه Sociology of Sociology, New York, 1971.

يودون عدم المساس بها ، وهكذا نستطيع أن نقول أن العلم كما صورة « ميرتون وكن » يمكن أن يعانى من نوع من « التقليدية » ، وخاصه فى التشيع للقديم ومن « العدوانية » بالنسبة للجديد ولعل هـذا واضح تماما فى ميادين السياسة والدين وأنماط الحياة المختلفة .

٣ — تغير النموذج وتغير البنـاء

اذن الخطوة الاولى فى فهم التغير هى فهم ظواهر الدوام والاتصال، وتكون الخطوة الثانية هى التمييز الواضح بين نموذجين مختلفين جدا فى التغير الاجتماعى وفى هذا الصدد يستعير كثير من علماء الاجتماع مـا ذكره « رادكليف براون » حيث يقول « ان كلمة التغير (وبصوره أخص العملية) كلمه غامضه فى علاقتها بالمجتمع . اننى أريد أن أميز بين نوعين مختلفين كلية . الأول يمتد الى المجتمع البدائى حيث يكشف عن بعض المسائل المبدئية الخاصة بحفل الزواج وبنتائجه ، فهناك فردان ليست لهما روابط رسمية سابقة هما الآن يرتبطان بعلاقة مختلفة ، علاقـه الزوج والزوجة ومعنى هذا تنظيم جماعه جديـده تنمو لتصبح أسـرة ، ومن الواضح أن هناك شيئا يمكن أن نطلق عليه مصطلح تغير اجتمـاعى أى هناك تغير داخل البناء لكنه لا يؤثر فى الصورة البنائية للمجتمع ، انهـا مماثلة للمتغيرات التى يستطيع الفسيولوجى دراستها فى الكـائن الحى كتغيرات الميتابوليزم أى التغيرات الكيمائية فى الخلايا الحيـة التى بها تؤمن الطاقة الضرورية للعمليات والنشاطات الحيوية والتى بهـا تمثل المواد الجديده للتعويض عن المندثر منها . أما النموذج الآخر للتغير فانه يحدث عندما يغير المجتمع شكله البنائى نتيجة لاضطرابات قد ترجع الى نمو داخلى أو تحت وطأة من الخارج (١) .

---

1) Radcliffe Brown, «A Natural Science ofSociets» New York Free Prass 1957, p. 87.

ان هذين النموذجين من التغير ضروريان للتمييز بينهما ولدراستهما منفصلين ، وقد يكون من المفيد أن نسمى التغير من النوع الاول « اعادة تكيف » وهو أساسا اعاده تكيف لتوازن البناء الاجتماعى ، آما الثانى فاننا نفضل أن نسميه « تغير النموذج » ومهما كان هذا التغير الأخير بسيطا فانه تغير لان المجتمع يمر فيه من نموذج للبناء الاجتماعى الى آخر .

٤ — الأزمة

وهناك ملاحظة جديرة بالذكر هناوهى أن التغير عندما يحدث بدرجة كبيرة فانه يرتبط بنوع من « الأزمة » ، ويلاحظ أنه تحت تأثير أفكار النمو التى ترتبط بالتغير مثل : التغير كنمو ، التغير التدرجى ، التغير كعملية مستمرة ، والتغير كتقدم وهكذا أهمل كثير من الكتاب عنصر الأزمه فى التغير ، ذلك لانه اذا كان المقصود دراسة التغير على العكس من مجرد الفعل أو التفاعل أو أى توافق مصغر فانه يتعين ألا نحذف عامل«الأزمة»، وقد أكد « توملس كن » فى دراساته الممتازة عن التغير الاجتماعى أو الأزمه هى علاقه بين الانسان والبيئه تتسبب عن عدم قدره الانسان أو الجماعه الاجتماعية أو التنظيم فى أن يستمر مده أطول من خلال طريق معتاد للسلوك ، ومن الواضح أن الأفراد والجماعات بل وأمما باسرها جربت الأزمات (١) .

٥ — الاحداث

ان فكرة الأزمة وعلاقتها المباشرة بالتغير تؤدى الى فكرة أخرى ذات أهميه بالغة وهى « علاقه التغير بالأحداث » فالحدث ابس تغيرا

1) P. Sorokin, «The Crisis of our Age», Newyork, 1955.

على الرغم من أنه يكون شديد الارتباط بالتغير وذلك لأنه شي يحدث فى زمن وفى مكان ، ومن الناحية النظريه البحتة كل حدث يمكن تأريخه لانه من غير الممكن تجريده من « الزمان والمكان » ولهذا فان دراسة التغير لا يمكن فصلها عن دراسة الأحداث ، فالثورة الفرنسية مثلا كانت حدثا فريدا حدث فى زمن ومكان معينين ، ولا توجد أى ثوره أخرى مشابهة لها تماما حيث توجد حالات لا تعد ولا تحصى أو أسباب شكلت خصائصها وقد تأثر كل شيء داخل فرنسا وخارجها فى ذلك الوقت ابتداء من المناخ العام حتى الأفراد العاديين .

٦ ـ المعرفة بالبناء الاجتماعى

ان المعرفة « بالبناء الاجتماعى » ليست شيئا بلا قيمه فى فهم التغير الاجتماعى لان التغير كما سبق أن قلنا تغير فى شيء ، واذا كنا نريد تحليل هذا التغير فانه من الضرورى أن نعرف طبيعة ما الذى يتغير ، لأن طابع التغير وشدته سو فيتأثر دائما بطابع الوحده التى تتغير ، كما أن حدثا معينا قد يكون كارثة بالنسبة لنموذج معين من البناء الاجتماعى ولكنه قد لا يترك الا تأثيراً طفيفاً فى نموذج آخر ، وهناك من الأمثلة العديدة لجماعات ولطرق من السلوك فى منطقه معينة لم تتأثر بوطأة الأحداث عليها بينما نجد طرقا أخرى من السلوك فى نفس المنطقة تأثرت بالتغير نتيجه لوطأة نفس الأحداث السابقة ، وهذا هو الذى يدعونا الى « ضرورة فهم طبيعة البناء الاجتماعى » وتكمن هذه الضرورة فى أنه الى أن نفهم طبيعه البناء الاجتماعى فاننا لن نستطيع أن نميز بطريقة مفيدة بين البناءات الاجتماعية التى تغيرت ، أو تعدلت فى موقف ضغط أو أزمه وبين غيرها فى نفس الموقف أو فى موقف مشابه ولم تتغير ، ومن الأشياء التى لاحظها علماء الاجتماع أنه فى كارثه طبيعية أو حتى بفعل الانسان اختلفت استجابات الأفراد كما اختلفت استجابات الجماعات بطريقة واسعة ، فبعضها تحطم نهائيا وبعضها الآخر أظهر نوعا من الاصرار وظل بناؤه ثابتا كما يبدو من الأدوار والمراكز والمعايير .

ان تحليل أى بناء اجتماعى لا يمكن أن يدلنا متى وتحت أى ظروف سيحدث تغير فى البناء أو أن التغير ذاته يمكن أن يكون مقبولا أو مرحبا به وهذا يرجع الى أن مصادر التغيرات الأساسية نادرا ما تكون داخل البناء نفسه فهناك دائما علاقة بين البناء وبين كل الوجوه الاخرى العديده للمجتمع •

الثورة الصناعية ودراسات التغير الاجتماعى :

أن التغير الاجتماعى له صلة وثيقه بالتحولات العديده التى تحدث فى مختلف أنماط الحياة الانسانية ، فما دام الانسان مخلوق اجتماعى فان التغير له أبعاده الانسانية • وكل تغير فى المجتمع ينعكس أثره على الانسان بالضروره وعند دراسة التغير فى مجتمع مالا يجوز أن ندرسه خلال فترة قصيرة نسبيا وانما يجب أن يكون المدى الزمنى متضمنا لعده أجيال حتى يمكن الوقوف على نتائج التغير بصورة ملموسة •

وقد كان ظهور دراسات التغير الاجتماعى نتيجة حتمية للمشاكل والقضايا الحيوية التى أصبحت تواجه المجتمع الغربى فى أوربا فى القرن التاسع عشر ولعل السبب الحقيقى أو الاساسى يرجع الى التأثير التدريجى المتراكم للثورة الصناعية التى غيرت بعمق بناء المجتمع الانسانى فالثورة الصناعية دفعت الفلاحين الى الانتقال الى المراكز الحضرية وحولتهم الى عمال ، وأقامت المدن مكان القرى وقد أدى ذلك الى نتيجتين هامتين هما :

١ — أصبحت حلقة التجارب الشخصية اليومية للفرد محدودة بالمجال الذى يمده بالعلاقات الحميمة القائمة فى عالمه الخاص (اسرته) وذلك لاتساع ونمو وتعقد العالم الخارجى •

٢ — أصبح العالم يتغير بسرعة فائقة بحيث لا يمكننا الافتراض أن العالم فى عصرنا هو نفسه فى عصر آبائنا ، ولن يكون هو نفسه فى

عصر أبنائنا ، فالانسان المعاصر يعيش عالما اجتماعيا واسعا ومعقدا يصعب فهمه عن طريق أى تجربه فرديــة الى جانب تغيره السريع والمستمر . فلم يكن فى استطاعه انسان القرن التاسع عشر أن يتنبأ بالتغيرات العظيمة التى أطاحت بالأشكال القديمة للحياة .

وقد ترددت الآراء بين الاعجاب بالتغيرات والتفاؤل بها ، وبين الخوف والتشاؤم منها . أما الطبقات المثقفه وكثير من المفكرين الاجتماعيين فانهم ينظرون الى التحول الصناعى الذى أصبح ينتشر فى معظم انحاء العالم بأنه مصدر التفاؤل والتشاؤم فى نفس الوقت ويرجع تفاؤلهم للتغير الواضح والسريع فى أنماط المجتمع التقليدية . أما تشاؤمهم بالنسبة لمستقبل المجتمع الانسانى فيرجع الى تخوفهم من أن ينتهى هذا التغير العظيم بتحطيم المجتمع نفسه ، فماذا لم يجد الانسان نفسه فى وضعه الاجتماعى المألوف فماذا يمكن أن يكون ؟ واذا لم يوافق على المستويات الأخلاقية لاسلافه فماذا يعنى ذلك بالنسبه لسلوكه ؟

هذه التساؤلات تؤكد مدى تأثير التغيرات الثورية على المجتمع الانسانى ، وتؤكد أيضا على أن الحياة الانسانية كان لابد لها أن تنتظم فى مجتمع ، ولا يمكن أن تكون مجرد أفراد مستقلين ، يعمل كل منهم على هواه .

وقد كان ظهور دراسات التغير الاجتماعى محاولة لتقديم تفسير منطقى أو عقلى للقوى الثورية التى غيرت بالفعل بناء المجتمع الانسانى، لانه لم يعد فى الامكان النظر الى تنظيم الحياة الاجتماعية والمعتقدات والقيم على أنها شىء مسلم به . كما أن الافتراضات القديمة حول الانسان والمجتمع أصبحت موضع تساؤل نتيجه للتغير المتلاحق للمجتمع وللانسان نفسه كنتيجه للمعيشه فى نوع جديد من الحياة .

والمجتمع باختصار ، ليس دائما هبه أو منحة فى حياة البشر بل انه قد يكون مشكلة • ومن وجهة النظر العلمية يعتبر أى شىء (مشكلا) اذا لم نستطيع فهمه بشكل كاف فالكائنات البشرية تعيش فى العالم الاجتماعى الذى تفهمه وتعرفه عن طريق مجموعة متعارف عليها نسبيا من التفسيرات والافتراضات التى تكون فى العادة مشتركة بين مجموعة من الناس وعن طريقها يصبح عالم الانسان الاجتماعى وجودا له معنى • فالناس يتحركون فى كل متماسك نسبيا ، ومن خلال نظره كليه للعالم ، ناتجه عن مجموعة من الملاحظات التجريبية والأساطير والمعتقدات الخرافية والسحر • أما المستويات العقلية العالية فكانت معظم تفسيراتها للمشكلات التى تعترض المجتمع فلسفية أو لا هوتية • وأحيانا فقط تكون علمية فلم يكن ضروريا أن يفهم كل شىء ويفسر ، وكانت معظم التفسيرات فى المرحلة السابقة على العلم مقبوله كأشياء غامضة وخلف فهمها التعرض للموت • كما كان العالم فى تلك العصور يتميز بالغموض ويمتلىء بالاسرار التى يعجز الانسان عن ادراكها أو فهمها • الا أن هذا الغموض لم يستمر الى ما لانهاية ، لأن التحول التاريخى الذى تعرض له العالم الغربى بدخول التصنيع والتكنولوجيا خلق أنماطا جديدة للتفكير وطرقا للبحث عن حلول للمشاكل تتبع أسلوب البحث العلمى المعرفى ، فالعلم هو طريقة للاستقصاء فى العالم التجريبى ، والاجتماعى،والطبيعى، وطريقة طرح الاسئلة والبحث عن الاجابة تؤدى بالانسان المعاصر الى التوصل الى درجة عالية من الصدق واليقين أكثر من أى طريق آخر للاستقصاء •

ويرجع مصدر هذا الشعور الاجتماعى المكثف الى وقوع الحياة الاجتماعية فى أوربا تحت تأثير التصنيع الحضرية — كما سبق أن أشرنا وهذا أدى إلى تصادم أفكار الكثيرين ومفاهيمهم عن المجتمع الانسانى نتيجة لهذا للتغير الثورى • وأصبحت كثير من الظواهر الاجتماعية القديمة والحديثة مثل تفكك المجتمع ، وانهيار الأشكال الاجتماعية

المألوفة للقرية والقرابة موضع تساؤل . هل هـذه التغيرات الواسعة والجذرية هى بداية تفكك المجتمع ككل ؟ ومتى ستظهر الأنماط غير المعروفة حتى الآن للمجتمع ؟ وكانت هذه التساؤلات نتيجة مباشرة لملاحظـات الناس عن التحولات والتغيرات التى يتعرض لها المجتمع أمـام أعينهم وفى فترات قصيرة للغاية بالمقارنة بالفترات السابقة .

وفى محاولة الاجابة عن هذه الاسئلة ظهرت تساؤلات أكثر عمومية مثل : كيف يمكـن للانسان أن يخلـق وأن يحافظ على بقـاء المجتمع الانسانى ؟ وكيف استطاع الانسان الابقاء على النظام الاجتماعى وأن يتجنب التفكـك ؟ وكيف كانت العنـاصر الاساسية ضرورية لوجـود المجتمع ؟ وكيف كانت الروابط الاجتماعية تربط الناس فى حيـاة عامة ؟ وما هى مصادر التغير الاجتماعى ؟ وظهرت الى جانب هذه التساؤلات ، تساؤلات أخرى لاحقة مثل : كيـف يستطيع المجتمـع ضبط الاتصال الفردى ؟ وما هى العلاقة الضرورية بين الفرد والجماعة ؟ وما هى أهمية الجماعات الاجتماعية الصغيرة فى المجتمع مثل الاسرة ، والمجتمع المحلى لكل من الفرد وعلاقته بالمجتمع وكذلك بالنسبة لتنظيم المجتمع ؟

ملاحظات على أزمة نظرية التغير الاجتماعى الحالية :

من الواضح أنه لا يمكن اكتشاف نظرية كبرى عن العمليات التطورية أو أية فروض عن النتائج المحددة للتطور ، فضلا عن التغيرات الكبرى فى البناءات الاجتماعية ما لم يتراكم لدينا كمية هائلة من القضايا التى لا تمت الى زمن معين ، بالاضافة الى الفروض الملائمة والتكرار والانتظام الذى يحدث فى مسار التاريخ . ومعنى ذلك أنه لن يتسنـى للباحثين أن تكون لديهم نظرية بدون قوانين يمكن أو يحتمل أن تطبق على أوسع مدى فى عديد من المجتمعات . وينبغى أن نلاحظ هنا أن مجرد التأمل عما حدث أو يمكن أن يكون قد حدث فى الماضى ليس كافيا ، كما أنه من زاوية أخرى

لا يمكن أن يوضع موضع الاختبار بدون هذه الافتراضات العامة التى أشرنا اليها ٠

ان هذه الانتظامات كما يحدث فى ميادين أخرى يمكن أن تستخدم لوزن صدق التأملات أو الافتراضات عن الماضى بغض النظر عما اذا كانت رغبتنا أن ننفذ ببصرنا الى المستقبل أو كان الامر ببساطة محاولة لفهم التغيرات التى تحدث فى البناءات الاجتماعية المعاصرة ٠ فانه من الممكن أن نختبر تفسيراتنا بمواجهتها بمجموعة محدده ودقيقه من الملاحظات والتعميمات ويشترط فى هذه الحالة الا تكون من النوع البعيد المدى ، بل يجب فى كل حالة أن يكون المدى من النوع المتوسط على الاكثر كما سبق أن أشرنا ٠

واذا حاولنا التعرف على عمليات التغير الاجتماعى نجد أن الأمر ليس بسيطا تماما ففى كل مجتمع نجد أن عديدا من عمليات التغير تحدث فى وقت واحد ، هنا يحدث التوافق وهناك يهدم الصراع التوافق ، هنا نجد ثورة وهناك نجد سكونا وهدوءا هنا نجد طموح الانسان نحو الأهداف الجديدة وهناك نجده يعود الى الاشياء القديمة ، ومن خلال كل هذه التغيرات المتضاربة والمتعارضة هل نستطيع أن نكتشف الحركة الكلية للمجتمع باعتباره وحدة متكاملة ٠

لقد حاول كثير من المفكرين وعلماء الاجتماع الاجابة على هذا السؤال وجاءت أجاباتهم متفقة مع اتجاهاتهم ومدارسهم العلمية التى ينتمون اليها وسوف نحاول أن نعرض بايجاز للاجابات التى لاقت انتشارا واسعا وكذلك ردود الفعل المختلفة التى ظهرت للرد عليها ٠

١ ـ التغير الاجتماعى كعملية تطورية :

يطبق التصور التطورى بطرق مختلفة فى تفسير التغير الاجتماعى وخاصة بعد اكتشاف دارون لقانون تطور الكائنات فى منتصف القرن التاسع

عشر كما سبق أن أشرنا مما جعل كثيرا من علماء الاجتماع يتبعونــه فى نفس الطريق • ونحن نعلم أن النظرية التطورية قد سيطرت على معظم الدراسات فى التغير الاجتماعى منذ أواخر القرن الثامن عشر وحتى أواخر الحرب العالمية الاولى • ولهذا كانت وجهة النظر هذه تدور حول البحث عن قوانين تطورية ذات صبغة عالمية أو شمولية أو بمعنى آخر البحث عن القوانين التطورية التى تفسر النمو الاجتماعى • ولقد كان المبرر من وراء ذلك أنه اذا كانت هناك خطوط عديدة للتطور ، أو أن العملية الكبرى يمكن أن تكون قد تكررت عدة مرات فانها جميعا يمكن أن تكون قد سارت على صيغة واحدة أو متشابهة وعلى هذا فان القضية الفلسفية أو الدينية التى تعالج أهمية المصير الانسانى قد انتقلت من حالة فريدة الى تحليل امبيريقى من النموذج الافتراضى ثم لتوضع بعد ذلك ، أو تصاغ فى قوانين عامة عن التطور •

ولقــد اختفت كثـير من المخططات النظرية فى علـم الاجتماع والانثروبولوجيا بعد الحرب العالمية الثانية وتركز التحليل أكثر وأكثر على دوائر ضيقة ، ومثال ذلك البحث عن الطريقة التى يعمل بها مجتمع معين الآن والابتعاد عن محاولة وضع حركة المجتمع داخل سلسلة تطورية محددة وهذا معنــاه ترك البحث يجــرى لاكتشاف الواقــع/دون أن نفرض على هذا الواقع قضايا أو افتراضات ثم التوصل اليها اما بطريقة تأملية أو عن طريق ارتباطات لحقائق متباعــدة لا تلقى ضوءا على مــا يجرى فى الواقع فعلا • لهذا أصبح الاطار التطورى غير فعال على الرغم من الاسماء اللامعة التى كانت تحاول احياءة مثل مورجان وتايلر وسبنسر وهنا نتذكر أنهم حاولوا التوصل الى نوع من التأليف الكبير لمــا سمى بحقائق السلوك الاجتماعى ، وفى هذا المجال وضعوا مجموعة تبلغ أربعة من الدعاوى التى لا يمكن قبولها ومع ذلك فقد ساعدت بدون شك باعتبارها خطوة أولى نحو حل كثير من المشاكل التى تتعلق بقياس التغير الاجتماعى عبر فترات طويلة من الزمان •

ومع أن هذه الدعاوى حاولت أن تعيد تصور مراحل الزمان بترتيبها وفق نوع التقد مالتكنولوجى أو نوع الزراعة أو نوع الثقافة القائمة ، أو البقايا الثقافية أو اكتشاف الانماط الاجتماعية أو أخيرا محاولة وضع مماثلة بين تتابع الانساق الاجتماعية وبين التطور البيولوجى • مع هذا كله فان نظرية التغير الاجتماعى الحديثة لا تقبل بأى صورة هذه الدعاوى الأربعة • ويلاحظ أن منظرى القرن التاسع عشر فى التطور استشعروا الحرية فى تأمل الماضى الذى لم يعرفوه مع أنهم واجهوا صعوبـــة هامة تتمثل فى كيفية اثبات أن ثمة أسباب معينة خلقت تتابعات متنوعة أغرقوا فى وصفها • ان هذه المشكلة لا تزا لباقية وهناك محاولة متجددة قـــد بذلت فى العقدين الأخيرين لتطوير مجموعة من التتابعـــات التى يمكن الدفاع عنها ، ولهذا فاننا نرى أن هذا الاهتمام سوف يستمر فى المستقبل وأن تغير أسلوبة وتغيرت مداخله (1) •

ب ــ التغير الاجتماعى كعملية دائرية :

هناك اعتقاد بان الحياة أو جميع الكائنات الحية تســـير فى حركة منتظمة وهناك أمثلة كثيرة للدلالة على ذلك مثل : انتظام خفقات القلب ، عملية الشهيق والزفير ، توالى فصول العام ، عملية نمو الكائن العضوى واندثاره • ويبدو أيضا أن النبضات التى تتخلل العالم تجد ما يتطابق معها من الظواهر الاجتماعية مثـــل تكرار الجريمة ، وعـــدد الزيجات ، والمواليد ، والوفيات ، والنمو السكانى ، واتجاهات الموضة ، والاتجاهات السياسية ، واذا كانت هذه الحركة المتواترة تؤثر فى المظاهـــر الخاصة للحياة الاجتماعية فهل يمكن الا تظهر فى المجتمع ككل ؟

ان أهم ما يميز هذه التواترات هو أنها محددة ببداية ونهاية فالدائرة

1) William Goode, «Principles of Sociolog» Mc Graw - Hill Co., Ne.. york, 1977, pp. 466 - 467.

المغلقة للميلاد والموت تتردد خلال حياة المخلوقات . وهذا الايقاع أو التواتر له دلالة هامة بالنسبة للمخلوقات الانسانية الذين يعتبرون هم أنفسهم مظهرا له ، وقد كان لهذا الايقاع جاذبية خاصة فى تفسير التغير الاجتماعى . ففى جميع العصور وجد الانسان أنه يوجد تطابق بين دورة حياة الفرد ، ودورة حياة الجماعة أو الدولة أو الامبراطورية أو الحضارة.

وقد ظهرت فى هذا المجال نظريات عديدة لكبار المفكرين والمؤرخين من أمثال « شبنجلر » و « توينبى » و « ابن خلدون » ، وتقوم هذه النظريات على أساس أن التغير يتجه صعودا وهبوطا مبتدأ من نقطة معينة فى دورة تعود بالمجتمع الى نقطة مشابهة للتى بدأ منها وقد تفرعت هذه النظرية الى نظريتين هما : النظرية الدائرية الجزئية التى تعنى بدراسة ظاهرة اجتماعية معينة فى المجتمع لاثبات أنها تسير فى اتجاه دائرى منتهية الى النقطة التى بدأت منها . فالملكية مثلا بدأت بملكية القبيلة للاراضى الزراعية وهى الآن تعود الى ملكية الدولة للاراضى الزراعية وجميع مرافق الانتاج (كما يحدث فى المجتمعات الاشتراكية). أما النظرية الأخرى فهى النظرية الدائرية العامة التى ترى أن ثقافة أى مجتمع ككل تمر فى دائرة تبدأ بالميلاد فالطفولة وتسير نحو النضج والاكتمال ثم تتجه الى الشيخوخة ثم تعود مرة أخرى للرقى والتقدم وتخلق لنفسها ثقافة وتستعيد قوتها ومجدها .

وقد ظهرت نظريات متعارضة ورافضة لتلك النظرية وخاصة النظرية التطورية أهمها كما شرحتها الماركسية . ففكرة الوحدة العضوية واسعة النطاق تحركت نحو حالة من التوازن سيطر على تصورها للمجتمع فوحدات الحياة الاجتماعية الاولية ليست النظم بل هى الطبقات المنظمة المتقابلة . وآلية التغير الاجتماعى تظهر من خلال الصراع الطبقى باحلال حالة من التوازن الشامل حيث كانت الماركسية تحلم بالمجتمع اللاطبقى

كتحقيق لليوتوبيا التاريخية (١) •

جـ ـ التغير الاجتماعى كحتمية اقتصـادية :

ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن العوامل الاقتصاديـة هى وحدها المسئولة عنكافة التغيرات والثورات التى تحـدث فى المجتمعات وأبرز مثال على ذلك الاتجاه هو « المادية التاريخية » كما قدمها ماركس حيث قسم التاريخ الى خمسة مراحل تمثل خمسة أنمـاط اساسية لعلاقات الانتاج وهى : (٢)

١ ـ الكوميونـة البدائيـة :

وهى جماعات الناس فى المرحلة الاولى لتطورها ، ووسائل الانتاج فيها قليلة وجماعية ، ولا توجد طبقات اجتماعية ولا تقسيم للعمل •

٢ ـ العبـودية (الرق)

يظهر فيها أول تقسيم للعمل مما يؤدى الى زيادة القوى الانتاجية وفى هذه المرحلة ظهرت الملكية الفردية ومعها اللامسـاواه الاقتصادية وتقسيم العمل الثانى هو الفصل بين الحرف والزراعة الـذى اسرع فى تحطيم الكوميونة البدائية بزيادة الانتاج والدعوة الى العبودية ، هنـا أصبحت الدولة طاغية ، وظهرت الطبقات الاجتماعية والسـادة والعبيد وانفجر فى اليونان وروما نضال مرير بين الطبقات •

---

1) Don Martindale «Introduction» in «8xpolration in Social Chage (ed.). by Zollschan George and Others London 1964.

(٢) عبد الجليل الطاهر « مسيرة المجتمع : بحث فى نظرية التقدم الاجتماعى المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ٣١٢ ـ ٣١٤ •

٣ ـ الاقطـاع (رق الارض)

أدى التقدم المستمر فى وسـائل الانتاج مثـل تحسين استخدام الحديد واستعمال المحراث الحديدى ، والطاحونة المائيـة الى تحطيم المجتمع القائم على العبودية وأصبح نظـام عبوديـة الارض ضرورى للانتاج .

٤ ـ الرأسماليـة :

حل البراجوزايون محل النبلاء الاقطاعيين بسبب التطور الهـائل الذى حدث فى التجارة واستأثرت الطبقـة الجديدة بالثروات واحتكرت وسائل الانتاج نتيجة لظهور الصناعة ، وظهور التخصص الدقيق واحتدام النضال الطبقى ، وكان التناقض الاساسى فى الرأسمالية يقع بين الطبقة العاملة وأصحاب رأس المال .

٥ ـ الاشتراكيـة والشيوعية :

يجعل هذا النظام الملكية الجماعية لوسائل الانتـاج تحت سيطرة طبقة البروليتاريا ، وتعتبر الاشتراكية المرحلة الاولى لهذا التحول الذى يتحقق فى الشيوعية التى هى المرحلة الاخيرة حيث تكون خيرات الانتاج موزعة تبعا للحاجات .

ويظهر هذا التعـاقب الجدلى كيفيـة « تغير » بناء المجتمعـات باستمرار . ففى كل مجتمع يوجد القديم الذى ينهار والجـديد الذى يزدهر وهناك تفاعل حتمى بين أساليب الانتاج والابنية الاجتماعية . اذن تفسر المادية التاريخية حركة المجتمع وتقدمه تبعا لتقـدم وحركة القوى المنتجة والعلاقات التى تقوم عليها ، وما دام الانتاج دائم التحول والتطور فانه لا يقف طويلا فى نفس المستوى وانه الوحيد القادر على تفسير كيف يمكن لنظام اجتماعى أن يحل محل نظام آخر ، ولماذا تتغير

الأفكار الاجتماعية ، ولماذا تقضى الضرورة فى بعض الاحيان باعادة النظر فى النظام الاجتماعى والسياسى كله . فالانسان ليس كائنا سلبيا أمـام الطبيعة ولذلك فهو يبتكر دائما أساليب جديدة للانتاج لاشباع حاجاته . وعندما تتغير أساليب الانتاج وتقوم علاقات انتاج جديدة ، الا أنها اذا لم تتغير بعد فترة تصبح عائقا أمام قوى الانتاج المتطـور فتدخل فى صراع مع علاقات الانتاج الجديد فتدافع علاقات الانتاج القديمة عن نفسها فى محاولة لسحق هذه القوى الجديدة الدخيلة .

وقد أعلن الثوريون الجدد وعلى رأسـهم هربرت ماركيوز (١) أن الطبقة العاملة فقدت ثوريتها فى المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية على السواء وصدم ماركيوز بهذا الرأى الجديد جميع المفكرين الاشتراكيين ومضى يبرز فكرته بأن التقدم التكنولوجى الهائل حول المجتمع الصناعى المتقدم (وهو يقصد به البـلاد الرأسمالية والاشتراكية) الى مجتمـع « الوفرة » وبذلك انتهى أساس التناقض الاجتماعى الذى قـال به الماركسيون وهو قيام الصراع الطبقى نتيجة الحاجة الى العمل للحصول على ضرورات الحياة فضرورات الحياة أصبحت متوفرة ونشأت مشكلة جديدة هى مشكلة « الفراغ » وخاصة فى الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الامريكية .

وعلى هذا فان المجتمع الصناعى فى الولايات المتحـدة الامريكية والاتحاد السوفيتى امتص فى رأيه ثورية الطبقة العاملة وجعلها تفقـد الباعث الأساسى للصراع الاجتماعى وحولهـا الى جـزء من الانظمة القائمة ولم تعد طبقة منبوذة وأصبحت الجماعات المنبوذة هى وحـدها العناصر الثورية والتى يقع عليها واجب تغيير المجتمعات ، وهذه الفئات الثورية نجدها الآن عند الزنوج والملونين، والاقليات ، والطلبة والشباب.

(١) جان فرانسوا رفيل « رياح التغير الجديدة » ترجمـة فؤاد موبسانى ، دار الافاق الجديدة ، بيروت .

والفلاحين والعاطلين ، والمثقفين ، وشعوب العالم الثالث ، والمتمردين ، وكل المنبوذين من البشر •

د ـ الموقف النظرى المعاصر لدراسة التغير الاجتماعى :

تعتبر النظريات أو المداخل السابقة من أهم المحاولات فى دراسة التغير الاجتماعى ومحاولة تفسيره وذلك بابراز عامل جوهرى يمكن أن يفسر كل انواع التغيرات فى المجتمع وكل ما يمكن قوله أن هذه المداخل صيغت فى ضوء مصطلحات واسعة ، وهكذا يتبين لنا أن دراسة التغير من المنظور السوسيولوجى لازالت حتى الآن تحمل علامات الاختلاف بين نظريات علم الاجتماع والتى يمتد بعضها الى ظروف نشأته وتطوره ، وكما ظهر فان الاتفاق حول مدخل محدد يمكن من خلاله معالجة قضايا التغير نظريا أو امبيريقيا لازال بعيدا الا أن هذا لا يعنى استحالة دراسة التغير وفهم عوامله وتحليل نتائجه فى عصر يمر به المجتمع الانسانى بتغيرات سريعة تطرح أمامه تعقيدات تصل فى بعض الأحيان الى مرتبة الأزمة •

وربما كان هذا هو السبب الذى جعل كثيرا من علماء الاجتماع اليوم يفضلون دراسة التغير كما هو واقع والابتعاد بقدر الامكان عن المناقشات النظرية المجردة ، والاكتفاء بتحديد اطار نظرى أو نموذج تصورى يصلح فى تحديد فروض معينة ويسمح بمستوى من التحليل يصل عن طريقه الباحث الى نوع من التعميمات يصلح فى اثراء المادة المرتبة عن دينامية المجتمع • وقد ترتب على ذلك زيادة المادة الامبيريقية عن أنواع عديدة من التغيرات فى أقسام مختلفة وأنماط متعارضة فى الحياة الاجتماعية ، يمكن أن يجرى عليها التحليل من خلال مداخل متعددة قد تمنح الفرصة لتكاملها من خلال نظرية عامة ذات مضمون تكاملى •

وهذا يقودنا الى دراسة الجماعات الاجتماعية من خلال مكانها فى

الساعات الاجتماعية المختلفه ، وتتضمن مثل هذه الدراسه النظر الى هذه الجماعات على أنها في حالة تفاعل على مر الزمان مما يجعل كل التحليل السوسيولوجي بحيث نجاها « تاريخيا وديناميا » (١) •

ومن الواضح أن التغير الاجتماعي له أكثر من بعدى الطول والعرض (فهو يتضمن بعد العمق ايضا) بمعنى أن جذور المشاكل المعاصرة تضرب في أعماق الماضي وأن الناس يتصرفون بالصورة التى يتصرفون بها اليوم لأنهم اعتادوا على ذلك وقتا طويلا وبالتالى فان الرجوع الى الماضى مفيد في البحث عن الجذور والمجهولات وتوفير الاجابه للسؤال التالى

الى أى مدى يستطيع المرء أن يتغلغل بحثا عن الأصـــول بغرض الوصول الى فهم التغير ؟ كل ذلك يرتبط بعمق وصلابه التقليد التاريخى في أى منطقة بذاتها لهذا فان أهمية التاريخ تكون في القوى التى تشابكت بعضها ببعض عبر مختلف العصور التى تشملها جميعا كلمة الثقافة •

وهكذا يمكن تحليل العمليات التى تؤثــر في مجتمع مـــا باعتبارها تتضمن سلسلة متصله من العلاقات المتبادلة والتى يقوم عليها « النظام الإجتماعي » ولهذا فان التوصل الى المسائل الكبرى التى تواجه البشرية في عصرنا ينبغى أن تقوم على معرفة تاريخية وافره وعميقـــة • لأن أى مجتمع نراه اليوم هو نتاج لتغير حدث في الزمن الماضى ونتج أساسا عن تفاعل القوى المختلفه في اطار المجتمع والثقافة •

ان النقطة الأساسية والجوهرية في هذا الموضوع تكمن في أن أى قضية تتعلق بالنظام أى الثبات أو التغير في المجتمع تتوقف على تحليل تفاعل الجماعات في البناء الاجتماعى ، أ وبمعنى آخر ان التحليل البنائى

---

(1) Margrett A Coulson and David S Riddell: «Approaching Sociology A Critical Introduction», London, 1975, pp 68 - 69

التاريخى سوف يمكننا من تفسير كل من النظام والتغير فى نفس الوقت .

ويرى بعض علماء الاجتماع أن مدخل الغالبية العظمى من الباحثين فى علم اجتماع اليوم مدخل غير تاريخى ، كما يـرى أن أسلوب أخذ العينات والدراسة الامبيريقية لها والحصول على مادة مفرغة من أبعادها التاريخية يجعـل نتائج هذه الدراسـات لاتنتمى الى علـم الاجتماع العلمى . والبديل لذلك أن ينصب الاهتمام الاكبر على **الارتباطات التى تظهر خلال الزمان لجماعات من الناس فى بناء اجتماعى معين** ، ولايجب أن يفهم من ذلك عدم جدوى استخدام الرياضة فى علم الاجتماع ، ولكنه من الملائم أن نبـين أن المشكلة والمنهـج المناسب همـا اللذان يحددان الاسلوب الرياضى الملائم الذى يمكن استخدامه وليس العكس (١) .

ومن الضرورى أيضا عند دراسة التغير استبعاد المداحل الخادئة التى أدت فى كثير من أعمال علماء الاجتماع عند تفسير التغير الاجتماعى الى الفصل بين التغير والنظام أو الثبات بشكل يؤدى الى امكان الاختيار فى التفسير السوسيولوجى بين أيهما . ونعيد هنـا فتؤكـد أن المنظور السوسيولوجى الذى يقوم على التحليل البنائى التاريخى ضرورى لنتمكن من تفسير الدوام والتغير والعلاقة بينهما ، ويستتبع ذلك أن يكون مدخلنا « ديناميا » وليس « استاتيكيا » . ومن المسائل التى لايختلـف عليها كثيرون أن سلوك الافراد والجماعـات لا يمكن أن يفهـم الا من خلال مضمون البناءات الاجتماعية ، وكذلك فعند دراسة التغيرات الاجتماعية فان شرح وتفسير التغيرات القصيرة المدى فى المجتمع لا يمكن أن تنفصل عن علاقتها بالتنظيم الكلى للمجتمع من خلال نموه التاريخى .

وبالرغم من أن المداخل الملائمة لدراسة التغير الاجتماعى تختلف

---

1) A. Cicourel, «Method and Measurment in Sociology», London. 1964.

من مجتمع لآخر ، ومن مدرسة لمدرسة فى علم الاجتماع ، الا أنه لابد من الاشارة الى أن دراسة التغير لا تشكل دراسة منفصلة بحيث تصبح فى النهاية موضوعاً مستقلا (١) • وقد يعترض الكثيرون على هـذا الرأى خصوصا أولئك الذين ينظرون الى موضوع التغير كأنه قسم مستقل من دراسات علم الاجتماع ، الا أن هذا الاعتراض لا يواجه التغير كما هو فى الواقع فقد يؤخذ التغير الاجتماعى كموضوع مستقل فى كتب علم الاجتماع باعتباره يمثل قسما من الاقسام الهامة التى يهتم بها الدارسون ، الا أنه يجب أن يكون فى الذهن دائما أن التغير الاجتماعى هو دائما بالاضافة الى شىء ما فى المجتمع •

واذا انتقلنا الى القاء نظرة شاملة على الموقف النظرى فى دراسة التغير فاننا نلاحظ أن كثيرا من النظريات المبكرة عن المجتمع والتى وصفت بأنها نظريات علمية هى فى الحقيقة نظريات عن التغير ، لأنها حاولت أن تفسر الحاضر فى ضوء الماضى مثلما فعل أوجست كومت حين وجد أن المدنية تبدأ بمرحلة لاهوتية وتمر فى أثناء تطورها بمرحلة ميتافيزيقية ثم علمية وهى المرحلة الأخيرة فى سلسلة التغير تلك التى وجد فيها أن الطبيعة والمجتمع يجب أن يفسرا وينظما على أساس الدراسة العلمية • وقد حدث بعد أن نشر دارون أفكاره عن التطور البيولوجى أن تأثر بها عدد كبير من الذين يعملون فى ميدان الدراسة العلمية المجتمع حيث أمكنهم أن يقيموا مبادىء تطورية تستطيع أن تفسر تغير المجتمعات وتباينها ، لكن ما لبثت اراء التطوريين الاجتماعيين أن سقطت بسرعة لأنهم حاولوا ان ينظموا المجتمعات البدائية والمجتمعات المتقدمة المعاصرة المتنوعة والمختلفة فى سلم تطورى واحد ينقسم الى مراحل ، ومن الممكن أن نتأكد من خطأ هذا المنهج لو طبقناه على الحضارة المصرية •

ومنذ مطلع هذا القرن حاول عدد من الدارسين فى الولايات المتحدة الامريكية اقامة أساس جديد للدراسة بناء على الشكوك التى تزايدت حول جدوى الدراسات التاريخية القائمة على دارسة الآثار وامكان

---

(1) Coulson and Riddell, op. cit., pp. 70 - 77.

استخدامها بكفاءة فى تفسير التغير بالرجوع الى أزمان سحيقة فى القدم ، أو بمقارنة أحوال المجتمعات البدائية المعاصرة فى ذلك الوقت لتكون بديلا عن المعلومات التاريخية الناقصة عن الظروف التاريخية التى مر بها المجتمع الانسانى • ويمكن أن نصف هذه المحاولة بأنها محاولة وظيفية لأنها تتبنى وجهة نظر محددة مؤداها أن السلوك الاجتماعى وكل عناصر الثقافة يمكن أن تفهم من خلال مضمونها أو موقعها وهذا فى نظرهم أجدى من المحاولات الفاشلة فى البحث عن أصول هذه الموضوعات أو ظهورها لأول مرة فى مجتمع الانسان ، وأحد هذه الدعاوى الأساسية هى أن أى مكون أو أى فترة من النسق مجتمعا كان أو ثقافة يمكن أن يفسر فى ضوء النسق ككل • وعندما تطورت الدعاوى الوظيفة ونمت وأصبحت واضحة تعرضت للنقد وللتصحيح من المدرسة الوظيفية الحديثة ،ومن أهم من واجهوا الوظيفية بالنقد ، يعتبر سوركن (١) من أشهرهم الا أنه فى السنين الأخيرة زاد الهجوم على الوظيفية من علماء محدثين من أمثال الفن جولدنر ، ونسبت ، ولبست وكل أنصار الاتجاه التاريخى واليسار الجديد . الا أن هناك عددا غير قليل من الباحثين حاولوا تعديل الاطار العام للوظيفية لتستوعب ما لم تستطع أن تستوعبه فى بدايتها المبكرة كدراسة التغير الاجتماعى والثقافى • ويعتبر تالكوت بارسونز (٢) ، وروبرت ميرتون (٣) ورالف بيلز من أهم هؤلاء على الاطلاق •

ان التحديات التى واجهتها النظريات الوظيفية وكذلك التعديلات التى أدخلت عليها تستحق وقفة ، نظرا لتأثيرها على موضوعات التغير الاجتماعى ، ان الدعوى الوظيفية التى هوجمت بحدة والتى لا زالت

---

1) Pitirim Sorokin, «Fads and Foibles in Modern Sociology» 1962.

2) Talcott Parsons, «The Social System.»

3) Robert Merton «Manifest and Latent Functions» The Free Press-1957, Chap.1.

لها قوة فى النظرية السوسيولوجية المعاصرة تتضمن مايسمى « بتكامل الانساق الاجتماعية » ، هذه الدعوى فى صورتها المتطرفة عبارة عـن تعميم علمى يحاول أن يقرر شيئا « ماذا ينبغـى أن يكون » تلك التى وصفها سوروكن بأنها غائية وظيفية • ومعنى هذا أن كل شىء يتجه الى الأفضل فى أفضل عالم ممكن وهذا ما رفض باستمرار ، والـذى يهمنا فى هذا الصدد أن نعرض فى ايجاز النتائج التى ترتبت على هذا الرفض •

١ — ان الأنساق الاجتماعية وخاصة ذات المدى الواسع مـثل المجتمعات تتضمن مجموعة متضاربة أو متعارضة أو متنافرة من العناصر •

٢ — ويترتب على ذلك أن العلاقـة بين أى عنصر وبين النسق ليست وظيفية بالضرورة أى أنها لا تسهـم حتمـا فى استمرار أو بقاء النسق فقد تكون معوقة وظيفيا أى أنها يمكن أن تسهم فى تدمير النسق أو قلقلته ، والحق أن عنصر ما داخل النسق يمكن أن يكون بلا أى نتيجة مهمة أو آثار لها قيمة •

٣ — وبسبب عدم التثبت من بعض العلاقات داخل النسق (مثل العلاقات الكامنة) فان عناصر معينة قد تكون وظيفية لجزء من النسق وغير وظيفية للنسق ككل ، ومثال ذلك أن قاعدة الشرف بين اللصوص قد تكون لها وظيفة بين المجرمـين الا أنها تكون معوقة وظيفيـا للقواعد القانونية للمجتمع •

هذا وقد ترتب على استمرار المناقشات النظرية فى ميدان التغير وزيادة الدراسات الامبيريقية أن أصبح من الممكن التمييز بين أنـواع متعددة من التغيرات فالتغيرات قصيرة المدى تعنى التغيرات فى خصائص البناءات الاجتماعية تلك التى على الرغم من أنها تقع داخل النسق العام الذى يسمى المجتمع فانها لا تتصل اتصالا مباشرا بالبناء الأكبر ، وعلى الرغم من الصلات المتعددة التى تربط كل بناء صغير بالبناء الكبير وعلى الرغم من النتائج المتعددة للتغيرات البنائيـة الكبرى عـلى التغيرات

البنائية الصغرى الا أن الصلة بين هذه الانواع من التغير ليست تامة ان ما يعنينا هنا هو البحث عن « التغيرات » التى تسمح بقدر من التعميم ولهذا نصنفها فى فئات أربع هى :

آ — الدورات المتكررة للفعل الاجتماعى .

ب — التغيرات فى بناء الجماعات .

جـ — ديناميات العلاقات داخل الجماعة .

د — نتائج عدم تماسك القيم وقواعد السلوك .

ان هذه الفئات الاربع هى أساس أى تغير اجتماعى ، وهى التى يجب ان تكون محور البحث عندما نتعرض لدراسة التغير الاجتماعى .

التحليـل المقـارن للتغير (١)

مهما تعاظمت الاختلافات فى المفهومات المختلفة للتغير الاجتماعى فهناك مشاكل مشتركة بين المجتمعات يمكن تمييزها فى أغلب هذه المفهومات وهى المشاكل التى تواجهها النظريـة الاجتماعية والبحث الاجتماعى اليوم ، ويمكن أن نقدم أمثلة عديدة لهذه المشاكل أو التساؤلات :

١ — الى أى مدى يدخل التغير فى طبيعة المجتمعات ؟

٢ — ماهى الخصائص العامة للتغير الاجتماعى ؟ والتى توجد فى كل المجتمعات ؟

---

(١) استعنت فى كتابة هذا الجزء بما كتبه Eisenstadt فى كتاب : «Comparative Perspectives on Social Change» Little Brown and Co., Boston, 1968.

٣ — الى أى مدى ، وبأى الطرق يمكن مقارنة عمليت التغير فى المجتمعات المختلفة ؟

٤ — ماهى أوجه التغير التى تكون أكثر قبولا للمقارنة ؟

فهل من الافضل أن نقارن التطور العام لكل المجتمعات فى مجرى التاريخ الانسانى ، أم نقارن عمليات التغير فى نوع واحـد من النظم الاجتماعية (كالاسرة مثلا) والمجتمع ، أو نماذج التنظيم الاقتصادى فى مجالات ثقافية متشابهة نسبيا • كما يظهر تساؤل آخـر عن العلاقات المتبادلة بين عمليات التغير فى الأجزاء المختلفة فى مجتمع واحد ، وأيضا عن العلاقات المتبادلة فى مجتمعات مختلفة •

وعموما ، فقد أدى ظهور التحليل المقارن الى الاهتمـام بدراسة التغيرات فى المجتمعات التقليدية التى لم تكن تحظى بأى اهتمام من قبل• ومن أجل الدقة فى التحليل لابد أن نميز فى أى عملية تغير بين :

أ — الدوافع الأولية للتغير ، ومكانها فى الجمـاعات المعينة ، أو مجتمع بعينه •

ب — المدى الذى يمكن أن يقوض فيه أى نمط نظامى •

ج — الامكانيات الجديدة التى تتيحها دوافع التغير •

د — المدى الذى تنمو فيه قدرة ما داخل كل جماعة لاعادة تنظيم حياتها الاجتماعية والثقافية •

وتختلف طبيعة وتأثير كل هذه العوامل المختلفة للتغير بالضرورة بين النماذج المختلفة للانظمة الاجتماعية ، فمثلا من الواضح أن كمية التغير الديموجرافى والتكنولوجى أو الثقافى التى تؤثر فى استمرارية أى وحدة اجتماعية تختلف بدرجة كبيرة بين الأنواع المختلفة للجماعـات والنظم

الاجتماعى • بدرجة التغير فى تركيب السكان التى قد تكون محرجة لاستمرار قرية صغيرة قد تؤثر فى النظام السياسى لامبراطورية أو فى الخط الكفافى الأساسى لأى نظام اقتصادى • فأى عامل من عوامل التغير يصبح فعالا كما رأينا من قبل عندما يصطدم بالخصائص التنظيمية والمطالب السابقة لأى تنظيم اجتماعى أو جماعة ، أو عندما يتيح امكانيات لظهور بعض الترتيبات الجديدة البديلة لأعضائها •

ويتضح هذا المفهوم من المناقشة التالية التى تؤكد أيضا البعد المقارن للتحليل • فقد تبين من الدراسات العديدة تغير وعدم تكامل المجتمعات التقليدية فى مواقف التغير بصفة عامة ، وفى مواقف التحديث والتصنيع بصفة خاصة • فالتغير والتفكك يتأثران عادة بالتأثير المترابط للعوامل المختلفة ، حيث تؤثر التغيرات الديموجرافية (التغيرات فى أعداد السكان وطول بقائها على قيد الحياه وأعمار وأجناس التوزيع السكانى) فى امداد القوة البشرية المتاحة ، ودفع الطموحين الى المواقع الاجتماعية المختلفة ، كما تزيد أو تنقص من المنافسة بين الاجيال ، هذا فضلا عن تغير العلاقات بين الجنسين • وقد تتسبب التغيرات التكنولوجية والاقتصادية فى ادخال أشكال ووحدات جديدة للانتاج ، وتغير خصائص أصحاب الملكية بين الجماعات المختلفة (أصحاب الارض ، الفلاحين ، التجار) وتقوم التغيرات السياسية فى العادة (اقامة أنماط جديدة من الاسهام السياسى ، وتطور المعايير السياسية الجديدة) بالتقليل من شأن الأنماط الموجودة للسلطة ، والمشاركة السياسية ، وقد يكون للتغيرات الثقافية الأكثر اتساعا (مثل التعليمية والأيديولوجية) تأثيرات مشابهة وهكذا •

ويكون للتصادم بين هذه العوامل المختلفة تأثيرات متشابهة على المجتمعات فى كل أنحاء العالم ، فالنمط الأقدم للمجتمعات المغلقة يميل الى عدم التكامل ويسبب ظهور عمليات مختلفة من التفكك الاجتماعى والأزمات حتى على المستوى الشخصى ، وتنشأ فى نفس الوقت امكانيات

لبلورة الأنماط الجديدة الاكثر اختلافا والاقل تماسكا للتنظيم الحيوى (الايكولوجى) وامكانيه اندماجها فى عمل اجتماعى جديد وواسع فى انساق الطبقة الحديثه ، والوحدات السياسية الجديدة (الدولة الحديثة) أو أنساق اقتصادية جديدة (النسق الصناعى) .

ان التشابه النسبى لهذه النتائج والقدرة على مقارنة عمليات التغير فى الأماكن المختلفة بدرجة كبيرة وبطريقة لها معنى ينتج من حقيقة أن المجتمعات التقليدية المختلفة تشترك فى بعض الخصائص والاحتياجات، كالمحافظة على السيطرة الاجتماعية من خلال جماعة اجتماعية تقليدية صغيرة تسيطر على المصادر المادية ، والمراكز ، والأوضاع الاجتماعية ، هذا فضلا عن المدى المحدود نسبيا للاختيار المتاح أمام الأفراد ، أو الجماعات ، وأيضا وجود المعايير الثابتة التى تنظم سلوك الأفراد . ومن خلال هذه الظروف المتشابهة فان المجتمعات قد تقوم بردود فعل متشابهة تجاه القوى التى تتجه نحو تقويض هذه المتطلبات السابقة .ومع ذلك،فان طبيعة نتائج هذه التغيرات لا تتوقف فقط على مدى تقويض العناصر الخارجية للترتيبات القائمة ، بل أيضا على طبيعة الفرص الجديدة التى تتاح أمام أعضاء المجتمعات التقليدية . وقد تكون الفرص الجديدة هذه فى المجال الوظيفى أو المهنى ، أو فى مجال العلاقات العائلية ، أو فى التعليم ، أو فى المشاركة السياسية . وقد تبين من أغلب الدراسات التى أجريت فى هذا المجال أن هذه الفرص الجديدة مشتقة من نظم أو أنساق اجتماعية جديدة متشابهة (صناعية فى المجال الاقتصادى ، وديموقراطية أو جماهيرية فى المجال السياسى) .

ويكون لكل من هذه الأنظمة الجديدة التى تظهر مطالبها السابقة المتعلقة بالتنظيم . فالتصنيع مثلا يحتاج الى قوة الانسان على المستويات المختلفة للمهارة ، ومستويات تعليمية معينة ، وقدرات تنظيمية ، ونظام سياسى حديث يحتاج الى منظمين له أكثر نشاطا ومشاركة . وتتمشى

الفرص الجديدة التى تفتح أمام أعضاء المجتمعات التقليدية عادة مع خط احتياجات هذه النظم للأشكال الجديدة للنظم السياسية أو الاقتصادية •

ان التعرف على وجود التشابه فى طبيعة المجتمعات التقليدية من ناحية ، وعلى المطالب التى تفرض عليها عندما توضع فى الأنساق الصناعية الحديثة من ناحية أخرى ، ليس معناه أن كل هذه المجتمعات متشابهة تماما • فالمجتمعات قد تختلف بدرجة كبيرة فيما يتعلق بمعظم ان لم يكن بكل خصائصها التنظيمية الفردية ومطالبها السابقة وذلك بالدرجة التى تعتمد فيها على مصادر اقتصادية وانسانية معينة ، وبالدرجة التى تولد بها قوى التغير والتى تتصادم بدورها مع القوى القديمة فى المجتمع ، وبالدرجة التى تكون التنظيمات الاجتماعية الجديدة واطار عمل المؤسسات مفتوحة أمامها•ومن ثم فمن الممكن بل من الضرورى أن نقارن بين المجتمعات المختلفة فى كل هذه النقاط • وهذا هو بالضبط الارتباط بين التشابه والاختلاف الذى ينتج اقامة التحليل المقارن للتغير الاجتماعى •

ويمكن توضيح قيمة التحليل المقارن لعمليات التغير فى المجتمعات التقليدية بملاحظة أن هذا التحليل لايحتاج الى أن يقتصر على دراسة التغيرات تحت تأثير النظام السياسى الحديث ، أو النظام الصناعى فقط، فعمليات التغير الاجتماعى فى المجتمعات التقليدية يجب أن تدرس فى مواقف أخرى ، ومثال ذلك ، عندما تتصادم امبراطورية ذات وزن كبير فى هذه المجتمعات التقليدية من خلال انهيار جماعات قبلية أو صغيرة أو وحدات كنسية أو اقطاعية •

ان تحليل المدى الذى تذهب اليه هذه العمليات للمجتمعات التقليدية فى المواقف التاريخية قد تتشابه أو تختلف عن تلك الموجودة فى المواقف الحديثة ، وهذا قد يضيف بعدا جديدا الى التحليل المقارن لمثل هذه المجتمعات (١) •

---

1) . Eisenstadt, op. cit,

الخصائص الرئيسية للتحديث ومشاكله

لقد أصبحت التغيرات الديموجرافية والبنائية الواسعة المصاحبة للتحديث متميزة بدرجة كبيرة فى كتابات علم الاجتماع الآن • ومن أهم هذه التغيرات التى تثير الانتباه هو المستوى العالى للتمايز البنائى أو ما يسمى « بالتنقل الاجتماعى » وكذلك اطار العمل الموحد والمركز على نطاق واسع نسبيا [1] •

ان نمو هذه الخصائص المختلفة بالرغم من اختلافها فى كل من المجتمعات الحديثة أو المستحدثة يتضمن بالضرورة تقويضا وهدما للبناءات الاجتماعية القائمة فى كل مستويات التنظيم الاجتماعى بصورة لم تحدث من قبل فى تاريخ المجتمعات البشرية • وهو يتضمن أيضا أن الآفاق الجديدة التى فتحت كانت أكثر اختلافا وتنوعا فى كل المجالات الاجتماعية • ومما يثير الانتباه هنا هو الاتجاهات النامية للجماعات العريضة والطبقات المختلفة للمشاركة فى المجالات الأساسية للمجتمع ، وفى تشكيل النظام الاجتماعى والسياسى الجديد • الذى يكون على وشك الظهور [2] • •

فاتحاد العوامل السابقة هو الذى يكون كثافة ومجال التغيرات التى تنمو فى مواقف التحديث بصورة أكبر منها فى أى فترة سابقة فى التاريخ، وبالتالى فان المشاكل أو الصعوبات التى تعترض هذه التغيرات تكون أكبر ، خاصة وأن المجتمعات الحديثة تتميز بامكانية أنها تطور داخلها عمليات مستمرة للتغير بعكس الحال فى المجتمعات النامية أ والمستحدثة التى تكون قاصرة الى حد كبير •

---

1) S. N. Eisenstadt «Modernization Protest and Change.» Englewood Cliffs, N. J. Prentice - Hall, 1966.

2) Ibid.

ونظرا لذلك فانه فى مواقف التحــول الى التحديث ، تنمو عــادة محاولات جادة ومكثفة اما لتحويل النظام الاجتماعى السابق وتطويره لمسايرة الظروف الجديدة واما بناء نظام اجتماعى جديد ، وخلق اطار عمل للمؤسسات قادر على استيعاب عمليات التغير المستمرة • ومن أكثر هذه المحاولات ذيوعا وانتشارا تلك الحركات الاجتماعية والقومية أو الدينية التى ظهرت فى المواقف التاريخية على مر العصور •

ومع ذلك ، فان اقامة هذه البناءات النامية المتآذرة والمتساندة لا يتأكد بمجرد نمو الخصائص البنائية المتنوعة للتحديث • فالواقع أن أغلب الأبحاث التى حاولت شرح الظروف التى ينمو فيها المجتمــع الحديث والقادرة على النمو المستمر قد قررت أنه كلما زاد تقدم المجتمع طبقا لأى من هذه الوحدات والخصائص البنائية أى كلما تمايزت كلما زادت نموا وتماسكا•وبالرغم من ذلك فاننا حتى الآن نعرف أن هذه الظروف فى حد ذاتها غير كافية لضمان استمرار النمو • فالخصائص البنائية لاينظر اليها على أنها وحدات بسيطة للتحديث الناجح ، كما أن تطورها لايضمن بالضرورة تقدم واستمرار عملية التحديث • فهى ضرورية ولكنها ليست كافية كشروط لنمو واستمرار بناء حديث للمؤسسات قادر على التعامل مع المشاكل المتغيرة باستمرار لضمان النمو المؤكد •

ومن الواضح أن المجتمعــات الحديثة أو المستحدثه قــد أظهرت اختلافات كبيرة فى المدى الذى استطاعت فيه أن تمتص هــذه التغيرات وان تحول بناءها الى بناءات قابلة للنمو وجديدة ونامية ومتماسكة •

وقد كانت هناك وعلى مدار التاريخ محاولات فاشلة فى التحولات وهى ما تسمى بانهيارات التحديث وهى تعنى عدم القدرة على الابقــاء على بناءات حديثة قابلة للحياة والاستمرار والتى تستطيع أن تستوعب التغيرات المستمرة وأن تتعامل مع مشاكل جديدة ، وتعتبر الأرجنتين منذ

الثلاثينات وكثير من الدول الأسيوية المعاصره وكذلك الدول الأفريقية من أهم صور هذه الانهيارات •

شروط التحديث الناجح

أولا : مراكز قوية وحكم ذاتي بنائي ومرونة للطبقات الاجتماعية :

ما هى اذن أسباب الاختلافات فى قدرات المجتمعات المختلفة لمثل هذا التحول الى مجتمعات حديثة قابلة للتحقيق ؟ وماهى الشروط التى تؤدى الى مثل هذا التحول الناجح ؟ بالرغم من أننا سوف نتناول هذه الموضوعات بالتفصيل فى الفصول الأخيرة من هذا الكتاب الا أننا نشير هنا باختصار الى أن البحث المقارن يبين أنه من بين هذه الشروط ذات الأهمية الخاصة والتى يجب أن تتوفر من أجل التحديث الناجح : وجود مركب من المراكز القابلة للنمو والمرنة والمؤثرة رمزيا وتنظيميا ، ودرجة عالية من الحكم الذاتى فى مختلف مجالات المؤسسات الأساسية (السياسية والدينية والايديولوجية) الى جانب تنظيم اجتماعى وطبقى وانفتاح نسبى ، ومرونة فى الجماعات الاجتماعية الواسعة والطبقات •

وقد تبين أن هذه الشروط حاسمة فى القدرات المتحولة فى مجتمعات ما قبل الحديثة — وخاصة الأوربية والاسيوية والامريكية — التى كانت اما من ضمن المجتمعات التى بدأت فى التحديث بالفعل أو كانت مجتمعات فرض عليها التحديث من الخارج • فقد سهلت عمليات التحديث الأولى وساعدت فى خلق المؤسسات المركزية الحديثة واطارات عمل تعمل بكفاءة•

وهكذا وعلى سبيل المثال ، فان تحليل بعض المجتمعات الأسيوية (١)

---

1) Harry J Benda.. «Political 7lites in Colonial Southeast Asia An Historical Analysis» in Eisenstadt (ed) **Comparative pers Pectives On Social Change.** op cit. P 184

التى سارت فى طريق التحديث أظهر أن تحولها الداخلى قد ساعد عليه الحكم الذاتى للمؤسسات الاجتماعية والثقافية والسياسية . فالحكم الذاتى فى النظام الثقافى سهل نمو الرموز الجديدة التى تدعم وتعطى الشرعية للبناء الأساسى للمؤسسات . كما ساعد الحكم الذاتى فى مجال التنظيم الاجتماعى فى بلورة النواة التنظيمية الجديدة بدون ازعاج للنظام الاجتماعى السابق ، وهكذا تمكن النظام الجديد من أن يعتمد الى حد ما على قوى النظام القديم .

وقد ساعد التلاحم النسبى القوى الداخلى لجماعات الاسرة والطبقات الاجتماعية الواسعة ، مع بعض حالات الحكم الذاتى والانفتاح نحو المؤسسات الحديثة على تنمية الاتجاهات الايجابية للمراكز الجديدة وتزويدها بالدعم والمصادر الضرورية .

وعلى العكس من ذلك ، فعندما تغيب الحكم الذاتى ، وعندما تداخلت النظم الاجتماعية والثقافية مع بعضها ، فان تطور البناءات القابلة للنمو لم يظهر ، وعندما كانت الجماعات الاجتماعية الواسعة مغلقة كانت معرضة لتقويض وتحطيم المراكز الجديدة وذلك لانها تحجب المصادر أو تفرض مطالب مكثفة أو غير منظمة عليها (١) .

وبالمثل فانه حينما تكون المراكز الاجتماعية والثقافية الموجودة ضعيفة — كما فى أمريكا اللاتينية والى حد أكبر فى افريقيا — فانها تكون غير مؤثرة فى خلق اطار عمل جديد وقوى وقابل للتطبيق بالرغم من ظهور كثير من الحركات الاجتماعية والقومية المكثفة ، وذلك مثلما حدث فى مصر عندما قامت الثورة وما تبعها من حركات مشابهة فى المجتمعات العربية والمجتمعات الافريقية .

1) Eisenstadt, op. cit, p. 27.

ثانيا : بنـــاء صفوات التحديث وحركاتهـــا :

فيما يتعلق بالمجتمعات الأسيوية ومجالات التحديث المبكرة فى أوربا نلاحظ أن مرونة البناء وقوة المراكز لم تكن فى حد ذاتها كافية لنمو واستمرار اطار العمل فى المؤسسات الحديثة • فالمرونة أو الحكـــم الذاتى لانظمة المؤسسات المختلفة هى التى خلقت « الظروف » التى تستطيـــع فيها الجماعات الأكثر نشاطا ، والحركات الاجتماعية ، والصفوة تكوين مبادىء جديدة للاتجاه الثقافى والتكامل الاجتماعى • ومع ذلك فمجـــرد وجود المرونة البنائية لا يضمن ظهور هـــذه الجماعات ، ولايشـــير الى نمط الاتجاهات التى تنمو من خلالها •

ولذلك فانه من المناسب أن نحلل طبيعة هذه الحركات الاجتماعية الأكثر نشاطا وكذلك الجماعـــات المتميزة (وهى التى تسمـــى بصفوة التحديث) وأن نرى أيا منها هـــو القادر على التحول ، وبالتالى عـــلى النجاح فى تحديث المجتمع • فالبحث المقارن عن التحـــديث (بدءا من التحديث الأول لأوربا حتى التحديث المعاصر للدول الجديـــدة) أعطانا تبصرا متعمقا لخصائص قادة التحديث التى قد تؤثر فى قدرتهم عـــلى احداث التحول الناجح لمجتمعاتهم •

وقد يكون من الملائم هنا أن نميز بين نوعين من القادة الاجتماعيين:

١ ـــ هؤلاء الذين كانوا أثناء خلقهم لشعارات جديدة ، واطارات عمل سياسية غير قادرين على التأثير فى أى تحول بنائى لتسهيل النمو المستمر داخل مجتمعاتهم ، (وقد ظهر أغلب هؤلاء فى أوربا الشرقية بين الحربين العالميتين وكذلك كثير من القادة المعاصرين فى الدول الجديدة)•

٢ ـــ هؤلاء الذين كانوا أكثر نجاحا نسبيا وبطرق مختلفة تماما كانوا يؤثرون فى التغيرات والتحولات التى كانت تحدث فى مجتمعاتهم

(ومن أمثال هؤلاء قادة المكسيك وروسيا وتركيا واليابان والقادة الرواد فى تحديث أوربا الغربية) .

وقد كان النوع الأخير يميل الى أن يكون أكثر تلاحما ، وحاول فى نفس الوقت أن يؤثر فى القيمة الداخلية للتحول داخل الجماعات والطبقات الأوسع انتشارا ، وأثر كذلك فى المجالات الايديولوجية ، ومجالات القيم حيث كان هؤلاء القادة يهدفون الى تطوير مجموعة من الشعارات التى تعطى معنى لعمليات التغير . وكانت الصفوة الاجتماعية الناجحه تهدف الى تطوير مجموعة مرنة من الشعارات ، ومجموعة من الحقائق التى لاتهمل فى نفس الوقت وجود التقاليد وامكان اشراكها فى اطار العمل الرمزى الجديد . حيث كانوا يهدفون الى تحويل القيم العميقة المتأصلة فى الجماعات الاجتماعية ، والطبقات واسعة الانتشار لكى تساير الاتجاهات الحديثة والمرنة . ومن أجل تحقيق ذلك طوروا الاتجاهات المتشابهة الى تحول ايديولوجى للشعارات الجمعية ، والى أعمال ملموسة فى مختلف المجالات « العملية » . وقد أدرك القادة الناجحون شرعيتهم ليس فقط من خلال التغيرات واسعة النطاق التى اتاحوها لمجتمعاتهم ومواطنيهم ولكن أيضا من خلال الفوائد السريعة المختلفة التى عمت الجماعات الاجتماعية المختلفة ، كما أنهم كانوا يأملون أخيرا فى نظام سياسى جديد يحدث تحسينات ملحوظة فى مستوى معيشة الجماعات الاكثر إنتشارا والطبقات السكانية بمختلف مستوياتها .

وعلى عكس هذه الاتجاهات الايجابية والبناءة نجد نوعا آخر من الصفوة التى أظهرت قدرة محدودة على التحول (١) وذلك باهتمامها وتأكيدها على أنماط محدودة للغاية من الشعارات ، وكانت هذه الشعارات عادة لاتحتوى على أى اتجاهات عامة . فالصفوة ذات القدرة المحدودة

---

1) H. Benda, op. cit.

على النحو نرى التجمع القومى من خلال قيم محدودة ورموز مشتقة من البناء الاجتماعى السابق • ونتيجة لهذا الموقف فان هـذه الصفوة تحدد الى حد كبير مجالها الادراكى ، ومجالات نشاطها ، ولذلك تصبح قدرتها الفعلية على التحول محدودة نسبيا ، وتكون اتجاهاتها فى التحديث أقل تركيزا على المجال الثقافى بمعنى اعادة تعريـف وتكوين اتجاههم الأساسى نحو القيم الداخلية • ونتيجة لذلك فانهم كانوا غـير قادرين على اقامة نـوع من التلاحم الداخـلى القوى ، أو التماسـك القوى والارتباطات الايديولوجية مع الجماعات الأخرى ، والطبقات الاجتماعية التى كان لها أيضا امكانية التحديث •

وقد أظهر هذان النوعان من قـادة التحديث بعضـ الخصائص الاجتماعية المتميزة • فالقادة ذوى القدرة المحدودة علـى التحول أو التغير كانوا فى الغالب جماعة من المفكرين غير المتلاحمين والبعيدين عن القادة الآخرين وعن الجماعات الأوسع ، والطبقات المختلفة فى المجتمع • وقد كانوا أيضا اما بعيدين جدا عن المركز القـائم أو أنهم نجحـوا فى احتكاره بعيدا عن جماعات الصفوة الأخرى • وهذه الجماعة من الصفوة كان لها اتصالات داخلية وايديولوجية محدودة للغاية مع الذين يتمسكون بالتقاليد السابقة أو مع الجماعات الأوسع للمجتمع •

ومهما كانت الاختلافات بينهـم فقد كانت لهـم بعض الخصائص المتعارضة بصورة عامة • فهم فى الغالب لم يتكونوا من جماعات مثقفة وبعيدة كل البعد عن الصفوة السابقة • ولكنهم كانوا يتألفون الى حد ما من أشخاص كانت لهم مواقع قيادية ثانوية فى البناء السـابق ؛ وكانت لهم علاقات وثيقة بالجماعات الواسعة الفعالة والنشطة •

ان التداخل بين الخصائص البنائية الأكثر اتساعا من ناحيـة وبين خصائص واتجاهات الصفوة أو القادة الأكثر نشاطا من ناحيـه أخرى هو السبب فى التشتت الكبير فى استجابات الجماعات والمجتمعـات فى

مواقف التغير • ويصدق هذا أيضا فى مواقف التحديث كما هو فى مواقف التغير فى المجتمعات التاريخية ليس فقط على مستوى التغـير الاجتماعى قصير المدى بل أيضا التغير فى الوحدات الاجتماعية الأصغر • وتحليل مثل هذا التداخل يعطينا أحد الاهتمامات الرئيسية للدراسة المقارنة للتغير الاجتماعى •

وعموما ، فقد استعرضنا فى هذا الفصل ظروف نشأة دراسة التغير الاجتماعى ، وناقشنا بعض وجهات النظر التقليدية والتى كانت تنظر الى التغير من خلال عامل واحد حتمى يكون السبب فى احداث التغير ، وناقشنا بعض الصعوبات والمفهومات الخاطئة التى اعترضت مسـيرة الدراسة والبحث فى هذا المجال ، ثم انتقلنـا الى الموقف النظـرى المعاصر فى دراسات التغير وكيف يدرس علماء الاجتماع اليوم التغير الاجتماعى ، وركزنا بعد ذلك على أهمية التحليل المقارن للتغير ، حيث كان علماء الاجتماع الرواد يركزون على مجتمعاتهم الى أن أتيح لهم التعرف على أنواع أخرى من المجتمعات مما فتح الباب الى مزيـد من الدراسات المقارنـة ، وأخيرا ناقشنا باختصار فكرة التحديث من حيث خصائصه ، والمشاكل المترتبة عليه وكذلك شروط التحديث الناجح ، وكيف ان التحديث الناجـح لابد ان يقوم على مراكز قوية وحكم ذاتى بنائى ومرونة للطبقات الاجتماعية ، وأهمية أدوار القادة فى تغيير مجتمعاتهم ، والسير بها فى طريق التحديث • وأحب هنا أن أشير الى أن التحديث ليس عملية مؤقتة لها بداية ونهاية ، بل أنه عملية مستمرة ، وحتى اكثر المجتمعات تقدما الآن لو توقفت عن البحث عن الجديد فانها ستقع لا محالة فريسة التخلـف لان المجتمعات الأخرى مستمرة فى تحديث نفسها بصورة مستمرة •

الفصل الثانى

انمـــاط التغير

* مقدمــــة

* أولا : التطور
* ثانيا : الثورة
* ثالثا : الانتشار
* رابعا : اكتساب الخصائص الحضرية
* خامسا : التحديث
* سادسا : التصنيع
* سابعا : الحضرية
* ثامنيا : التحول الى البيروقراطية

أنمـــاط التغير

مقدمــــــة :

سوف نحاول فى هذا الفصل الاجابة عن سؤال هــو كيف يحدث التغير ؟ وهدفنا من هذا هو فحص ودراسة العمليات الحاسمة أو أبعاد التغير ليس « كأسباب » ولكن « كموصلات » أو « حاملات » للتغير وأن ننظر بوضوح فى أى شكل أو نمط يظهر التغير .

ولقد كانت هناك محاولات عديدة فى ميدان علم الاجتماع لتحليل الموضوع من الناحيتين الكيفية والكمية نظرا لظهور مستويــات جديدة لأنماط التغير فى المجتمعات المختلفة ويعتبر هذا الفصل محاولة لتلخيص ومقارنة عديد من أنماط التغير الرئيسية . وسوف نهتم فى تحليلنا أيضا بالأنماط الاجتماعية والثقافية .ومن بين الانماط الثقافية سوف نستعرض أهمها وهى «التطور»و«الانتشار»و«اكتساب الخصائص الحضرية»، أما الأنماط الاجتماعية التى اخترناها للتحليل فهى : « الثورة » و «التحديث» و « التصنيع » و « الحضرية » و و « التحول الى البيروقراطية » .

أولا : التطــور (١)

من الملاحظ أن علم الاجتماع فى بداية ظهوره كان مرتبطا بفلسفة التاريخ ، ورغبة فى وضع تفسيرات مناسبة للتغيرات السريعــة المتلاحقة فى المجتمعات الأوربية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . فقد اهتم المؤرخون والفلاسفة بتفسير أو شرح الثورات الاجتماعية والسياسية فى عصرهم من خلال النظرية التاريخية العامة ، وقد كان تأثيرهم عميقا يمكن ملاحظته فى أعمال علماء الاجتماع الرواد أمثال «كومت» و « سبنسر »و

---

(١) يستخدم مفهوم التطور هنا بعيدا عن التطور البيولوجى الذى قــال به داروين فى نظريته عن النشوء والارتقاء ، ويستخدم بمعنى اجتماعى بحت

« ماركس » . وقد ظل المدخل التطورى مسيطرا عـلى علم الاجتمـاع والانثروبولوجيا حتى بعد القرن التاسع عشر . وبالرغم من رفض اميل دوركايم للمدخل التطورى فى علم الاجتماع والذى قال بـه أوجيست كومت الا أن اتجاهه العام فى تصنيف المجتمعات كان يعتمد على مخطط تطورى ، كذلك كان تقسيمه للعمل فى المجتمع يهتم بعمليـة التطور من المجتمعات البدائية الى المجتمعات الحديثة .

وعموما فقد قامت كثير من النظريات القديمة على أنـه من الممكن تحسين المجتمع من خلال مجهود انسانى مقصود . وأن المجتمع،وخاصة المجتمع الغربى كان يتحرك بعنف واصرار من مرحلة الى أخـرى تكون أحسن فى العادة . وقد ركز علماء الانثروبولوجيا انتباههم على الثقافة الانسانية بوجه عام وعلى التكنولوجيا المادية بوجه خاص ،وحاولوا تتبع التحسينات المتقدمة خلال عصور طويلة من الزمن ، وهى حركة تبدأ من البسيط والخام وغير الكافى نحو تعقيد وكفاية تزداد باستمرار .

ومن الملاحظ أنه فى كل المفاهيم المتعلقة بالتطور كانت تظهر فكرة مجردة وهى البحث عن عامل « وحيد » « أو قانون » للتغير . وهـذا ما قوبل بالرفض والنقد فيما بعد ،وتراجع الاهتمام بالنظريات العريضة عن التغير من خلال التطور وحل محله الاهتمام ببعض الاشكال التطورية المحددة . ويمكن اعتبار الجدة والتنوع والتعقيد المتزايد مـن المظاهر الدالة على أنماط التطور . فبعض مايطلق عليه ثورات اذا ما حذفنا حرف R من كلمة Revolution فانها تدل على التطور Evolution . فمثلا اذا نظرنا الى الثورة الزراعية نجـد أنه من الأفضـل والأدق لو أطلقنا عليها مصطلح التطور الزراعى . وبنفس المنطق يمكن ان نتكلـم عن التطور الصناعى بدلا من الثـورة الصناعية . وفى كلتـا الحالتين السابقتين هناك أنماط ثورية مميزة فى استخدام الطاقـة والتكنولوجيا ومهارات العمل والمواد الخام . ومع ذلك فان ظهور كل هذه العوامل كان

قائما على أسس وضعت من قبل فى تتابع تراكمى • فكل تقدم يتطلب جدة وتوجيها وتنوعا مما ينتج عنه التعقيد المتزايد باستمرار •

ومن المعقول والممكن أيضا أن نعزل اشكال التغــير الفردى وأن نتحدث عن تطورها • ومثال ذلك استخدام كل من « ريتشارد شوارتز » و « جميس ميللر » (١) مادة علميــة انثروبولوجية لمحاولــة رسم نمط « للتطور القانونى » فقد اثبتا ان التنظيم القانونى يبدو أنه يتقدم بدرجة من الانتظام ، وأن عناصر مثل هذا التنظيم تظهر على التوالى لدرجة أن كل منها تكون شرطا ضروريا لظهور العنصر التالى • وتوضــح النتائج الأولية أن هناك نوعا من الاستمرار فى نمط التطور القانونى • ففى عينة من واحد وخمسين من المجتمعات ، وجدت تعويضات عن الاضرار وتوسط بين النزاعات فى كل مجتمع له مجلس قانونى متخصص • وبالاضافة الى ذلك فان أغلبية كبيرة من المجتمعــات (٨٥ فى المائة) مــن التى طورت شرطتها المتخصصة تستخدم أيضا التعويضــات والمصالحات • وتؤيد نتائج الدراسة الاعتقاد بأن التتابع التطورى يحدث فى نمو المؤسسات القانونية (٢) •

ولقد ناقش روبرت • ن • بيللا تتابعا مشابها للتطور فيما كتبه عن « التطور الدينى » (٣) • فهو يرى التطور على « أنه عملية تمايز متزايد وتعقيد للتنظيم الذى يهب الكائن الحى أو النسق الاجتماعى أو أى وحدة

---

1) Schwartz, Richard, and James. C. Miller, «Legal Evolution and Societal Complexity.» In S.N. Eisenstadt (ed.), **Reading In Social Evolution and Development**, Newyork; Pergamon, 1970, pp. 155 - 172.

2) Ibid, p. 171.

3) Bellah, Robert N. «Religious Evolution, S.N. Eisenstadt (Ced.), **Redding in Social Evolution and Development**, N.Y, Pergamon, 1970, pp. 211 - 244.

تكون موضع البحث قدرة أكبر لتتكيف مع بيئتها التى كانت أقل تعقيدا عند أجدادها . وفى ضوء هذا التصور للتطور فقد تتبع ظهور الدين من خلال مصطلحات تطور الانساق الرمزية الدينية التى تحركت من مجموعات دينية « متمايزة » والتى أصبحت أكثر تمايزا عن البنساءات الاجتماعية الأخرى . وعلى هذه الأسس وضع « بيللا » تخطيطا لخمســة مراحل متتالية وهى كما صورها : المراحل الدينية البدائية والقديمة والتاريخية والحديثة المبكرة والحديثة المتأخرة . وبالرغم من ذلك فقد أشار « بيللا » الى أن هذه المراحل النموذجية ليست حتمية وأن الحالات الفعلية قد تشتمل على مظاهر لا يمكن أن تكون قاصرة على مرحلة واحدة فقط .

والتطور لايصور فقط من خلال التغيرات الكيفية فى التنظيمات كما صور فى حالة النظم القانونية والدينية فهو يمكن أيضا أن يتميز « **بالتراكم الكمى** » ويتضمن المدخل الكمى فى دراسة الأنماط التطورية أن ظهور أشكال معينة يمكــن أن يتراوح بمقياس من أعداد صغيرة الى أعــداد كبيرة . فمثل هذا المقياس الكمى مطلــوب . مثلا فى دراسة قــام بها « مورتون فرايد » عن تطور الطبقات نجد أنه استخدام مقياسين : النسبة بين أوضاع النفوذ المتاح لاى طبقة معروفة السن والجنس وبين عدد الاشخاص القادرين على شغلها من ناحية ، والنسبة بــين المصادر الاستراتيجية والأشخاص الذين يمتلكون القدرة على أن يكونوا معوقين أو غير معوقين نحوها من ناحية أخرى (١) .

وقــد اقترح « لسلى هوايت » فى دراسته القديمة عــن « علم الثقافة » (٢) مقياسا كميا احتماليا عن ظهور استعمال الطاقة . وقرر أن

---

1) Fried, Morton, «The Evolution of Political Society», New York : Random House, 1967.

2) White, Leslie, «The Science of Culture» New York : Grove Press, 1949.

الثقافة تطورت نتيجة ازدياد كمية الطاقة التى تسخر لكل فرد فى السنة وكذلك ازدياد كفاية الوسائل الآلية التى تضع الطاقة موضع العمل •

وهكذا يتبين لنا أنه من الممكن دراسة أشكال التغـير التطورى أو أنماطه فى المجتمعات المختلفه من الناحيتين الكيفية والكمية • فانماط التغير مثل الانساق القانونية والدين والتمايز الطبقى واستخدام الطاقة وانتاج الطعام وما أشبه ذلك يمكن أن تعزل وينظر اليها فى نطاق تطورى • وتميل أنماط التغير هذه الى التطور بطريقة تراكمية ويكون ذلك عادة من خلال اعادة التوجيه وزيادة التنوع والتعقيد كنتيجة لدمج الصفات الجديدة •

ثانيا : الثـــورة

دخلت كلمة « ثورة » مثل كلمة « تطور » فى العلوم الاجتماعية عن طريق العلوم الطبيعية • وتعرف الثورة على أنها تغـير سريع وعنيف وأساسى فى التنظيم السياسى وعلاقات السلطة والطبقات ونظام التحكم فى الملكية الاقتصادية وفى الخرافات السائدة للنظام الاجتماعى داخـل مجتمع ما (١) • وهكذا تعتبر الثورة أكثر الاشكال جذرية وتطرفا للتغير الاجتماعى • وقبل أن نتقدم الى أبعد من ذلك مع أنماط التغير الاجتماعى يجب أن نضع فى اعتبارنا أن كل تغير لا يصحبه مثل هذا العنف والقوة ولا يتضمن اقامة قوى سابقة أو تغييرا جذريا فى البناء الاجتماعى أو النظام السياسى • ومثال ذلك أن كثيرا من ثورات أمريكا اللاتينية قبل الحرب العالمية الثانية كانت مجرد اطاحـة الكولونيل (س) بواسطة الجنرال (ص) وأتباعة ، ولكن بعد الاطاحة وحلول حاكم جديد محـل الحاكم القديم لايتغير شىء فى البناء الأساسى للمجتمع • وشبيه بذلك

---

1) Neumann, Sigmund. «The International Civil War» in «Clifford T Paynton and Robert Blackey (eds.), «Why Revolution ? Theories and Analysis», Cambridge, Mass. : Schenkman, 1971, pp. 110-113.

دراسة « ماكس جلوكمان » لما اسماه « دورات العصيان » فى عـــدد من الممالك الأفريقية قبل الاحتلال حيث وجد أن هناك حركات عصيان وقتية، وسيطرة قبيلة على أخرى من أجل تقوية النظام السياسى القائم وكذلك البناء الاقتصادى وليس من أجل اضعافهما • وقد استمرت هذه النظم الاجتماعية دون أى تعديل حتى حدثت تغيرات جذرية عندما دخلت قوى الاستعمار الغربى (١) • بأدواته وأفكاره مما أيقظ الـــروح الوطنية فى تلك المجتمعات •

وشبيه بذلك أيضا ما يطلق عليه « التغيرات الثورية » فى العـــلم « فهذا تغير فى نظام التفكير أو النظرة العالمية ، فهو ثورى فى حده الأقصى وكان له نتائج واسعة فى المجالات التكنولوجية والسياسية والاقتصادية والدينية للحيـــاة » (٢) فمثلا عندما قـــام « نيقولا س كوبر نيكوس » بوصف الشمس على أنها مركز للكون والارض تدور حولها نتج عن ذلك تغيرات ثورية فى الفلك • وكذلك اختراع « جون جوتنبرج » للمطبعة فى عام ١٤٣٧ مما أحدث ثورة فى فنون نشر المعرفة • ولا تحتاج أسماء مثل « اسحق نيوتن » و « ألبرت أينشتاين » الى تعليقات فى مجال مساهمتهما فى الثورة العلمية • وفى الطب يمكن أن نشـــير الى بعض من أعتبـــرت أعمالهم ثورة فى مجالها وهؤلاء من أمثال « لويس باستير » و « كونراد ولهلم رونتجن » الذى اكتشف آلـــة أشعة اكس • أو « اجنـــاز فيليب سيميلوس » عالم الطبيعة الهغارى الـــذى خفض نسبة الوفيات عـــن طريق استخدام الوسائل المطهرة فى التوليد وخاصة حمى النفاس • وهذه الأمثلة تعتبر قليل من الصور التى توضح أن الأشكال الجذريـــة للتغير الاجتماعى لاتحتاج الى العنف بالضرورة أو لابـــد ان تتضمن البنـــاء

---

1) Gerlach, Luther P., and Virginia H. Hine. «Lifeway Leap : The Dynamics of Change in America» Mennea Polis : University of Minnesota Press, 1973, P. 19.

2) Ibid, p. 20.

الأساسى للمجتمع . ومع ذلك فسوف نحاول فيما يلى استخدام مصطلح « ثورة » كما يستخدم فى نطاق التعريف الأصلى .

ان الثورة « واقعة اجتماعية شاملة » كما يقول علماء تطور الجنس البشرى . وهى تشمل جميع ميادين الثقافة . وينشأ وضع ثورى عندما يتم اعداد حلول أو تحديدها تماما ، لتحل محل الحلول السابقة . .

وبدأ أى عملية ثورية يحتاج الى خمسة شروط أساسية ، كما يجب أن يتحقق عمل انتقادى فى خمس اتجاهات مختلفة ومتقاربة ، على أن يكون فكريا أو نظريا من جهة حين يرفض النظام القائم ويسخر منه ويحمل على سوء تصرفاته وأعماله ، ويقترح الاصلاحات المناسبة . ويكون من جهة أخرى عمليا أى أنه يشكل معارضة عمليـة لتصرفـات المقاومة والهجوم . ان قائمة هذه التصرفات طويلة جدا فى التاريخ ، فهى تمتد من الاستخدام الكامل لاداة قانونية موجودة (مثل طلب حـل جمعية وطنية أو طالب انعقاد المجالس العامة) الى الثورة المسلحة مرورا بألف وسيلة أخرى كالاضراب ، والمقاطعة وحملات توقيع العرائض ، ورفض دفع الضرائب ، والمسيرات وقطع الطرق ، وخطف الشخصيات واختطاف الطائرات الخ ... الا أن هذه الاعمال لايكون لها فاعلية ثورية الا ضمن تخطيط جماعى ، كما أنه لايكون لأى منها قيمة فى حد ذاته الا اذا كان هناك تنظيم جديد مستعد للحلول مكان التنظيم السابق ، أى اذا تأمنت الشروط الخمسة المطلوبة وهى :

١ — انتقاد الظلم فى العلاقات الاقتصادية والاجتماعية .

٢ — انتقاد الادارة والفاعلية ، ويستهدف هذا الانتقاد هـدر الطاقات المادية والبشرية باظهاره أن الظلم يجر الى سوء التنظيم ، وبالتالى الى عدم الانتاج والتبذير .

٣ — انتقاد السلطه السياسية ، وهو يستهدف حينا مصدرها ومبدأها ، وحينا آخر أسلوب السلطة .

٤ ـ انتقاد الثقافة وهذا يشمل الاخلاقيات والمعتقدات السائدة ، والعادات ، والمفاهيم ، والأدب ، والفن ، وانتقاد المواقف العقائدية الكامنة خلفها ، وانتقاد عمل الثقافة والمفكرين فى المجتمع وأساليب نشر هذه الثقافة (التعليم والنشر والاعلام) .

٥ ـ انتقاد نمط الثقافة السابقه باعتباره يشكل قيدا ، أو المطالبة بالحرية الفردية ، ويستهدف هذا الانتقاد العلاقات بين المجتمع والفرد ، وتعتبر الثورة فى هذا النطاق تحريرا للخلق الشخصى وبحثا للمبادرات فى وجه « الأفق المسدود » وجو الضغط فى المجتمعات القمعية (١) .

وعموما ، فانه لايمكن القيام بثورة ارتجالا لان الثائر الملهم الذى يتخيل أنه سيخترع كل شىء فى حينه مصيره الفشل ، أما الثائر ذو الروح الثورية الحقيقية فانه يتبع أسلوب الابتكار المجهز سابقا، وهو يبقى باب المبادرة مفتوحا دائما أمام الجميع ، ويجعل التنفيذ دائما دقيقا وكفؤا .

ولاشك ان الزوال هو مصير الثورة التى لاتكون أكثر تقنية وأحسن ادارة من النظام الذى أزالته . فهى لو كانت كذلك تبقى متخلفة أو تقع بسرعة فى التخلف، وبذلك تجد نفسها عاجزة عن تنفيذ وعودها. وعند ذلك يتحتم عليها أن تختار بين ترك الميدان لغيرها أو الاكتفاء باللجوء الى الدكتاتورية لكى تبقى فى الحكم .

ان الوجوه الخمسة التى استعرضناها غير قابلة للتفريق ، فهى خمسة وجوه لحقيقة واحدة ، واذا غاب أحدها انهار المجموع أو فشل أو انتفى وجوده أصلا . ومجمل القول أنه لايمكن ان تقوم ثورة تعتبر مثالا عالميا، الا فى المجتمع الذى يجرى فيه النقاش المتناقض بين الأطراف المتنازعة على

---

(١) جان فرانسوا ريفيل ، « رياح التغير الجديدة » ، ترجمة فؤاد مويساتى ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت .

أعلى مستوى ، أى اذا كان يشمل القوى الممثلة لارفع درجات التطور المعاصر فى حقول الاقتصاد والسياسة والعلوم والادارة والتكنولوجيا والثقافة والانتاج والاعلام والاخلاق والآداب •

كما يجب أن يدور « الحوار » بين أذكى الثوريين المعاصرين وأذكى الثوريين الرجعيين لكى يصبح الحوار « ديالكتيكيا » أى جدليا ويولد ثورة ، أى نموذجا جديدا للثقافة لا مجرد انقلاب محلى ، حتى لو كان يتمتع بمسانده شعبية •

ثالثا : الانتشار

يشير الانتشار الى العملية التى بواسطتها تنتشر بها عناصر أو انساق الثقافة والتى ينتقل بها اختراع جديد أو نظام جديد من مكانه الاصلى الى المناطق المجاورة وفى بعض الحالات فى المناطق الملاصقة لها حتى تنتشر تدريجيا فى العالم كله (١) • وقد نشأت نظرية الانتشار كبديل لنظرية التطور • وهى تقوم على أساس فكرة المراكز الثقافية المسيطرة أو السائدة والتى حولت فيما بعد الى نظرية فى التغير الاجتماعى عند « ج• اليوت سميث » (٢) ، فطبقا لرأى «سمث» نجد أن مجموعة غير عادية من الظروف خلقت دفعة قوية من النمو الثقافى فى مصر • ففى حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد تقدمت تكنولوجيا الزراعة بسرعة ، وظهرت الهندسة ، وتطورت صناعات المعادن والأدوات ، والطب ، والفلك ، والنسيج ، والتحنيط • ونشأ كذلك نظام سياسى جديد له تأثيره • ومن هذا المركز للتجديد الثقافى بدأت عناصر ثقافية تنتقل فى كل أنحاء منطقة البحر الأبيض المتوسط والى كل شعوب العالم بعد ذلك • ويناقش « سميث » أن ابداعية المصريين فى هذا العصر كانت هى « السبب » فى

---

1) Kroeber, A. L. «Diffusionism». in Amitai Etzioni and Eva Etzioni - Halevy (eds.), Social Change : Sources, Patterns and Consequences, 2 nd ed, New York : Basic Books, 1973, pp. 140 - 144.

2) Ibid, p. 143.

التعير الاجتماعى فى أجزاء مختلفة من العالم ، وأن ما قــام المصريون بابداعه قد « انتشر » الى عدة مجتمعات قامت بتبنيه •

ومن أجل تقديم الدليل على صدق نظريته فقد حـاول سميث أن يحدد وجود كثير من أوجـه التشابـه الثقافى بين المصريين القـدماء ومجتمعات بعيدة عنهم فى الزمان والمكان مثل سكان « انيكاس » فى بيرو وشعوب الهند والمكسيك • فهو يؤكد باقتناع أن الشص (العظمة المعقوفة لصيد السمك) الموجودة فى ميلانيزيا كان أساسها رمح من البرونز طوره المصريون وكذلك فان خبرة الشعوب المايانية (فى أمريكا الوسطى) فى بناء الاهرامات اشتق من خبرة قدماء المصريين فى تحنيط الموتى ودفنهم فى أهرامات ضخمة • وعموما فقد برهنت هذه النظرية الانتشارية على امكانية وجود بديل لنظريات التطـور من حيث افتراضها أن التغـير الاجتماعى الذى تعرضت له ومازالت مجتمعات العالم كان نتيجة الاتصال والانتشار بين تلك المجتمعات •

وقد أكد هذا الاتجاه علماء الانثروبولوجيا فى الولايات المتحدة فى منتصف الأربعينات وذلك بتركيزهم على أهمية الانتشار كنمط من أنماط التغير (١) فكما يقول كروبير « فسواء اشتمل الانتشار على شىء آخر أم لا فانه يتضمن تغيرا للثقافة التى بستقبلها ، فالدور الكلى الذى يلعبه الانتشار فى الثقافة الانسانية هو بلا شك دور كبير » • كمـا يفترض « كروبير » أن نمو التعقيـدات الثقافية يرتبط عكسيا مـع المسافة من « المراكز الأصلية » للحضـارات • أى أنه كلمـا زاد انعزال وابتعاد المجتمعات عن مثل هذه المراكز كلما كان تأخرها تنمويا أكبر •

ويرى « جورج ميردوك » (٢) أن حوالى ٩٠ فى المائة من كل ثقافه

---

1) Lauer Robert H. «Perspectives of Social Change» 2 nd ed Boston Allyn and Bacon, 1977. P 291

2) Murdock, George p., «Our Primitive Contemporaries». New York : Macmillan, 1934.

عرفها التاريخ المعروف اكتسبت عناصرها من شعوب أخـرى • ويمدنا « رالف لينتون » (١) بوصف كلاسيكى لهذه النقطة فى محاولة معرفـة الأصول التى أتت منها الاشياء التى يستخدمها الامريكى اليوم ومن بين هذه الأشياء نجد أن السرير وصل من الشرق الأدنى عـن طريق شمال أوربا ، ووصل القطن من الهند ، والحرير من الصين ، والبيجاما من الهند، وحلاقة الذقن من مصر ، ووصل رباط العنق (الكرافت) من كرواتيا فى القرن السابع عشر ، والمظلة من جنوب شرق آسيا ، والعملـة من ليديا القديمة • وعندما يتناول الطعام فهو يستخدم أطباق اخترعت فى الصين وسكينا من جنوب الهند ، وشوكة من ايطاليا ، وملعقة مأخوذه من المجتمع الرومانى • والبرتقال الذى يأكله من شرق البحر المتوسط والشمام من بلاد الفرس،والبن من الحبشة،والفطائر مصنوعة طبقا للفن الاسكندنيافى من قمح زرع فى آسيا الصغرى • والسجائر مأخوذة من المكسيك مـن نبات الدخان الذى نشأت زراعته فى البرازيل ، والجريدة التى يقرؤها طبعت بحروف اخترعت فى المانيا • وبعد كل ذلك فانه اذا كـان مواطنا محافظا فانه يشكر الاله بلغة هنديـة اوربية على أنه أمريكى مائـه فى المائه (٢) •

ويظهر الانتشار أيضا داخـل المجتمعات الكبيرة المعقـدة • حيث يمكننا تتبع كثيرا من عناصر الثقافة حتى نرجعها الى جماعات معينة فى المجتمع كمصدر أو منبع لثقافة فرعية معينة ، والتى انتقلت بعد ذلك الى جماعات أخرى عن طريق الانتشار • ولكى نوضح هذا نجد أن موسيقى الجاز ظهرت أولا عند الامريكيين السود فى الجنوب وعندما تحركوا الى الشمال وخاصة الى شيكاغو وبعض المراكز الحضرية الأخرى حملوا معهم موسيقاهم ، وهكذا أصبحت موسيقى الجاز اليوم جزءا هاما فى التراث

1) Linton Ralph. «The Study of Man : An Introdaction» New York Appleton, 1936, pp. 326 - 327.

2) Appleton Ibid.

الثقافى الامريكى : وبنفس الطريقة يمكن التعرف على أصل الثقافة الشعبية مثل طرق تصفيف الشعر والملابس وأشكال الرقص والعامية التى انتشرت من الثقافات الفرعية المتميزة الى المجتمع •

ولقد نما جزء كبير من الأدب فى السنوات الأخيرة على أساس الانتشار فبالاضافة الى علماء الانثروبولوجيا الذين كانوا يهتمون بكيفية انتشار الافكار والممارسات الجديدة من مجتمع الى آخر ، فان علماء الاجتماع قاموا بدراسة انتشار القيم والأساليب الجديدة داخل المجتمعات • وعلى الأخص علماء الاجتماع الريفى الذين قاموا بدراسة أسباب انتشار التكنولوجيا الزراعية الجديدة بين الفلاحين • وقام علماء التربية بدراسة تبنى المدرسة لطرق التدريس الحديثة والوسائل التعليمية الايضاحية ، واهتم علماء الاقتصاد بعملية التقليد التى تبنت من خلالها الشركات التكنولوجيا الحديثة وعمليات الانتاج • وركز الباحثون فى طرق الاتصال اهتمامهم على عملية الانتشار لتحسين مستوى فهمهم لديناميكية الاقناع والدعاية • ودرس علماء السوق مفهوم الانتشار لعدة سنوات فى محاولتهم التحكم فى انتشار المنتجات الجديدة •

وهناك بحث عن الانتشار تم تحت اشرف « ايفرت •م•روجرز » [1] فى كتابه « انتقال التجديدات » وهو بحث جعل الانتشار فى المقدمة كموضوع للبحث التطبيقى والنظرى • ويرى « روجرز » أن العناصر الحاسمة فى عملية الانتشار هى :

١ — التجديد ٢ — الذى « ينتقل » من خلال «قنوات»

---

1) Rogers. Everett M. and Others, «Communication of Innovations» New York.: Free Press. 1971. P. 18.

معينة .   ٣ — على مر « الزمن » .

٤ — بين أعضاء « نسق اجتماعى » . ثم يقوم بعد ذلك بتحديد خمسة مراحل لعملية التبنى (١) كالآتى :

١ — مرحلة الوعى : يعرف الفرد الفكـرة الجديدة ولكن تنقصه المعلومات الكافية عنها .

٢ — مرحلة الاهتمام: يصبح فيها الفرد مهتما بالفكرة ويبحث عن معلومات أكثر .

٣ — مرحلة التقييم : يقوم الفرد بعمل تطبيق عقلى للفكـرة الجديدة على حاضرة وموقفه الذى يتنبأ به مستقبلا ويتخذ قرار تجربتها أم لا .

٤ — مرحلة المحاولة : يستخدم الفرد التجديد على نطاق ضيق لتقرير مدى فائدته له .

٥ — مرحلة التبنى : يقبل الفرد التجديد ويرغم نفسه على استعماله . وسواء تم تبنى التجديد أم لا فان هناك عدة عوامل تحـدد سرعة تبنية ، وأحد هذه العوامل هو ادراك صفات التجذيدات كالآتى :

١ — الفائدة النسبية : وتشير الى الدرجة التى يظهر من خلالها التجديد متفوقا على الأفكار أو المنتجات الأخرى . وتتأكد هـذه الدرجة من خلال مصطلحات الكفاية والتكاليف والجدة أو الفوائد المدركة.

٢ — الانسجام : ويشير الى الدرجة التى يظهر فيها التجديد متمشيا مع القيم السائدة ، والخبرات الماضية ، والاحتياجات المستقبلية. فمثلا صياد الاسكيمو يمكن أن يدرك بصورة مباشرة مدى تفوق السلاح الصلب على السكين التى يستعملها ولكنه غير متأكد تماما

---

1) Ibid.,P : 100.

من المزايا المزعومة للمسيحية بالنسبة لعقيدته هو • وشبيه بذلك أيضا نظرة البسطاء أو الريفيين فى مجتمعنا الى طـرق تنظيم الأسرة باعتبارها لاتنسجم مـع التقاليد والقيـم والمعتقدات السائدة •

٣ ــ **التعقيد :** ويشير الى مدى رؤية أن التجديد يكون صعبـا نسبيا من حيث فهمه أو استخدامه • وقد تقوم سرعة التبنى على أساس متصل : التعقيد ــ البساطة • وكقاعدة فان سرعة تبنى أى تجديد تكون أبطأ عندما يفهمه أعضاء نسق اجتماعى على أنه شىء معقد•

٤ ــ **القدرة على المحاولة :** وهى الدرجة التى يمكن بها تجريب التجديد على أساس محدود • فيمكن تجربة أشياء معينة على نطاق صغير• وهناك اختراعات معينة مثل السيارة أو التلفزيون تم قبولها كما هى • حيث أنها تمتاز بسرعة التبنى بمجرد تجربة نموذج واحد منها ، وذلك لسرعة ادراك الفوائد التى يمكن أن تعود على الناس من استعمالها •

٥ ــ **القدرة على الملاحظة :** وهى تشير الى مدى ظهور نتائج التجديد للآخرين • والحقيقة أن بعض الاشياء كالملابس أو السلع المعمرة القابلة للملاحظة سهل سرعة التبنى • والنقطة الحاسمة هنا طبقا لما يقوله « روجرز » هو كيفية ادراك أعضاء النسق الاجتماعى لهذه الصفات طالما أنها هى التى تحكم استجاباتهم •

ويرى « روجرز » أن نمط قرار التجديد يرتبط بمعدل تبنى هـذا التجديد وهو يلخصه هنا فى ثلاثة نماذج :

١ ــ **اختيارى :** وفيه يقوم الفرد فى أى نسق اجتماعى باختيار تبنى التجديد أم لا •

٢ ــ جمعى : حيث تحتاج غالبيـة أعضاء النسق الاجتمـاعى الى

الاقتناع بالتجديد .

٣ ـ **سلطوى :** أى أن القرار هنا يفرض على النسق الاجتماعى كما فى حالة ادخال الفلوريد فى الماء .

وتعتبر قنوات الاتصال أيضا من الأشياء التى تؤثر فى معدل التبنى . وتعتبر قنوات العلاقات الشخصية أكثر فاعلية بالنسبة للتجديدات الأكثر تعقيدا عن قنوات الاتصال الجماهيرى . وأخيرا ، فان كلا من طبيعة النسق الاجتماعى سواء كان حديثا أو تقليديا . ومدى مجهودات الهيئات القائمة بالتغيير تؤثر فى سرعة التبنى .

ويحدد « روجرز » فى بحثه المشار اليه خمسة أشكال على أساس انها الاشكال النموذجية للقائم بالتبنى وهى :

١ ـ المجددون :

وهم الذين يرغبون فى تجربة الأفكار الجديدة . فهم أشخاص يتميزون بالجرأة ، وحب المخاطرة ، والرغبة فى تحمل نتائج أعمالهم .

٢ ـ المتبنون الأوائل :

وهم الاكثر تكاملا فى النسق الاجتماعى عن المجددين ويميلون الى أن يكونوا أكثر استمرارا ونجاحا واحتراما .

٣ ـ الغالبية المبكرة :

وهم الذين يتبنون الأفكار الجديدة قبل الناس العاديين فى النسق الاجتماعى . كما يميلون الى أن يكونوا متعمدين ، وأن يساعدوا على وضع التجديد بطريقة شرعية بالرغم من أنهم نادرا مايكونون من القادة .

٤ ـ الغالبية المتأخرة :

وهم الذين يتبعون الآخرين بعد أن تظهر نتائج التبنى عند غالبية أعضاء النسق الاجتماعى • وقد يأتى التبنى عندهم نتيجة لضغوط اجتماعية أو ضرورات اقتصادية •

٥ ـ المتخلفون :

وهم الذين يشكون فى المجددين ، وهيئات التغير ، ولديهم قيما تقليدية يتمسكون بها وعموما فهم آخر من يقبل أى تجديد •

ويمكن تصوير التأثيرات المشتقة عن الانتشار بالتغيرات التى ظهرت فى الولايات المتحدة نتيجة اختراع وتبنى السيارة • فقد ظهرت التغيرات أولا فى المؤسسات الاقتصادية المرتبطة مباشرة بصناعة السيارات مثل مؤسسات الصلب والمطاط والزجاج والصناعات البترولية• وقد تأثرت المؤسسات الحكومية بطرق مختلفة بدءا من بيع الجازولين حتى ملاحظة وضبط الجريمة • وقد وصل تأثير السيارة الى كل أوجه الحياة حتى الى الدين بطرق متعددة ، حيث أصبحت السيارة تنافس الكنيسة من أجل الحصول على وقت الناس وطاقتهم • وأكثر من ذلك فقد وجدت الأسرة فى السيارة مصدرا جديدا للترويح والضبط الاجتماعى والانفاق الاقتصادى •

وأخيرا ، فان مفهوم الانتشار المخطط أصبح مفهوما له أهميته فى السنوات الأخيرة فى مجال التحديث والنمو الاقتصادى ومساعدة دول العالم الثالث • ويعتبر برنامج هيئات السلام مثلا يحتذى به للانتشار المخطط ، وفى مجال التسويق بنوع خاص نجد أن هناك مجموعة من النماذج الجديدة قد تطورت فيما يتعلق بانتشار المنتجات وتكرار أنماط

الشراء وما شابه ذلك (١) •

وبين علماء الديموجرافيا يلقى انتشار التكنولوجيا الخاصة بمنع الحمل فى الدول النامية اهتماما متزايدا • ويعتبر فهم الانتشار مهما للغاية فى التغير الاجتماعى المخطط ، وهو موضوع للبحث له نتائجه المثمرة •

رابعا : اكتساب الخصائص الحضرية

يشير اكتساب الخصائص الحضرية الى أخذ الخصائص المادية وغير المادية من ثقافة أخرى كنتيجة للاتصال طويل المدى • ويمكن لهذا الاتصال أن يتم بطرق متعددة • فقد يكون نتيجة لحرب أو غزو أو احتلال أجنبى أو استعمار أو قد يكون من خلال مبعوثين أو تبادلات ثقافية • وقد يأتى أيضا نتيجة للهجرة أو نقل القوى العاملة من خلال الرق أو ترحيل الأجانب غير المرغوب فيهم • وتعتبر تحركات العمال الاختيارية عاملا آخر فى خلق الاتصال كما هو الحال فى اوربا حيث العمال الضيوف من البلاد الاوربية الأقل تطورا ينتقلون للعمل فى فرنسا والمانيا وسويسرا وتمثل التجارة ، والتبادل الفنى ،وانتشار الأفكار ، والمؤسسات مصادر أخرى للاتصال •كما ظهر فى العصر الحديث نوع جديد من الاتصال عن طريق الرحلات والسياحة • وتتضمن الأشكال غير المباشرة للاتصال ، الاتصال الجماهيرى وانتقال المعرفة • ومن خلال هذه الأشكال المتنوعة للاتصال فانه ينظر الى « اكتساب الخصائص الحضرية » باعتباره نمطا للتغير ينبع من الاختلاف بين ثقافتين » (٢) •

ويعتبر « الانتشار » أحد وجوه اكتساب الخصائص الحضرية ،

---

1) Robertson, Thomas S. «Innovative Behavior and Communication » New York : Holt, Rinehart and Winston, 1971, P. 71.

2) Lauer, Robert H. op. cit, p. 295.

وبالرغم من أن « الانتشار » يحدث فى كل حالات اكتساب الخصائص الحضرية ، ونظرا لأن الخصائص والأفكار تنقل قبل أن تؤثر على ثقافات مستقبليها ، فانها تعتبر عادة مكونا للعملية الأكبر لاكتساب الخصائص الحضرية . فالانتشار يهتم عادة بخاصية واحدة أو عدد صغير من الخصائص ، بينما يمد التبادل الثقافى الجماعة بعديد من الطرق الجديدة الممكنة للوجود ، والتى قد تكون مختلفة تماما عن تلك الموجودة فى ثقافتها الخاصة ومعاييرها التقليدية ومعتقداتها . وفى معظم الحالات نجد أن اكتساب الخصائص الحضرية يكون أيضا أكثر سرعة وأكثر ملاحظة عن الانتشار . وينتج اكتساب الخصائص الحضرية عن الاتصال ، بينما قد لا يكون الاتصال مطلوب فى الانتشار . وينتج عن اكتساب الخصائص الحضرية تشابهات كبيرة بين ثقافتين ، بينما يشير الانتشار عادة الى تأثير أقل .

وبوجه عام فان ثقافتين متصلتين نادرا ما تتأثران بنفس الدرجة . فالجماعات التابعة من الناحية السياسية تتبنى فى العادة الخصائص الثقافية للجماعة المسيطرة . والجماعات التى تعتبر فى مكانة « أدنى » فى المجتمع تشعر أنها عندما تتخذ خصائص الجماعات « الأعلى » فانها نتيجة لذلك تصبح فى موقف أعلى وتنال نفس الاحترام الذى تتمتع به جماعات المجتمع « الأعلى » . وفى المواقف التى لاتتضح فيها الجماعة على أنها « أعلى » فقد تكون هناك وقفة فى تبنى خصائصها وهكذا تميل كل جماعة الى الاحتفاظ بحقيقتها (١) .

وقد يكون التبادل الثقافى اراديا أولا ارادى . ويحدث النوع الارادى عندما يكون أعضاء جماعة على اتصال بجماعة أخرى وتقبل بعضا من خصائصها ومميزاتها ومبادئها وقيمها دون استخدام أى نوع

---

1) Devos. George A. (ed.), «Responses to Change, Society, Culture and Personality» New York : Pan Nostrand. 1976. p. 4.

من القهر أو الالزام • ويحدث هذا الموقف عندما لا تكون أى من الجماعتين أعلى من الأخرى • ومن ناحية أخرى فان اكتساب الخصائص الحضرية اللاارادى يبدو أنه الأكثر انتشاراً • ولنحاول فيما يلى بحث بعض تشعباته وعواقبه •

فقد قامت أغلب القبائل الهندية فى الولايات المتحدة بعمل توافقات من خلال عملية اكتساب الخصائص الحضرية • فقد استطاع عدد قليل منها أن يتمثل الثقافة الأخرى بينما عانت القبائل الأخرى نتيجة للاتصال الثقافى والاجتماعى مع البيض • وبالرغم من ذلك فانه يجب أن نلاحظ أن الاتصالات المبكرة كانت من النوع الذى أدى الى الانتشار ، فقد حمل التجار والمبعوثون والصيادون معهم سمات جديدة للهنود واستعاروا منهم فى المقابل أشياء أخرى مثل الملابس الجلدية والدخان وأحذية الجليد والقمح وأشياء أخرى عديدة • فقد كان هناك فى ذلك الوقت باعث للانتشار ولكن لم يحدث اكتساب للخصائص الحضرية • وقد بدأ اكتساب الخصائص يأخذ صورة جدية بوصول السكان البيض والجنود والاداريون •وكانت النتيجة اختلال تنظيم الحياة الهندية من النواحى الايكولوجية والاقتصادية والسياسية واستمر البيض فى استعارة أفكار وخصائص الهنود ولكن بسبب مركزهم المسيطر لم يكن هناك « تبادل ثقافى » متبادل بينهما •

وفى بعض الأحيان فان اكتساب الخصائص الحضرية يمكن أن يكون بالقوة ومخططا له • ومثال ذلك محاولات الاستعمار البريطانى من أجل « تمدين » الافريقيين المتخلفين • فقد استدعت هذه المحاولات من أجل التمدين تعليم اللغة الانجليزية ونقل المهارات الاساسية والتكنولوجيا • وقد اتخذت تسهيلات اقليمية على مستوى الوسيلة من أجل تشجيع الحركة المحدودة . ورغم ذلك فاننا نلاحظ فى نفس الوقت أن المستعمرين استمروا فى الاحتفاظ بالحدود الصارمة بينهم وبين الجماعات الاقل منهم• وبنفس الطريقة فان البرتغاليين والأسبان الذين غزوا أمريكا اللاتينية

كانوا ناجحين فى اخضاع الثقافات الهندية الوطنية مع بعض الاستثناءات فى فرض ثقافتهم الايبيرية على هـؤلاء الناس • فمن خـلال العنف ، والمرض ، وزيادة العمل ، والهجرة الاجبارية نجحوا فى اضعاف الأبنية الاجتماعية الوطنية التى يمكن أن تحتفظ بالثقافات التقليديـة • وهذا شبيه بما حدث للعبيد فى العالم الجديد ، وبالرغم مـن أن الاجراءات كانت أقل صرامة فان عملية التثاقف الحاليـة الموجودة بـين الاتحـاد السوفيتى والبلاد الاوربية الغربية تشير أيضا الى تثاقف اجبارى مخطط ففى بلاد أوربا الشرقية نجد أن تعليـم اللغة الروسيـة أساسى • وفى أغلب الحالات يتفوق تدريس التاريخ الروسى على أى تاريـخ وطنى للبلد • وكذلك فان دراسة الفلسفة السياسية والماركسية موجـود فى المدارس الثانوية والجامعات •

ويمكن أن ننظر لاكتساب الخصائص الحضرية أيضا على أنها التفاعل بين ثابت ومتغير ، أى بين ثقافة ثابتة مستقرة مستقلة وجماعة مهاجرة متكيفة (١) ، فتثاقف المهاجرين يمكن أن يوصف بأنه يأخذ شكـل متصل يتروح بين التمثيل الكامل أو عدم التمثيل على الاطلاق وفى أغلب الحالات يكون الوضع بين الطرفين أى لاهو قبول كامل ولا هو رفض كامل للثقافة الأخرى • ويمكن تحليل هذا المتصل بصيغة الرموز التى قدمها « رالف لينتون » (٢) فهو يصيغ الأدوار الاجتماعية فى أى ثقافة فى ثلاثة مقولات: عالمية ، وخاصة ، وبديلة • فالعالمية تشمل الخصائص العامة لكل أفراد المجتمع والخاصة يقتسمها أفراد فئات اجتماعية معينة ولكن لايشارك فيها كل السكان ، والبديلة تشمل الأدوار التى يشارك فيها أفراد معينون وهى غير عامة لكل أعضاء المجتمع أو حتى لكل أعضاء جماعة معينة (٣) •

---

1) Peterson William, «The politics of Population» New York : Doubleday, Anchor Books, 1965, P. 220.
2) Linton. op. cit, pp. 271 - 287.
3) Ibid, pp. 272 - 273.

ويتوقع « لينتـون » بالنسبة للمقولـه الأولى الامتثـال والتطابق من المهاجرين الى المجتمع ، وخاصة فيما يتعلق بالأفكار وأنماط السلوك التى يجب أن يتمثل معها كل السكان فى المجتمع • ففى الولايات المتحدة مثلا يشمل هذا تعلم اللغة الانجليزية ، والاعتماد عـلى النفس ، والتحالف السياسى • وتشير البدائل الى نوع من القبول الانتقـائى للخصائص والاحتفاظ فى نفس الوقت بالعادات الأصليـة القديمة وتمثـل عادات الطعام فى أى مجتمع هذه النقطة ، أما المعايير الخاصة فهى تناسب نوع العمل الذى يقوم به الفرد وهو بدوره عامل فى وضعه الطبقى • وهكذا يتبين لنا أن التثاقف أو اكتساب الخصائص الحضرية الكامل للمهاجرين يظهر فقط طبقا لمعايير « لينتون » فى المقولة الأولى وهى العالمية ، بينما تشاهد الأدوار الاجتماعية فى المعايـير « الخاصة » وتحتفـظ المعايير « البديلة » بدرجة من التفرد والمرونة •

خامسا : التحديث

يشير مصطلح « التحديث » الى انتقال المجتمع من مجتمع تقليدى أو مجتمع ما قبل الحديث الى أنماط تكنولوجية وما يتعلق بها من تنظيم اجتماعى يميز الدول الغربية المتقدمة اقتصاديـا والمستقرة نسبيا (١) • وهذا الانتقال نادرا ما يحدث بلطـف وسهولة ، حيث أنه يؤثـر فى كل مؤسسة اجتماعية ، ويمس كل جماعة ، ويصبـح ملموسا فى كـل طرق الحياة • والتحديث مصطلح شامل يصف تغيرات عديدة فى وقت واحد وعلى مستويات متعددة • فالتصنيع والحضريـة والبيروقراطية ترتبط بشدة بالتحديث • ورغم هذا ومن أجل فهم وتحليل أفضل فاننا سوف نناقش كل منها على حده •

---

1) Moore, Wilbert E. «Social Change» 2nd ed. Englewoal Cliffs N.J : Prentice - Hall, 1974, p. 194.

ويمكن النظر الى التحديث باعتباره نوعا من التقليـد أو المنافسة ونقل أنماط ومنتجات وتكنولوجيا من بلاد غربية الى بلاد أقـل تقدما . وهكذا فانه كمطلب سابق للتحديث يجب أن يكون هناك اتصال عن طريق وسائل الاتصال والاحتكاك بين الثقافات والمجتمعات المختلفة . والملاحظ فى العصر الحديث أن قادة الدول النامية يقدمون الخطط والسياسات من أجل تغيير مجتمعاتهم فى حركة تتجه نحو المجتمعات المعاصرة أو العصرية. ولا يعتبر التصنيع دائما هو العامل الحاسم فى عملية التحديث ، اذ أن كثيرا من الدول الافريقية والأسيوية بدأت عملية التحديث عندها ببناء الدولة وتنمية انساقها السياسية الحديثة . والهدف هو تحويل بناءهم الاجتماعى ونشر المعايير الجديدة والقيم من خلال التعليم . وعادة يأتى النمو الصناعى بعد ذلك . وعلى العكس من ذلك نجد أن التصنيـع فى أوربا فى القرنين الثامن عشر ، والتاسع عشر هو الذى أوجد التحديث (١) ويرى بعض المنظرين أن التحديث يظهر فى المعرفة المتزايدة عند الانسان وقدرته على السيطرة على البيئة ، ومن هذا المنطلق يرى « سيرل.اى. بلاك » (٢) أن المجتمعات الحديثة تتميز بنمو المعرفة الجديدة وهذا يوضح وجود انسان له قدرة متزايدة على فهم أسرار الطبيعة وتطبيق ممارسة الجديدة على شئون حياته المختلفة ، كما يرى « روبرت .ن. بيلا » (٣) التحديث باعتباره القدرة على أن « يتعلم الانسان كيف يتعلم » ، وزيادة قدرة النسق الاجتماعى على جمع المعلومات فى المجتمع والاستجابة لها بطريقة مناسبة . ويهتم « مـاريون ليفى » (٤) بالتحديث من منظـور

---

1) Chodak, Szymon. «Societal Development» New York : Oxford, 1973, P. 259.

2) Black, Cyril E. «The Dynamies of Modernization», New York, Harper and Row, 1967.

3) Bellah, Robert N. «Religious and Progress in Modern Asia» N. Y. Free Press, 1965.

Levy, Marion, Jr., «Modernization and the Structure of Societies,» Vol. I. Princeton, N. J.. Princeton University Press, 1966, P. 35.

مختلف اذ يعتبره قابلا التدرج لأنه يظهر فى أشكال مختلفة فيمكن اعتبار المجتمع أكثر أو أقل حداثة تبعا للمدى الذى يستخدم فيه أعضاؤه المصادر غير الحيه للطاقة ، أو استخدام أدوات لمضاعفة أثر مجهوداتهم. وسواء وجدت هذه العناصر أو غابت جميعا أو وجدت فى أى مجتمع فان متصل التحديث قد لايوجد على الاطلاق . ويرى « ليفى » أنه يمكن التمييز بوضوح بين الدول المستحدثة نسبيا مثل الولايات المتحدة وانجلترا وبين البلاد غير المستحدثة نسبيا مثل الهند وبعض مجتمعات أمريكا اللاتينية .

واستنادا الى الظواهر التاريخية وعمليات التحديث فى البلاد النامية يمكن أن نحدد أنواع التحديث الذى حدث فى ثلاثة تعميمات كما قال « زيمون شوداك » (١) :

(١) نتيجة لادخال التصنيع فى المجتمع مما ينشأ عنه تغيرات فى الميول والسلوك وينتج عنه اتجاه نحو قيم جديدة ، مما يصنع دافعا نحو درجات أعلى من التصنيع .

(٢) تحديث فجائى نتيجة الاتصال بمجتمعات وثقافات أكثر أو أقل تقدما .

(٣) تحديث نتيجة لنشاط حكومى مقصود « ومخطط » لتحديث الاقتصاد . وبناء على هذه التعميمات يقوم « شوداك » (٢) بوضع ثلاثة أنماط للتحديث هى :

١ — التحديث الصناعى :

تخلق عملية التصنيع ظروفا جديدة ، واحتياجات جديدة ، هذا

---

(2) Ibid, pp. 263 - 271.
(1) Chodak, op. cit, p. 261.

فضلا عن الاسهام فى تكوين اتجاهات جديدة ، وقيم جديدة ، كما تزيد من تقسيم العمل فى المجتمع بصورة واضحة . وهى تزيد أيضا من الاعتماد المتبادل فى المجتمع والأدوار الجديدة وتصبح منظمات وأنظمة النشاط أكثر تنوعا . ان التحديث من هذا النمط ينبع من ضرورة تكيف التنظيم الاجتماعى مع متطلبات الصناعة .

٢ — التحديث الزراعى :

تقوم هذه العملية على أساس التقارب بين ثقافتين مختلفتين وتتأكد من خلال قبول أنماط السلوك والمعلومات عن أساليب الحياة والممارسات التعليمية لثقافة مختلفة . ولايؤدى انتقال العناصر الثقافية المنتقاه الى الحلول محل المؤسسات التقليدية ، ولكنه غالبا يؤدى الى افقارها وتحللها وفى بعض الحالات يؤدى الى انواع مختلفة من الشذوذ الثقافى والاجتماعى . ويرى شوداك أنه خلال عملية احتلال أفريقيا كانت عملية التحديث الثقافى فى أحسن صورها .

٣ — التحديث بالاقناع :

ويتضمن النمط الثالث للتحديث تعديل تنظيمات المجتمع ومؤسساته واتجاهاته القيمية تتبعا لخطى المجتمعات الغربية . فالتحديث بالاقناع يتكون من ادخال أشكال حديثة للحكومة ، والادارة ، والتعليم ، والجامعات ، ومؤسسات البحث ، وحق الاقتراع ، ووسائل الاتصال فى بلد صناعى غير نامى . وينشأ التحديث بالاقناع أولا من الرغبة فى اللحاق بالمجتمعات الأكثر تطورا وخاصة فى مجالات التنظيم السياسى والتعليم والى حد ما بسبب الرغبة فى الوصول الى سهولة الحصول على منتجات التقدم الفنى الحديث » (١) وفى البلاد الافريقية الحديثة فان

---

1) Ibid, p. 267.

التحديث بالاقناع يمكن أن يتعادل مع بنـــاء الدولة من خـــلال عمليات اصلاح التعليم والادارة والحكومة . ورغم ذلك فانه من الملاحظ أنـــه فى كل حالات التحديث بالاقناع فان الحكومة والحزب السياسى الحاكم يكونون هم المنظمين الأساسيين .

وينمو كل شكل من أشكال التحديث السابقة من خلال تمايز الأدوار، واقامة المؤسسات المتخصصة . ونشوء أنـــواع مختلفة مـــن الاعتماد المتبادل . ومثال ذلك ، ان مفتاح الأدوار فى التحديث الصنـــاعى يكون لاصحاب المشروعات والعمال والمخترعين والمجددين ، أمـــا فى التحديث الثقافى فان الأدوار تكون فى يد التاجر والمهاجر والطالـــب والاعضاء المتحررين من المجتمع القبلى . وفى التحديث بالاقناع فان الادوار تكون فى يد السياسى والمفكر والبيروقراطى (١) .

وبمجرد أن يكتسب التحديث القوة الدافعة فـــان صفات جديدة تصحبه . وهذه تتضمن نمو مستوى عال من التمايز ، ونمو المصادر الحرة التى لم تكن فى حيازة أى مجموعات متخصصة (عن طريق القرابة أو الارض الخ ..) ونمو الاشكال المختلفة للتنظيم الاجتماعى ، ونمو أنماط متخصصة ومتنوعة للتنظيم الاجتماعى ، ونمو فى كل مجالات المؤسسات ذات الأدوار المتخصصة ، والآليات الاكثر توسعا فى التنظيم مثل آليات السوق فى الحياة الاقتصادية ، والتصويت وأنشطة الاحزاب السياسية والتنظيمات البيروقراطية (٢) .

وقد نمت هذه بالتلازم مع كل لتغيرات الأساسية فى كل المؤسسات الرئيسية ففى مجال الاقتصاد نجد أن هذا النمو يمتـــاز بتخصص أكبر

---

1) Ibid, pp. 269 - 270.
2) Eisenstadt, S.N., «Tradition, Change, and Moodernity», New York, Wiley, 1973, P. 23.

فى الانشطة الاقتصادية ، ونمو وتعقد الأسواق الرئيسية ، وهى أسواق البضائع ، والعمل ، والنقود . وينتج عنها فى التنظيم الاجتماعى نمو فى عدد السكان فى المناطق الحضرية حيث توجد الأنماط المتخصصة للانشطة الاقتصادية والمهنية والمدنية وتصبح المشروعات أكبر تركيزا وتوسعا . وقد ترتب على هذا تغير من حالة تقليدية الى حالة النمو لشكل أكثر انفتاحا للتمايز ؛ مع فرص أكبر للتنقل الاجتماعى الى أعلى خلال قنوات اقتصادية ومهنية وتعليمية .

أما فى المجال السياسى فان التحديث يمتاز بنمو بناء سياسى أكثر تمايزا ، وذلك من خلال النمو فى الأنشطة التشريعية والادارية والسياسية وبالانتشار المستمر للقوة السياسية المكنه فى جماعات أوسع فى المجتمع ، وأيضا باضعاف الصفوة التقليدية .

ويمتاز التحديث فى المجال الثقافى باختلاف متزايد بين المظاهر الرئيسية للانساق من الثقافة والقيم مثل الدين ، والفلسفة ، والايديولوجيات ، وذلك بزيادة مظاهر الدنيوية واضعاف الصفوة التقليديه والثقافية ، وظهور طبقة جديدة للمثقفين الدنيويين .

وترتبط هذه التطورات بتوسع فى وسائل الاتصال الجموعية وبتداخل متزايد فى الجماعات المحلية المختلفة ، وظهور نوع من الوعى المتزايد بين مختلف طبقات السكان الذى يخلق مشاركة أكثر فى الحياة الاجتماعية ويزيد من استهلاك الثقافة (١) .

ويصاحب هذه التغيرات فى المؤسسات بتحولات ملحوظة فى الاتجاهات والشخصية التى تمتاز بأنها « حديثة » . فالانسان الحديث ليس مجرد تركيب معين فى عقول المنظرين الاجتماعيين . فهو موجود ويمكن التحقق منه (٢) ويمكن تلخيص شخصية الانسان الحديث تحت

---

1) Eisopstadt S.N Idid pp 23 - 25

2) Inkeles Alex and David H Smith. «Becoming Modern Individual Change in Six Developing Countries» Cambridge Mass Harard Universty Press, 1971, P, 290.

أربعة عناوين رئيسية :

١ ـ أنه مواطن متعلم مشارك •

٢ ـ لديه شعور ملحوظ بالكفاءة الشخصية •

٣ ـ مستقل الى درجة كبيرة كما أنه مستقل بذاتـه فى علاقاته بالمصادر التقليدية للتأثير •

٤ ـ مستعد للخبرات والآراء الجديدة أ ى أنه منفتح عقليا ومرن

فهو كمواطن متعلم ومشارك يتطابق مـع المظاهر الأكثـر جدة ويشارك فى الشئون العامة ؛ وينضم للتنظيمات المحلية والقومية ، ويقوم باعطاء صوته ، ويجتهد فى جعل نفسه متطابقا مع جمـوع الجماهير فى الاحداث الضخمة •وشعورة بالكفاءة يتضح من اقتناعه بأنه يستطيع أن يتخذ من الاجراءات ما يؤثر فى حياته وفى حياة المجتمع • فهو يعرف أنه يستطيع أن يحسن حالتـه وحالة أسرتـه ، وهو يرفض السلبيـة ، والاستسلام والقدرية ، وهو يسترشد بنصائح الموظفـين المتخصصين وقادة الاتحادات المهنية فيما يتعلق بالقضايا العامة أكثر من استماعة الى رجال الدين أو كبار السن • وينعكس انفتاحه على الخبرات الجديدة فى استكشاف الموضوعات التى كانت تعتبر مقدسة ورغبته فى مقابلة الغرباء . والسماح للنساء بالحصول على الامتيازات المتنوعـة التى يمنحها العمل خارج المنزل •

وباختصار فان التحديث ليس له نهاية • ومعنى الاعتماد على عملية التحديث هو قبول حقيقة التغير المستمر • ويكمن تفرده فى حقيقة أنـه

---

1) Inkeles. Alex and David H. Smith, op. cit, p. 290.

يقوم على افتراضات امكانية الخلق النشط عند أفراد النظام الاجتماعى والسياسى الجديد ، وأنه نظام يرتكز علــى مقدمات منطقيــة للعالمية والمساواه • وأن انتشار هذه الافتراضات مرتبط بنمو التغيرات البنائية والتنظيمية بعيدة المدى ، وخاصة فى المجالات الاقتصادية والسياسية (١)•

سادسا : التصنيــع

يشير التصنيع الى المجال الفعلى للتحول من المجتمع الزراعى أو التجارى الى المجتمع الصناعى نتيجة لنمو أنساق المصنع تحت وطـأة القوة الآلية (٢) • وأكثر مؤشرات التصنيع استخداما هو النسبة الخاصة بقوة العمل فى الدولة التى تعمل فى الزراعة • وكلما انخفضت هذه النسبة فى المجتمع كلما كان هذا دليلا على أنها أصبحت صناعية أكثر • ومع ذلك فيجب أن يلاحظ أن هذا مجرد مؤشر وليس مقياسا للتصنيع • ويمكن أن نرى أن تناقص القوة الزراعية يكون مناسبا أكثر لو فسرنـاه كنتيجة للتغيرات التكنولوجية والاقتصادية والتنظيمية المصاحبة للتصنيع • وكما أشرنا فى البند السابق فان مفهوم التحديــث أكثر تحولا مــن مفاهيم التصنيع والمفهومات الأخرى مثل النمو الاقتصادى أو التغيرات السياسية والاجتماعية والدينية والتعليمية ، وأيضا التغيرات النظامية الأخرى التى تصحب التصنيع •

وتعتبر بريطانيا الحالة الأولى والكلاسيكية للتصنيــع (٣) ، ففى عام ١٨٣٠ شوهد تقدم العمال الذين تأقلموا مع ظروف المصنع ، وأصبحوا قادرين على الحركة من مكان الى آخر ، ومن وظيفة الى أخرى ، حسب الطلب • وقبل الحرب العالمية الأولى انتشر التصنيع من انجلتــرا الى

---

1) Eiscnstadt, S.N. op. cit, p. 209.

2) Keer, Clark, John T. Dunlop, Frederiek H. Har bisonond Charles A. Myers. «Indusrialism and Industrial Man, N-y : Ox ford, 1964, p.14

3) Ibid, p. 14.

العالم الغربى ثم الى اليابان • وقد امتد التصنيـــع بصورة أكبر عـــن طريق الانتشار أكثر منه عن طريق الاختراعات الاجتماعيـــة المستقلة • واليوم يتركز معظم الاهتمام بالتصنيع علـــى التغيرات التى تحدث فى المناطق المتخلفة اقتصاديا •

وهناك أوصاف عديدة للانماط المتعددة للتصنيع • وربما يكـون أكثرها شهرة هو دراسة « روستو » عن مراحل النمـــو الاقتصادى ، ومعظم التمييزات المستخدمة كانت بين المجتمعات السابقة على التصنيع وتلك التى فى المراحل الأولى منه والمجتمعات الناجحة صناعيا • وأحيانا يضاف مصطلح « مافوق التصنيع » للاشارة الى المجتمعات المتقدمة جدا مثل الولايات المتحدة أو بعض مجتمعات أوربـــا الغربية فلـــدى هذه المجتمعات جميعا السلع العالمية المتطورة ورأس المال ، وأسواق العمل ، وقوة صناعية منظمة وتكنولوجيا متفوقـــة ، وموظفـــين محنكين فنيين واداريين •

ويصحب التصنيع بالضرورة درجة متزايدة فى التعقيد فى تقسيم العمل والتوزيع الملازم لقوى العمل بين المواقع • وعلى المستوى العـــام فان التصنيع يتضمن انتقالا من تركيز قوة العمل فى المهن الزراعية الى المهن الصناعية ويصف « ولبرت مور » (١) بعض العوامل التى ينتج عنها زيادة تقسيم العمل • وأهم هذه الاعتبارات هو نمو حجـــم التنظيمات الاقتصادية التى تشجع الكفايات التى تنتج عـــن التخصص الوظيفى • والعامل الآخر هو التغير التكنولوجى التى نتجت عنه تخصصات وظيفية جديدة مثل مبرمج الكمبيوتر ، ويمكن أن ينتج عنها أيضا تقسيم فرعى للمهارات كما فى حالة المتخصصين فى تشغيل الآلات الذى حلـــوا محل

---

1) Moore WilberE, «Changes in Occupational Structures» in William A. Faunce et al. Comparative Perspectives On Industrial Society, Boston : Little, Brown, 1969, pp. 107 - 125.

صانعى الأزياء • والاعتبار الثالث هو تقدم المنتجات الحديثة والخدمات التى نتجت عنها وظائف لم تكن موجودة من قبل • ويصاحب التغيرات التى تحدث فى حجم وتعقيد القـوى العاملة التى تعمـل فى الصناعه والخدمات نمو فى الاتحادات ، وقوة الادارة ، ونمـو فى الوعى الطبقى بين العمال • ويرتبط تقسيم العمل أيضا بالتنقـل الوظيفى والجغرافى والتى ترتبط بالتالى بالمستويات التعليميـة العليا التى ترتبـط بشدة بالوظائف الصناعية •

ويرتبط التغير فى أنماط السكان (المواليد ، والوفيات ، والزواج ، والهجرة) بالتصنيع أيضا • ويرجع تتابع الاحداث عادة الى « التحول الديموجرافى » الذى حدث فى البداية ثم تقدم بدرجة كبيرة أثناء انتشار التصنيع فى أوربا • ومعنى التحول الديموجرافى هو التحرك من موقف تكون فيه نسب المواليد والوفيات عالية الى موقف تنخفض فيـه هذه النسب وهكذا فان عديد من المجتمعات الأوربية التى دخلت فى التصنيع (مثل انجلترا وفرنسا) تميزت بالنمو البطىء للسكان لعدد من السنوات، حيث أصبح عدد المواليد بين السكان يتناسب مع عدد الوفيات • وبالرغم من ذلك فان المجتمعات النامية المعاصرة ومنها المجتمع المصرى لها صورة مختلفة تماما فى هذا المجال ، فبالرغم من دخول التصنيع منذ فترة ليست بالقصيرة فالملاحظ التزايـد المستمر فى عـدد المواليد دون بـذل أى محاولات جدية للاقلال من عددهم • وبينما يعانى المجتمع النامى مـن مشكلة السكان فان المجتمعات المتقدمة تعانى من النقص فى المواليد •

ويلاحظ أنه يمكن تخفيضـ نسب الوفيات عن طريـق اجراءات بسيطة نسبيا مثل استخدام المبيـدات الحشرية للقضـاء على الذباب والباعوض وبعض الحشرات الأخرى الناقلة للمرض • وقد تحققت بالفعل تخفيضات هائله فى وفيات العالم المتسببة عن الملاريا بهده الطريقة ، كما ساهمت برامج الوقاية والتوعية الصحية والامكانيات المتزايد ، للحصول على المضادات الحيويه فى تخفيض نسب الوفيات • وبالرغم من ذلك فان

ضبط النسل موضوع مختلف تماما ، حيث أننا نستطيع القيام بتنفيذ الأشياء الوقائية السابقة دون تدخل الناس أما مسألة تحديد النسل فهى مسألة شخصية بحتة ولايمكن التحكم فيها الا بالاقناع ، وهو مسألة صعبة للغاية خاصة فى المجتمعات النامية حيث نجد أن الخصوبة العالية هى مصدر للهيبة والنفوذ ، أو قد تقف العوائق والقيم الدينية فى سبيل التنظيم ، وربما أيضا لاعتبارات عملية مثل القيمة الاقتصادية للاطفال أو بسبب بعض الأسباب المعقدة المترابطة فيما بينها . ومثل هذه المجتمعات تتميز عادة بنسبة خصوبة عالية وانخفاض سريع فى نسبة الوفيات مما ينتج عنه نمو سريع فى عدد السكان وتغيرات لاحقة فى اعتمادها الاقتصادى أو ظهور أقسام غير منتجة بين السكان مثل الصغار جدا والكبار جدا . ويشكل السكان فى مثل هذه المجتمعات بما فيها المجتمع المصرى هرما قاعدته من الاطفال وقمته من كبار السن وبذلك تكون القوى العاملة فيه أقل من القوى غير العاملة ولذلك يسمى مجتمع « الاعالة » .

ويصحب التصنيع أيضا تغيرات فى بناء العائلة ووظائفة . فقد كانت العائلات التقليدية تتميز بنظام الأسرة الممتدة . ولكن بنمو التصنيع نجد اتجاها اجتماعيا نحو شكل جديد للاسرة وهو « الأسرة النواة » وهى التى تتكون من الزوج والزوجة وأطفالهما الصغار (١) ، وهو الشكل السائد فى كثير من مجتمعات العالم اليوم حيث يمثل شكل الاسرة النواه فوائد عديدة من منظور التحرك المكانى ، وزيادة الحضرية التى ترتبط بالتصنيع ، وقد حلت أيضا محل الأنماط التقليدية فى اختيار الزوج أو الزوجة وكذلك علاقات الاب بالابن أشكال معاصرة حيث أصبح الاختيار الزواجى من حق الافراد المقبلين على الزواج ، كما أصبحت خبرة الآباء لاتصلح فى توجيه الابناء ، وتوقفت العائلة عن أن تكون وحدة منتجة

---

1) Goode, William J. «World Revolution and Family Patterns», New York : Free Press, 1963.

وفقدت معظم وظائفها الاقتصادية التي كانت تتميز بها فى الماضى حيث كانت وحدة منتجة ومستهلكه فى نفس الوقت ، بينما أصبحت الآن وحدة مستهلكة فقط ، كما تغير الموقف الاجتماعى للمرأة ، وأتيحت لها الفرصة فى أن تتعلم وأن تعمل فى معظم المهن التى كانت قاصرة من قبل على الرجال . وهناك أيضا بعض الدلائل التى تشير الى أن نسب الطلاق وبعض مؤشرات انهيار الأسرة وتفككها تزداد مع التصنيع . وعموما فقد تعرضت الاسرة وخاصة فى المجتمعات المتقدمة لتغيرات هائلة — تغيرات مرتبطة بالحضرية والتصنيع ، وبالرغم من ذلك فليس من الدقة أن ننظر الى هذه التغيرات على أنها علامات للتدهور . وفى هذا المجال يرى « بارسونز » (١) أن الاسرة أصبحت بناء أكثر تخصصا بالرغم من أنها فقدت بعض وظائفها مثل انتاج البضائع الاقتصادية والخدمات وتعليم الأطفال . ويرى « بارسونز » أن فقدان الاسرة لوظائفها التقليدية لايعنى تفككها أو انهيارها حيث يعتقد أن انتقال بعض الوظائف الى أبنية اجتماعية أخرى يجعل الأسرة تقوم بالوظائف المتبقية لها بصورة أفضل . وهكذا فان وظائف الأسرة تقتصر الآن على منح الاستقرار للاشخاص البالغين والانجاب والتنشئة الاجتماعية للاطفال والتعاون كوحدة اقتصادية هذا فضلا عن وظيفة جديدة لم يهتم بها التحليل السوسيولوجى من قبل وهى « الوظيفة العاطفية » . ويؤكد « بارسونز » على أن هذه الصفات الجديدة للاسرة لاتشير بأى صورة من الصور الى عدم التكامل ، ويستنتج أن الأسرة النواة أكثر تأثيرا من سابقتها فى التنشئة الاجتماعية للاطفال للقيام بأدوارهم كشباب فى المجتمع الصناعى .

ويرتبط التصنيع بالحاجة المتزايدة للتعليم لان التعليم عامل حاسم فى مدى اسهام القوى العاملة وفى مدى التنقل الاجتماعى . فهناك اعتماد متزايد على قنوات الاتصال الجماهيرى كمصدر للمعلومات ووسيلة

1) Parsons, Talcott, «Family, Socialization and Interaction Process,» New york : Free Press, 1955.

لتحطيم العزلة السابقة • وينمو عنها أيضا نمو فى الثقافــة الجماهيرية اذا استبعدنا بعض أشكال الترفيه التقليدية ، وهناك أيضا تحديد قاطع بين أوقات « العمل » وأوقات « الفراغ » وهو تحديد وتمييز لــم يكن موجودا من قبل فى المجتمعات الزراعية أو القبلية • وأصبح الوقت فى العصر الحديث شيئا له قيمة كبرى • هذا فضلا عن المساهمة المتزايدة فى المؤسسات الطوعية ، وزيادة الاتجاهات الدنيوية ، وظهــور بناءات سياسية وادارية متمايزة •

وباختصار : يمكن اعتبار التصنيع نمــطاً هاما من أنمــاط التغير المعاصر • وعند تحليله فاننا نجد صعوبة لتقرير أين نستطيع أن « نرسم خطا » كأحسن ما يمكن • لان أى فحص لهذا النمــط فى التغير يمكن أن يمتد الى مالانهاية فى استكشاف طرق نجده ظاهرا فيها •

سابعا : الحضريــة

تشير « الحضرية » الى نسبة المجموع الكلى للسكــان فى مناطق الاسكان الحضرية أو الى نشأة هــذه النسبة • ويستخــدم مصطلح « الانفجار السكانى » أحيانا لوصف هــذا التركيز المتزايــد لشعوب العالم فى المناطق الحضرية أو المتروبوليتية (١) وتشير الحضرية أو التحضر أيضــا الى « كيف » يعيشــ الناس وأنمــاط سلوكهم ، وعلاقــاتهم الاجتماعية • وهذان المظهران « أين » يعيش الناس « وكيف » يعيشون — مترابطين • فالتحديث والتصنيع والتحضر متداخلون فى بعضهم • وبالرغم من ذلك فمن الواضح أن المدينة وانساق المصنع قابلة للانفصال أو غير مترابطة بالضرورة • فقد وجدت مناطق حضرية كبيرة قديما كما

---

1) Hauser, Phillip. M. «The Chaotic Society : Product of the Social Mor- op. cit p. 430.

توجد بعض المصانع فى مناطق ريفية كما هو واضح فى المجتمع المصرى .
وقد ظهرت أقدم المدن فى العالم منذ حوالى خمسة آلاف أو ستة آلاف
سنه فى سومر • وهى الجزء الجنوبى من دجله والفرات فى العـــراق ثم
ظهرت أيضا المدن المصرية القديمة ، ووجدت مدن مقدسة كبيرة مثل مكه
قبل ظهور التحديث أو التصنيع • ويمكن أن تقدم أيضا مثالا على هذا
الانفصال ، ففى أمريكا اللاتينية لم يصحب الحضريـــة أى تصنيع أو
توزيع أفضل للفرص والدخل والاستهلاك ونتيجة لذلك فان معظم دول
أمريكا اللاتينية ليست فى وضع للامداد بالوظيفة المناسبه للمحافظة على
عدد كبير من السكان الحضريين •

وعموما فان حوالى ٤٠٪ من سكان العالم حاليا يعيشون فى مناطق
حضرية [١] ، الا أن تحديد ماهو المكـــان الحضرى يختلف مـــن مجتمع
لآخر • ففى أمريكا مثلا نجد أن كل مكان به ٢٥٠٠ نسمة يعتبر منطقة
حضرية ، والتحضر كعملية له بوضوح بداية ونهاية • فمثلا ثلاثة أرباع
سكان الولايات المتحدة الآن هم حضريين والحد الأدنى للحضرية قد يصل الى
تسعين فى المائة • وحتى بعد أن يحقق مجتمع ما درجة عالية من التحضر
فان مدنه ومناطقه المتروبوليتية قد تستمر فى النمو • وهذا هو الموقف
فى الولايات المتحدة وأوربا الغربية • فبالرغم من وجود حد ممكن للنسبة
المئوية فانه لم يظهر بعد أى اتفاق بين العلماء على الحد العملى لحجم
المناطق المتروبوليتية •

ومن الناحية التاريخية ، يبدو أن تحضر الجنس البشرى لم يحدث
الامنذ وقت قريب جدا • فحتى عام ١٨٥٠ لم تكن هناك بلد فى العـــالم
متحضرة كما هو العالم اليوم ككل ، ففى ذلك الوقت لم يكن هناك سوى
٢٪ من سكان العالم يعيشون فى مدن بها الف نسمه • وقد حدث التحضر

---

1) Population Reference Bureau. «Population Data Sheet», Washington, D.C.. Population Reference Bureau, Inc., 1979.

السريع فى انجلترا والولايات المتحدة فى القرن التاسع عشـر وشاهد القرن العشرين زيادة هائلة فى تسارع هذه العمليات فى مجتمعات أخرى عديدة . واليوم فان أكثر من ١٢٪ من سكان العالم يتمركزون فى ١٤١ منطقة متروبوليتية بها مليون أو أكثر من السكـان (١) . ومن الممكن أن نصف كلا من مستوى ومعدلات الحضرية من خلال متصل ، فى الحـد الأدنى للمستوى الحضرى نجد البلاد التى يعيش أقل مـن ١٠٪ من سكانها فى مدن ، وحتى بلاد مثل اليمن والعربية السعودية وأفغانستان وتشاد وأوغندا وفى الطرف الآخر من المتصل هناك بلاد مثـل بلجيكا واستراليا وأورجوى حيث يعيش حوالى ٨٠٪ من السكان فى مناطـق حضرية . وبمصطلحات معدل الحضرية فى العشرين سنة الأخيرة فان أعلى النسب توجد فى اليابان وأورجواى ويوغوسلافيا بينما تقع النسب الأقل فى المملكة المتحدة وسيلان (٢) .

وتظهر الحضرية بصورة عالية فى التحديث والتصنيع ، وبالرغم من اختلاف الأنماط الثلاثة الا أنها تكون عددا من الظواهر المتوازنة والتى ناقشنا أغلبها فى لحديث عن التحديث والتصنيع . أما بالنسبـة لهدفنا هنا فهو التأكيد على كيف يعيش الناس فى المناطق الحضرية وبالتالى فان سؤالنا يكون : هل هناك شىء أساسى فى أنماط مناطق الاسكان فى المدن والمناطق المختلفة ينتج عنها « طريقة حضرية للحياة » متميزة ؟

لقد أجاب « لويس ويرث » (٣) منذ أكثر من أربعين عاما على هذا السؤال . فقد بدأ بالافتراض أنه « كلما كبر حجم السكان وزادت كثافتهم

---

1) Arango, Jorge. «The Urbanization of the Earth.» Boston; Beacon, 1970, p. 19.

2) Gist, Noel p., and Sylvia F. Fava. «Urban Society.» 6th ed. New york : Crowell, 1974, pp. 108 - 122.

3) Wirth, Louis B. «Urbanism as a Way of Life.» American Journalof Sociology, 44, July 1938, 19.

وكلما أصبح المجتمع غير متجانس كلما تأكدت الخصائص المرتبطة بالتحضر » فبالنسبة له فان المدينة كمكان دائم للاقامة تتميز بكبر الحجم والكثافة وعدم التجانس الذى يؤدى الى كثرة الانتقال أو التنقل الاجتماعى والمكانى والى التخصص والرسمية ولاشخصية العلاقات . أى الى طريقة فى الحياة أكثر تحضرا . وهو يؤكد أنه كلما زاد عدد الناس الذين يتفاعلون كلما زاد احتمال الاختلاف مما ينتج عنه اعتماد أقل على أشخاص معينين وعلاقات أقل صداقة ، وحرية أكبر من الضبط الشخصى والعاطفى تجاه الجماعات الحميمة ، وعدم الانتماء الفردى لاى جماعة معينة . وينتج عن الكثافة تمايز أكبر وتخصص وانفصال مكان الاقامة عن مكان العمل ، والتخصص الوظيفى لمناطق فى المدينة . وهكذا تصبح المدينة « عالم اجتماعى مختلف التركيب » وبسبب هذه الدرجة العالية من عدم التجانس فلا توجد مجموعة عامة من القيم فى المدينة ، وتصبح النقود هى مقياس كل شىء . ويحل الضبط الرسمى محل الضبط غير الرسمى ويصبح من الضرورى الرجوع الى قواعد روتينية قابلة للتنبؤ .

وكنتيجة لهذه العوامل فان الساكن الحضرى ينمى صفاته الشخصية واتجاهاته . وبسبب الأساليب المتعددة للحياة والنوعيات المختلفة للناس فانه ينمى ما يسمى بالمنظور النسبى . فيصبح دنيويا ومتحررا من الروابط الحميمة ، وينقصه الشعور القوى بالتكامل والمشاركة . وهكذا تتميز المدينة بفقدان المعايير والاغتراب ، ففى وسط الجماهير يشعر الفرد بالوحدة والعزلة ، واضطراب واحتكاك المشاعر ، وبالاحباط الشخصى والتوتر العصبى . وبسبب التنقل والاختلاف فى المدينة فهو يقبل عدم الاستقرار وعدم الامن كمبدأ فى الحياة بسبب هذه الادوار الانقسامية والاغترابية . ويصبح تكامله الشخصى مهددا باستمرار وهو معرض باستمرار للهجوم والتلاعب به من الجماهير . ولهذه الأسباب فان « ويرث » يرى أن حدوث أو وقوع التفكك الشخصى ، والانهيار العقلى ،

والانتحار ، والانحراف ، والجـ   والفساد ، وعدم النظام تكون أعلى ظهورا فى المدن عنها فى المجتمعـ ـريفية .

ومن الواضح ان هناك عوامـل أخرى لها تأثيرها علـى الانماط الاجتماعية فى المناطق الحضرية . بالاضافة الى عدم التجانس والكثافة وكبر الحجم . وبالرغم من ذلك فلم يظهر حتى الآن دليـل أو برهان يدحض القول بأن العدد والكثافه وعدم الانسجام لها هذه النتائج التى لاحظها « ويرث » . وفى بعض الاحيان يكون السكان اتحادا من أفراد متجانسين بهم حد أدنى من الاتصال مع بقية سكان المدينة . وفى هذه الثقافة الفرعية نجد أن الجمـاعات الأولية لازالـت تجتفـظ بالوضع الاجتماعى المسيطر . وبالرغم من اقامة هؤلاء الحضرية فانهم يظلون قرويين .

ويناقش « روبرت ردفيلد » هذا بقولـه أن كـل فرض الحضرية تكرر مجموعة معينة من الأحداث بمعنى أنه يوجد متصل غير محدود من النمط الشعبى الى النمط الحضرى فى التنظيم . ويصـف « ردفيلد » المجتمعات الشعبية بأنها صغيرة ، ومنعزلة ، ومتجانسة ، وليس بهاتقسيم للعمل الا فى حالة الادوار التى تقوم على الجنس والسن . كمـا تسود طرق الاتصال المباشر بين الناس ، وتتميز هذه المجتمعات بدرجة عالية من التضامن . والدين هام للغاية ، والضبط الاجتماعى يمارس من خـلال المقدسات ، وتركيز الأنماط الثقافية على العواطف والتقاليـد ، وليس هناك كتابة ولا تكنولوجيا معقدة ، ولاحالة مقررة للمواليد ، ويتبع أعضاء المجتمع الطرق الشعبية التلقائية . والأسرة هى الجماعـة الاجتماعية المركزية . ويؤكد « ردفيلد » أن تحول مجتمع شعبى منعزل الى مجتمع حضرى يحدث من خلال انتقال التأثيرات من الأخير مما ينتج عنه عدم

---

1) Redield, Robert, «The Folk Culture of Yucatan» Chicago : University of Chicago Press, 1941.

تجانس ثقافى ، ودنيوية ، وتفكك ، وفردية تفوق ما كـــان موجودا فى النمط الشعبى السابق • ومدخل « ردفيلد » بهذه الصورة يعتبر مدخلا تطوريا • وتحول العالم بالنسبة له يتحقق عن طريق انتشار الحضريـــة فى المناطق المتخلفة •

ويرى كل من « ردفيلد » و «ويرث » ان الحضرية بــدأت خلال عملية تاريخية طويلة لفصل الافراد عن علاقاتهم المكثفـــة والمألوفة فى شبكة العلاقات القرابية الموجودة فى المجتمعات الريفيـــة وأن المجتمع الحضرى يتميز بدرجة أكبر من الاعتماد الوظيفى المتبـــادل • وتفترض طبيعة هــذه التغيرات والظــروف الجديدة أن الحضريـــة والتغيرات الاجتماعية المصاحبة لها ربما تزيد من مشاكل الاستقرار الاجتماعى ، وتؤدى الى ظهور الاهتمام الطبقى والصراع ، وتبدأ فى ارساء الأسس من أجل ظهور ايديولوجيات جديدة متنافسة •

وقد أصبحت الحضريـــة فى العصر الحديث ظاهــرة بوضوح فى المجتمعات النامية • حيث ، نجد أن كثيرا من هذه الدول بها نسبة كبيرة من السكان الحضريين فى العالم بالرغم من أن نسبة مئوية صغيرة مـــن المجتمعات يعتبر حضريا • فيجب أن نلاحظ أن النمط الحديث للحضرية فى الدول النامية يتعارض مع الخبرة الأولى لاوربـــا الغربية • فقد نمت المدن فى الدول النامية عن طريق تحول العاطلين الى المدن ، التى أعطتهم فرصا اقتصادية أفضل من تلك التى كانت متاحة لهم فى الريف • ولقد كانت الخبره الأوروبية أكثر من ظاهرة للنمو الحضرى تعكس نمطا عاما للتصنيع ، وبالمدن التى تتميز باتساع الفرص الاقتصادية •

وقد تسبب المعدل السريع للحضرية فى المجمتعات النامية فى ظهور مفهوم « زيادة التحضر » ويتضمن هذا المفهوم الاعتقاد بأن بلدا ناميا معينا له نسبة عالية من سكانه تعيش فى المدن حيث الكثافات الكبيرة تعتبر أساسا للصحة والثروة • وأكثر من ذلك أهمية ، فان زيادة التحضر غالبا

ماتشير الى مدى التقدم الاقتصادى • فمصر مثلا تعتبر أكثر تحضرا من درجة نموها الاقتصادى • فهى أكثر تحضرا من فرنسا والسويد وكلاهما دولة صناعية (١) • وتعتبر زيادة التحضر عادة نتيجة للهجرة من المناطق الريفية بنسبة أعلى من توسع فرص العمل فى المدينة • وهــذه الهجرة تنشطها الكثافات الريفية العالية ونقص الفرص الاقتصادية للفلاحين • وتبدو الحياة صعبة فى المدينة ، وبالنسبة لاغلب المهاجرين فهى ليست أفضل من الريف ، وبالرغم من ذلك فالمدينة على الاقل يوجــد بها أمل وامكانية وجود شىء أحسن • ففى كل أنحاء العالم نجد الريفيين يميلون الى حياة المدينة • وقد يكون هناك جدال فى أن التحضر مرتبــط بتقدم أسلوب التحديث فى الحياة والتقدم الاقتصادى العام • والمشكلــة فى أكثر دول العالم النامى ليست زيادة التحضر بل من الممكن أن تكون قلة التحضر •

ولأن المهاجرين يتجهون الى المناطق الحضرية فى الــدول النامية فان تنوع وعدم تجانس المناطق الحضريــة يزداد • فطرق الحيــاة فى المدينة تختلف بصورة كبيرة فى المناطق المختلفة • فنجــد أن الاشكال التقليدية للحياة توجد جنبا الى جنب مع الاشكال الغربية وهما غالبــا ما يختلطان • فأحيانا نجد فى البلاد الاسيوية تصادما بين التكنولوجيا الغربية مع العقلية الشرقية • والذين يصلون هنــاك حديثا يستطيعون التمييز بين القوى الوطنية أو التجمعات الاجتماعية الثقافية مثل القبيلة، والجنس والدين أكثر من المدينة وما يمكن أن تعطيه • وقــد أشار الى هذه الظاهرة « جويل هالبرن » (٢) باسم « تريف المدينة » فمثلا فى مدن

---

1) Davis, Kingsley, and Hilda Hertz Golden. «Urbanization and the Development of Preindustrial Areas.» Economic Development and Cultural Change, 3, October 1954, pp. 6 - 26.

2) Halpern, Joel. The Changing Village Community. Englewood Cliffs, N. J. : Prentice - Hall, 1967. pp. 43 - 35.

يوغوسلافيا نجد أن المهاجرين من الريف يقيمون منازل جـديدة تشبه المنازل التى تركوها فى الريف وبها حديقة ومكـان للدواجن وخنزيرا أو لثنين . وهم عادة يحتفظون لمدة جيلين بعلاقات مع قراهم . واذا عاشوا فى شقة فى مبنى حديث فانهم يخلقون مشاكل لانهـم لا يألفون عمليات التدفئة المركزية ، ويحتفظون بحيوانات اليفة فى منازلهـم . وفى أغلب الحالات فان امتصاص المهاجرين للثقافة الحضرية وطريقة الحياة المدنية تعتبر عملية شاقة . ولعلنا نلاحظ ذلك فى المجتمع المصرى عندما يهاجر الريفيون الى المدن وينقلون معهم ثقافتهم أى طريقة كلامهم وسلوكهم أو اسلوبهم فى الحياة .

ويرى « كنجسلى ديفيز » أن الاتجاه المعاصر فى عـالم الحضرية « لايمكن أن يوجد لمدة طويلة فى الماضى ، وبالتأكيد فانه لن يتحمل لـدة طويلة فى المستقبل » . فقد بدأ بطيئا نوعا ما فى القرنين السادس عشر والسابع عشر حيث كان ٢٪ فقط من العالم حضريا . ثم اتسعت الخطوة أكثر فى القرن الثامن عشر ، ولكنها أسرعت أكثر بلا شك فى القرن التاسع عشر . وفى خلال قرن آخر ، وبالتأكيد قبل سنة ٢٠٠٠ فان العملية كلها من أجل تحضر العالم كله تكون قد انتهت (١) . ففرص نمط التغير التالى أى التحول الى البيروقراطية الـذى سوف نبحثة فى البند التالى سوف يطول أكثر من التحضر .

ثامنا : التحول الى البيروقراطيــة

يحمل لفظ البيروقراطية لبعض الناس دلالـة سلبية قوية ، فهى تتضمن صورا تتعلق بالمكاتب والروتين الحكومى ومالانهاية له من ملىء التقارير ، وبالنسبة لعلماء الاجتماع فان مصطلـح البيروقراطية يعنى

---

1) Davis, Kingsley. «World Urbanization 1950 - 1970 : Analysis of Trends, Relationships and Developments.» Population Monograph,- 2 (9), 1972. Berkeley : University of Califomin Press, PP. 52 - 53.

ببساطة تسلسل بناء اجتماعى من أجل ادارة التنظيمات الكبيرة عقلانيا وبكفاية وتأثير ولا شخصية • وموضوع هذا البند الذى نحن بصدد أى منظمة عامة أو خاصة نحو العقلانية فى اتخاذ القرار ، والكفاية فى العمل، ومحاولة الوصول الى الاهداف العامة • وبزيادة حجم وتعقيد تنظيم معين فان هناك حاجة متزايدة من أجل الترابط اذا كانت الكفاية والفعالية يجب أن تبقى أو تتقدم • ويمكن أن تصل الكفاية التنظيمية الى حدها الأقصى عندما يكون هناك تسلسل للسلطة ، يكون لكل حلقة منها دور معين، وواجبات محددة ، ومسئوليات عند اتخاذ القرارات على أساس الخبرة الفنية وليس على أساس الاعتبارات الشخصية وعندما يحكم على الافراد على أساس الخبرة الفنية فقط يوجد نسق لتنشيط النظام على أساس الجدارة (١) •

وفى أحد الكتب المشهورة بعنوان « تحويل العالم الى البيروقراطية » نجد « هنرى جاكوبى »(٢) يحدد اسم «فيبر»الذى كتب يقول« ان تاريخ كل الحضارات الكبيرة يبدأ بنوع من البيروقراطية الذى يدعم ويشكل الوجود الكلى للانسان » ففى مصر القديمة وبابل كانت طبقة الكهنة ذات الجعارين هى التى خلقت وحرست الصفة السحرية والمقدسة للحياة • وهذه الطبقه قامت على أساس الانتاجية الاقتصادية لجهاز الرى ، وربما تكون هذه أول بيروقراطية وجدت فى التاريخ (٣) • وتوضح الحضارات المبكرة فى الصين والهند اتجاهات بيروقراطية قوية ، وقد استخدمت امبراطورية « الانكا » أيضا نظامــا بيروقراطيا لادارة بنــاء المجتمع الزراعى واقامة شبكة مواصلات كافية تعتمد على الكبارى المعلقة • وعندما

---

1) Weber, Max, «The Theory of Social and Economic Organization, A.M. Henderson and Talcott Parsons, transl. New york : Free Press, 1947, pp. 329 - 341.

2) Jacoby, Henry. «The Bureaucratization of the World,» Eveline L. Kaves, transl. Berkeley : University of California Press, 1973, p. 9.

3) Ibid, pp. 9 - 10.

غزا الأسبان « بيرو » اكتشفوا فيها نظاما محكما للمعلومات الاحصائية يستخدم وسائل مزدوجة الالوان للارشاد الى الموضوعات المزدوجة لتوضيح الارقام . كما كانت طريقة الاحتفاظ بالسجلات معروفة وموجودة فى مصر القديمة وكانت الضرائب تقدر طبقا لهذه السجلات التى تتضمن معلومات مركزة عن المواطنين وظروف حياتهم . ومن الواضح أن كل هذه الاجراءات كانت تتطلب بالضرورة بيروقراطية خبيرة مدربة كان بناؤها موضوعا لتغيرات عديدة .

ونجد فى فرنسا فى القرن الثالث عشر مجموعة من الوظائف تتدرج تحت قسم التشريع للدولة أدت الى ظهور طبقة من الناس كان وضعها فى المجتمع يتحدد عن طريق العمل فى المكاتب . وفى نهاية القرن السادس عشر أصبحوا معروفين باسم الدولة الرابعة . وأصبحت البيروقراطية طبقة منفصلة تتميز بردائها الطويل [1] . وفى هذا الوقت كانت البيروقراطية مرتبطة بالحكم المطلق للملك . « فالبيروقراطية هى التى تمثل السلطة المطلقة وعلى رأسها الملك . وعندما شغل القادة السياسيون الأقوياء العرش بسلطة ملكية مطلقة أصبحوا هم أنفسهم رؤوس البيروقراطية » [2] وفى هذا الوقت فان دولة البيروقراطية لم تشك أبدا فى امكان السيطرة على الانشطة لاقتصادية . ففى عام ١٥٧٧ حاول قانون ملكى أن ينظم الصناعة والتجارة فى كل فرنسا . وقامت الصناعات أو تحولت وأمكن التحكم فى نوع وكمية البضائع ، ومنعت زيادة الأسعار للمواد الخام والمنتجات . وقد فرضت عقوبات مشددة للاحتفاظ بالأسعار والأجور على مستوى ثابت وأقيمت هيئة للتفتيش للاشراف على كل الاجراءات الضرورية » [3] .

ويتضح من التصوير التاريخى السابق أن أصل الدولة ونمو

---

1) Ibid, p. 19.
2) Ibid, p. 25.
3) Ibid, p. 26.

البيروقراطية مرتبطان تماما • وعند اختيار الديموقراطية الامريكية فى عام ١٨٣٢ نجد « الكسيس دى توكوفيل » ينظر أيضا فى أصول الدولة البيروقراطية • فقد استنتج أن اختفاء المؤسسات التقليدية ونمو الاقتصاد حيث ركز الافراد على شئونهم الخاصة مما أدى الى زيادة سيطرة الدولة على الوظائف الاقتصادية والاجتماعية • وظهر ميل عام نحو الشئون العامة « يجب أن يتركز فى اتجـاه الناس كلها وفى ادارة كـل الاشياء الموجودة بين يدى الادارة » (١) • وقد شارك « ماركس » فى ملاحظات توكوفيل حيث يرى أنه بالرغم من أن أشكال الحكومة قد تغيرت فـان الاداريين استمروا فى تجميع وظائف ومسئوليات أكثر •

ولم تكن نظرة كل شخص الى نمو التحول الى البيروقراطية مواتياء فقد أوقفت الثورة البلشفية فى روسيا فى عام ١٩١٧ كل الجهاز الادارى وأقامت بدلا منه فكرة متفائلة تنادى بأن طريقا جديدا للتنظيم يمكن أن يقوم بدلا من البيروقراطية الكريهة • فقد تنبأ « لنين » بأن مبدأ الحكومة السليمة سوف يستمر تطبيقه فى المستقبل لدرجة أن أى طباخ يمكن أن يحكم الدولة « لان كل » انسان عليه أن يشارك فى الحكومة « وكـل » شخص سوف يصبح « بيروقراط » مؤقت ، وهكذا فانه لن يصبح أى انسان بيروقراط حقيقى » (٢) • وهكذا فانه قد تنبأ بـأن البيروقراطية سوف تندثر • ولكن حلم لنين هذا لم يتحقق أبدا • ففى عـام ١٩١٧ استخدم حوالى مليون شخص فى المصالح الادارية فى روسيا ، وبحلول عام ١٩٢١ زاد هذا العدد الى حوالى ٢,٥ مليون (٣) •

وفى الوقت الحالى تتميز الحكومة البيروقراطية الروسية بالاصلاحات الادارية الدورية تتردد التى بين قمـة المركزية واللامركزية ، فى الوقت

---

1) Ibid, p. 53.
2) Ibid, p. 125.
3) Ibid, p. 124.

الذى تضاعفت فيه أكثر الانشطة،فسواء كانت الحركة مركزية أو لامركزية فان الانشطة الحكومية جزء من بناء هيرارشى شامل ونادرا ماتحدث تغيرات فى مبدأ الادارة المركزية . فكل الهيئات الادارية المرتبطة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية لازالت تخضع لنفس النظام المركزى . وهناك قدر كبير من النقد يوجه الى المصالح الحكومية وخاصة لطريقة أدائها لوظائفها البيروقراطية . ومع ذلك فليس هذا النقد بدايه محتملة لاى تغير فى النظام لان النقد لن يصل الى وضع يده على طبيعة النظام الحقيقية .

فارادة مجلس السوفيت الاعلى مطلقة فى اتخاذ القرار الادارى . ويلاحظ « رينهارد بندكس » أن القواعد الرسمية والاجراءات الادارية يمكن أن يهملها الحزب فى أى لحظة ، وأن البيروقراطية لاتتبع خطا مستقلا فى السلطة . فبدلا من الاعتماد على تشريع القوانين والاشراف على تنفيذها من القمة فان الحزب فى الاتحاد السوفيتى يستخدم فى تسهيل الاوامر والسيطرة على تنفيذها من خلال قنوات ادارية منتظمة . وهكذا فان بيروقراطية الحكومة تقوم على « سلسلتين مترابطتين من السلطة » فعمل كل مصنع ، وكل ادارة حكومية ، وكل وحدة فى الجيش أو البوليس السرى ، وكل منظمة أو تنظيم سواء كان اجتماعيا أو ثقافيا لهُ برنامج وارتباط ويشرف عليه قسم ادارى من الحكومة (٢) .

وهناك أيضا نمط مختلف للبيروقراطية فى الصين المعاصرة . فالمعلومات المتاحة عن البناء الدكتاتورى الحالى للصين محدودة ، ومنتقاة، ومشكوك فى صدقها . وبناء على المعلومات القليلة المتاحة فيبدو أن البيروقراطية الصينية لاترتبط عقليا بالمستويات الغربية . فالجرائد

1) Bendix, Reinhard. «Indusrialization, Ideologies and Social Stracture,» in Etzioni (eds.), op. cit. p. 317.

2) Ibid, p. 318.

نروى وصفا لابتهاج موظفى الحكومة وتروى وتصور المديرين والخبراء الفنيين وهم لايشرفون على المصانع بل وهم يقومون بأعمال جرف الاسمدة فى مزارع الصين . فالاداريين على المستويات العليا لايستطيعون اتخاذ قرارات تنفيذية أو الأمر بتغيرات فى فنون الانتاج ولكنهم يجب أن يناقشوا هذه الامور مع العمال والكتبة ويطلبوا النصيحة منهم .كما لا يظهر فى الصين أى تمييز بين ملابس العامة والخاصة فى جيش الصين فيما عدا نوع القماش . وبعد العمل فان الناس على كل المستويات يجب أن يحضروا حلقات مناقشة ودورات تدريبية تتعلق بالعمل والاتجاهات السياسية . فالحياة الخاصة ليست منفصلة تماما عن العمل . وبالرغم من أن النمط البيروقراطى الصينى يختلف تماما عن النمط الاشتراكى والرأسمالى فانه من المثير للدهشة أنه يعيش ويستمر . وبالرغم من أن نمط البيروقراطية لديهم يتصارع مع الانماط التقليدية التى وصفها « ماكس فيبر » فان البيروقراطية الصينية تعمل بكفاءة ، وواضح أن شعب الصين قام باكتشافات علمية اجتماعية هامة عن كيفية ادارة الناس. ويبدو أنهم يخضعون للتجربة بعض مبادىء العلاقات الانسانية التى يؤيدها محللى الادارة المحنكين فى الغرب منذ مدة .

ويلاحظ « مارتن كنج هوايت » فى احدى مقالاته أن هناك عدة تشابهات بين المفهومات التنظيمية الصينية والغربية والاشتراكية . فالتنظيمات الصينية مثل تلك الموجودة فى الغرب لها أهداف محددة وهى تتبع تقسيما مسلسلا للعمل ، وتأتى السلطة من أعلى . وعموما فان صانعى القرار لهم تدريب وخبرة أكبر ولهم مكافآت أكبر من أتباعهم . وكذلك تعتبر المنافسة عاملا فى التطوع ، والتقارير ، والقواعد ، والمذكرات المكتوبة لها أهمية كبيرة . وأخيرا فان المكاتب منفصلة عن الذين يشغلونها

---

1) Whyte, Martin King, «Bureaucracy and Modernization in China» The Maoist Critique American Sociological Review, 38, April 1973. pp. 156 - 157.

أى أن الوظيفة أو المكتب وليس الشخص هو الذى له السلطة •

وفى مواجهة هذه الانماط العامة للبيروقراطية (الغربية ، والشيوعية، والصينية) نجد أن الاختلافات بينها عميقة للغاية • وقد لاحظ « هوايت » أن الصينيين لديهم تنظيمات متسلسلة ومصالح متخصصة ولكن القادة يختارون تبعا لموقفهم السياسى أكثر من اختيارهم تبعا لتفوقهم الفنى • فالصينيون يعتقدون أن التأكيد على المنافسة الفنية سوف يخلق نوعا من طبقة الصفوة المتخصصين مما يقلل من مبادرة الأعضاء العاديين فى التنظيمات فهم لا يعولون كثيرا على المبررات العقلانية والشرعية للسلطة ، وهم لايطلبون أيضا طاعة عمياء • فعندما تتخذ القرارات عن طريق القادة فليس من المتوقع أنها تطاع دون مناقشة •

فمجموعة المناقشة تستخدم كخطوة أولية لشمول المرؤسين فى عملية اتخاذ القرار • ولهذا فانه يطلب من عدد من كبار البيروقراطيين أن يخصصوا جزءا من وقت العمل لتوجيه وتدريب معاوينهم • والمكافآت التى تصرف للافراد الذين يشغلون قمة البيروقراطية فى الصين أعلى ولكنها أضيق من مثيلتها فى البيروقراطيات الاخرى ، وعلى مستوى متواضع • فالمكافآت لاتعتمد على الرتبة أو الانتاجية • ففى تحديد الاجور مثلا نجد أن المجموعة التى تقرر هذه الاجور لاتنظر فقط الى أداء العمل ، بل تنظر أيضا الى اتجاهات العامل السياسية ومدى حماسة واخلاصه • وليس هناك خط واضح يفصل بين الوظيفة وبين الحياة الخاصة ، فكل انسان يتوقع أنه مراقب وأنه يمكن محاكمته علنا • وعلى المستويات الاقل فان الشعب يساهم الى حد كبير فى القرارات السياسية والانتاجية ويطلب من المستويات العليا الاستماع والخضوع لانتقادات الشعب • فالصينيون لايقبلون تصور البيروقراطية القائمة على أمن العمل أو الوظيفة ومركزها كمهنة • فالموظفون المهرة المدربين من المفروض أن تكون لديهم الرغبة فى ترك مراكزهم المريحة الى وظائف أقل مستوى مثل العمال اليدويين • فالقواعد التقليدية والاجراءات العادية ليست مقدسة•

وهم يشعرون أن الروتين الثابت سوف يخلق روح التغيير الثورى •

وفى مثاليات البيروقراطية الغربية نجد أن العمل الأول للتنظيم هو الوصول الى الحد الاعلى للكفاية والتأثير عن طريق استخدام كل المصادر التنظيمية • وفى اطار العمل التنظيمى فى الصين نجد أن كل مجهود يصل الى الحد الاقصى لاشتراك الأعضاء كلهم فى المنظمة ، ولكن اذا نظرنا الى الواقع من الناحية العملية فسوف نجد الجماهير العادية فى قاع التسلسل التنظيمى • وتعمل التوجيهات الصادرة من الحكومة على تقوية هذا الاندماج • ولذلك تشير نتائج هذا النمط المتميز للتحول الى البيروقراطية الى شعور قوى جدا بالمجتمع فى الصين ، وأن المشاركين فى التنظيمات لديهم الرغبة فى العمل لوقت أطول وجهد أكبر ويندمجون فى استغراق كامل فى منظمتهم ويعملون بجد لتحقيق الأهداف القومية أكثر مما هو فى الغرب •

أما فى الدول النامية فالملاحظ أن النسق الثابت لفرض الضرائب هو الشرط السابق للوجود الدائم للادارة البيروقراطية • فهناك علاقة اعتماد متبادل على مستوى عال بين البيروقراطية وفرض الضرائب • فكفاية وفعالية البيروقراطية تعتمد على فعالية نسقها الضرائبى ، وفعالية نسق الضرائب تعتمد على مدى فعالية الاجهزة البيروقراطية (١) • وعندما لايستطيع نسق الضرائب أن يقدم الدعم الملائم للبيروقراطية فى الدول النامية فان أعضاء التنظيمات البيروقراطية سوف يلجأون الى الابتزاز والوسائل الاخرى غير المشروعة لزيادة دخلهم • وهذ هو السبب الذى من أجله لاينطبق مفهوم جريمة ذوى الياقات البيضاء على كثير من هذه المجتمعات • فالموظفون العموميين ورجال الشرطة ، وموظف الجمارك

---

1) Lockwood, David, «Social Integration and System Integration» in George K. Zollschan and Walter Hirsch (eds.), Social Change : Explorations, Diagnoses and Conjectures, 2nd ed. New york : Wiley, 1976, p. 380.

وغيرهم على وجه العموم يعتمدون على الابتزاز .

وحيثما يوجد شكل ثابت ومستقر لنظام الضرائب في الدول النامية فان للبيروقراطية يمكنها أن تسهل عملية النمو الاقتصادى بوضع الظروف القانونية المطلوبة مسبقا من أجل النمو بما فى ذلك القانون والنظام ، وتنظيمات المال والبنوك ، والاجهزة الادارية الأساسية للمشروعات الاقتصادية . « فالبيروقراطية يمكن أن تساعد فى تعديل مصادر البناء الأساسى للمجتمع ، مع استغلالها لكى تصبح أكثر اتفاقا مع النمو الاقتصادى . وتستطيع أن تكون شركات عامة أو أنواع أخرى من المشروعات تهىء المبادرة للتقدم الاقتصادى ، ويمكن أيضا أن تفرض ضرائب وسياسات مالية استثمارية تحفظ وتثرى النمو الاقتصادى » (١)

وفى المجتمعات المعاصرة تمثل البيروقراطيات تركيزات واضحة لنمصادر والسلطة دون أن تضع فى اعتبارها الجماهير بصورة مباشرة . وبالرغم من أن هذا التركيز للسلطة ، والقوة ، والامكانات ضرورية للعمل فى المجتمع الصناعى الحديث ، فهناك أيضا احساس بأن هذه التركيزات تثير قلق الجماهير . وبمرور الوقت تثار أسئلة عن مدى تلاؤم البيروقراطية مع الديموقراطية . وهناك ميل فى التنظيمات البيروقراطية نحو تركيز القوة فى أيدى القلة أو مايسميه « روبرتو مايكل » (٢) « القانون الحديد ىللاوليجاركية » ، وفعلا فان الأمر كما يشير الى ذلك « ليبست وزملاؤه » حيث يرون أنه فى بعض الظروف قد تستطيع العمليات الديموقراطية أن تبقى فى التنظيمات البيروقراطية الكبيرة ، ولكن تبقى العلاقة بينهما غير مستقرة وغير مريحة . ففى عصر زيادة « ضخامة » الحكومة والاعمال والجامعة فان الإنسان يتأمل فى

---

1) Lauer, op. cit, p. 338.
2) Michel, Roberto. «Political Parties» New york : Free Press, 1949, P. 149.

كيفية تلاؤم الفرد والعملية الديموقراطية فى الصورة • وهو موضوع هام بالنسبة لزيادة التحول الى البيروقراطية والذى أصبح يسود كل مظاهر الحياة • ويرى « جيرهارد وجين لينسكى » (١) أنه « كنتيجة لتحول الحكومة والصناعة البيروقراطية فان الغالبية العظمى من الوظائف فى الولايات المتحدة وفى بعض المجتمعات الصناعية الاخرى لها مطالب تعليمية سابقة ، وأن الشخص الذى تنقصه هذه المطالب يصبح مهملا بطريقة تلقائية • وهذا لا يؤثر فقط فى فرص الشخص فى أن يعمل بأجر ولكن أيضا على فرص الترقية وبهذا المعنى فان الموظف البيروقراطى الحديث يخلق مقابلا مدنيا للنسق الحربى بانقسامه الحاد بين الضباط والافراد العاديين » •

وباختصار ، وكما قال « أوتو هنتر» فان « التنظيم البيروقراطى هو بالدرجة الأولى عمل اجتماعى فنى صيغ على مدى عدة قرون • ومن الخلط أن نقول أنه يمكن أن يفرض أو يحل محله « حكومة ذاتية » أو كما قال « جوزيف شومتر » (٢) « ان البيروقراطية تنمو فى كل مكان مهما كان النظام السياسى ، وتوسعها هو الشىء المؤكد والوحيد بالنسبة لمستقبلنا » •

---

1) Lenski, Gerhard, and Jean Lenski, «Human Societies : An Introduction to Macrosociology.» 3rded, New york : Mc Graw - Hill, 1978, P. 344.

2) Jacoby , op. cit. p. 191, p. 199.

الفصل الثالث

ردود الفعـــل للتغـــير

* مقدمـــة
* أولا : البواعث الاجتماعية للتغير
* ثانيا : البواعث الثقافية للتغير
  التكامل الثقافى
* ثالثا : البواعث الاقتصادية للتغير
* مقاومـــة التغير
* أولا : العوائق الاجتماعية للتغير
* ثانيا : العوائق الثقافية للتغير .
* ثالثا : العوائق الاقتصادية للتغير

الفصل الثالث
ردود الفعل للتغير

مقدمـــــة

سوف نحاول فى هذا الفصل استعراض الظروف التى تسهل أو تعوق قبول التغير فى المجتمع • ويلاحظ فيما كتب عن التغير الاجتماعى أنه يشير الى ميل الأفراد والجماعات والمؤسسات والمجتمعات ككل الى البحث عن التغير والسعى وراء تحقيقه وفى نفس الوقت الى تفاديه • فالكائنات البشرية لديها نزوع نحو الرغبة فى التغير ونحو رفضه ، حيث توجد فى كل مجتمع قوى تبحث عن دفع عملية التغير بينما هناك أيضا اولئك الذين يحاولون الاحتفاظ بالاوضاع كما هى • فالتغير يكون دائما موضع استجابة ومعارضة • وبمتابعة التغير على المدى الطويل نجد أن القوى التى تشجع التغير وتدفعه هى التى تتفوق على هؤلاء الذين يناضلون من أجل الاحتفاظ بما هو قائم • ويتضمن التغير الاجتماعى غالبا اعادة تنظيم السلوك ، وبعض التغيرات فى القيم الاجتماعية سواء كانت ظاهرة أو ضمنية ، كما يمكن أيضا تحقيق بعض التغيرات دون افسادمواقفحياة بعض الافرادأو الجماعات حيث أن هناك حتمية محتملة وهى أن أى تغير كبير أو أساسى يكون سلاحا ذو حدين للذين يتعرضون له فى الحالات التى يكون فيها الوضع الراهن أن موقف التغير التدريجي مقبولا عند أغلب الناس • فالتفاعل الديناميكى فى الانساق الاجتماعية قوى جدا لدرجة أن أى توازن يجب أن يمثل على الاقل تكييف جزئى للاحتياجات المختلفة ومطالب أولئك الذين يتضمنهم هذا التوازن ، ففى مثل هذه الظروف يجب أن يكون التغير مرغوبا فيه ومطلوبا عند هؤلاء المتأثرين به لكى يكون مقبولا (١) •

1) Klien; Donald. «Some Notes on the Dynamics of Resistance to Change : The Denfer Role.» In Warren G. Bennis et al (eds.), The Planning of Change, 3ed ed, N.Y. Holt, Rinehart and winston, 1976, pp. 118.

ونستطيع فى البداية أن نقول أن بناء المجتمع هو الذى يفرض قبول التغير أو رفضه الى حد كبير ، فعندما يكون المجتمع متكاملا لدرجة أن كل عنصر فيه متداخل فى نسيج المجتمع فى نظام متماسك ، يعتمد كل جزء فيه على الاجزاء الاخرى ، فان التغير فى مثل هذه الحالة يكون صعبا ومكلفا • ومثال ذلك أنه بين عدد من المجتمعات الافريقية التى تنتسب الى نهر النيل مثل « الباكوت » و « الماساى » فـأن ثقافتهم تتجمع نحو الماشية • والماشية عندهم لاتعد وسيلة للحياة فقط بل هى أيضا وسيلة لشراء العروس ، ومقياس المكانة ، وهدف للعاطفة (١) • ومثل هذا النظام الثابت المتوارث المتكامل يقاوم التغير بشـدة • ولكن عندما تقل درجة تكامل الثقافة لدرجة أن العمل ، واللعب ، والاسرة ، والدين وغيرها من الانشطة تكون أقل اعتمادا بعضها على الآخر فـأن التغير يكون أسهل وأكثر حدوثا • فالمجتمع المتماسك البناء الذى تتضح فيه أدوار الفرد وواجباته وامتيازاته ، وتتحدد بدقة ، يكون أقل تعرضا للتغير منه فى مجتمع أكثر تفككا فى بنائه حيث الأدوار الاجتماعية ومصادر السلطة والامتيازات والواجبات تخضع لتقدير الفرد ذاته • فبناء المجتمع الامريكى مثلا أكثر ميلا ونزوعا الى التغير الاجتماعى ، فالفردية السائدة، وتراجع التمايز الاجتماعى الصارم ، والتأكيد الكبير على المكانة المكتسبة كلها تتجه نحو التغير الاجتماعى السريع •

ويبدو أن التغير يعتبر مسألة عادية فى العالم الغربى حيث يفاخر أكثر الناس بأنهم تقدميين وعصريين ، وذلك عـلى خلاف سكـان جزر « التروبرياند » على شواطىء غينيا الجديدة الذين ليس لديهم أى مفهوم عن التغير وحتى ليس لديهم أى كلمات فى لغتهم تعبر عن أو تصف التغير • وعندما حاول الزوار الغربيون شرح فكرة التغير لم يستطع سكان الجزيرة

---

(1) Schneider, Harold K., «Pakot Resistance to Change», In Willian B. Bascom et al (eds.), Continuity and Change in Arrican Cultures, University of Chicago Press, 1959, pp. 144 - 167.

فهم ماكانوا يتحدثون عنه • ومن هـذا الموقف يتضح مـدى اختلاف المجتمعات فى نظرتها للتغير • ويمكن اعتبار المجتمعات الشرقية بما فيها المجتمع المصرى من المجتمعات التقليدية المحافظة ، فهؤلاء الذين يجلون الماضى ويقدسونه ويكرمون ويطيعون الكبار منهم ، وينشغلون الى حد بعيد بالتقاليد والطقوس ويتغيرون ببطء شديد وعلى غـير رغبتهم • وعندما تكون ثقافة مجتمع ما ثابتة نسبيا ولفترة طويلة من الـزمن فان الافراد يفهمون أنها يجب أن تظل هكذا دون تحديد • فهم يعتبرون أن عاداتهم وثقافتهم وفنونهم صحيحة ودائمة • فالإتجاه هو المحافظة على الوضع الراهن ولايهتم أحد بالتغير بطريقة واعية • ومع ذلك فان التغير يحدث فى مثل هذا المجتمع • ولكنه فى أغلب الاحوال يكون بطيئا جـدا لدرجة أنه لايمكن ملاحظته فى بعض الاحيان •

وبالرغم من أن سرعة وقع التغير تختلف من مجتمع لاخر ، بل وفى داخل نفس المجتمع بين جماعاته الفرعية المختلفة ، الا أنه من الممكن أن نتعرف على العوامل التى تشجع التغير وتعوقه فى كثير من المجـالات والمستويات • وسوف نفحص الآن الشروط التى تلعب دورا فى قبول أو رفض التغير • وكذلك عددا من الصور الثقافيـة المتعارضة للمـواقف الفعلية ، والتـى استخرجت من خبـرة « جورج • م • فوستر » (١) فى البلاد النامية وذلك لكى نوضح تأثير العوامل المعينة فى مواقـف التغير الملموس •

وكطريقة مناسبة لتنظيم المصادر المختلفة والأحوال وأسباب قبول أو رفض التغير فاننا سوف نهتم بها فى صيغة عوامـل : « **اجتماعية** وثقافية ، واقتصادية » ومن الواضح أن هناك درجة كبيرة من التداخل بين هذه العوامل ، وأن ظروف القبول والرفض يمكن الفصل بينها من

---

1) Foster, George, «Trditional Societies and Technological Change» 2nd ed. New york, Harper and Row, 1973.

أجل التحليل فقط . فهى وجهين لعملية واحدة ، فالعوامل التى توجد فى طبيعة البناء الاجتماعى لجماعة أو مجتمع يشار اليها على أنها «اجتماعية» وتلك التى تتعلق بالادراك والتعلـم والدوافع هى عوامـل « نفسية » والعوامل التى تقوم على الثقافة « ثقافية » ، والعوامل ذات الاساس الاقتصادى تسمى عوامل « اقتصاديـة » ومن الواضح أن العوامـل الاقتصادية تضع حدا للتغير فى كثير من المواقف . وكما سنرضح فيما بعد فان الافراد غالبا مايعارضون تغيير طرقهم بسبب العوامـل الثقافية والاجتماعية والنفسية ، ولكنهم غالبا مايكونون على وعى بفوائد التغير ويحاولون تغيير طرقهم التقليدية ولكن التكلفة الاقتصادية تكون كبيرة جدا . فاذا كان الاحتمال الاقتصادى غير موجود ، فان الاهتمام بالعوامل الأخرى يكون لامعنى له وبوضع هذه الملاحظات التمهيدية فى الاعتبار ، فلنتجه الآن الى بواعث التغير .

أولا : البواعث الاجتماعية للتغير

تتغير كل المجتمعات باستمرار ويكون بعضها سريع التغير وبعضها الآخر بطىء . وهناك عدد من العوامل التى تؤثر فى سرعة التغير وتسهل قبول أى تجديد . وتشمل العوامل التى تلعب دورا هاما فى بعث التغير : الرغبة فى المكانة ، والاتصال بالآخرين ، وواجبات الصداقـة ، والطبقة الاجتماعية ، والسلطة ، ومشاكل « التلاؤم « ونظام التقديم ، والتوقيت ودرجة المشاركة فى صنع القرار ، والمنافسة . وسوف نحاول فيما يلى فحص هذه البواعث الاجتماعية بشىء من التفصيل :

١ ـ الرغبة فى التقديـر

يوجد فى كل مجتمع نماذج معينة من السلوك يمكن محاكاتها لأنها تمنح الاحترام والمكانة . فأشكال السلوك التى تعتبر ذات مكانة تختلف من مجتمع الى آخر . ففى المجتمعات التلقيدية يلاحـظ أن انجازات غير مادية ورمزية تكافأ بالمكانة العالية . ومثال ذلك ، الزهـد ، والطهارة ،

والقيام بالواجبات الدينية . أما فى العالم المعاصر فان الناس يبحثون عن المكانة من خلال الحصول على رموز مادية واضحة مثل الملابس ، والطعام والمسكن المجهز الفاخر ، والسيارات . ويعطى « جورج فوستر » (١) عددا من الصور عن كيفية وضوح عامل فى احداث التغير الاجتماعى . فنلاحظ مثلا فى القرى الهندية الجديدة الملابس الغربيـــة ، والسجائر ، والنظارات الشمسية ، والشاى التى تعتبر أمورا محبوبة بسبب فائدتها ولان لها قيمة تأثير ومكانـــة . وفى « زامبيـــا » (روديسيا الآن) فان الثلاجة الكهربائية تعطى قدرا كبيرا من التقدير ، وعادة ماتوضع فى وسط الحجرة . وفى « ميلانيزيا » فان عامل التقدير يفسر الى حد كبير استعمال الحديد المموج فى بناء أسطح المنازل الفخمة ، وبالرغم من أنه أكثر تحملا فهو أقل راحة من الاسطح المصنوعة من جذوع النخيل . وفى « الهند » فان الامهات فى الجماعات الأقل من الناحيـــة الاقتصادية والاجتماعية غالبا ما يصرفن نقودهن فى شراء الأطعمة الكربوهيدرتية التى يعلـــن عنها فى مساحيق والتى لها قيمة أعلى منا للبن الحليب وبعض الأطعمة المحلية الاخرى التى لها قيمة أقل بالرغم من أنها من نفس الثمن .

ويشير « فليكس .م. كيسنج » (٢) الى أن التجديد يكون مقبولا بصورة أسرع اذا أضاف شيئا الى نفوذ وتقدير الدين يعبلونه . ويصور هذا ملاحظة فوستر (٣) فى أنه فى أمريكـــا اللاتينية فـــان دورات المياه لاتنشأ عادة بسبب الاهتمام بالناحية الصحية ولكن لانها تضيف درجة زائدة من الأناقة للمنزل ، مما يرفع من قدر صاحبه فى نظـــر أقرانه . وشبيه بذلك مايحدث فى الريف المصرى من تقدم طبى ، لأنه أصبح من علامات المكانة والنفوذ أن يحضر الانسان طبيبا الى منزله ونفس الشىء

---

1) Fostor, Ibid. pp. 155 - 158.

2) Kessing, Felix M. «Cultural Anthropology The Science of Custom» Now york Holt, Rinehart and winston. 1958, P. 400

3) Foster. op. cit, p. 157.

بالنسبة لاستعمال الجرار حتى لو كان غير اقتصادى ، فهو رمز على التحضر فى كثير من المناطق . فمثلا ، رأى « فوستر » عدة جرارات فى « روديسيا » وكان استعمالها غير اقتصادى ، كما أن كثيراً من الجرارات لم يكن مستعملا بالفعل ، ولكن كانت قيمتها تكمن فى مجرد عرضها لاظهار مكانة ونفوذ مالكها .

٢ — الاتصال

غالبا مايبدو فى دراسات التغير الاجتماعى أن الاتصال بالمجتمعات الأخرى يبعث على التغير.[١] ونظرا لان أغلب الصفات والسمات تأتى من خلال الانتشار ، فان المجتمعات التى على اتصال وثيق مع مجتمعات أخرى تميل الى التغير السريع . ففى أثناء فترة النقل عن طريق الارض فان الكوبرى الذى يربط آسيا وأفريقيا وأوربا كان مركزا للتغير الحضارى . وبادخال السفن فان هذا المركز انتقل الى شواطىء البحر الابيض ، وبعد ذلك الى الشاطىء الشمالى الغربى لأوربا،وأصبحت مناطق الاتصال الثقافى هى مراكز التغير ، وفى الناحية التقليدية فان الحرب والتجارة هى أهم أسباب التبادل الثقافى ، أما اليوم فقد أصبحت السياحة والسفر اضافة جديدة الى أساليب الاتصال بين الثقافات . فمن خلال هذه الاتصالات نجد أن السلوك يتعدل وتدخل خبرات جديدة ، وتنشأ رموز جديدة للمكانة والنفوذ . فمثلا نلاحظ أنه نتيجة لزيادة السياحة والاتصال بالشعوب الغربية فان الشباب الروسى وشباب أوربا الشرقية يبحث بلهفة عن اكتساب الخبرات الغربية ، لدرجة أن استعمال ملابس « الجينز » تباع فى السوق السوداء فى شوارع أوربا الشرقية بثمن يتراوح بين ٨٠ الى ١٤٠ دولار .

---

1) Kessing, op. cit, p. 401.

٣ — واجبــات الصداقــة

تتغير أنماط الصداقة وتتوازن فى أغلب بلاد العالم ولعلنا نلاحظ استمرارها فى مجتمعنا المصرى • فبالاضافة الى الحب والارتباط الحر بشخص أخر طبقا لاختيار الشخص ، فان الصداقة تتضمن الى جانب هذا واجبات ومزايا متبادلة • فالصداقة فى مجــال الواجبــات والمزايا المتبادلة تعطى أساس التعاون فى كثير من المجتمعات • وكنتيجة لهذا النوع من رابطة الصداقة تقبل عدة تغيرات لكى تبعث السرور فى أداة التغير او هؤلاء الذين تقبلوه • « فالدخول فى صداقة مع شخص ما معناه أن يضع الانسان نفسه فى حالة الواجب » ، وهذه الحالة ترغم الانسان أن يواجه الطلب حتى لــو تضمن تضحية من جانبــه فالإنسان يجب أن لا يقول لا — اذا استطاع — لصديق (١) •

٤ — الطبقــة الاجتماعيــة

تتفاعل الطبقات الاجتماعية المختلفة فى المجتمع مع التغــير بطرق مختلفة ، فالطبقات العليا مثلا أكثر احتمالا لقبول الخبرات الطبية الحديثة لأنهم يستطيعون تحمل تكاليفها ، وهم أكثر تعلما ، وهم أيضا على اتصال أوثق بالعيادات والاطباء (٢) • ولهم أيضا وسائلهم للحصول على كثير من التجديدات والابتكارات غير المتاحة للطبقات الأخرى • « وعنــدما يكون الموضوع متعلقا بالثقافة المادية فان هذه الجماعة هى الاكثر تقبلا لها • ولكن كثيرا مايكون هؤلاء تقليدين ومحافظين فهم يقنعون بوضعهم • واذا حدث تغير كبير فى مجتمعهم وطريقة حياتهم فليس هناك تأكيد بأنهم سوف يستمرون بالتمتع بمزاياهم (٣) •

---

1) Foster, op. cit, p. 161.
2) Gould, Harold A. «The Implications of Technological Change for Folk and Scienti fic Medicine,» American Anthropologist, 59, 1957. p. 512.
3) Foster, op. cit, P. 170.

وقد يعتقد البعض أن الفقراء فى مجتمع ما هم أكثر الناس ميولا للتغير ، الا أن هذا الفرض غير صحيح فى أغلب الأحوال . لانهم يميلون عادة الى أن يكونوا أكثر معارضة فى تبنى طرق جديدة كما أشار الى ذلك « باتن » بقوله « هذا لانهم أقل الناس تحملا لقبول المخاطر ، فليس لديهم احتياطى يحميهم فى حالة الفشل ، وهم يعرفون أنهم لايستطيعون سوى كسب ما يقيم أودهم ، ولذلك فهم محتاجين الى التأكد قبل فعل أى شىء مختلف » (١) .

وعموما ، فان أكثر الناس تقبلا للتغير هم هؤلاء الذين ينتمون الى الطبقة الوسطى ، حيث تكون لديهم القدرة على القيام بمخاطرات محدودة دون تهديد شديد لحياتهم . ولكن موقفهم ليس مضمونا جدا لدرجة أن جاذبية الدخل الأكبر والرضى بالاحتياجات الاخرى لن يكون دافعا قويا للعمل ، واكثر من ذلك ، فهم لايمثلون عادة اهتمامات مكتسبة قد تهددها التجديدات الكبرى ، ويقابلونها باللامبالاة ، معتقدين أن أى تغيير غير ممكن الحدوث (٢) .

٥ ـ السلطة :

هناك على الأقل نوعين من السلطة يمكن التعرف عليهما كمؤثر أو كباعث لقبول التغير ، والاول هو النوع الذى فيه يوافق القائد المحترم على التغير المقترح ، فهو لا يرغم الناس على قبول التغير ، بل يستخدم السلطة التى يتمتع بها نتيجة لوضعه كقائد لكى يؤكد لهم ان هذا التغير مأمون حقا ، ومفيد ومرغوب فيه ، ويحدد « فوستر » (٣) صورة لذلك من قرية جزائرية حيث استطاع مدرس من الطراز القديم نتيجة لتأثيره وسلطته الأخلاقية أن يدخل عدة تجديدات فى كل مجالات الحياة .

(1) Ibid. pp 170 171

(2) Ibid. p 171

(3) Ibid. p 171

وعند الاهتمام بمصالح الاغلبية ، فانه بمرور الوقت يكون استخدام السلطة مطلوبا ضد معتقدات الأقلية المنشقة • فالتطعيم الاجبارى ضد الامراض والاوبئة مثلا ،وتكرير الماء قد تسبب عنها فوائد صحية هامة بصرف النظر عن احتجاجات الأقلية • وشبيه بذلك كان ادخال نوع جديد من البطاطس فى أوربا مما استلزم التدخل المبدئى للسلطة من أجل فائدة كل من يهمهم الأمر • فعندما أدخلت البطاطس الى أوربا لاول مرة فى أواخر القرن الثامن عشر ، ووجهت بمعارضة شديدة ، واعتبرت سامة لانها تسبب الاسهال ومن ثم فهى ضارة • وحدث نفس الشيء فى المانيا الغربية حيث أمر رئيس الجيش كل جندى بزراعة البطاطس والاعتناء بها وأكلها • ومن الواضح أن طول مدة الخدمة العسكرية كان كافيا لاعطاء الجنود وقتا لتعلم كيفية زراعة البطاطس وأن ينمو لديه أسلوب تذوقها • وعندما عاد الرجال الى مزارعهم بعد أداء واجبهم العسكرى بدأوا فى زراعة محاصيل البطاطس ، وبسرعة أصبحت طعاما رئيسيا فى المانيا ، وانتشرت بعد ذلك فى أجزاء أخرى من أوربا •

٦ — مشكلة « التلاؤم »

يسهل قبول التغير عندما يستطيع التكامل مع التشكيل القائم للثقافة (١) فاذا استطاع شكل جديد أن يتكامل أو يرتبط مع الأنماط التقليدية فان فرصته فى القبول تكون أكبر عما اذا كان لايوجد شيء يربطه بها ، فالحصان مثلا يتلاءم بسهولة مع ثقافة الصيد عند «الآباشى» لأنها تمكن هذه الخيول من تحسين مهاراتها فى الصيد • وأيضا ، فان كثير من المجتمعات غير الغربية مستعدة لقبول اجراءات ومواد الطب الحديث مثل التطعيم ، والمضادات الحيوية ، وحتى العمليات الجراحية — حيث تتفق هذه مع الطب التقليدى • فقد كان من الأسهل على «النافاهو» المريض أن يبتلع حبه من الطبيب بينما هو مستمر فى الرقص •

---

1) Kessing. op. cit, p. 398.

ويسهل قبول التغير أكثر عندما يمكن تكييف أدوات جديدة وفنون جديدة مع الطرق السابقة فى الوجود لاستخدام الجسم . فالأنمـاط الآلية التقليدية هامة واذا استطاع ابتكار جديد أن يتوافق مـع اطار العمل الموجود فان امكانيات الادخال الناجح لهذه التجديدات تتزايد . فقد كان من السهل وقت من الاوقات تكييف أداة أكثر من النمط الآلى . فعندما زود « المكسيكيين » بعربات اليد فى مواقع بناء السكك الحديدية لم يستسيغوا استعمالها وأزاحوا العجلات وحملوا العربة على ظهورهم . وهذا يرجع الى حقيقة أن المكسيكيين قد نقلوا التراب لمـدة قرون فى سلة على ظهورهم . وحتى اليوم فانه يمكن للسياح الذين يزورون مدينة « مكسيكو » أن يشاهدوا التراب وهو ينقل بعد حفر الأساسات بنفس الطريقة . ففن استعمال العربة لا يلتقطه العامل بسهولة ، ولـذلك فان عمال السكك الحديدية لا يرغبون فى مضايقة رؤسائهم برفض مساعدتهم ولذلك قاموا بحل المشكلة بتغيير الأداة بالاعتماد على أنماطهم التقليدية[1]

٧ ــ نظـام التقديـــم

سبق أن أشرنا الى أن نجاح أى تجديد يعتمد الى حد كبير عـلى الظروف المساعدة التى قد توجد وأيضا على مدى تعرف الأفـراد على حاجتهم لهذا التجديد [2] . فعندما يظهر تجديد ، أو ابتكار معين فى وقت تكون فيه العوامل المساعدة فى أقصى حالاتها فان فرص القبول تكون ممتازة . وبمعنى آخر فان الناس يحتاجون الى أن يكونوا مستعدين لادخال ابتكار معين . فالقرويون فى المجتمعات النامية مثلا لاينظرون الى معرفة القراءة والكتابة كشىء مجرد جيد فى حد ذاته . فهو يأخذ وقتا وجهـدا شاقا وعندما يتحقق فان فوائده المحسوسة تكون قليلة للغاية . ونتيجة لذلك فعندما تكون هناك فوائد مادية يحصلون عليها من برامج القراءة والكتابة

---

1) Foster, op. cit, p. 166.

2) Ibid., p. 167.

فان فرص النجاح تكون متوفرة . ولذلك نجد أن برامج محو الأمية فى « مصر » تجد مقاومة شديدة وعدم استجابة من الناس لاعتقادهم بأنه بتعلمهم القراءة والكتابة لن يحصلوا على أى فائدة فعلية . وهناك مثال آخر عكس ذلك وهو أنه فى « نيجيريا » أثناء الحرب العالمية الثانية كانت معسكرات محو الامية تجد استجابة شديدة ، وكانت ناجحة لسبب بسيط، وهو أن الناس كانوا يريدون التعلم كى يكتبوا لابنائهم الذين كانوا يخدمون فى الجيش فى بلاد بعيدة . وعندما انتهت الحرب وعاد الشباب تراجعت برامج محو الأمية ، وفتر الحماس بالنسبة لها نظرا لانتهاء الهدف الذى حرص من أجله السكان على محو أميتهم . وعموما ، فان محو الأمية يصبح هاما عندما يبدأ القرويون فى ادراك أن الافراد المتعلمين لهم مزايا أكبر ، أو حينما يشعرون أنهم لن يتعرضوا للغش والخداع من سكان المدن اذا كانوا يعرفون القراءة والكتابة « ونظرا لارتفاع مستويات المعيشة وتزايد السفر والاتصال بين اجزاء المجتمع الواحد فان الظروف تصبح مناسبة أكثر لتقديم برامج تعليم الكبار الى الأفراد الريفيين ، ولكن حتى تأتى مثل هذه الاوقات والفرص فان النجاح المحدود لبرامج محو الأمية يكون هو القاعدة المعتادة (١) وبنفس الطريقة ، فانه فى الأماكن التى لاتكون الفرص العلاجية متاحة بالنسبة للمريض فان برامج الصحة الوقائية يكون لها معنى محدود للغاية بالنسبة للناس .

٨ — التوقيت

أن نجاح تقديم أى تجديد يعتمد الى حد كبير على التوقيت الذى يتم فيه ففى المناطق الريفية يكون قبول التجديد أو الابتكار متوقفاً على الوقت المناسب فى دورة السنة ، وهذا حقيقى الى حد كبير عندما يتضمن ذلك المبلغ الموجود فى جيب الشخص فمقدار النقود الموجود مع الشخص فى المجتمعات الريفية يختلف بأختلاف الفصول أثناء السنة وتبعا لنوع

---

1) Ibid, P. 169.

المحصول • ففي أثناء فترات الحصاد يملـك الفلاحون أكبر كمية مـن النقد • وتكون هذه الفترة هي فترة عقد الزيجات ، والاعياد ، والمناسبات الأخرى التى تتطلب نفقات كبيرة • فاذا ظهرت مغريات جديدة للفلاحين أثناء هذه الفترة فانهم يميلون الى صرف النقود من أجلها أكثر مما كانوا عليه قبل شهرين فقط أو بعد وقت الحصاد • ويعبر عن ذلك « باتن » بقوله : « ان الشخص يجب الا يكون مستعدا فقط لتقديم وقته للعمل ، بل يجب أن يعطى عمله فى الوقت المناسب ، أى أن يجيد التوقيت حتى يضمن النجاح • فالناس يكونون أكثر انشغالا فى بعض الفصول عنها فى غيرها • ويمكـن أن يقوموا بالمشروعـات الناجحة فى الفصـول التى لايوجد بها عمل ، وعندما يكون لديهم وقت فراغ • ولكن المشروع الذى يبدأ متأخرا يتم جزء منه فقط عندما يأتى فصل العمل مرة أخرى وقـد لايتم أو يتعرض للفشل ، وقد يثير هذا التعثر الناس ضد استكماله أو محاولة القيام بمشروعات أخرى مستقبلا [١] •

٩ ـ المشاركة فى صنع القرار

يكون التجديد أكثر قبولا وخاصة فى المجتمعات المتقدمة اذا كـان الناس الذين سيتعرضون لتأثيره يشتركون فى تخطيطه وتنفيذه • وفى دراسة قام بها «كيرت لفين» [٢] أثناء الحرب العالمية الثانية ،وكان الهدف منها تغيير أنماط استهلاك اللحم الى أقل حد ممكن ، وفى مقابـل ذلك استعمال قدر أكبر من الحلوى • وقد طبق « لفين » دراسته على حالتين تجريبيتين • ففى أحداهما استمعت الزوجات الى محاضرة عن فوائـد هذه الأطعمة ، وفى الاخرى تمت مناقشة الموضوع بين السيدات • وتم الحصول على نفس المعلومات من الطريقتين ، وقد أشارت النتائج بعد ذلك الى أن ٢٣ فى المائة من الافراد الذين اشتركوا فى المناقشة استخدموا

---

1) Ibid, 169.

2) Lewin, Kurt, «Croup Decision and Social Change» in H. Proshansky and B. Seidenberg (eds.), Basic studies in Social psychology, N.Y. Holt, Rinehart and winston, 1965. pp. 423 - 436.

لحوما غير مألوفة بالمقارنة مع ٣ فى المائة من الافراد الذين استمعوا الى المحاضرة . وقد تكررت الاشارة الى هذا الامر فى كثير من دراسات العلوم الاجتماعية حيث ظهر أن التغير يتأثر أكثر وباستمرار اذا كان الناس الذين يشملهم التغير يشاركون بطريقة ما فى البرنامج المتغير بالرغم من أنه من المعروف أن فكرة المشاركة تحتم خاصية تساوى الطبقة والثقافة.

١٠ ــ المنافسة

ان المنافسة غالبا ماتدفع الناس الى القيام بتغييرات . وقد تحدث المنافسة بين أفراد أو بين جماعات أو بين قرى . كما أن المنافسة كباعث للتغير قد تظهر فى السوق بشكل واضح فالمستهلكون يتوقعون عادة المنتجات الجديدة ويفضلونها . ويعبر عن هذه الفكرة « جيرالد زالمان » حين يقرر أن « انسياب البضائع والخدمات يحتوى على تجديدات وابتكارات فى الوقت الحاضر أكثر من أى وقت مضى فالمستهلكون لايتوقعون فقط تغيرا مستمرا فى الأشياء المتاحة لهم بل يرون أن هذا التغير شيئا مرغوبا فيه » (١) وعموما فليس من الصعب أن نثبت أن « المنافسة » فى خلق منتجات أحدث وأكبر وأكثر كفاية تعتبر باعثا للتغير بالنسبة للاقتصاد المعاصر للسوق الموجه .

1) Zaltman, Gerald. «Marketing Contributions from the Behavioral Sciences» New york : Harcourt, 1965, p. 3.

ثانيا : البواعث الثقافية للتغير

تتراكم الثقافة بمرور الوقت ويميل نموها الى التزايـد ، وعموما فان أساس الثقافة القائمة هو الذى يقرر السمات الجديدة التى يمكـن قبولها • وتظهر الثقافات المختلفة درجات متفاوتة من القدرة والاستعداد لقبول التغير • ويمكن تصوير مدى التطرف فى استعداد وقدرة الثقافات على بعث التغير واثارته بدراستين :

الأولى قام بها « دافيد بوتر »فى الولايات المتحدة باعتبارها مجتمع صناعى متقدم ، والاخرى قام بها « ادوارد • س• بانفيلد » عن قرية فى جنوب ايطاليا هى : « مونتجرانو » •

وقد حاول « ديفيد بوتر » فى مؤلفه « الوفرة الاقتصادية والطابع الامريكى » (١) أن يجد مفتاحا تفسيريا للطابع القومى الامريكى • وقد قام باستعراض ثلاثة تحليلات للولايات المتحـدة أحدها من منظـور انثروبولوجى قدمته « مارجريت ميد » والثانى نفسى « لديفيد ريسمان » والثالث نفسى أيضا « لكارن هورنى » وبالتعـرف على الاختـلاف فى تفسيراتهم فان اهتمام « ميد » يتركز على القابلية للتحـرك والنجاح ، بينما يتركز اهتمام « ريسمان » على مدى تقرير أقراننا أما « هورنى » فاهتمامه ينصب على المآزق المتضمنة فى الثقافة الامريكية « وهو يشعر أن الامريكيين يختلفون فى جوهرهم عن الشعوب الأخـرى الى درجة كبيرة » (٢) وأن الاساس المشترك عندهم هو تأكيدهم على روح التنافس فى مجتمع الوفرة الاقتصادية • وطبقا لرأى « بوتر » (٣) فان الطابع الامريكى « هو فى معظمه مجموعة من الاستجابات لموقف تنافس غـير

---

1) Potter, David. «People of Plenty : Economic Abundance and the American Character», Chicago : University of Chicago Press, 1954.
2) Ibid, P. 54.
3) Ibid, P. 58.

عادى » وهو يصف هذا الموقف ويفسره بحسن الوفرة الامريكية فى جميع المجالات ـ الجغرافية والطبيعية وعدد المؤسسات . فالتنشئة الاجتماعية فى آمريكا تحدث فى ظروف طبيعية سهلة . وظروف اجتماعية تدل على الرخاء . وكل القطاعات الأخرى للتنشئة الاجتماعية النظامية مثل : العمل والصناعة ، والعقيدة ، والحكومة ، ووسائل الترفية تفرض اتجاهات تفاؤلية تتميز بوجود روح التنافس التى تأخذ شكل ونمط الوفرة الثقافية . ومثل هذه الثقافة تخلق بالتالى امكانية تقبل الجديد ، فهى تشجع التجديد وترحب بالتغير .

أما دراسة « بانفيلد » (١) عن « الأساس الاخلاقى لمجتمع متخلف » فقد تعامل فيها مع قرية ايطالية فى الجنوب تمثل موقفا ثقافيا فريدا حيث يوجد « الحد الأقصى للفقر والتخلف .. وهو يفسر هذا الوضع بأنه فى أغلبه وليس فى مجموعة يرجع الى عدم قدرة القرويين على العمل معا من أجل صالحهم العام ، أو فى توصيل المطالب المادية الملحة الى الاسرة النواة » وقد لاحظ « بانفيلد » أن ثقافة « مونتجرانو » محافظة ومستقرة . فهى تقدس التقاليد وتحترمها وتقدم اجابات دوجماطيقية على كثير من الأسئلة . فكل ما يحدث له دافع أو تفسير دينى ، وليس هناك شىء يعتبر وسيلة الى هدف عملى . وإذا كانت هناك محاولات للابتعاد عن هذا السلوك التقليدى فانها تتم بالقوة، وهم يقاومون التغير الاجتماعى ان لم يرفضوه أصلا .

وبالرغم من هذه الظروف المتجمدة فان التغير يمكن له أن يحدث وأن يرحب به اذا توفرت بعض الظروف المواتية والتى عددها « دينيس جولت » (١) فى ثلاثة وهى :

---

1) Banfield, Edward c. «The Moral Basis of Backward Society,» New york, Free Press, 1958 P. 10.
2) Goulet, Denis A. «The Cruel Choice : A New Concept in the Theory of Development,» New york, Atheneum, 1973, p. 189.

أ — ظهور قدرات جديدة للتعامل مع المعلومات .

ب — ضرورة استغلال المصادر الحيوية غير المتاحة .

جـ — يجب أن يعاد تفسير العقلية المغايره الكامنة فى « التحديث » من خلال صيغ الامور العقلية التقليدية القائمة . أى يجب أن يكون التجديد أو الابتكار منسجما مع مطالب الوجود الحالية والمستقبلة .

ويرى « جولت » أنه اذا توافرت هذه المتطلبات الأساسية للتغير فأن قبول التغير سيجد أصداء واسعة فى المجتمعات النامية ، بل أنه يرى أكثر من ذلك ، حيث يقول أن مقاومة التغير تعمل فقط تحت ظروف معينة « فليس التغير هو الذى يدرك على أنه غير مقبول ولكن التغير المهدد الذى يربك ويهدد البقاء ، والتماثل أو تماسك الجماعة . وعندما يضمن الحد الأدنى لامن هذه القيم » الثلاثة ، فان مقاومة التغير قد تكون محدودة للغاية أو لاتكون موجودة على الاطلاق . فقبول التغير فى كثير من المجتمعات النامية يصبح أكثر سهولة بوجود العلاقة بين القرية والمدينة ، وبين البناء الطبقى للقرية ، وبعدم وجود الجماعات القرابية الممتدة (١) .

التكامل الثقافى :

وتعتبر درجة التكامل الثقافى أيضا أحد عوامل قبول التغير . فالثقافات المتكاملة المنسجمة ينتج عنها عادة شعور بالإمن والرضا بين أعضائها . ومن ناحية أخرى ، فان الثقافة الأقل درجة فى التكامل ، والتى تكون فيها الأنماط المختلفة أقل ارتباطا فانها تتكيف بسهولة أكثر مع

---

1) Quin', Malcolm N. «The Idea of Progress in an Iraqi Village.» Middle East Journal, 12, 1958, pp, 369 - 384.

الظروف التى تحدث التغير • وحتى لو بدأ ظهور التغير فى الثقافة المتكاملة فان ذلك يكون عادة فى أحد أوجه الثقافة فقط مما قد يؤدى الى عدم تكامل الثقافة ككل • فمثلا عندما ألغى البريطانيون عادة الاحتفاظ برؤوس الاعداء فى مالينزيا كانت نتائج ذلك كارثة محققة • فقد ضاع اهتمامهم بالحياة ، وانخفضت نسبة المواليد بسرعة ، وزاد عدد الأسر التى بدون أطفال من ١٩٪ الى ٤٦٪ فى احدى الجزر • وفى جزيرة أخرى من ١٢٪ الى ٧٢٪ واذا تساءلنا عن السبب فى حدوث كل هذا نجد أن الاحتفاظ برؤوس الأعداء هو مركز المؤسسات الاجتماعية والدينية ، وهو يتخلل حياة الناس • فقد كانوا يحتاجون الى الخروج فى رحلات للاستيلاء على هذه الرؤوس لأنهم يحتاجون اليها لتهدئة أرواح أجدادهم فى مناسبات عديدة مثل عمل قارب جديد ، أو بناء منزل للرئيس ، أو تقديم ضحية فى جنازة رئيس • وبالرغم من أن بعثاتهم للاستيلاء على رؤوس الأعداء كانت لاتستمر سوى عدد قليل من الاسابيع كما أن القتال الفعلى لايستمر سوى عدة ساعات فان الاستعدادات كانت تمتد لعدة سنوات • فقد كان عليهم أن يبنوا قوارب جديدة ، وأن يحتفلوا بأعياد وطقوس وهذه كانت تدفعهم الى زراعة الأشجار وتربية الخنازير • وكان عدد الأعياد والاحتفالات يزيد باقتراب موعد الرحلة • وعند عودة الصيادين تبدأ احتفالات أخرى • وبالغاء هذا النمط المتكامل لحياتهم ، فقد الماليزيون الاهتمام بحياتهم (١) •

أما المجتمع الذى يتميز بعدم التناسق والانسجام بين عناصره الثقافية ، وقلة التكامل فى المبادىء الثقافية • وتظهر فيه دائما الصراعات والارتباك وعدم الامن والقلاقل الاجتماعية ، وهذه الاحوال مجتمعة ينتج عنها أرض خصبة لقبول التغير • وأكثر من ذلك • فان مثل هذه الثقافة تميل الى أن تكون أكثر عقلانية ودنيوية ، مع تأكيد مرتفع على الفردية • وهناك درجة عالية من التنقل الاجتماعى ، ومعدلات عالية

---

1) Montagu, Ashley, «Man Observed» New york, Putnam, 1968, p.94.

للتعليم ، وتمايز مهنى واضح ، والالتزامات الشخصية نحو الاسرة والاصدقاء فى حدها الأدنى ، والعلاقات التعاقدية هى السائدة . ويعتبر الدين مسألة سطحية بالنسبة لاغلب الناس ويظهر بوضوح شكل الاسرة النواة ، وهناك تأكيد وتشجيع لروح الجدة والابتكار ، وفى مثل هذا المناخ فان الجدة لاتشجع فقط بل يبحث عنها بشغف .

وفى المجتمعات ذات الثقافات المتكاملة ، فانه من المناسب أن نضع قائمة بالمعتقدات الدينية السائدة ، والكتابات المقدسة بالنسبة للناس (الكتب المقدسة) حيث أنه من الملاحظ أنه بالعمل مع الفلاحين فى البلاد العربية فانه يمكن الحصول على نتائج جيدة باستخدام آيات من القرآن الكريم لحث الناس على العمل والتقدم وقبول التغير ، حيث أن التلفظ بهذه الآيات يضيف صدقا دينيا للقائمين بالاشراف من الفنيين ، فتعبيرات مثل « قال الله فى كتابه الكريم » أو « كل من يحب النبى » أو « من منكم يريد أن يكرم دينه وكتاب الله » فان مثل هذه العبارات التى تهز المشاعر والوجدان نادرا ما تفشل فى اثارة استجابة ايجابية . وبالاضافة الى ذلك فان القرآن الكريم يحتوى على ثروة من العبارات التى تتفق مع المعرفة والصحة والتحسينات فى الزراعة والتى يمكن أن تساعد فى صدق أى مناقشة عن التجديد والفوائد التى يمكن تعود على الناس نتيجة استعماله . ومن أمثال هذه العبارات التى يمكن أن تستخدم فى الصحة وبرامج التنمية أن تقول فى مجال الصحة الشخصية «النظافة من الايمان» وقوله صلوات الله عليه أيضا : المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

فقبول التغير يكون واضحا عندما يرى فى نطاق مايقره الدين أو يحث عليه . فعندما يكون الناس واعين بأن التجديد المقترح له سند من الناحية الدينية فان قبوله يكون أفضل . ومن الاشياء التى تساعد على قبول برامج التنمية فى الشرق الأوسط بما فى ذلك المجتمع المصرى أنه

عند ادخال أى تجديد لابد أن تصحبه كلمة « باسم الله » تيمنا وتضرعا الى الله بأن يساعدهم ويشد أزرهم .

وقد تظهر جماعات مختلفة قبولا مختلفا للتغير . فمن الواضح أنه فى كل مجتمع متغير يوجد ليبراليين ومحافظين ، وعموما ، فان الناس الذين يعرفون القراءة والكتابة والمتعلمين يميلون الى قبول التغير أكثر من الاميين والجهلة . فقبائل « الآميش » فى الولايات المتحدة كانت تقاوم أى تغير فيما عدا فنون الزراعة . وقد تكون هناك جماعة تستقبل التغير فى مجال معين بدرجة عالية ، ولكنها تقاوم التغير فى مجالات أخرى . ومثال ذلك أن هناك كنائس عديدة الان مبنية على طراز معمارى حديث الا أن الصلوات لم تتغير . حيث أن الناس عادة مايقبلون التغير فى النواحى المادية ولايجدون ضررا فى ذلك ، أما النواحى غير المادية والروحانية فانها تكون ملتصقة بالقلب والروح ويصعب تغييرها بسهولة .

وتؤثر خصائص الجماعة الاجتماعية الى حد كبير فى قبول فكرة جديدة أو ممارسة حديثة كما يتضح ذلك من الدراسة التى قام بها « ساكسون جراهام » (١) عن قبول خمسة تجديدات فى الولايات المتحدة وهى : التلفزيون والكانستا (٢) والسوبر ماركت ، وتأمين المستشفى ، وتأمين الخدمة الطبية . خلال مستويات الطبقة الاجتماعية . وقد كشفت نتائج البحث أنه لاتوجد أى طبقة اجتماعية تقبل التجديدات الخمسة . فالتلفزيون مثلا وجد قبولا وانتشارا بين الطبقات الاجتماعية الدنيا،بينما انتشرت الكانستا أكثر بين الطبقات الاجتماعية العليا . وهنا يناقش « جراهام » فكرة هامة وهى أن قيمة عامل القبول ترجع الى المدى الذى تكون فيه صفات التجديد أو الابتكار متفقة مع الخصائص الثقافية

---

1) Graham, Saxon, «Class and Conservatism in the Adoption of Innovations,» Human Relations, 9, 1956, pp. 91 - 100.

(٢) الكانستا Canasta هى لعبة من العاب ورق الكوتشينة .

للنسق الاجتماعى المستقبل « فالاعداد الثقافى » المطلوب لتنبى استعمال التلفزيون طبقا لرأى « جراهام » يتضمن درجة عادية جدا من التعليم، وجدا أدنى للدخل والرغبة فى المشاهدة السلبية والتسلية الرخيصة الثمن. وهذا النمط الثقافى موجود فى الطبقة الدنيا للمجتمع .

وعموما فان قبول المزايا النسبية للجدة يعتبر مؤثرا فى تسهيل قبولها . ويمكن تصوير هذا بامداد الافلام السينمائية بموزعين ،فاذا كان الفيلم جيدا فانه يعرض فى عدة دور للعرض ولا يوزع على أساس جماهيرى لفترة طويلة من الوقت ،وينتج عن هذا عملية بطيئة من الانتشار التى تعتمد على التأثير الشخصى . أما اذا كان « الفيلم » رديئا فانه يعرض فى عدة دور للعرض ويصحب ذلك اعلان مكثف عن الفليم ومزاياه لكى يضمن قبوله قبل انتشار الرأى بين الذين يذهبون الى السينما ويعرفون مزايا الفيلم الحقيقية (١) .

وأخيرا نستطيع أن نقول أن وظيفة الثقافة هى تسهيل العلاقات الانسانية وجعلها أكثر وضوحا ، ولكن الناس لايتساوون فى مدى تقبلهم لاى تغير ثقافى يطرأ على نظمهم الاجتماعية أو قيمهم وبالتالى فان عملية « القبول الاجتماعى » تعتبر من أهم العمليات التى تواجه نجاح أو فشل التغير الاجتماعى . فسواء كان التجديد نابعا من المجتمع أو مستعارا من مجتمع آخر فان المخترع أو المجدد هو الذى يبدأ باستخدامه فى مجتمعه ، فالتجديد اذن يبدأ باعتباره عادة فردية وليس عنصرا ثقافيا، ولكى يصبح كذلك يجب أن يلقى استحسان وقبول الآخرين (٢) . ويسمى « القبول الاجتماعى » انتشارا « داخليا » أو « أفقيا » وهناك عامل

---

1) Katz, Elihu, and Paul F. Lazarsfeld, «Personal Influence» New york : Free Press, 1955, p. 180.

2) Murdock, Peter George., «How Culture Change» in Shapiro Harry (ed.), «Man, Culture and Society» Oxford University Press, New york, 1956, pp. 257 - 258.

تحس به أهميته فى القبول الاجتماعى للتجديد وهو « مكانة » المجدد أو الجماعة التى صاغته فى بادىء الأمر • فالتغيرات التى يقودها القـادة السياسيون أو الدينيون يتبعها الناس بسرعة لان المجـدد المغمور غالبا مالا يتبعه أحد لعدم معرفة الناس به أو عدم ثقتهم فيه •

ثالثا : البواعث الاقتصاديـة للتغير

ليس هناك شك فى أن الرغبة فى الربح الاقتصادى هى باعث هام على التغير • فاذا كان هناك شىء له قيمة نفعية (أى قيمة بسبب مايمكن أن يؤدية) فان التغير فى مثل هذه الحالة يكون مقبولا وموضع ترحيب • وقد وجد كل من « فرديك س• فليجل » و « جوزيف ل كيفلن » (١) فى دراسة لهما أن قبول خبرات مزرعة جديدة عند الفلاحين الامريكان هو أنهم أدركوا أنها مريحة وأقل مخاطرة ولذلك فهى مقبولة بالنسبة لهم • وبالرغم من ذلك فاذا كانت بعض وجوه الثقافة التقليدية تقيم الاشياء بعيدا عما يمكن أن تقدمه من فائدة فان التغير يكون أقل قبولا • ولشرح هذا الكلام فانه بالنسبة للفلاح الامريكى تعتبر الماشيـة مصدرا للدخل فتربيتها وذبحها وبيعها تعتبر مسائل مربحة بالنسبة له ولذلك فهو يقبل عليها ويحاول أن يزيد من ثروته بصورة مستمرة ، ولكن بالنسبة لكثير من الشعوب الافريقية وأيضا الآسيوية مثل الهند نجد أن الماشية تمثل قيما جوهرية • فالمالك يتعرف على كل بقرة ، ويحبها لدرجة تصل الى حد التقديس ، فذبح احداها يعنى ذبح أحد أفراد الاسـرة • وقد يجـد الشخص الغربى الذى ينظر نظرة عقلانية غير عاطفية للانشطة الاقتصادية أنه من الصعوبة بمكان قبول عواطف وقيم الشعوب غير الغربية (وبنفس الطريقة تجد الشعوب غير الغربية صعوبة فى قبول خبرات وقيم الغربيين)

---

1) Fliegel, Frederic c. and Joseph E. Kivlin. «Attributes of Innovation as Factors in Diffusion.» American Journal of Sociology 72 November 1966, pp. 235 - 248.

وقد يسخر الغربيون من « البياجا » فى وسط الهند الذين يرفضون التخلى عن عصيانهم فى عملية الحرث . لماذا ؟ ان « البياجا » يحبون الأرض كأم وهم يساعدونها بعصا الحفر لكى يجعلونها تنتج ولكنهم لايطيقون استعمال السكين لتصورهم أن استخدام السكين فيه شىء من العنف والايذاء وقد يؤلمها وهذا مالا يقبلونه على الاطلاق .

١ — ادراك المزايا الاقتصادية

بالرغم من كل ماذكرناه سابقا فان القوى الاقتصادية تطغى فى النهاية على القيم والخبرات التقليدية . وترى « لوس مير » مثلا أن أفعال الافريقى الحديث تتقرر حسب ادراكه للفائدة الاقتصادية وليس تبعا « لنظرية مجردة عن قداسة الأرض التى لها امكانيات اقتصادية موروثة وهى تقترح كتعميم تطبيقى لهذا « ان القوة المحافظة للتقليد ليست دليلا ضد جاذبية الفائدة الاقتصادية ، على شرط أن تكون الفائدة مجزية ومعروفة بوضوح . ففى حالة ماتكون الارض خصبة ومنتجة فان الاتجاهات العاطفية والدينية للمواطنين نحوها لا تمنع من تطوير اتجاه تجارى للاستفادة منها الى أقصى درجة [١] .

٢ — التكلفة

التغير دائما مكلف ، ولهذا فالملاحظ أن الفقراء جدا يقاومون التغير لانهم لايستطيعون تحمل « أى » مخاطرة [٢] . أن ثمن الجديد من البضائع أو الخدمات يقدر تبعا لامكانيات الفرد بمقارنته بتكلفته مع تكلفة بديل آخر ، وأيضا بتقديره لضغوط احتياجاته لها . فالانسان الذى يستطيع أن يتحمل ثمن يخت قد يجد ثمن آلة الحصاد مبالغا فيه ، ومع

(١) اقتبسها فوستر عن « لويس مير » نفس المرجع السابق ص ١٥٤—١٥٥

(2) Arensberg, Conrad, and Arthur M. Niehoff. «Introducing Change : A Manual for Community Development,» Chicago, Aldine - Atherton, 1971, pp. 149 - 150.

ذلك فان الشخص المريض يعتبر أن أى تضحية ليست كبيرة من أجل راحته وشفائه ، وقد يرهن شخص امريكى مرتبه لكى يشترى سيارة ، بينما العامل المصرى يعتبر ثمنها غالى جدا بالنسبة له ، كما أن بعض الناس يحاولون اذا لم تفرض عليهم المحاولة أى تكلفة اقتصادية ، كما قد يفكر البعض أن الشىء يكون عديم القيمة أو ضار لانه مجانى ، ولكنهم أكثر احتمالا لقبوله لانه مجانى ، وخبرة منح الاشياء المجانية كنوع من الدعاية والترويج لمنتج معين منتشرة فى كثير من المجتمعات .

وتعتبر التكلفة على المستوى التنظيمى أوضح الأبعاد التى تؤثر فى قبول التغير ، ويمكن تقسيم التكلفة المالية فى التنظيمات الرسمية الى أ ـ التكلفة الأولية ب ـ التكلفة المستمرة ، وعندما يكون ناتج تحليل (التكلفة ـ الفائدة) مواتيا ومناسبا للمنظمة صاحبة المشروع فان احتمال قبول التجديد يكون كبيرا ، وتعتبر التكلفة الاجتماعية شكلا آخر للانفاق وهى عامل هام فى تفسير سرعة القبول وخاصة فى الدول النامية .

وقد تظهر التكلفة الاجتماعية فى صورة العزلة والكراهية أو حتى الابتعاد عن بعض الجماعات المرجعية ، فالمكانة الاجتماعية أو الوضع الاجتماعى داخل جماعة ما يؤثر فى الدرجة التى تصل اليها التكلفة ومدى ادراك الفرد لهذه التكلفة ، فالشخص الذى يعيش على هامش الجماعة لايكون لديه الكثير الذى يخسره من التجديد ، ولذلك فحتى فى حالة عدم موافقته فانه قد يتبنى تجديدا معينا ، فهناك دائما احتمال أن القرار قد يكون حكيما وقد يكسب منزلة رفيعة نتيجة لذلك ... وفى المقابل قد يتبنى شخص عالى المنزلة والمكانة فى جماعة تجديدا معينا ويكسب حتى فى حالة وجود السخرية المحتملة أو الفعلية ، وهو يستطيع الصمود والتصدى لان لديه القدرة على الابتكار والتجديد أو الارادة القوية أو الثقة الاجتماعية التى يستطيع أن يعتمد عليها ، وهو فى نفس الوقت لن يعانى كثيرا اذا لم ينجح التجديد (١) .

1) Zattman, Gerald et al, «Innovation and Organizations, New york, Wiley, 1973, p. 35.

ويرتبط عامل التكلفة فى حالات عديدة بكفاية أى منتــج معين أو أداة • فعند ظهور أغلب الماكينات والأدوات لاول مرة كانت غــير متقنة وبدائية إلى حد كبير بمقارنتها بالآلات والادوات الحديثة والتى ستتطور فى المستقبل الى الأحسن بالضرورة • فقد كانت أول طائــرة تستطيع بالكاد أن ترتفع عن الارض ، وكانت أول سيارة لاتفــوق سرعتها سرعة الحصان الذى يجر عربة ، وكان أول مذياع غير مسموع بوضوح ، وكانت أول صورة للتلفزيون غير واضحة وغير ملونة • وعموما فان الاتقان يعتبر جزءا من الاكتشافات ، فالملاحظ أن أى اختراع يواجه نقصا فى بداية ظهوره ، ويستمر ويميل الى التحسن باستمرار ، فطائرة اليوم العملاقة التى تفوق سرعتها سرعــة الصوت هى صيحه عالية لما أبدعــه الأخوة « رايت » بآلتهم التى ابتدعوها فى عام ١٩٠٣ • وهكذا السيارة الحديثة، والانتاج الضخم عادة مايسبب كفاية متزايدة وتخفيضا فى السعر ممــا يقلل من التكلفة ، ويزيد من احتمال قبولها •

٢ ـ المصالح المستقرة

ترتبط المصالح المستقرة غالبا بالمسائل الاقتصادية وتظهر كعوامل مشجعة على التغير عندما يعتقد أصحابها أن التغير المقترح سيكون مربحا لهم ، وسيعود عليهم بالفائدة • فعلى مدار الزمن فى المجتمــع نجد أن أصحاب المصالح المستقرة ينجحون أكثر من غيرهم • فهم يستطيعون ان يجعلوا آراءهم مقبولة فى المجتمع ، وهم يجمعون بين المال ، والتنظيم ، والقوة • وبناء على ذلك يصبحــون من أصحاب المصالــح المستقرة • فجماعات المصلحة التى تستطيع الوصول الى فائدة خاصة من المحافظة على الوضع الراهن يحاولون المحافظة على مزاياهم وامتيازاتهم الخاصة ويعارضون التغيرات ماعدا الملائمة لهم أو التى تخدم مصالحهم وتدعيم مركزهم • فالطرق الحديدية مثلا عارضت بشدة نمو صناعــة سيارات النقل وفى نفس الوقت شجعت التجديدات والتحسينات التى أدخلت على آلات القطارات وعربات الركوب ، وأيضا التحسينات التى أدخلت الى

تنظيم وخدمات التوزيع • وتؤكد كثير من دراسات التغــير الاجتماعى على أن أصحاب المصالح المستقرة يعارضون التغير أكثر من تشجيعه ، والتغيرات التى يشجعها أصحــاب المصالح المستقــرة هى فى الغالب تحسينات فى الخبرة الموجودة بينما المعارضة التى يظهرونها تكون موجهة نحو التجديدات التى تمثل تهديدا لهم • وسوف نعود الى هذا الموضوع بشىء أكثر من التفصيل فى القسم التالى من هذا الفصل •

وباختصار فالملاحظ أن علمــاء الاجتماع أكــدوا وأبرزوا أسباب معارضة التغير أكثر من تأكيدهم على دواعى قبوله • ومن الممكن بجمع البواعث الاجتماعية ، والثقافية ، والاقتصادية معا أن يصبح من الممكن الوصول الى تعميم فيما يتعلق بشروط القبول • فهناك كثير من الادلة فى العلم الاجتماعى تشير الى أن التغير يكون أكثر قبولا اذا قــام بتبنيه قرار جماعى ارادى ؛ حيث يكون أمــام الناس فرصة للمناقشة مــع المعارضين ، وفرصة للتعرف على الاهداف الصحيحــة ، ومناقشتها ، واتخاذ الاجراءات المناسبــة لتجنب المخاوف والصعــوبات • وتزيد احتمالات القبول عندما يشعر الناس بأن التغير القادم لن يهدد أمنهم واستقلالهم ؛ وعندما لايصطدم بالقيم السائدة والآراء الراسخة وكذلك عندما يكون التغير سببا فى التقليل من المعاناة الحالية أكثر من زيادتها • وعندما تتوافر مثل هذه الشروط فان الاستعداد لقبــول التغير يصبح خاصية عند كثير من الافراد والجماعات والمؤسسات فى المجتمع • فالأيام الطيبة الماضية لايمكن تعويضها الا اذا كان هناك تنبؤ وتوقع بأيام أحسن فى المستقبل • وهكذا يمكن الاحتفاظ بفورة الشباب ، وحماية التجديدات حتى تحين الفرصة لقيام ماهو جدير بها • وفى مثل هذه الحالات يصبح من الممكن رؤية النموذج المثالى أكثر وأكثر •

وبالرغم من كل ذلك ؛ فاننا مازلنا نجد فى عالمنـــا المعاصر مواقف مقاومة التغير ولعلها الاكثر ظهورا من مواقف القبول • وحتى فى المجتمعات التى تتغير بسرعة فهناك مقاومة ملحوظة للافكار الجــديدة والتطورات

العامه و التكنولوجية و الأنماط الجديدة للحياة الاجتماعية • فغالبا مايقاوم التغير لانه يتصارع مع القيم التقليدية و المعتقدات • فالناس عادة يميلون الى أن يكونوا محافظين • وذلك لان العقل الانسانى و الشخصية يتشكلان عن طريق اكتساب معتقدات وخبرات معينة ، و اتجاهات وأنماط للسلوك ، الأمر الذى يشكل صعوبة كبيرة فى تغييرها • كما أن طرق التفكير والعرف والنظم الرئيسية فى المجتمع تتوحد فينا بحيث تصبح جزءا أساسيا من شخصياتنا • ولهذا يلاقى التغير الاجتماعى مقاومة قوية عند حدوثة وخاصة فى المجتمعات التقليدية المحافظة • ونتيجة لذلك نجد أن معظم التغيرات الاجتماعية تحدث بالتدريج ، وتظهر الثقافات درجة معينة من الثبات • هذا الا أن قبول أو رفض أحد التجديدات هو أساسا رد فعل داخلى لايمكن ملاحظته مباشرة وانما يمكن استنتاجه ، ويكون واضحا فى التعبيرات اللفظية أو أنماط السلوك الأخرى • ونستطيع اعتبار رد فعل شخص ما لاحد التجديدات حقيقة اجتماعية عندما تكون عملية القبول أو الرفض متطابقة فى عدد من الأفراد وهؤلاء يعتمدون على فهم واحد لعدد معين من الاشياء ، « فالوثبة » الاجتماعية تحدث عندما يفعل الفرد مايفعله الآخرون ، والمحاكاه تكون واضحة فى عملية الموافقة • كذلك يمكن استخلاص عمليتى القبول و الرفض من الأحداث الخارجية التى يمكن الحصول عليها ، والتى يمكن التحقق من صحتها بالملاحظة المتكررة •

مقاومة التغير

يستطيع الانسان دائما أن يجد مبررا فى صيغ عملية للمقاومة الفعلية للتغير • فالفلاح فى بلد نام على سبيل المثال يجد أسبابا عديدة لرفض محاولة استخدام آلة جديدة ، أو فنا جديدا فى الزراعة ، أو سمادا فهو يصر على أن الاسلوب الجديد سوف يسمم التربة ، وينتج محصولات أقل ، وقد ينزل عليه غضب الله ، أو يتسبب عنه أن تلد زوجته اناثا فقط • وقد يستبعد رجل الاعمال العصرى المخاطرة مع الاشياء أو الخبرات

الجديدة التى فشلت فى تحقيق ربح . وكذلك البيروقراطى لديه مجموعة من القواعـد والمقدمـات التى تبرز . سلوكه التقليـدى المحافـظ . ومكذا بالنسبة لكل شخص ، حيث نجد دائما عند الرجـل البدائى أو الفلاح أو رجل الشارع دفاعا ضد أى شىء جديد ، فهناك اعتقاد أن مـا كان صالحا للاب يكون صالحا للابن » (١) .

فأى شىء جديد يمكن أن يكون هدفا للمقاومة ، وقد يكون تجديدا اجتماعيا أو ثقافيا ، أو اكتشافا علميا أو اختراعا ميكانيكيـا . وبصرف النظر عن نوع الجدة فان قبولها قد يتأكد فى بعض الأحيان بغض النظر عن فائدتها . فهناك دائما معارضة لاشياء كثيرة جديـدة ، وتنشأ هذه المعارضة أو المقاومة من خلال عـدة مصادر اجتماعيـة وسيكولوجية وثقافيه واقتصادية . وسوف نحاول فيما يلى تفحص طبيعة مقاومـة التغير على أسـاس هذه المصادر المختلفة .

أولا : العوائـق الاجتماعية للتغـير

هناك عدة عوامل اجتماعية تعمل كمعوقات للتغير . والعوامل التى سوف نفحصها هنـا تشمل : المصالح المستقـرة ، واهتمامات المكانة ، والطبقة الاجتماعية ، والمقاومـة الايديولوجية ، وتماسك الجماعـة ، والسلطة ، والخوف من الأشياء غير المألوفـة ، والآراء الاخلاقيـة ، والعقلانيه كمصدر للمقاومة ، والمعارضة المنظمة .

أ ـ المصالـح المستقرة :

قد يقاوم التغير بواسطة أفـراد أو جماعات تخشى مـن فقدان السلطة والثروة والنفوذ اذا حدث قبول أى تجديد . « فالعقبة العملية أمام أى تغير هى معارضة التجديد بواسطة جماعات قوية منظمة تخشى

---

1) LaPiere, op. cit. pp. 175 - 176.

الخسارة من التغير .. ومثل هذه الجماعات تسمى أصحاب المصالح المستقرة ، ويحتاج البيان الواقعى لمصادر مقاومة التغير الاجتماعى الى بقاء واستمرار المصالح المستقرة (١) . وهناك أنماط عديدة لاصحاب المصالح المستقرة الذين يفضلون بقاء الوضع الراهن على ماهو عليه كشىء مربح ومفضل لديهم . فالطلبة الذين يلتحقون بالجامعة هم أصحاب مصالح فى فرض ضرائب عالية لدعم التعليم العالى ، ويمثل المحامى الذى يترافع فى قضايا الطلاق صاحب مصلحة ضد مقاومة أى اصلاح فى قوانين الطلاق ونفس الشىء بالنسبة للاطباء الذين يقاومون اكتشافا طبياً معيناً لانه يتعارض مع مصالحهم المستقرة . وفى الحقيقة ان كل شخص فى هذا العالم هو بصورة أو بأخرى صاحب مصلحة بدءا من الأغنياء حتى الفقراء .

وكثير من التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التى شجعت فى البلاد النامية تهدد أمن واستقرار بعض الجماعات أو الافراد . فالسحرة ، والعرافين ، والمولدات ، والدجالين يقاومون البرامج الطبية لانهم يخشون المنافسة ، ويعلمون أنها ستكون ضارة بهم وبمصالحهم . ويعارض أصحاب الاراضى تعليم المستأجرين خوفا من أن يؤدى التعليم الى ادراك هؤلاء لحقوقهم ومطالبتهم بها ، وقد ينتج عن هذا اعادة توزيع الأرض، ويقاوم المرابون والمقرضين للمال فى القرى برامج الحكومة فى فرض ضرائب أقل ، ويقاوم التجار الاتحادات التعاونية للمستهلكين ، وهكذا ، وفى مثل الحالات فان الشائعات غير الحقيقية تعتبر من ضمن الفنون شائعة الأستعمال بواسطة الافراد الذين يشعرون بتهديد التغيرات المقترحة » (٢) ومثال ذلك أنه عندما أجرى تعداد لعدد السكان فى قرى « الهند » ظهرت شائعات فى أن أى شخص أكبر من ٦٥ سنة سوف يقتل وهنا فىالمجتمع المصرى يدلى بعض الناس ببيانات كاذبة لمندوب الاحصاء

1) Nimkoff, Meyer F. «Obstacles to Innovation» In Francis R. Allen et al (eds.), «Technology and Social Change» New york, Appleton, 1957, P. 68.

2) Foster, op. cit. p. 117.

خوفا من أن يكون مندوبا للضرائب . وفى حالة أخرى عندما جاء أحــد الخبراء الى القرية كانت هناك شائعات بأن القرويين سوف يطردون ، وأن المنطقة كلها سيقام عليها مشروع معين . والمـلاحظ أن الشائعات الكاذبة تصدق بسرعة فائقة وبدون أى دليل وخاصة فى المجتمعات المتخلفة وذلك لانتشـار الجهل وعدم القدرة على الرؤية الصحيحة وتحليل المواقف. والغريب فى الأمر أنه كثيرا مايشـجع الناس أصحاب المصالح المستقرة من جيرانهم ، فعندما تظهر تغيرات متعلقة بالمنطقة فانهم ينظمون مقاومتها كما تظهر المعارضة لاقامة طرق برية ، أو اقامة تسهيلات اصلاحية فى المنطقة المجاورة . وقد يعارض الآباء تشغيل أولادهم ، أو قد ينظــم السكان معارضة لهبوط طائرات « الكونكورد » الاسرع من الصوت لما تحدثه من ضجيج وازعاج لسكان المنطقة .

وعلى خلاف الانطباعات العامة لدى الناس ، فان الجامعـــة نفسها والتى يعتقد الكثيرون أنها منبع التغير وباعثه الا أنها فى حقيقة الأمير وعاء قوى لمقاومة التغير ، فتغيرات المناهج قد ينظر اليها على أنها أمور تافهة بالنسبة لكثير من الافراد ، ولكن الهيئات التى تتأثـر بالتغيرات المقترحة تميل الى المقاومة بقدر الامكان ، فبالرغم من التنافس بين العلماء فى جميع الميادين على السبق فى التجديد والاكتشاف ، الا أن هـذا لم يؤثر على محاولتهم فى الدفاع عن مدارسهم العلمية المستقرة ، ولا عن أفكارهم التى يودون عدم المساس بها . وهكذا فانه حتى فى مجال العلم هناك نوع من التقليدية فى التشيع للقديم وعدوانية ومقاومـة بالنسبة للجديد .

ولعل هذا واضح جدا فى ميادين السياسة والدين وانماط الحياة المختلفة ، وبتتبع التاريخ نجد أن الأفكار الجديـــدة كانت تواجهها دائما معارضة شديدة ومقاومة من أصحاب المصالـــح المستقرة ، فالنظريات الفلكية عند كوبر نيكوس وجاليليو واجهت معارضة شديدة ، بل يعرض أصحابها للعقاب والتعذيب لان نظرياتهم الجديدة كانت تتحدى المعتقدات

[illegible] به فى الكون • فقد رفض [illegible] دورات الاجـرام السماوية » الــذى كتبه كوبرنيكوس فى عام ١٥٤٣ من الكنيسة الكاتوليكيه حتى عام ١٨٢٢ حين صدر مرسوم بذلك من المجمع المقدس • فليس هنــاك سبب عن لماذا يرفض أصحاب السلطة الحاليه والمستقبلة فى المجتمع المقدس التصريح بطبع المؤلفات التى تعالج حركة الارض وسكون الشمس طبقــا للرأى الشائع عند علماء الفلك المحدثين (١) •

وهناك أيضا بعض أصحاب المصالح فى المهارات والمعرفة : فالمهنيين مثلا يعارضون تبنى آلة جديدة ، أو مادة جديدة لانهم بهــذا يجعلون أدواتهم الحالية مهملة ، وغير صالحة ، ولاتساير العصر ، مما يتطلب تعلم استعمال الأدوات الجديدة • وكان هناك أيضا قدرا كبــيرا من المقاومة لتبنى استعمال الآلة الكاتبة لانها تقلل من قيمة الكتابة اليدوية ، والتى كانت قدرة تستحق المكافأة والتقدير عنــد المتعلمين • ويرى » ريتشارد لابيير » (٢) أنه « لايوجد انسان يقبل تغيرا يحطم قيمة المهارات والمعرفة التى اكتسبها ، وأن المطالب التى يحصــل عليها هى تعقيــد للمهارات الجديدة والمختلفة اذا تمسك بما يملكه » وهكذا ، وفى كثير من الأحوال ، فان الذين يجب أن يتبنوا ابتكارا جديدا يجدون أنهــم بمــرور الوقت سيخسرون الكثير بهذا التبنى •

ب ــ مصالح المكانــــة

ان قبول أى تجديد سوف يؤثر بطريقة غير ملائمة فى مكانة بعض الافراد فى المجتمع ، لدرجة أن هؤلاء الذين تصبح مكانتهم مهددة فانهم

---

1) Bierstedt, Robert, «Power and Progress : Essays on Sociological Theory» New york, Mc Graw. Hill, 1974, P 263.

2) Lapierre, op. cit, p. 192.

بمجرد تعرفهم على الخطر الذى يهدد مكانتهم فأنهم يقاومون تبنى هذا التجديد • ففى أغلب المجتمعات وعلى مر الزمن يقوم الفرد ببعض التحسينات فى مكانته الاجتماعية ، وقد يصبح مهنيا مشهورا ، أو شيخا لقبيلة . أو أبا حكيما ، وهذا الرقى فى المكانة الاجتماعية دليل واعتراف بارتفاع قيمته فى المجتمع • ويلاحظ أنه فى المجتمعات سريعة التغير أن الخبرة السابقة لايكون لها تأثير كبير على الحاضر ، وهكذا فان هؤلاء الذين اكتسبوا مركزاً مرموقا يجدون أن مكانتهم تتعرض للخطر عند ظهور أى تجديد أو ابتكار ،ونتيجة لذلك فهم يقاومون تبنية • والآن فان الارتباط بين المكانة الوظيفية والسن لم يعد موجودا أيضا ، فالاعمال الحديثة تفضل استخدام الموظفين المتعلمين تعليما عاليا ، كما استبدلت المهارات التقليدية باستعمال الآلات (١) •

د. — الطبقة الاجتماعية

ان أنماط الطبقة والطائفة الصارم تميل عموما الى تعويق قبول التغير • وبالرغم من ذلك ، فان هناك طبقات اجتماعية مختلفة فى المجتمع تميل الى أن تتفاعل مع ، وتحول مجرى التغير بطرق مختلفة • ففى المجتمعات مختلفة الطبقات فان المتوقع من الأفراد أن يطيعوا ويتلقوا الأوامر من هؤلاء الذين يشغلون الاوضاع العالية سواء فى السلطة أو القوة • وهؤلاء الذين فى مركز التفوق يملون بدورهم أوامرهم لمن هم أقل منهم • « وهذا يحدد التفاعل الحر للافكار والآراء التى تكون هامة جدا فى كثير من مواقف التغير » (٢) وهذا التميز والتفوق للطبقة العليا ينظر اليه من زاوية الغيرة ، ومن هنا يقاوم هؤلاء أى محاولات قد يبديها أعضاء الطبقات الاقل للحد من هذه الامتيازات • ومثال ذلك أنه فى نطاق نسق الطائفة التقليدى الصارم فى « الهند » و « الباكستان »

---

1) Ibid, p. 194.

2) Foster, op. cit, p. 173.

فان أعضاء الطبقات المختلفة لايستطيعون الحصول على الماء من نفس البئر أو الذهاب الى نفس المدارس ، أو أن يأكلوا معا أو حتى يختلطون فأنواع العمل التى يستطيع الفرد أن يؤديها مفروضة عليه ، وأى معارضة للقوانين تستحق العقاب • ويوجد شبيه لمثل هـذا الموقف فى الولايات المتحدة فيما يتعلق بالزنوج والتفرقة العنصرية حتى سنوات قريبة •

وعموما ، فان أعضاء الطبقات العليا أكثر قبولا للتجديدات ، بينما هؤلاء الذين يشغلون الطبقات الدنيا ، أو الذين يتحركـون الى أسفل يميلون الى مقاومتها • وتعتبر المهنة أحد أسس التمايز الطبقى • ونادرا ان لم يكن مستحيلا أن توجد أى نسبة من أى جماعة مهنية تقبل عن طيب خاطر تطوير مهاراتها القائمة ومعارفها من أجل تجديد ما يتطلب مهارات جديدة وفهما جديدا (١) • وفى أغلب الحالات هناك ميل الى تعزيز الطرق القديمة لصنع الأشياء والالتزام بالوضع القائم •

د — المقاومة الايديولوجيـة

ان مقاومة التغير فى المجال الايديولوجى واضحة للغاية • وأحسن تصوير لهذا هو مقاومة رجال الدين للافكار والآراء المتعلقة بتحديد النسل أو تنظيم الأسرة والدعوة لها • وعموما فان المفاهيم العقليـة والدينية وتفسيراتها بالنسبة للقوة القائمة ، والرعاية ، والاخلاق ، والامن تميل الى الاستمرار على نفس الوتيره والى معارضة التغير •

هـ — تضامن الجمـاعة

يظهر فى المجمتعات الريفيـة والشعبية شعور قـوى بالتماسك والتضامن ينعكس على روابط الواجبات المتبادلة داخل نطاق عمل الأسرة والصداقة ، وليس هناك شك فى أن التضامن يعتبر شيئـا مفضلا عند

---

1) Lapierre, op. cit, P. 191.

الجماعات الصغيرة ، وبالتالى فانهم ينقدون أى شخص يحيد عن المبادىء المألوفة [1] وعندما يكون الرخاء الاقتصادى فى نفس المستوى ، ويكون لدى الافراد نفس الاتجاه نحو المصادر والامكانات بوجه عام فان الالتزامات والواجبات المتبادلة تكون مؤثرة فى الابقاء على المجتمع والحفاظ عليه •

وتتنافر شروط المساواة ، والتعاون ، بظهور الاتجاهات نحو الفردية والهجرة ، وتغيرات تقسيم العمل • وحتى فى القرى التى ظهرت فيها بوادر التقدم الاقتصادى عند البعض فان علاقات الافراد والجماعات فيها لم تعد متوازنة • ولهذا يجب أن يستعد الافراد التقدمين للتنازل عن كثير من الواجبات والروابط التلقيدية التى تتوقعها مجتمعاتهم منهم • فوجود الواجبات المتبادلة ، ولهجة التقدير الذاتى ، والهيبة ، والاحترام هى عوامل للتضامن من ناحية وهى فى نفس الوقت تستطيع بفاعلية ضبط قبول الاتجاهات أو الممارسات الجديدة •

ويعطى التطابق فى الجماعات الصغيرة شعورا بالامن النفسى والرضى لاغلب الناس ، الا أن التجديدات المتعددة والمتعاقبة التى غيرت حياة الجماعات التقليدية تواجه بمقاومة قوية وأحيانا قد يرفض الناس الراحة أو المكسب الاقتصادى فى مقابل التمتع أكثر بالحياة • فمثلا ، فى قرى كثيرة أو معظم القرى المصرية تغسل النساء الملابس والأوانى فى [illegible] لا يمكن أن توصف بأنها مريحة ، ومع ذلك فالسرور الناتج عن العمل مع الجماعات والمناقشات والدعابات واطلاق النكت يعوض المشاق التى تبذل فى العمل • وبالتالى فانهن يقاومن الجهود التى يمكن أن تغير هذا النمط من العمل بصرف النظر عن المشاق التى يتضمنها • لدرجة أن بعض النساء أظهرن امتعاضهن عند تزويد منازلهن بالمياه الجارية لان ذلك يبعد عنهن أكثر مصادر ارتباطهن الاجتماعى •

---

1) Foster, op. cit, p. 106.

و — السلطة

تعتبر طبيعة أنماط السلطة فى المجتمع من أهم العوامل التى تؤثر فى التغير • وبالرغم من ذلك فان أنماط السلطة والقيادة فى كثير من المجتمعات التى تظهر كمؤسسة لم تتم بعد بصورة كافية لكى تقود قرارات الجماعة وتوجهها من أجل القيام بتغيرات ضخمة (١) • فغالبا مايكون الشخص الذى يتحدث عن مشروع أو فكرة أو يتبرع بخدماته محلا للانتقاد أكثر من أن يمتدح من أجل مجهوداته ، وقد يشك من حوله فى أنـه يحاول انتهاز فرصة من أجل المكسب الشخصى على حسابهم •

وأحيانا تكون السلطة داخل العائلة عائقا أمام أى تجديد ، فمثلا كان قرار الدخول للمستشفى عند « النافاهو » لايتم الا بعد عقد مؤتمر للاسرة • فلم يكن من حق الزوج ، أو الزوجة فقط أن يقرر أى شىء فى نطاق الاسرة • والموقف يشبه ذلك أيضا عند بعض « المكسيكيين » الذين يتحدثون الاسبانية فى « سان جوزيه » بكاليفورنيا ، حيث أن الدخول الى المستشفى يعتبر كدخول القبر ، وهى خطوة كبيرة وتعتبر مشكلة للاسرة وليست للفرد (٢) • ويمكن أن نرى المقاومة التى تبديها سلطة العائلة ضد الطب فى مثل هذه المواقف •

ز — الخوف من المجهول

ينشأ قدر كبير من المقاومة الأولية لاى تجديد الى الخـوف من المجهول أو الشىء غير المألوف أو المعتـاد • فحتى الآن لايـزال بعض الأفراد فى المجتمعات يخافون من السفر بالطائرة • وبالرغم من أن كثيرا من الدراسات تشير الى أن السفر بالطائرة أكثر أمانا فى عدة أحوال من السفر بالسيارة ، الا أن هؤلاء الأفراد تشل حركتهم عند وجـود فكرة

---

(1) Ibid. p. 122.

(2) Ibid. p. 119.

الدخول الى الطائرة والتحليق فى الجو • ويعتبر الخوف أيضا عاملا فى مقاومة التغير الذى يهدد حالة الأفراد ودخلهم وسلطتهم • فمعارضة الافراد لحركة الحقوق المدنية ، أو الحركات النسائيـة ، التى تطالب بالمساواه بالرجال غالبا ماتعكس الخوف السائد عند أفـراد الجماعات (البيض من ناحية والذكور من ناحية أخرى) فان المكاسب التى تحصل عليها الأقلية هى خسارة بالنسبة لهم • وفى مثل هذه المواقف ، فان التفكير الذى تنقصه الاصالة هو الذى يعمل كعائق فى قبول التغير • وغالبا ما كان الخوف يمنع استخدام أنواع معينة من النباتات كطعام ، فمثلا فى بعض أجزاء الولايات المتحدة كانت الطماطم تعتبر مـادة سامة ، وذلك حتى وقت قريب يقرب من القرن • وحتى هذا التغير البسيط من حيث استعمال أوانى الطعام المصنوعة من الالمونيوم بـدلا من الحديدية أثار اضطرابا كبيرا عند ربات البيوت اللائى كن يخشين من أن المعدن الجديد قد يلوث الطعام المطبوخ فيه ، وحتى الخبراء شكوا فى جدوى استعمال الألمونيوم فى صناعة أدوات المطبخ (١) •

وغالبا ماكان الاسم الذى يعطى لأى منتج يتسبب فى احداث نوع من القلق بين الناس • فمنذ بعض السنوات فان شركـة كولجيت بالموليف أدخلت معجونا للانسان سمى « كيو » فى المناطق التى تتحدث بالفرنسية • فلم يقبل هذا المنتج لان الاسم معناه بالفرنسية « جحش » (٢) •

ح ـ الآراء الاخلاقيـة

يرتبط الخوف والقلق غالبـا بالنتائج الاخلاقيـة لتبنى الجديد « فالمقاومة عادة يكون لها سببها المنطقى ، حيث يوجـد اعتقاد بأن تبنى

---

1) Lapierre, op. cit, pp. 178 - 189.
2) Rogers, Everett and F. Floyd shoemaker, «Communications of Innovations : A Cross Cultural Approach», 2nd ed, N. Y. Free Press, 1971, pp. 150 - 151.

الجديد يعرض مبدأ اخلاقيا للخطر ، وهو المبدأ الذى يعتبر ضروريا لبقاء النظام الاجتماعى أو النوع الانسانى عادة » (١) • فمثلا تقاوم بعض الجهات منع الحمل لانه يعتدى على حرمة الحياة وقداستها • وتقوم مقاومة التغير من النواحى الاخلاقية على حقيقة أنه فى كل مجتمع تتم التنشئة الاجتماعية للافراد على الاهتمام بالاشكال الثابتة للسلوك ، وخاصة ذات الطبيعة الاجتماعية ، فهى فى نظر أفراد المجتمع الاشكال الوحيدة الصحيحة والمناسبة • وبهذا المعنى فان الأفكار الحقيقية والصحيحة تتداخل انفعاليا فى تكوين الشخصية • وهكذا فان أى تغير ينتج عنه أى اضطراب انفعالى يكون عرضة للمقاومة • وهناك نوع أخر مختلف من المقاومة ينشأ عن التمسك بالقيم الجمالية المعتادة والمألوفة • فقد حدثت مقاومة لكثير من التجديدات والابتكارات التكنولوجية فى بعض المجتمعات لان التغير سوف يحرم الناس مما اعتادوا عليه من أصوات أو روائح أو مناظر ، وسوف يخلق غيرها تلك التى قد لاتتوافق بالضرورة مع مايحبونه ويعتادون عليه • فالتجديدات فى مجالات الموسيقى والفن ، وديكورات المنزل ، وفنون البناء واجهتها مقاومة قوية ، ولم يتم الاعتراف بها الا ببطء شديد ، وأحيانا فان القبول لايحدث أصلا (٢) •

ط ـ تحكيم العقل كمصدر للمقاومة

تحدث مقاومة التغير أحيانا لاسباب معقولة عندما يظهر التغير المقترح على أنه ضار بالنسق الاجتماعى ، أو عندما تكون نتائجه غير عملية أو قابلة للشك (٣) • وقد تحدث مقاومة أيضا للاشكال الجديدة للتنظيم الاجتماعى على أساس أنها لاتعمل بدرجة كافية لتغطية تكاليفها سواء كانت تكاليف تتعلق بالوقت أو المجهود أو النقود • وعلى الرغم

---

1) Lapierre, op. cit, p. 179.
2) Lapierre, op. cit, pp. 183 - 185.
3) Warren Roland S., «Social Change and Human purpose : Toward Understanding and Action», Chicago : Rand Mc Nally, 1977, p. 51.

من ذلك . فأحيانا تكون الأسباب المنطقية والعقلية لمعارضة التغير هي أى شيء الا أن تكون أسبابا منطقية . فعندما كانت سرعة القطارات لاتزيد عن ثلاثين ميلا فى الساعة ، فان الذين عارضوها كانت مناقشتهم تدور حول أن هذه السرعة هى أكثر مما يحتمل الانسان ، وقد ثبت بمرور الوقت أن الانسان يستطيع ان يحتمل أضعاف هذه السرعة . و اليوم فان أحفاد هؤلاء يقولون أيضا أن الانسان لايستطيع أن يتحمل السرعة التى تتجاوز سرعة الصوت . وكان رجال الطب أيضا يعارضون استعمال السيارات لانها قد تؤدى الى ضمور سيقان الانسان (١) وربما يكون هذا النوع من المنطق يخلير أحسن دايكون فى القول بأنه « اذا أراد الله للانسان أن يطير لاعطاه اجنحة » .

ثانيا : العوائق الثقافية للتغير

تظهر مقاومة التغير من الناحية الثقافية عندما يتضمن ذلك القيم والمعتقدات التقليدية . فمثلا فى « الهند » فان غالبية السكان يعيشون فى حالة سوء تغذية شديدة قد تصل فى بعض الأحيان الى حد المجاعة ، ومع ذلك فان « الهندوس » يقدسون أكثر من ٣٠٠ مليون بقرة ، ويحرمون ذبحها من أجل الطعام ، ويسمح لها بالتجول فى الحقول والمزارع كما تشاء مما يتسبب عنه تلف كثير من المحاصيل ، وقد حاول كثير من الزعماء الهنود وعلى رأسهم « نهرو » اقناع الشعب بذلك بالمنطق والبرهان وتقديم الأدلة ، ومع ذلك فليس من المحتمل ظهور اتجاه نحو تربية الماشية من أجل الطعام ، أو أنه سوف يكون مقبولا فى « الهند » فى المستقبل القريب ، مادام أمر التغذية على لحم البقر يعتقد أنه ضد المعتقدات المقدسة عندهم . وهناك عدة عوامل ثقافية سوف نحاول فيما يلى التعرض لها بايجاز وهى تشمل : القدرية ، والعرقية ، ومعايير

---

1) Lapierre op. cit, p. 187.

التوافق ، ودرجة التكامل الثقافى ، والأنماط الآلية السائدة ، والخرافات .

ا — القــدرية

تعتبر القدرية جزءا هاما من مقاومة التغير ، ففى أجزاء كثيرة من العالم نجد ثقافات يعتقد أصحابها بأن الانسان ليس له تأثير سببى فى مستقبله او مستقبل الأرض ، وان كل شىء يرجع الى مشيئة الله، فالله وليس الانسان هو الذى يستطيع أن يحسن حالة ، ومن الصعب اقناع أمثال هؤلاء الناس باستخدام نوعيات جديدة مجربة من الاسمدة أو البذور لان الانسان فى رأيهم مسئول فقط عن الأداء وليس مسئولا عن النجاح (١) وتتضمن القدرية شعورا بنقص السيطرة على الطبيعة ، فالانسان ليست له سيطرة على حياته بأى صورة من الصور ، وكل ما يحدث له خارج عن نطاق قدرته ، فالنظرة القدرية هى الافتراض أن أى شىء يحدث هو ارادة الله ، وهذا هو أحسن توافق يمكن أن يبديه الفرد فى أى موقف ميئوس منه (٢) .

وأحيانا تسهم المعتقدات الدينية والكتابات المقدسة فى الاتجاهات القدرية . ويحدد « فوستر » (٣) بعض هذه الصور ، ففى الريف البرازيلى مثلا وجد مندوب الصحة صعوبة بالغة فى اقناع الامهات بطلب المساعدة لاطفالهن المرضى أثناء شهر مايو لان شهر مايو فى اللاهوت الكاثوليكى هو « شهر العذراء مريم » وفى هذا الجزء من البرازيل هناك اعتقاد بأن الطفل الذى يموت فى شهر مايو هو طفل محظوظ لان العذراء تنادى طفلها ليذهب اليها . وطلب المساعدة الطبية فى هذا الوقت يعتبر مضادا لرغبة العذراء . وفى المجتمع المصرى يرى الكثيرون أن زيادة

1) Mead, op. cit, p. 201.

2) Foster, op. cit, p. 85.

3) Ibid, p. 86.

نسبة الوفيات من الأطفال مسألة عادية ، ولا داعى للتصدى لها ، أو محاولة تقليلها ويستندون فى ذلك الى بعض الآيات القرآنية وأن الاعمار بيد الله . وأن الموت يدرك الناس ولو كانوا فى بروج مشيدة .

ب — العرقيـــة

تعتقد كثير من الشعوب انهم متفوقون على غيرهم ، وأنهم أصحاب « الحق » فى التفكير والتعامل مع البيئة . والمسألة ليست حـديثة لان كثير من الشعوب البدائية كانت تمر فى مثل هذه الحالة أيضا قبل اتصالها بالعالم الغربى حيث كانت تعتقد أنها هى « الشعب » وأن طريقتها هى الوحيدة القادرة علـى التعامل بطريقـة صحيحة مع البيئـة . ويقول « فوستر » ان الجوهر الحقيقى للثقافة كما نعتقد جميعا هو ما نفكر فيه ونعمله ، وهى اتجاهاتنا ، وأشكالنا الاجتماعية ، ومعتقداتنا الدينية » . فالشعور بتفوق الشعب ثقافيا هو الذى يجعله غير متقبل لافكار وطرق حياة ثقافية أخرى ، ونتيجة لذلك فان « العرقية » غالبا ما تشكل حصنا منيعا ضد أى تغير .

ويرتبط بالعرقية الكبرياء والكرامة التى تكون أيضا عوائق ضـد التغير . فكثيرا مايشعر الراشدون أنهم « سيفقدون ماء وجههم » اذا هم ذهبوا الى المدرسة فى هذه السن . وغالبا ما تقاوم النساء العناية بصحة الام والطفل على أساس أن المرأة الصغيرة الحامل اذا ذهبت للطبيب ، فان هذا سوف ينعكس على قدرة وحكم النساء الاكبر منهن .

د — معايير التواضـــع

ان الأفكار الخاصة بالتواضع تشبه الافكار المتعلقة بـأى شىء فى حالتها الثقافية . فالسلوك اللائق فى موقف ما قد يكون سلوكا شائنا فى موقف أخر (١) ففى كثير من أجزاء العالم يعتبر العرى أو نصف العرى

1) · Bock, Philip, K., (ed.), «A Culture shock : A Reader in Modern Cultural Anthropology,» New york, Knoph, 1975.

مقبولا • وأن الملابس المحتشمة لاترتبط دائما باخفاء الاعضاء الجنسية، ففى حوض « الامازون » مثلا نجد النساء الهنديات فى حالة أقرب الى الطبيعة • وعندما يشاهدهم الرحالة فانهن يصبحن فى حالة احراج ، ولكن هذا الاحراج يختفى عادة عندما تختفى المرأة لتعاود الظهور وهى مرتدية حزاما من الخرز (١) •

وقد تظهر مقاومة للفحص الطبى فى كثير من الثقافات وخاصة اذا كان يقوم به طبيب رجل • وغالبا ما يعارض الزوج العلاج ، لانه يرفض أن تظهر زوجته أمام رجل غريب حتى ولو كان طبيبا • وقد أمكن التغلب على هذه المقاومة عن طريق استخدام الطبيبات • وبالرغم من ذلك فليست هذه هى الحالة دائما • فالنساء فى جزيرة ياب فى « ميكرونيزيا » يقاومن الفحص الخاص بالاعضاء التناسلية بواسطة أطباء رجال •و لكنهن يكن أكثر مقاومة للفحص بواسطة الطبيبات « فنساء الياب » يتعبرن كل النساء الأخريات بصرف النظر عن السن منافسات لهن فى جذب انتباه الرجال ، ويعتقدن فى نفس الوقت أن أعضائهن التناسلية هى أقوى ما فيهن بالنسبة للرجل ، وتعريض مصدر القوة لمنافساتهن يعتبر حسب اعتقادهن شيئا يضعف موقفهن ، ويحدد حياتهن من ناحية اهتمام الذكور (٢) •

د ـــ التكامل الثقافى وأفكار عدم التجانس

يستخدم عالم الانثروبولوجيا « مانرز » (٣) استعارة هامة وذلك بمقارنة الثقافات العالية التكامل بأنها آلية تشبه الساعة • فهو يقول بأن

---

1) *Foster, op. cit,* p. 90.

2) Ibid, p. 91.

3) Manners, R. A. «Cultural and Personality Factors Affecting Economicc Growth.» in Bert Hoselitz (cd.), **Progress of Underdeveloped Areas.** Chicago, University of Chicago Press, 1952.

الادخال السريع لعناصر جديدة فى مثل هذه الثقافة هو بمثابة اسقاط حبة رمل فى آلية الساعة • فالساعة تتحرك ببطء أو يقل تنظيمها نتيجة دخول هذا العنصر الجديد • وهكذا فهو يقول بأن الثقافات المتكاملة تميل الى مقاومة التغير بينما الأقل تكاملا تميل الى التأثر بالتغير اذا لم يكن متأصلا أو مفاجئا •

ومن ناحية أخرى ، فقد ترجع المقاومة أيضا الى وجود الثقافات المادية والأنساق المستقبلة للتغير ، أو التى تعتبر غير متفقة مع السمات أو الانظمة الوافدة ، ونتيجة لذلك فهى تقف فى وجهها وتمنع دخولها (١) وعندما يظهر عدم التجانس فى ثقافة ما فان التغير يحدث بصعوبة •

هـ — الأنماط الحركيـة

تتكيف الانماط الحركية وأوضاع الجسم المعتادة بالثقافة والتعلم فى الطفولة • « فالثقافة هى التى تقرر الاوضاع التى ننام بهـا ونقف ونجلس وذرتخى ، والثقافة تقرر الحركات التى نستعملها ، وكيف نمسك بالأدوات المختلفة ونستعملهـا ، وكيف نتعامل مـع اجسامنا فى عـدة مواقف » (٢) • وفى كثير من الحالات فان الحركات العضلية غير المألوفة الموجودة فى نشاط جديد قد تدعو الى رفضها • ومن الصعـب والمتعب أيضا تغيير الأنماط الحركية الثابتة • ويمكن أن نقدم مثـالا على ذلك ببرنامج لتنمية المجتمع فى جزر « كوك » فقد اخترع موقد للطبخ مرتفع ليحمى الطعام من التراب والحيوانات ، كما أن النساء باستخدام هذا الموقد لن يلجأن الى الانحناء أو الجلوس على الارض لاعداد الطعام ، وبالرغم من ذلك فان الموقد المرتفع قوبل بالرفض لانه فى نظرهم غـير

1) Kroeber, A.L., «Diffunionism» In Amitai Etzioni and Eva Etzioni (eds.), Social Change : Sources, Patterns and Consequences, 2 nd ed, N.Y. Basic Books, 1973, p. 141.

2) Foster, op. cit, p. 101.

مريح فى استعماله لانه يتطلب الوقوف على القدمين أثناء اعداد الطعام.
وفى حالة أخرى بذلت محاولات لادخال دورات المياه فى ريف « السلفادور » (بدلا من عادة التخلص من نفايات الانسان بالطرق التقليدية) . وقد قام أحد زراع البن ببناء الطراز الامريكى الذى يتكون من تركيب خشبى بمقعد عال مزود بثقب أو أكثر لكل منزل ، وبالرغم من ذلك فقد رفض الناس استخدامه ، وأخيرا اقترح رجل عجوز قائلا « الا تدرك أننا نحب الخوض فى الماء » وهنا نزع الرجل المقاعد وأحل محلها أرضية مسطحه ، ووجد أنها أكثر قبولا بين الناس . وقد ادرك ، ولو أن ادراكه هذا جاء متأخرا ما كان يجب أن يفعله منذ البداية ، حيث أن دورات المياه ذات المقاعد العاليه لها تأثير نفسى حيث يعتقد الناس هناك أنها تسبب الامساك عند الناس الذين اعتادوا التبرز فى أماكن مسطحة (١) .

و — الخرافات

الخرافة هى قبول لمعتقد لايمكن استبدالة بحقائق ، ففى كثير من الحالات تمثل الخرافات السائدة فى مجتمع ما عوائق هامة فى طريق التغير ، ففى « روديسيا » مثلا قوبلت المجهودات الخاصة بالتربية الغذائية بمقاومة ، ويرجع ذلك الى أن كثيرا من النساء يرفضن أكل البيض طبقا للاعتقاد الشائع بأن البيض يؤدى الى عدم الخصوبة ويجعل الأطفال يصابون بالصلع . وفى « الفلبين » يوجد اعتقاد بأن أكل الدجاج مع الهريس فى نفس الوقت ينتج عنه مرض الجزام ، وفى بعض المناطق لاتتناول النساء اللبن فى أواخر الحمل لوجود اعتقاد بأنه يسبب ضررا بالغا ، وفى بعض الاماكن الاخرى يعتقد أن الطفل يجب الا يتناول الماء لعدة شهور بعد الولادة لان برودة الماء تؤدى الى خلل فى حرارة الطفل الطبيعية وفى توازنها . وأخيرا ففى بعض مناطق « غانا » يمنع الاطفال

---

(1) Ibid, p. 103.

دن تناول اللحم او السمك لوجود اعتقاد بأنهما يسببان ديدانا معوية (١)•
وتوجد فى مدى أيضا كثير من الخرافات من هذا النوع مثل المعتقدات المتعلقة بالوحم وأن الام التى لاتأكل الشىء الذى تتوحم عليه فانه يظهر فى صورة تشوه فى الطفل ، وعادة تتوحم الامهات على الأشياء الغريبة أو الصعبة فى الحصول عليها • ومن الواضح أنه حيث تسود مثل هذه الخرافات فان قبول الجديد الذى هو مضاد للآراء التقليدية ، يكون محلا للمقاومة •

ثالثا : العوائق الاقتصادية للتغير

تنشأ مقاومة التغير أيضا نتيجة للعوامل الاقتصادية التى ترتبط بالتجديدات التكنولوجية ، والآلات ، والأدوات بالرغم من أنهـا يمكن أن تنطبق أيضا على الاختراعات الاجتماعية والاكتشافات العلمية • ففى بعض الاحيان تكون تكلفة الاختراع مانعا من تبنية على الاقل لفترة ما • ولايستطيع مجتمع وسائلة الاقتصادية محدودة أن يتحمل الشروع فى برنامج يتضمن الطاقة النووية ، أو يتحمل غالبية سكانـه تبنى الاجهزة التكنولوجية الحديثة ووسائل الراحة مثل السخانات ، والثلاجات ، والسيارات الخ •• وحتى فى المجتمعات الغنية فان المصادر الاقتصادية المحدودة تقف عائقا ضد التغيرات التى يمكن أن تحدث • ففى الولايات المتحدة مثلا ، نجد الافراد مستعدين لقبول أساليب التحكم فى التلوث ، وكذلك وسائل النقل الارخص ، والرعايـة الصحية المناسبـة للجميع والحقيقة أن التحسينات فى كل هذه المجالات حدثت ببطء شديد نتيجة التكاليف وليس للاولوية ، فالتكاليف وعلاقتها بالفائدة المنتظرة ، والمصادر الاقتصادية فى المجتمع تعمل مجتمعه كعوائق فى طريق التغير كما سنرى •

1) Ibid, pp. 103 - 104.

أ — التكلفـــة

كثيرا ما تكون تكلفة الحصول على شيء جديد واستخدامه عاملا مانعا فيما يتعلق بمن سيقبلون هذا الجديد . وهذا يعتبر مانعـــا هاما فى سبيل انتشار تبنى كثير من التجديدات الحديثة فى المجالات التكنولوجية والايديولوجية . فأعداد كبيرة من الناس فى جميع أنحاء العالم عـــلى استعداد لقبول — وهم سيكولوجيا قبلوا هـــذا من قبل — الاضـــواء الكهربائية ، والتلفزيون ، وغســـالات الاطباق والملابـــس ، والتدفئة المركزية ، والبرامج الصحية ، والتصميمات الحديثة للمنازل ، وتغيرات أخرى كثيرة ومتنوعة . ولكنهم فى الواقع غير قادرين على اقتنائها لعدم قدرتهم على تحمل تكاليفها المادية . فالرغبة فى القبول موجودة ولكـــن التحمل الاقتصادى يكون اما كبيرا جدا ، أو هو أكثر مما يطيقون من أجل تحقيقة . وفى بعض الحالات تكون تكلفة التجديد ضخمة جـــدا لدرجة لايستطيع أحد أن يتحملها . فالفكرة قد تكون مقبولة ، ولهـــا مضامين هامة ، ولكن العائد المتوقع منها لايتفق مع الاستثمار المطلوب من انتاجها . ومثال ذلك مشروعات التأمين الصحى لكل فرد فى المجتمع المصرى ، فبالرغم من وجاهة الفكرة وقبولها على جميع المستويات الا أن تكاليفها تعـــوق تنفيذها .

ب — الفائـــدة المنتظـــرة

ان الفائدة الاقتصادية المنتظرة من ادخال تجديد مـــا تعتبر عاملا هاما يدخل فى الموقف تجاه هذا التجديد . وبالرغم من ذلك فان الفائدة المنتظرة ليست هى العامل الحاسم أو الوحيد فى تبنى التجديد . فمثلا ، اذا تم تخفيض ثمن اللحـــم البقرى بنسبة ٩٠٪ فى الهند فان طائفـــة « الهندوس » التى تقدس البقر لن تأكل لحمه مهما رخص سعره . وهكذا فهناك أشياء جديدة كثيرة لاتتفق مع المعايير الثقافية والاجتماعية ، وفى هذه الحالة فان سرعة قبولها تحدث اذا كان التجديد يعود بالفائدة من الناحيتين

الاقتصادية والاجتماعية . وحتى فى هذه الحالات فيجب أن يلاحظ أن زيادة الربحية تحتاج الى أن تكــون واضحة بالنسبة لسرعــة التبنى ، فكثير من الطلبة الريفيين يشعرون بأن الفائدة الاقتصادية التى تعــود نتيجة لتبنى أى فكرة جديدة يجب على الأقل أن تكون أعلى بنسبة ٢٥٪ أو ٣٠ فى المائة عما هو قائم بالفعل بالنسبة للعوامل الاقتصادية ، فعندما يعنى تجديد ما بنسبه ٥ أو ١٠٪ فقط من الفوائد فان أى فرد لايمكن أن يتقبله على أنه ذو ميزة . فبالرغــم من مهــاراته المحدودة بالارقــام ، وقدرته البدائية فى الحساب ، ونقص خبرته العلمية بطرق الوصول الى النتائج النهائية بصورة شاملــة ومحددة ، الا أنه قادر عــلى المقارنة والتقدير بالفطرة والسليقة ، وفى بعض الحالات كما لاحظ « روجرز » (١) فانه لكى تستميل الرجل الريفى للتغير فان الربــح المحتمل أو الفائــدة المنتظرة يجب أن تكون عالية جدا ، وليس ٥ أو ١٠ فى المائة . وقد تقبل فكرة جديدة أحيانا بسبب الدوافع الماليــة ، ولكنها ترفضــ فى مرحلة تالية . فمثلا عندما أدخلت الهيئات الحكومية القمح الهجين فان الفلاحين الامريكان الذين ينتسبون الى أصل أسبــانى فى وادى « ريوجراند » قبلوه فى البداية بسبب انتاجيته العالية وعائده المادى العالى ، ولكن فى خلال ثلاث سنوات عادوا الى زراعة القمح القديم ، وكان السبب فى ذلك أن القمح الهجين لم يكن صالحا لصناعة نوع من الكعك الكبير الذى كانوا يحبون أكله (٢) .

د ـ المصادر الاقتصادية المحــدودة

قد تكون التغيرات وخاصة المادية منها مرغوبة الى درجة كبيرة فى كثير من البلاد المتخلفة والنامية ، ومع ذلــك فأنها لايمكن أن تظهر بدرجــة

---

1) Rogers, op. cit, P. 143.
2) A podaca, Anadeto. «Corn and Custom : The Introduction of Hybrid Corn to Spanish American Farmers in New Mexico.» in Edward H. Spicer (ed.), Human Problems in Technotogical Chanage» New york Russell Sage. 1952.

كافية بسبب الضغوط الاقتصادية . ففى مثل هذه البلاد نجد أن نسبه عالية جدا من السكان قد تصل الى ٧٠ أو ٩٠ فى المائة يعملون فى الزراعة، وهناك نقص فى فرص العمالة خارج الزراعة ، كما أن رؤوس المال قليلة، والحياة عموما تقترب من مستوى « الكفاف » ، ولا توجـد مدخرات بالنسبة لأغلبية الناس . ومهما كـانت المدخرات فأنها لاتوجـد الا عند أصحاب الارض الذين لايميلون الى استغلال اموالهـم فى الصناعة أو التجارة . والنسبة الكبيرة من الانفاق توجـه ناحية الطعـام والمطالب الأساسية للحياة .

وتميل هذه الخصائص الاقتصادية فى البلاد المتخلفة الى أن تعوق تكوين رأس المال الذى يعتبر بدوره العقبة الرئيسية للتغير . ويبدو أن هذه المجتمعات بما فى ذلك المجتمع المصرى تواجه صعوبات أكثـر من البلاد المتقدمة الآن عندما بدأت هذه فى التصنيع . وهنا يشير « سيمون كاز انتس » (١) الى سته اختلافات رئيسية :

١ — المستوى الحالى لانتاج كل فرد فى البلاد المتخلفة فى حالة ماقبل التصنيع أقل مما كان فى البلاد المتقدمة الآن فيما عدا اليابان .

٢ — الارض المملوكة لكل فرد أقل فى البلاد النامية الآن ممـا كانت عليه فى البلاد المتقدمة الحالية عندما بدأت حركة التصنيع .

٣ — الانتاجية الزراعية فى البلاد النامية الآن أقل مما كـانت عليه فى الماضى فى الدول المتقدمة .

٤ — عدم المساواة فى توزيع الدخل أوسع اليوم عنها فى الماضى ، ولكن ليس بطريق مساندة وتأييد تراكم رأس المال المنتج .

1) Kuzanets, Simon, «Economic Growth and Stracture ; Selected Essays, N. y. Norton, 1965.

٥ ــ البناء الاجتماعى والسياسى للمجتمعات ذات الدخل المنخفض اليوم يعتبر عائقا أكبر عما كان فى الماضى •

٦ ــ أغلب المجتمعات النامية اليوم تقوم بالتنمية بعد فترة طويلة من الاحتلال ، بينما البلاد الاوربية بدأت التصنيع بعد فترة طويلة من الاستقلال السياسى •

وأحيانا تكون الدول التى خرجت تواً من مرحلة الاقطاع غير راغبة فى الدخول فى مرحلة الاقتصاد الحر • فهم يرون أن البرامج الاجتماعية فى المجتمعات المتقدمة تتمشى مع تشريعات الاجور المنخفضة ، والحد الأقصى للعمل ، وأمن المصنع ، وحركات اتحاد التجارة ، وما أشبه ذلك • وهذه البرامج تنفذ بنسق غير كفؤ للضرائب ، وعادة تستغرق فترة وجيزة • وأكثر من ذلك فان الانفاق على هذه الأنماط من الانشطة ، يستحق الاعجاب لانها كمبدأ تبعد الميزانيات عن الامور الضرورية مثل العناية بالصحة والتعليم ، وماشابه ذلك •

وبالاضافة الى ذلك فان المدخرات المحدودة ، وأنماط الاستثمار لا توصل الى النمو القومى أو الى التغيرات ذات النطاق الواسع • ففى « الهند » مثلا تذهب أغلب المدخرات الى الاحتفاظ بالذهب والمجوهرات المستوردة سواء بطريقة مشروعة أو غير مشروعة ، وهكذا تستنفذ عملتها الصعبة • وتعانى كثير من الدول المتخلفة من التضخم ، كما يوجد اتجاه عند الناس لاستثمار أموالهم فى شراء الاراضى أو فى امتلاك الاختراعات• وأخيرا فهناك ميل عند الاغنياء فى البلاد المتخلفة التى تجميع مدخراتهم فى االخارج بطرق قانونية أو غير قانونية ، مما يجعلها غير متاحة للدولة من أجل النمو الداخلى •

وهناك عوامل اقتصادية أخرى تشمل نقص المصادر الطبيعية مثل البترول والخشب ، والفحم ، واليورانيوم ، والغاز ، والاراضى الزراعية•

ومن الواضح أن المصادر الطبيعية المتاحة لاقتصاد أى مجتمع يمكن أن تختلف فبعضها لديه وفرة ، والآخر قليل المصادر ، وبالرغم من ذلك فان ماهو أهم من وفرة المصادر الطبيعية هو درجة نمو المجتمع وقدرته على استغلال هذه المصادر والاستفادة منها الى الحد الاقصى ، سواء كانت تلك المصادر ملكا له أو ملكا لمجتمع أخر ، وعند وجود امكانية نمو المصادر المحدودة فانه فى أغلب الاحوال يكون البناء الاقتصادى للمجتمع قادر على التغير الواسع • ويرتبط العمل كذلك بالمصادر الطبيعية ، وهو يمكن أن يكون بالمعنى الكمى ، والكيفى معا • فعدد الناس الذين يستطيعون المشاركة فى الاقتصاد يعتبرون (كما) ومعرفتهم وخبرتهم ودوافعهم تعتبر (كيفا) يؤثر بفاعلية فى الاقتصاد • وترتبط المصادر الطبيعية والعمل بقدرة المجتمع على تكوين رأس المال ، وهو أول مطالب التصنيع والتحديث وهذا ماسوف نتحدث عنه باستفاضة فى الجزء الثانى من الكتاب وهو التحديث •

وباختصار فان العوائق الثقافية والاجتماعية هى دوافع للتغير فى أى موقف اقتصادى ••• « الذى » يبدو أن له الحدود المطلقة للتغير فغالبا مايكون الناس واعين ومدركين لقيمة التغير ، وتواقين الى تعديل طرقهم التقليدية ولكن تحول دون ذلك ظروفهم الاقتصادية ، وتمنعهم من تحقيق مايريدون • وفى مثل هذه الحالات فان العوامل الاقتصادية تكون عائقا ضخما للتغير •

وفى النهاية تستطيع أن نقول أن كل مجتمع يتضمن عوامل تشجع التغير وتدفعه ، وأخرى تعوقه وتحاول ابقاء الاوضاع على ماهى عليه • وفى الواقع أن البواعث والعوائق يعملان فى نفس الوقت • وقد حاولنا فى هذا الفصل أن نختبرها من خلال المصطلحات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية •

الفصل الرابع

وطـأة التغير وتكاليفــه

التأثيرات الاجتماعية للاختراعات والتجديدات

التكنولوجيا والحياة اليومية للانسان

الاستجابات للتغــير

التغير الاجتماعى والتفكك الاجتماعى

تكاليف التغــير

١ ــ التكاليف الاقتصادية

٢ ــ التكاليف الاجتماعية

احتمالات التغير فى عالم الغــد

الفصل الرابـــع

وطــأة التغير وتكاليفـــه

قد يكون للتغير وطأة على أى مستوى فى المجتمع ، أو قد يؤثر على المجتمع ككل • ومصطلح « وطأة » يعنى ببساطة الأثر أو التأثير الذى يحدثه تغير معين بعد وقوعه • ووطأة التغير قد تكون كبيرة وشاملـــة أو صغيرة ومحدوده ، هامة أو غير هامة ، مباشرة أو غير مباشرة • وهـــذا يعتمد الى حد كبير على وضعها الحاضر ، أو اسهامها أو قيمتها • وقـــد ينتج عن وطأة معينة تاثيرات ضارة أو مفيدة ، أو قد تكون وظيفية أو غير وظيفية لنسق اجتماعى معين • وسوف نحاول فى هذا الفصل النظر الى وطأة التغير من منظورات متعددة مثل التأثيرات الاجتماعية للاختراعات والتجديدات ، والاستجابة للتغير ، والتفكك الاجتماعى ، والنتائج غير المقصودة للتغير ، وطرق التجاوب معه •

ومن الواضح أن دراسة وطأة التغير ليست مسألة سهلة أو بسيطة ، ومع ذلك فمن السهل ملاحظة النتائـــج المباشرة للتغير ، ولكـــن تظهر التعقيدات عندما يتركز الاهتمام على الآثار أو النتائج الاخـــرى • فأى تغير معين قد تنتشر آثاره فى مجالات متفرقة ومتباينة ، فلا يوجد تغير اجتماعى يترك بقية الحياة الاجتماعية بدون تأثير • وفى بعض الحالات قد يكون أثر التغير مدمرا ، ومثال ذلك أن ادخال أدوات أو أداة جديدة قد يؤدى الى تحطيم أو تدمير الأدوات القديمة والاستغناء عنها ، فنتائج هذه التجديدات تكون شديدة الوطأة والأثر ، وسوف نحاول فيمـــا يلى مناقشة بعض هذه الاختراعات والتجديدات ، ووطأتها عـــلى الاجزاء المختلفة للمجتمع •

التأثيرات الاجتماعية للاختراعــات والتجديدات •

قام « وليم اجبرن » فى مقال قديم كتبه فى عام ١٩٣٣ (١) بتجميع قائمة مكونة من ١٥٠ تأثيريمكن ارجاعها مباشرة لظهــور الراديو • وقد ظهر هذا المقال تحت عنوان « تأثير الاختراع والاكتشاف » وقد جمعت هذه التأثيرات تحت ١١ عنوانا رئيسيا هى :

١ ــ التماثل والانتشار

٢ ــ الترويح والترفيه

٣ ــ النقــل

٤ ــ التعليــم

٥ ــ نشر المعلومات

٦ ــ الديــن

٧ ــ الصناعة والعمل

٨ ــ الوظائف

٩ ــ الحكومة والسياسة

١٠ ــ الاختراعات الاخرى

١١ ــ موضوعات متعددة •

ويوضح « أجبرن » أن كلا من الوحدات الـ ١٥٠ التى تندرج تحت هذه الفئات يمكن أن تنقسم الى تأثيرات جزئية ، وأكثر تفصيلا ، فمثلا تأثير الراديو على الاهتمام المتزايد بالرياضة ينقسم بالتفصيل الى بيان

1) William Ogburn F. «The Influence of Invention and Disovery» New York, Mcgraw - Hill 1933, pp. 153 - 166.

١٥ تأثير اجتماعى . ويقوم « اجبرن » أيضا بتحليل عدد من الاختراعات الاخرى . فمثلا بالنسبة لآله « أشعة اكس » فانه يوضح وجـود ٦١ تأثير تسبب تغييرات فى الصناعة وفى الطب ، وفى العلوم ، وفى التجارة . وبالمثل فقد أشار « اجبرن » أيضا الى وجود ١٥٠ تأثير اجتماعى تنتج عن استخدام السيارة (وبعد ذلك بأربعين عاما قام « جابور ستراسور » بمضاعفة الرقم الذى قال به « اجبرن » بالنسبة للتأثـيرات الاجتماعية للسيارة ، وقد تكون القائمة عنده أيضا غير كاملة) .

وقد ميز « اجبرن » بين ثلاثة أشكال عامة للتأثـيرات الاجتماعية للاختراع فالمجموعة الأولى للتأثيرات تتصل بالاختراع البسيط كمـا فى حالة الراديو أو السيارة . والتأثير العام الثانى هو التأثيرات التابعة أو المشتقة لاختراع واحد ، وهذا يعنى أن الاختـراع ينتج عنـه تغيرات تحدث بدورها تغيرات أخرى وهكذا . « فالتأثيرات المشتقة لاى اختراع يتبع بعضها البعض كالأمواج بعد أن يلقى بحصاه فى المـاء ، فاختراع الصفيح نتج عنه حركة حق الاقتراع للمرأة . فقد أدى أولا الى انشار مصانع التعليب ، وهذا أدى الى تقليل الوقت المطلوب لاعداد الأكلات فى المنزل ، وهكذا أعطى للنساء وقتا أطول لممارسة الأنشطة خارج المنزل بما فى ذلك مساهمتها فى حركـة الدفاع عن حقـوق المرأة ، وحقهـا فى الاقتراع والادلاء بصوتها فى الانتخابات العامة . وهذا الحق فى الاقتراع كان له سلسلة من التأثيرات المشتقة وهكـذا » (١) . وهنـاك تصوير للتأثيرات الاجتماعية المشتقة وهو اختراع محلج القطن الذى جعل من صناعة القطن عملية بسيطة ومربحه ، وهذا نتج عنه تشجيع زراعة كميات أكثر من القطن ، والتى تطلبت بدورها عددا أكبر من العبيد ، والزيادة فى هذه العبودية زادت من اعتماد المناطق الجنوبية على صادرات القطن مما أثار الحرب الأهلية التى أثـارت بدورها نمو الاحتكـار فى مجال

---

1) Ogburn, Ibid, p. 124.

الأعمال والصناعة ، وهذه شجعت استمرار صـــدور القوانين المناهضة للعمال ، وكذلك الاتحادات العمالية ولازالت سلســـلة ردود الأفعال فى طريقها . ومن الواضح أن كل هذه التطورات لاترجـــع بصورة مباشرة الى ظهور حليج الأقطان ، ولكنه ساعد فى ظهورها جميعا .

ويسمى الشكل الثالث للتأثيرات الاجتماعية للاختراع « التقارب » أو اجتماع عدة تأثيرات لعـــدة اخترعات . فمثـــلا السيارة والمضخه الكهربائية وخزان العفن ساعدت كلها فى تكوين الضواحى الحديثة .

بل ان الأمر يتعدى هذا كما يرى « اجبرن » حيث يقول ان تأثيرات الاختراع على المجتمع لها درجات وأنواع مختلفة . وأول هذه التأثيرات الخاصة بالاختراعات هى تغير العادات عند الافـــراد الذين يستخدمون هذه الاختراعات ، كما هى حالة الأشخاص الذين أصبحوا يستخدمون الآلة الكتابة بدلا من الحبر والقلم . وعندما يغير عدد كبير من الافراد عاداتهم فان الطبقة الاجتماعيـــة التى ينتمون اليهـــا تتأثر بالضرورة ، وتدريجيا تظهر طبقة من النساء اللائى يحترفن العمل على الآلة الكاتبة ويكون لهن مكانة مميـــزة فى المجتمع الى جانب الجماعـــات والطبقات الآخرى . وهذه بدورها تغير تنظيمات معينة ، كما يتأثر تنظيم أعمـــال مختلفة باستخدام الآلات الكاتبة . وعموما فقد كان للاختراعـــات دائما تأثيرات واضحة على المؤسسات الاجتماعية مثـــل الاسرة التى تأثرت بتوظيف البنات والزوجات والنســاء غير المتزوجات فى المكاتب والمصانع . وهنالك أيضا تأثيرات اضافية وهى تلك التى تؤثـــر فى أخـــلاق وقواعد السلوك المتعلقة بهذه التغيرات المادية ، ومثال ذلك أنه منذ عدة سنوات « كان بقاء المرأة فى البيت له مضمون أخلاقى . ولكن ظهـــور المرأة فى الشوارع وفى أماكن العمل لعدة سنوات متتالية أثر فى الأخلاق والعادات المرتبطة بقواعد السلوك » (١) . ويلاحظ « أجبرن » أن التأثـــير الأخير

1) Ogburn, op. cit, p. 162.

يظهر في نظم التفكير أو في الفلسفات الاجتماعية التى تميل الى أن تتأثر بالاختراعات . وهكذا فان الاختراعات التى جذبت النساء بعيدا عن المنزل ترجع الى الفلسفة الاجتماعية الخاصة بالمساواة بين الجنسين ، وما ينتج عنها من عدالة اجتماعية عظيمه للنساء . وسوف نحاول في الفترات التالية من هذا الفصل أن نفحص الاستجابات المختلفة لتأثيرات التغير الاجتماعى ، وذلك لكى نتمكن من التعرف على وطأة التغير وتأثيره على الناس الذين يستخدمون هذه الأدوات أو التجديدات .

التكنولوجيا والحياة اليوميـة للانسان

يسعى الانسان جاهدا للتكيف مع بيئته ، ويكون الجانب الاكبر من هذا التكيف تغيرا في العادات المألوفه لمواجهة الظروف الجـديدة التى يواجهها . وهذه المقدرة الفريدة على التكيف يوجهها ذكاء الانسان الذى يميزه عن بقية الكائنات الحيه ــ فدقه أصابعه ، وذاكرته القوية ،ومقدرته على رؤية وحل المشاكل جعل في امكانه التأثير على البيئـة الطبيعية من حوله ، وذلك بعد أن عـرف طبيعتها وأعـاد تشكيلها تبعـا لرغباتـه واحتياجاته ، وخلق المناهج والوسائل لتغييرها . ولهذا تكون كل أداة أو فكرة تدخل في نطاق هذا التكيف أو التحول اختراعا خاصـا بالانسان ، والاختراع لايقتصر على الأدوات الآلية بل انه قد يكـون « فكرة » أو « طريقة »جديدة في الحياة . ولهذا فان جوهر الاختراع يكمن في « فكرة » يصل اليها الانسان لحل المشاكـل التى تعترض حياتـه . ونمو جميع الحضارات في المـاضى والحاضر ماهو الا « تراكـم » للآلات والأفكار « فالناس يعيشون وراء الاشكال المادية المتراكمة للحضـارة التى هى خلاصة قرون عديدة » [1]ومن الجدير بالذكر هنا أن القدرة على الابتكار والخلق لاتخص جنسا معينا ، فكل شعب في العالم له ثقافته الخاصة به، وله مقدرته الابداعيه في حل مشاكله ، بالوسائـل التى تناسب السكان

1) Leslie Spier, «Inventions and Human Society» in shapiro (ed.),Man, Culture and Society. Oxford University Press, N. Y. 1960. pp. 224-227.

فيه ، والتى تجد قبولا لديهم • وسوف نحاول فيما يلى استعراض بعض التأثيرات الاجتماعية المصاحبة للتغير التكنولوجى :

أ ـ التحول من العمل اليدوى الى الآلية

من أوائل النتائج التى ترتبت علـى التغير والنمـو التكنولوجى ، انتقال العمل اليدوى البسيط والذى كان يعتمد على المهارة الفردية الى الآليـة الكاملـة التى قللـت الى الحـد الأدنى من شـأن القـوة العضلية للانسان • فى الوقت الذى غيرت فيه قوة الدفع الآلية من وظيفة العامل ومسئوليته • ولم يعد العمل يعتمد على المهارة الشخصية • وقـد صاحب التقدم المستمر فى الآلات زيادة ثابتة وسريعة فى قوة الانتاج ، والتى ظلت تنمو بمعدلات ثابتة مما ترتب عليه تخفيض ساعـات العمل وظهور البطالة فى كثير الأحيان (1) •

وعموما فان التغيرات التى قدر لها أن تحول شكل معيشة الانسان فى العالم كانت بدايتها فى « انجلترا » عندمـا أكتشفت قوة البخار مما كان له نتيجة ثورية ، فقد جعلـت هذه القـوة من انجلترا أول دولـة صناعية ، وأعظم امبراطورية فى العالم ، وأصبحت هذه الجزيرة الصغيرة « متجر العالم » وبالرغم من الرغبة فى الاحتفاظ بهذه الآلات الجديدة فى موطنها ، فقد انتقلت بسرعة مذهلة الى مناطق أخرى من العالم وخاصة الى « أمريكا » ، وقد أصبح الاقتصاد خاضعا لها ، وواقعا تحت تأثيرها• وبعد مرور عقد من الزمن أتخذ الحديد طريقه الى الصلب ومعادن أخرى، وحل الجازولين والكهرباء محـل البخار ، كما أصبحـت الآلات معقدة ودقيقة ، ونحـن نقف اليوم عـلى حافـة القوة الذريـة والمصانع الاوتوماتيكية •

---

1. George conuts, «The Impact of Technological Change», pp. 20-21.

ب ـ التخصص :

ليس هناك شك فى أن التكنولوجيا غيرت بعمق دور العامل فى عملية الانتاج ، فقد غيرت قوة الدفع الآليه بوضوح وظيفة ومسئولية العامل الذى كان يتعامل منذ وقت قصير مع المادة الخام ويتقدم معتمـدا على نفسه • وكانت المنتجات الجاهزة مطبوعة بطابع شخصى ، وتنسب الى صاحبها • أما بعد ظهور الآلات التكنولوجية ، وعقب مجموعة الخطوات لعملية الانتاج أصبح العامل مجرد تابع للآلة •

وقد أصبحت العملية على وجه العموم هى انطباع العبقرية الخلاقة للمهندس أو فريق العلماء ، أما العامل العادى فقد أصبح مجـرد انسان أوتوماتيكى على درجة عالية من التخصص ، بل أصبح واحـدا من ضمن العوامل المختلفة التى ترتبط بالآلة • ونتيجة للتقدم التكنولوجى المطرد، والمنابع العجيبة والمدهشة للالكترونات والكيمياء الكهربائية التى أصبحت فى خدمة الاقتصاد ، ظل دور العامل يتناقص أكثر فأكثر ، وأبعد الانسان نحو السطح الخارجى لعمليـة الانتاج • ففى البـدء الآلات البسيطة أصبحت آلية ، ثم أصبحت تعمم بحيث تضبط مجموعة من الآلات ، وأخيرا أصبحت العملية كلها من المادة الخـام الى نهاية الانتاج تتم آليـا فى مصنع آلى (١) •

وكان تقدم الآلة تصاحبه زيادة ثابتة وسريعة فى قـوة الانتاج • وكانت هذه الزيادة مدهشة للغاية خاصة فى المراحل المبكـرة للتصنيع ، وقد ظل الانتاج ينمو ولم ينقص حتى وقتنا الحاضر ، ورغم هذه الزيادة فى الانتاج فقد كان يصاحبها دائما تخفيض فى ساعات العمل • هذا فضلا عن أن التكنولوجيا زادت الى درجة مذهلة الانتاج بالجملـة : ووسعت مجال العمليات ، وقد ظهرت فكرة الانتاج بالجملة فى التاريـخ المبكر

---

1) Ibid, p. 24.

للصناعة فى « أمريكا » عندما تعاقدت الحكومه الفبدراليه فى عام ١٧٩٩ مع أحد رجال الصناعة أن يصنع الفين بندقيه فى عامين .

وهذا التخصص الدقيق فى كافة أوجه الحياة والعمل جعل الناس مرتبطين ببعضهم ارتباطا وثيقا ، فلا توجد أسرة أو جيرة ، أو مجتمع يستطيع الآن أن يعيش فى عزلة عن بقية المجمتعات . كذلك فان الاجزاء المختلفة فى المجتمع يحتاج كل منها الى دعم الآخر وتأييده ، فالصناعة تعتمد على الزراعة ، والزراعة تعتمد على الصناعة ، كما أن الغرب يعتمد على الشرق ، والشرق يعتمد على الغرب ، والخيط الموصل بين الاهتمامات المتباينة يجرى خلال جميع المناطق فى المجتمعات ، فملايين منا يحصلون على خدمات الاتصال التى تجعل منا جميعا أسرة واحدة (١) .

هـ — التعقيد وسرعة الحركـة

تكون أنماط التنظيم فى المجتمع الصناعى واحدة من ضمن الآلات الكبيرة ، والتى يكون لها آلاف من الأجزاء المختلفة ، وكل منهـا يؤدى وظيفة معينة ، ويكون مع بقية الاجزاء شكلا متناسقا . فالعلاقات بين عامل وآخر ، وبين العامل والادارة ، وبين المزرعة والمصنع . وبين منطقة وأخرى ، وبين الصناعة والتجـارة ، والانتاج والتوزيـع ، والاقتصاد والحكومة ، والعمل والترفية ، كل هذه العوامل وصلت الى درجـة من التعقيد بحيث أصبحت فوق مستوى القوة العقلية المفردة .لدرجة أنه عندما نحاول تتبع نسق الاتصال من خلال جميع تشعباته بدءا من المركز الرئيسى للمال والقوة هبوطا الى الحقل والغابة والمنجم ومراكب الصيد والعودة ثانيا فاننا نجهد قدرتنا على التخيل الى أقصى حد (٢) .

وعندما نضيف دور القوى الاجتماعيه الموثره ، مثل النمو والخوف

1) Ibid
2) Ibid

وخطط الناس وأهدافهم ، وتخطيط ونضـــال الجماعات المنظمــة مثل النقابات والموظفين ، والفلاحين ، واتحادات العمال ، والجمعيات التعاونية فسوف نواجه بحالة بالغة التعقيد • وهذا النسق المعقــد من العلاقات بالرغم من عظمته فانه يبدو حساسا للغاية ، وغير مستقــر ، ولايشبه المجتمعات الزراعية المستقــرة الثابتة ، فالمجتمــع الصناعى يقيم بناءا اجتماعيا فريدا فى نوعه وعرضة للخطر باستمرار • فاذا فشل فى توظيف أو تشغيل أى جزء من أجزائه المتعددة ، أو اذا كان المنصرف من رأس المال يصل الى نقطة الخطر ، أو اذا أضطرب الميزان المالى ، أو عجــزت القوة الشرائية عن استيعاب الفائدة المرجوة • ففى مثل هــذه الظروف يكون المجتمع عرضة للدخول فى حالة عامة من التعطل أو الأزمات • مما يؤدى الى وقف القروض ، واغلاق المصانع والمحلات ، وتوقف عجلات الانتاج عن الدوران ويلقى بملايين العمال فى الشوارع ، وسوف ينفق أفراد الطبقة المتوسطــة مدخراتهــم ، وسيتردد الشبان والشابات فى الزواج تهربا من مسئوليه الأبوه • وهذا يظهر لنا بصورة مصغرة مايمكن أن يحدث لو اجتاح الهبوط الاقتصادى العالم •

د ـــ تغير الثقافة والناس

كل أداة تكنولوجية حديثة تلاقى فى بدء ظهورها رفضا ومقاومة الى أن تثبت جدارتها وفائدتها • ومقاومة التجديدات تعتمــد على اتجاهات وعادات وتقاليد أفراد المجتمع • فعواطف الناس نحو المألوف والقديم تؤدى الى الخشية من الجديد كما سبق أن أشرنا • ولكن ربما يدفع حب الاستطلاع الى الاقدام على معرفة الجديد والرغبة فى استعماله واقتنائــه ، الا أن عدم التأكد من الجديد بصفة عامة يؤدى الى الارتياب فيه والخوف منه •

ويرجع الخوف من الجديد فى أغلب الاحيان الى الجهل أو الافكار الخاطئة عن التجديد أو النتائج التى سوف تترتب عليه • والأفكار مثل العواطف يمكن أن تكون عائقا قويا فى وجه التجديــدات ، وخاصة اذا

كانت تلك الأفكار منظمة وواسعة الانتشار كما فى حالــة الايديولوجيات وعواطف الأفراد وتقاليدهم وقيمهم التى تعوق عمليات التغير الاجتماعى .

وعموما ، فهناك كما سبق أن ذكرنا نوعان من العمليات فى النسق الاجتماعى عمليات تحافظ أو تميل الى المحافظة على بناء النسق ، وعمليات تميل الى تغييرة [1] وعادة يحدث صراع بين القديم والحديث،الى أن يثبت أحدهما كفاءته وفائدته ويؤكد حقه فى البقــاء والقضاء عــلى الآخر . والعنصر الجديد لايسمح فقط باغناء وتحسين الحضارة بــدون تعديل مكوناتها ، بل إنه يؤدى الى منح طريق جديد للتغير الثقافى ، أو يصل الأمر أحيانا لدرجة تمزيق وتفتيت معظم الهيئات الاساسية فى المجتمع . فمجىء الزراعة غير الناس الرحل وغير كل طرقهم فى الحيــاة ، وقوض بعض السمات الثقافية القائمة ، وأجبر أخــرى على النمو . ومعرفــة الحصان بين الهنود فى الوديان الكبيرة فى شمال « أمريكا » غيرت بعمق نظام معيشتهم ، ووسائلهم فى الحرب ، وشكل مساكنهم . وأختــراع أسلحة الحرب ساعدت على تحطيم النظام الاقطاعى فى أوربا ، كما أعطى الناس فى الغرب القدرة فى كفاحهم للحصول على الأرض . كما أن ظهور البوصلة ساعد على اكتشاف الدنيا الجديدة ، كما غيرت الطائرة العلاقات بين الدول [2] .

الاستجابات للتغــير

ان تأثيرات التغير الاجتماعى لاتتوزع بالتساوى عــلى الاطلاق ، فوطأة التغير فى المجتمــع المتمايز تختلف بالنسبة للافــراد والجماعات والطبقات الاجتماعية الموجودة فى بناء المجتمع . وبالرغم من ذلك فمن الممكن القيام ببعض التعميمات عن نتائج ووطــأة التغيرات الاجتماعية

---

1) Johnson, H. «Sociology» Routledge and Kegan Paul, London, 1961, P. 625.
2) Counts, op. cit, P. 28.

ذات المدى الواسع وبعض الاستجابات الخاصة بها • وفى الجزء الأول من المناقشة سيكون التركيز على أشكال « الاغتراب » ونتائجه السلوكية التى يمكن ترجمتها كاستجابات للتغير •

وسوف يتم تحليل هذا من خلال مايسمى بنظرية « المجتمع الجموعى » الذى يميز العصر الحديث والذى تسيطر فيه فكرة أن المجتمع القديم كانت له تأثيرات قوية وهدامة • وتقرر هذه النظرية ثلاثة عناصر هامة فى عملية التحول • « وهى تصبح نظرية بمعنى أنها تحتوى على افتراضات يمكن اختبارها من خلال متغيرات مستقلة ومتشابكة ومعتمدة بعضها على بعض وذلك بربط (١) الوصف التاريخى الموجه للبناء الاجتماعى المعاصر (٢) والتأكيد على التأثيرات النفسية لهذا البناء و (٣) التنبؤات المتعلقة بالسلوك الفردى الناتج عن ذلك (١) ويمثل «الاغتراب» فى هذه النظرية المتغير الاساسى المتداخل ، وهو ينتج عن نوعية البناء الاجتماعى القائم ، وهو بدوره يؤدى الى ظهور إستجابات فردية متمايزة • ويسلم « سيمان » بأن النظرية عرضة للمناقشة والنقد وأن لها عيوب كثيرة ، ومع ذلك فما زالت هذه النظرية لها فائدتها الخاصة •

ويوضح « سيمان » مايحدث فى عملية التغير الاجتماعى من المنظور التاريخى ، وذلك من خلال خمسة اتجاهات هى :

١ — انهيار القرابة كمعيار هام للمكان ولاتخاذ القرار ، والزيادة المستمرة فى عدم ذكر اسم العائلة أو لقبها فى العلاقات الشخصية •

٢ — انهيار الأشكال الاجتماعية التقليدية وظهور الاشكال الدنيوية والعقلانية التى تشمل : (أ) ظهور البيروقراطية كصيغة تنظيمية

---

1) Melvin Seeman «Alienation and Engagement» In Angus Campbell and philip E. Converse (eds.), The Human Meaning of Sociol Change» New york, Russel Sage, 1972, pp. 466 - 468.

(ب) نمو الآلية و (ج) الدنيوية فى القيم والمعتقدات كصيغة ايديولوجية للنواحى الدنيوية التى تشمل اضعاف المستويات « المتعارف عليهـا » للسلوك .

٣ — الانتقال من التجانس الى اللاتجانس وهذا يستلزم بالتالى تمايزا اجتماعيا يتضمن تخصصا متزايدا فى الأعمال سواء بالنسبة للافراد أو المؤسسات ، مع زيادة تقسيم العمل والاعتمـاد المتبادل . وهـذه بالضرورة تستلزم وضع مقاييس فى مجالات أخرى مثل الثقافة الجماهيرية والاستهلاك .

٤ — زيادة التنقل المكانى والاجتماعى والـذى يتضمن اضعاف روابط المكان والروابط المباشرة بين الأشخاص .

٥ — توسيع المقياس ، وهذا يعنى أن قاعدة الفعل (مثل وسائل الاتصال ، والنقل ، والسياسة ، والحضرية الـخ ..) أصبحت ضخمة وكبيرة بالمعنى الحرفى لدرجة أن الشركات أو المؤسسات الكبرى ، والمدن، والأمم أيضا أصبحت تتخذ قرارات تؤثر فى جموع السكان .

ويوضح « سيمان » أن هذه الاتجاهات التاريخية تعتبـر مرشدا للمتغيرات القابلة للقياس . فعند تحديد قوائم مرتبطة ببعضها ، قـد تظهر مجموعة مـن الافتراضات حـول العلاقة بين التغـير الاجتماعى والاغتراب . ويشير الاغتراب الى حقيقة أن هناك ستة تصورات مرتبطة ولكنها متمايزة ، وأن هذه « الأنواع الستة للاغتراب يمكن أن تحدد بدقة من خلال توقعات الشخص أو قيمة » [1] ولهذا فان الاغتراب معناه أن تكون متصفا بواحدة من الصفات التالية أو أكثر : —

١ — **احساس بانعدام القوة** : وهذا يعنى انخفاض الامل فى أن سلوك

---

1) Ibid, p. 472.

فرد مايمكن أن يتحكم فى المكافآت الشخصية والاجتماعية التى يحصل عليها ، لان التحكم فى الشخص المغترب يرجع الى قوى خارجية ، والى قوى الحظ والقدر •

٢ ـ احساس بانعدام المعنى : وهذا يعنى الشعور بعدم القدرة على فهم الشئون الاجتماعية ، والتى لايفهم الفرد ديناميكيتها ، ولايمكن له التنبؤ بمستقبلها •

٣ ـ احساس بانعدام المعايير : وهو توقع قوى بأن الوسائل الاجتماعية غير الموافق عليها مطلوبة لتحقيق أهداف معينة ، وهذا منظور يـدل على أن الفرد ليس مرتبطا بمستويات مصطلح عليهـا فيما يجب أن يفعله ، وبالرغم من ذلك فهناك أهداف مصطلح عليها مثل الثروة والمركز المرموق•

٤ ـ عزلة القيم (أو النفور الثقافى) ويعنى رفض الشخص للقيم السائدة فى المجتمع ، وتقدير قيمة أقل للاهداف أو السلوك الذى يتميز بقيمة عالية فى مجتمع معين • ويظهر هذا بوضوح عند الفنان المغترب أو المفكر الذى يرفض المستويات السائدة للنجاح •

٥ ـ النفور الذاتى : ومعناه أن يكون الشخص منشغلا فى أنشطة غير مجزية فى حد ذاتها • ومثال ذلك ، الوصف الكلاسيكى للعامل الذى ينجز عملا غير خلاق •

٦ ـ العزلة الاجتماعية : وتعنى توقع الشخص المنخفض للقبول الاجتماعى ، وأنه غير مرغوب فيه أو منبوذ ، ويظهر هذا الانعزال فى صورة الشعور بالوحدة ، والرفض أو الالحاد (١) •

وعموما ، فقد استخدم مفهوم « الاغتراب » فى تفسير عدد من

1) Ibid, pp. 472 - 473.

الاستجابات المختلفة للتغير الاجتماعى السريع • فمثلا نجد «تيدجر» (١) يرسم عينة من الاحداث تعبر فيها الجماعات المغتربة عن عدم ارتباطها بالرجوع الى الثورة العنيفة وهو يركز على عدم القناعة الناتجة عن التناقضات بين احتياجات الانسان ومطالبة وبين الفرص الموجودة للوفاء بهذه الاحتياجات •

ويمكن رؤية استجابات التغير أيضا من خلال فكرة « هاجن » عن « التراجع عن المكانة » وهو يحلل منها الاستجابات الفردية والجماعية للتغيرات الاجتماعية الناتجة عن الغزو والاستعمار أو التغيرات داخل الصفوة • وقد حدد معنى التراجع عن المكانة بأنه ادراك من ناحية الأفراد أو الجماعات بأن « اغراضهم وقيمهم فى الحياه لاتحترم بواسطة الجماعات الموجودة فى المجتمع والذين هم موضع احترامهم وتقديرهم»(٢) وهناك عدة استجابات لموقف التراجع عن المكانة فأولا نجد الحدوان أو العصيان ، أو محاولات تجاهل الموقف أو التظاهر بأن الأمور لم تتغير • وطبقا لما ذكره « هاجن » فان الاستجابة المعتادة هى التراجع أو الانسحاب وفيها تبذل محاولة للابقاء على الطرق التلقيدية للحياة ، والتى لها قيمتها بالنسبة لهم • وعموما فان جيل الشباب الذى يعاصر هذا الصراع يتراجع الى الموقف السلبى « الآمن » لاسلوب الحياة ، وبالرغم من أن السلوك قد يتغير الا أنه لاتظهر أى تغيرات فى الشخصية •

التغير الاجتماعى والتفكك الاجتماعى

لقد أشار « روبرت بارك » فى كتابه عن « التغير الاجتماعى والتفكك

---

1) Ted Gurr, «Sources of Rebellion in Western Societies : Some Qualitative Evidence.» in James S. Short, Jr., and Marvin W. Wol Fgang (ads.), Collective Violence. Chicago, Aldine, 1972, p. 134.

2) Everett Hageh. «On The Theory of Social Change : How Economic Growth Begins» Homewood, Dorsey 1962, p. 185.

الاجتماعى » الى ذلك بقوله « نحن نعيش فترة من التفكك الاجتماعى • فكل شىء فى حالة تهيج ، وكل شىء يبدو أنه عرضة للتغير • وأى شكل من أشكال التغير ينتج عنه تحول وتبدل يمكن قياسه فى روتين الحياة الاجتماعية يميل الى أن يحطم العادات التى يقوم عليها التنظيم الاجتماعى القائم • وكل وسيلة جديدة تؤثر فى الحياة الاجتماعية والنظام الاجتماعى لها تأثيرها الواضح فى التفكك • وكل اكتشاف جديد ، وكل اختراع جديد ، وكل فكرة جديدة تعتبر شيئا مزعجا ومقلقا • ومن الواضح اذن أن أى شىء يجعل الحياة أكثر جاذبية وتشويقا يعتبر خطرا على النظام القائم » (١) •

والواقع أنه فى كثير من الحالات يكون التغير الاجتماعى مشتتا ، ودافعا أساسا للتفكك الاجتماعى • ويشير التعريف المتداول للتفكك الاجتماعى بأنه « عدم الكفاية فى النسق الاجتماعى الذى يعمل على تحقيق الاهداف الفردية والجمعيه بقدر الامكان » • ومن الواضح أن مفهوم التفكك الاجتماعى نسبى الى حد كبير ، فهو ليس مرتبطا بأى مستوى مطلق قد يكون يوتوبيا ، ولكنه مرتبط بمستوى ما يمكن أن يتحقق تحت ظروف يمكن التوصل اليها • فهو ببساطه « عندما نقول عن جماعة أو تنظيم أو مجتمع أنه مفكك فنحن نعنى أن بناءاته من المراكز والأدوار لاتعمل كما يجب لتحقيق أهدافه (٢) • وهكذا فان التفكك يستلزم تحطيم البناء التنظيمى ، وتصبح العناصر المختلفة فى المجتمع « غير مترابطة » ويضعف تأثير المعايير الاجتماعية على جماعات وأفراد معينين • والنتيجة

---

1) Robert park. «Social Change and Social Disorganization.» in Stuart H. Traub and Craig B. Little (eds.), **Theories of Deviance.** Itasce, Peacock publishers, 1975. pp. 38 - 39.

2) Robert Merton, «The Sociology of Social Problems.» in Robert Merton and Robert Nisbet (edsi), **Contemporary Social Problems,** 4 th ed, New York, Harcourt, 1976, p. 26.

هى أن الأهداف أو الاغراض الجمعية للمجتمع يتناقص تحققها عما هو فى حالة نسق أفضل تنظيما • وقد يؤدى التفكك الاجتماعى أيضا الى التفكك الشخصى كما فى حالة المرض العقلى ، والاستخدام السىء للعقاقير أو السلوك الاجرامى •

ويمكن أن تعطينا عمليات التغير الاجتماعى دافعا للتفكك الاجتماعى بخلق ظروف للاهتمامات والقيم المتصارعة ، والمكانة المتصارعة ، والتزامات الدور وواجباته ، والتنشئة الاجتماعية الخاطئة ، والاتصال الاجتماعى الزائف (١) • فالاهتمامات والقيم المتصارعة تنتج عن التعقيد المتزايد وتنوع الحياه الاجتماعية كما تصورها المطالب والتوقعات المختلفة للعمال والادارة وأصحاب الأسهم مثلا • فكل من هؤلاء له قيمه واهتماماته التى تتعارض مع قيم واهتمامات ومصالح الآخرين • فالافراد يشغلون نوعيات من المراكز فى المجتمع ، وهذه المراكز « يمكن أن تتجاذب فى اتجاهات مختلفة بالمطالبة بأشكال متعارضة للسلوك • وعندما توجد مجموعة من الأولويات بين هذه الالتزامات المتنافسة فانه يصبح من الصعب التنبؤ بسلوك الفرد • وبصرف النظر عن نوعية الحكم عليه فانه يبقى مفككا • ومثال ذلك ، التنافس بين التزامات المنزل والعمل ، وبين العادات المحلية وقانون الدولة ، وبين الدين والدولة ، وبين الصداقة والمنظمة هذا كله قد يولد صراعات محتملة ، ويؤدى الى تعدد الانتماء وتعدد الولاء وبالتالى الى التفكك • ويسبب التغير الاجتماعى أيضا تنشئة اجتماعية خاطئة بعدم تقديمه عملية اعادة التنشئة الاجتماعية المناسبة للافراد المشتركين فى هذه العمليات • فظروف التغير الاجتماعى المعاصر والتى تتميز بالسرعة تطلب من الأفراد والجماعات اعادة تنشئة مستمرة لكى تتناسب وتتوافق مع الظروف المتغيرة والا أصبحوا عرضة للتفكك والانهيار • وأخيرا ، فان الاتصال الاجتماعى الخاطىء يظهر فى

1) Ibid; pp. 26 - 27.

مواقف التغير نتيجة لعدم الكفاية البنائية أو بسبب الانهيار الجزئى فى قنوات الاتصال بين الناس فى النسق الاجتماعى •

وينتج التفكك الاجتماعى أيضا من الحقيقة القائلة بأن التغير يميل الى أن يكون غير متساوى فى نتائجه وهذا ما أطلق عليه « وليم اجبرن » مصطلح « التخلف الثقافى » ، وقد دخل هذا التعبير مفردات اللغة الدارجة ، وأصبح ينطبق على عديد من المواقف الاجتماعية المختلفة • وقد اتخذ هذا المفهوم جاذبيته فى عصر ظهرت فيه الاختراعات والاكتشافات والتجديدات الأمر الذى أحدث اضطرابا وتهديدا لطرق الحياة القديمة (1) • وقد قدم « اجبرن » نظريته فى التخلف الثقافى كعامل من عوامل التغير الاجتماعى • ويعنى به أن الأجزاء المختلفة للثقافة لاتتغير بنفس الدرجة ، فبعض الاشياء تتغير بسرعة أكبر من الأخرى • ونظرا للترابط بين أجزاء الثقافة المختلفة فان التغير فى ناحية فيزا يحدث نوعا من التكيفات والملائمات خلال الاجزاء الاخرى لها ، وان لم يحدث هذا التلاؤم فان التفكك هو النتيجة الحتمية لمثل هذا الموقف • ورغم أن هذه النظرية ذاتها أصبحت متخلفة ، ألا أنها مازالت مفضلة عند الاجتماعيين ، فسواء كانت تخضع للمقاييس الاحصائية أم لا فان دلالتها الفلسفية هامة للغاية •

ويرى بعض علماء الاجتماع ضرورة اجراء تحليل أفضل لفكرة التخلف نظرا لتعقيد التنظيم الاجتماعى الحديث ، فطرق اعتماد اجزاء الثقافة على بعضها وخاصة فى العصر الحديث أصبحت معقدة ومتعددة للغاية ، كما أن التكنولوجيا الحديثة يمكن أن تكون مستعارة من مجتمع آخر ، وقد تكون الثقافة التى أتت منها مختلفة تماما • وفى مثل هذا الموقف نجد أن الوحدة الثقافية تتمزق نظرا لان الثقافة تكون مفروضة

---

1) Nelson Lowry and Others, «Community Struoture and Chanye», New York : Macmillan Company, 1966, P. 401.

على المجتمع . ولعل هذا واضح فى فرض الثقافة الغربيــة على المناطق الشرقية والآسيوية (١) ولقد رأينا شعوبا كثيرة فى هذه المناطق تنتقل من مرحلة البداوة والتخلف الى مرحلة الانحلال دون أن تمر بمرحلة الحضارة والتقدم نتيجة لدخول التكنولوجيا الحديثة اليها دفعة واحدة ، وهى جاءت اليهم منقولــة من نسق اجتمــاعى يختلف عن نسقهم تمامــا . فالمجتمعات الصناعية يكــون فيها ارتباط بين التكنولوجيــا والأنساق الثقافية ، وكل تغير فى أحدها يؤدى الى تغير فى الاخرى ، ولكن اذا حدث انتشار للتكنولوجيا من أحد هذه المجمتعات الى مجتمع أخر فلا يلزم أن تتغير الانساق الثقافية فى المجتمع الآخر فى صورة موازية للمجتمع الأول . فقد يكون لبعض الدول الكبرى نظام التكنولوجيا نفسه ، ويكون لكل منها نظرة خاصة للحياة (الدول الرأسمالية والدول الاشتراكية) (٢). وعندما تنشأ فى المجتمع الواحد طريقتان للحياة أو الفكر ولكنهما تتعارضان بحيث لاتستطيعان العيش جنبا الى جنب ، عند ذلك يحدث مايسمى « بالصدام الثقافى » ، وفى كثير من المواقف يكون التكيف أصعب من الاختراع ذاته .

ومن هذه الناحية قد ينظر الى التغير التكنولوجى باعتباره سببا فى التفكك الاجتماعى ، وذلك بسبب التخلف مع الاختراعات الآلية الحديثة ، فالانسان يحاول مسايرة وقع الحياه الجديد من حيث استخدام المنجزات التكنولوجية والعلمية ولكنه يفشل فى تكييف البناء الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، وكذلك الأفكار والمعايير والنظم الاجتماعية للانماط الجديدة للثقافة المادية . بل ان يحاول أحيانا أن يدير العالم الجديد بأفكار رجل عصر الحصان والعربة ، وفى بعض الأحيان بعقلية العصر الحجرى . وهذا

---

(١) Maciver, R.M. and Charles Page, «Changing Techniques and Changing Society» in Nordskog (ed.), **Social Change**, New York, Mc Graw - Hill Book Com, Inc. 1960, p. 79.

(٢) محمد عاطف غيث « التغــير الاجتماعى والتخطيط » دار المعــارف ، الاسكندرية ، ١٩٦٢ ، ص ٥٣ .

الفشل فى مسايرة الافكار والنظم الاجتماعية للعصر الجديد يؤدى الى « التخلف الثقافى » الذى يواجه كثيرا من مجتمعات اليــوم ، أو على الأقل يبرز حدة بعض المشاكل الاجتماعية • وقد استتبع ذلك أن كثيرا من الباحثين حاولوا دراسة العوامل التى تؤدى الى تباطؤ تغير الجوانب غير المادية واكتشفوا أن التغير فى المجالات غير الماديـــة لايحدث بنفس السرعة التى يحدث بها فى المجالات المادية لعدة أسباب منها : أن هناك عادة معارضة عاطفية تفرض التغير فى الحالات غير الماديــة ، فى الوقت الذى تلقى فيه التغيرات فى الثقافة المادية قبولا وترحيبــا ، ويفسر ذلك على أساس أن العادة والاهتمامات الشخصية والجهل تميــل الى الابقاء على الحالة الراهنة فى المجال الاجتماعى ؛ وهذا يؤدى الى حدوث التفكك الاجتماعى (١) •

وينتج التفكك الاجتماعى أيضا عن هــذا الذى اسمــاه « فيليب هوسر » ، بالثورة المورفولوجية الاجتماعية » وهــى تعنى (تغيرات فى حجم وكثافة وعدم تجانس السكان ، وتأثير هذه التغيرات عــلى الناس والمجتمع) وينتج هذا عن ثلاثة تطورات :

١ ــ الزيادة الملحوظة فى نسبة نمو السكان والتى يشار اليها بمصطلح « الانفجار السكانى » •

٢ ــ زيادة السكان فى المناطق الحضرية والمتروبوليتية وهو مــا يطلق عليه مصطلح « الانفجار الداخلى للسكان » •

٣ ــ زيادة التغاير فى السكان الذين يتكونون من قوميــات مختلفة ،

---

1) Chinard Marshall «Sociology of Deviant Behavior» New York, Holt Rinehart and Winston, 1961, p. 104.

وجماعات ترجع الى عـدة أجناس والتى يطلـق عليها « تنوع السكان » .

وهذه التغيرات الديموجرافية تأثرت بدورها بالتغيرات التكنولوجية والاجتماعية ، وهذه التطورات ترتبط ببعضها بشـدة ، وتكون عناصر الثورة المورفولوجية الاجتماعية . هذا ويؤكد « هوسر » أن التأثيرات المترابطة لهذه التطورات غيرت طبيعة الانسان والنظام الاجتماعى بعمق ويقول فى هذا المجال « لقد عدلت الثورة المورفولوجية الاجتماعية التجمع الانسانى كبناء طبيعى وكآلية اقتصادية ، وغيرت السلـوك الانسانى والتنظيم الاجتماعى بما فى ذلك طبيعة الحكومة ، وأثارت مجموعة مـن المشاكل — الطبيعية والشخصيـة والاجتماعية — ومن أمثلـة المشاكل الطبيعية تلك المرتبطة بالاسكان ونوعيته ، ودورة الأشخاص والبضائع ، وازالة الفضلات الانسانية وتلوث الهواء ، والماء ، والتسهيلات الترفيهية، والتصميم الحضرى ، وادارة المصادر الطبيعية الـخ ... ومن أمثلـة المشاكل الشخصية والاجتماعية والتنظيمية حدوث الانحراف والجريمة والاقبال على المسكرات وادمان المخدرات ، والاضطرابـات العقلية . وتظهر أيضا فى البطالة ، والفقر ، والتعصب ، والصراع داخل الجماعات، وتفكك الأسرة ، والاختلاف بين انتشار المرض والوفيات ، وصراع ادارة الاعمال ، والجدل المحافظ — الحر ، والفساد ، واساءة التوزيع والقصور الذاتى فى الحكومة » (١) .

وباختصار ، فان الثورة المورفولوجية الاجتماعية قد حولت « الجماعة الصغيرة » الى « مجتمع كبير » أو « مجتمع جموعى » وليس هناك شك

---

1) Philip M. Hauser, «The Chaotic Society :Product of the Social Morphological Revolution.» in Amitai Etzioni and Eva Etzioni (eds.) Social change : Sources, Patterns and Consequences» 2 nd ed. N.Y. Basic Books, 1973, p. 430.

فى أن نمو السكان أثر فى كل المؤسسات الاجتماعية • وعموما فقد خلق تعلم الحديث موقفا ووصفا جديدا كلية فى الامم الاقل تحضرا ، أو ما يطلق عليها المجتمعات النامية ، وذلك فى شكل انخفاض سريع فى معدلات الوفاه ، بينما اتجاهات الافراد نحو الخصوبة والانجاب لم تتغير بشكل ملحوظ • وبالرغم من أن التخطيط على مستوى الدولة من أجل تنظيم الاسرة قد بدأ فى المجتمع المصرى منذ أكثر من عشرين عاما فنتائجه حتى الآن محدودة للغاية ، ويهدد الانفجار السكانى كل خطط زيادة الانتاج بالفشل • ويرجع ذلك الى الصعوبة البالغة التى تواجه الدولة فى مواجهة مثل تلك المواقف اذ أن مسألة الانجاب مسألة شخصية بحته ومن الصعب التدخل أو التحكم فيها •

ومن السهل أن نفهم على المستوى التنظيمى كيف أن فرص الصراع والتفكك تزداد مع كبر حجم المجتمع ، اذ أنه بزيادة حجم التنظيم فان التكامل الذى يحققه من حيث المشاركة فى المبادىء العامة تقل ، كما تزداد مشاكل التفاعل على مستوى رأسى فى نفس التسلسل أو بين التسلسلات المختلفة الاخرى ، ويزداد أيضا احتمال الصراع والاحتكاك بين الأجزاء ويزداد عدد المشاكل المترابطة •

كما يرتبط التفكك بالهبوط فى الروح المعنوية على المستوى الشخصى ومثال ذلك ما أشار اليه « فين ديلوريا »[1] من أن أبادة الجاموسة قد هبط بالروح المعنوية عند « الهنود الامريكان » فى السهول الكبيرة • فكما أشرنا من قبل فان الجاموسة تعطيهم الطعام والملابس والمأوى ، كما أن صيد الجاموس يحقق الهدف الأساسى للاحتفالات الدينية للهنود ، والسبل الى المكانة الاجتماعية • وهناك أنشطة أخرى مثل الحرب كانت

---

1) Vino Deloria, Jr. «Custer Died for Your Sins . An Indian Manifesto.» New York, Macmillan, 1970.

أيضا تعتمد على اللحم المجفف للجاموس ٠وقد نتج عن محاولات الحكومة فى تهدئة الهنود بسبب ابادة الجاموس هبوط بروحهم المعنويـــة ، فقد اختفى نتيجة لذلك التكامل بين وظائف فرق الحرب ، وصيد الجاموس ٠ وأصبحت الاحتفالات الدينيه فارغة ولامعنى لها ٠ وتحطـــم اقتصاد الصيد ، وعانى الهنود من المجاعة فى بعض الاحيـــان ، وأضطروا الى المعيشة على ما تقدمه لهم الحكومة ، ولم تعد الأهداف والقيم التقليدية التي كانت تعطى حياتهم معنى موجودة الآن ، ووجـــد الهنود أنه من الصعب استبدال قيمهم وأهدافهم بقيم وأهداف الرجل الأبيض ٠ وهكذا فقد عانوا من تحطيم ثقافتهم الخاصة ، وتعرضوا لامراض غير معروفة نتيجة تناول الخمور ٠ وهكذا فليس غريبا أن نجد قبائل هندية كثيرة قد أصيبت بهبوط معنوى كبير ، وانخفض عدد السكان — تدريجيا وتعرض المجتمع الهندى لتفكك واضح ٠

وتصل سرعة التفكك الاجتماعى الى أعلى مستوياتها فى المجتمعات النامية وذلك نتيجة لتعرضها لتغيرات سريعة فى نفس الوقت الذى لاتكون لديها القدرة على استيعاب هـــذا التغير ٠ وبذلك جلـــب « التحديث » و « التقدم » مشقـــات جديدة لكثـــير من البلاد الناميـــة (١) ٠ ويشير « روبرت هـ٠ باتس » (٢) الى أن التحديث ينشىء انساقا جديدة للتمايز الطبقى وهكذا يسهم فى التفكك الاجتماعى ، وبالرغم من ذلك فيجب أن نضع فى اعتبارنا أنه على الرغم من أن التحديث يرتبط عـــادة بالتفكك

---

1) James Scott, and Ben Kerkvliet. «The Politics of Survival : Peasant Response to «Progress» in Southeast Asia. Journal of Southeast Southeast Asian Studies, 4 September 1973, pp 241 - 267

2) Robert Bates «Ethnic Competition and Modernization in Contemporary Africa.» Comparative political Studies, 6, January 1974. pp. 457 - 484.

الاجتماعى ، فليس هناك دليل تجريبى على أن التحديث يسهم مباشرة فى التفكك الشخصى أو التوتر الطبقى •

ومن المهم أن نشير الى أن التفكك تحت بعض الظروف يمكن أن يكون سببا للتغير الاجتماعى ونتيجة له • ففكرة التفكك تقوم على أساس فرض بأنه فى الماضى فان مشكلة ما لم تكن موجودة أو معروفة ، وأن المجتمع كان فى حالة توازن مستقر حيث كانت الممارسات والقيم فى حالة انسجام• وقد حطم التغير الاجتماعى لاى نوع هذا الانسجام وخلق ممارسات أو أحوال جديدة لم تعد صالحة للممارسات القديمة ، أو أوجدت معرفة جديدة قضت على المعرفة القديمة ، أو أحكاما قيمية جديدة أعلنت عدم صلاحية الأحكام القيمية القديمة ، وهذه بدورها خلقت اضطرابا تم فيه تجاهل القواعد القديمة ، ومع ذلك لم تقبل بعد القواعد الجديدة • وبمعنى آخر ، فان التغير قد أفسد تنظيم النسق السابق للسلوك • وبالرغم من ذلك فان القواعد والممارسات الجديدة مازالت فى طور النمو ، وسوف تمر فترة من الوقت قبل أن يحل التوازن الجديد ويستقر هو أيضا لفترة حتى تعطله وتفسده دورة أخرى من دورات التغير وهكذا ••• وباختصار فان التفكك واعادة التنظيم حركة واحدة مستمرة •

وأحيانا يستخدم التفكك المقصود كحركة تكتيكية لتحقيق تغير مطلوب • فقد يستخدم التخريب أحيانا من أجل الوصول الى تغييرات مطلوبة ، وفى هذه الحالة يكون التفكك من أجل أهداف جيدة • وتثير قضية التفكك من أجل أسباب جيدة بعض التساؤلات الهامة • فبالرغم من أن الناس يفضلون النظام الاجتماعى بشكل عام ، ويميلون الى كراهية الفوضى ، فليس التنظيم دائما مرتبطا بما هو « صحيح » كما لا يرتبط التفكك دائما بما هو « خطأ » • ففى كثير من الاحيان يكون التمزق والتفكك هما الطريق « الصحيح » للعمل ، وهنا تصبح قضية القيم محلا للنقاش • والنقطة الهامة هنا هى أن التفكك يمكن اعتباره نتيجة وأداه للتغير الاجتماعى •

تكاليف التغير

سوف نحاول فى هذا الفصل أيضا استعراض التكاليف الاقتصاديه والاجتماعية للتغير الاجتماعى . والواقع أن التغير مثلـه مثل أى شىء أخر له تكاليفه . فاذا تم انجاز التغير دون أية خسائر ، فمن المتوقع أن كل فرد سيكون فخورا به ، ولكن أحيانا يصاحب التغير بعض الخسائر ، ولذلك تختلف اتجاهات الناس نحـوه . وتنعكس هـذه الاتجاهات فى التقييم المتمايز للمكاسب والخسائر الناتجة عن التغير . وأكثر من ذلك ، فان التغير يؤثر فى الجماعات والأفراد فى المجتمع بطرق مختلفة ، حيث قد يراه البعض مفيدا ويراه الاخرون ضارا . ان فكـرة تقدير تكاليف التغير سواء بالكسب أو الخسارة ليست مسألة سهلة ، لانها مسألة نسبية الى حد كبير ، فما قد يراه البعض مكسبا قد يراه آخرون خسارة . ومثال ذلك أن دخول جيش مجتمع ما فى حرب يكون مكسب للمواطنين العاديين حيث يضمنون أمنهم وحمايتهم ، بينما يكون خسارة للجنود من الشباب الذين يفقدون أمنهم ومنازلهم وأعمالهم ، بل ان حياتهم ذاتهـا تكون عرضة للفناء . وهكذا يخسرون الكثير ، وليس هدفنا هنـا تقديم صورة كئيبة للتغير الاجتماعى أو أن نسخر من التصور القائل بأن « تاريـخ الانسان هو تاريخ الألم »[1] فهدفنا ببساطه هو تحليل التكاليف المرتبطة بعملية التغير . وعلم الاجتماع كما نعلم يحاول دائما وبقدر المستطـاع الالتزام بالموضوعية الا أن هذه المسألة ليست سهلة كمـا هو الحال فى العلوم الاخرى . نظرا لان عالم الاجتماع يكون عضوا فى المجتمع الذى يدرسه أو يحلله ولذلك فان التزامه بالموضوعية يكون مسألة صعبة الى حد كبير ، ولنضع ذلك فى اعتبارنا ونحن نحلل التكاليف الاقتصادية للتغير:

---

1. Peter Berger. «Piramids of Sacrifice, Political Ethics, and Social Asian Studies» 4 September 1973, pp. 241 - 267.

١ ــ التكاليف الاقتصاديــة

تقوم العقيدة التقليدية عند علماء الاقتصاد على أساس أن الأكثر هو الاحسن . والواقع أن وصف النمــو الاقتصادى باعتبــاره عملية « توسع مجال الاختيار » قد تبدو أنها تفضل نظاما اقتصاديا ينتج عنه زيادة فى البضائع والخدمات التى يحصل عليها الفرد . وتفترض هذه الزيادة نموا اقتصاديا وهذا ما سوف نحاول اختباره باختصار فى مجال التكاليف الاقتصادية للتغير .

أ ــ النمو الاقتصــادى

يرى أنصار النمو الإقتصادى السريع أن « النمو حــالة ضرورية للتقدم الاجتماعى ، ولتحسين نوعية البيئة ككل . ويبدو واضحا أن نمو انتاج كل شخص يرتبط بالمستويات العالية للرخاء البشرى »[١] ويؤيد هذه الفكرة الرأى القائل بأن نموذج النمــو فى المجتمعات المتقدمة فى سنوات ما بعد الحرب نتج عنه فوائد للافراد تزيد على تكلفتها ، وهكذا أصبح للتقدم المادى محتوى انسانى ويؤكد أنصار النمو السريع عــلى أن فوائد التقدم الاقتصادى تستلزم وجــود مجال كبــير للاختيار ، وسيطرة أكبر على البيئة ، وخدمات وبضائع أكثر ، وتحسين حالة النساء ، وتخلص من العمل الشاق ، وزيــادة فى حب الخير لصالــح المجموع ، وتخفيض التوترات الاجتماعية .

وهناك بالطبع فوائد واضحة للنمو الاقتصادى ، فان ارتفاع مستوى

---

1) Heller, Walter W. «Caming to Terms with Growth and the Environm-ent» inSam H. Schurr (ed.), **Energy, Economic, Growth, and the Environment.** Baltimore, Johns Hopkins University press, 1972, p. 11 and p. 29.

الدخل القومى ، وزيادة انتاجية قوة العمل ، تسمح بوجـود مستويات عالية للمعيشة ، وقد ينتج عنه توزيع جديد للدخل يرتفع به عدد أكبر من السكان الى مستوى أعلى من مستوى الضرورات الخاصة بالحياة ، مما يسمح بالاختيار بين الفراغ والعمل • بينما يوفر الحد الادنى من السلع والخدمات الضرورية للحياة ، وهى بلا شك ضرورية للتوصل الى العضوية الكاملة فى مجتمع الأمم •

ان تحقيق فوائد النمو الاقتصادى مرتبط بمشاكل الدول النامية ، فالتفسيرات المختلفة تركز على الاحصائيات التى توضح مـدى التقدم اللازم لكى تظهر الى الوجود أمم نامية • فالاحصائيات الخاصة بنسب المواليد والوفيات والأمية ، وسرعة نمو الدخل العام • ودخل كل فرد ، ونسبة التحضر وما شابهها فى الدول النامية تقـارن باحصائيات الدول المتقدمة ، وهذه مقارنة غير عادلة • وأكثر من ذلك فان جزءا كبيرا مـن دراسة النمو يرتبط باستراتيجيات النمو ، ويهتم بزيادة دخل كل فرد ، وعما اذا كان المستوى الأساسى للاستثمار هو مفتاح الهجـرة ، وكيف يسمح جيل رأس المال القائم بتقدم النمو وهكذا •

ولسوء الحظ فان ما قيل عن « التكاليف الضارة » المرتبطة بمعدلات النمو السريع والنمو الاقتصادى قليل للغاية رغم أنها تكاليف ضخمة بدون شك (1) • فأى مجتمع له فى كل الاوقات عددا ممكنا من معدلات سرعة النمو يمكن أن نتتبعها تحت أسماء مختلفـة لاستراتيجيات « النمـو البشرى » ، ولكل من هذه المعدلات تكاليف ، وبها معدلات أعلى وزيادة فى التضحيات من جانب الناس ومصادر المجتمع • و يمكن أن يقـال أن معدل السرعة « الصحيح » للنمو فى المجتمع هو الذى تكون فيه فوائد

---

1) Mishan Ezra J. «The Economic Growth Debate : An Assessment» London, G. Allen, 1977.

زيادة معدل ... رعة النمو متوازنة تمشيا مع تفاديه تحقيق ... الزيادة ، ومن الناحية الثانية فإن هدف المجتمع يجب أن يتحول ... من معدل سرعة النمو والمهم تشخيص هذا المعدل الى أقصى حد ممكن . لأنه بالنسبة للنمو فإن التأكيد يجب أن يكون على الأقصى بالنسبة لحجم البضائع والخدمات ... وبالرغم من ذلك فمن الذى يقرر المعدل الأقصى ضد المعدل الأكبر فى النمو فهذا موضوع آخر .

وقد تبين من أحدث السنوات عن الدول النامية « أنه فى كثير من البلاد نجد أن معدلات النمو المرتفعة قد صاحبتها زيادة فى البطالة ، وارتفاع فى تفاوت الدخول بين الجماعات وبين المناطق ، وكذلك تدهور الأحوال الاجتماعية والثقافية . فالطموحات التى قد تكون محدودة فى غياب التنمية قد تنطلق بسرعة مع بروز أول علامات النمو عندما يتأكد الناس من أن الأشياء ليست كما يجب أن تكون . فقد تنهار القناعة الشخصية والأفراد . وقد ينعكس النمو الاقتصادى المضغوط بطريقة مأساوية على الناحية الايكولوجية ، وعلى الأنماط المبذرة اجتماعيا للانتاج أكثر من تقديم الرخاء الفعلى للأفراد » (١) .

ب — البيئة والتكاليف الاقتصادية

هناك عديد من التكاليف الاقتصادية الملموسة ترتبط بالنمو والتغير . فمثلا حجم المخلفات فى المنازل فى المجتمعات المتقدمة أو النامية تتضاعف عاما بعد عام . فكل مواطن ينتج كمية من المخلفات ، تصل عند المواطن الامريكى الى طن فى كل عام ، ومعظم ما يستهلكه يصبح سلعا بالية بأسرع ما يمكن . فهناك البلايين من علب الصفيح والزجاجات التى تلقى سنويا ، ويستخدم الشخص مئات الأرطال من الورق ، ومئات من أكياس البلاستك ، والمواد الأخرى المستخدمة لتغليف البضائع .

(1) Barry Commoner, «The Closing Circle» New York, Knopf, 1971. p. 295.

ويمكن رؤية تكاليف النمو أيضا من خلال مصدرين هما الاستنزاف والتلوث . حيث يرى الكثيرون أن النمو السكانى له تأثيراته القوية فى الازمة البيئية . فسكان كوكب الارض مـن الآدميين يتزايدون بطريقة سريعة للغاية ولاعالة كل هؤلاء الناس (فى مستوى البـؤس الحالى) يجب أن ننفق من رأسمالنا ونستنفذ مصادرنا المعدنية ونستبدل المياه العذبة بالمياه المالحـة . هذا فضلا عـلى أنه لايمكن تقديـر التكاليف الاقتصادية لتلوث المـاء . اذ أن حوالى ثلاثة اربـاع سكان الارض لايحصلون على احتياجاتهم الفعلية من الماء (١) حيث أن مصادر امداد الماء العذب بها قدر كبير من التلوث ، لان البحيرات والانهـار أصبحت مجالا للتخلص من نفايات الصناعة والزراعة والانسان ، ولعل ما يحدث فى مجرى النيل لمثال حى على مانقول . والتلوث بدوره يؤثر فى الكائنات البحرية ومصايد الاسماك ، بل وأيضا على مصادر الترويـح فى أغلب المناطق الحضرية .

ويزيد مستوى مواد التلوث عن مستويـات العلاج ، ولـذلك فان مشاكل التنفس ، وامراض القلب ، والامراض الخبيثة ، توضح أن هناك ارتباط بينها وبين مواد التلوث . وبالاضافـة الى الضرر الذي يصيب الصحة فانه يمكن حساب تكاليف تلوث الهـواء أيضا بصيغة الفـاقد فى العمل ، والاخطاء التى تصاحبه ، وتخفيض الانتاجية وكل هـذه أشياء لايمكن تقديرها . ويتسبب تلوث الهواء أيضا فى امكان حدوث تغيرات فى المناخ وهذه ترجع الى التغيرات المصاحبة لعمليـات التبريد والتسخين وما تؤثر به فى الجو . فثانى أكسيد الكربـون زادت نسبته فى الجـو بمقدار ١٥٪ فى هذا القرن مما ينتج عنه الاحتفاظ بالحرارة فى الداخل ورفع درجة حرارة الارض . وكذلك تعود السحب بالاشعاع الى الارض، وتحافظ على درجة حرارة أدفأ . وبالرغم من ذلك فان كثرة اعادة الاشعاع ترفع من حرارة الارض مما ينتج عنه تغيرا فى الموقف الزراعى .

---

1) John McHale. «The Ecological Context» New York, Braziller, 1970, p. 13.

كما أن المشكلة الكبرى تقع فى الواقع من التلويث الحديث وأساليب استهلاك الطاقة التى من خلالها ننتج طعامنا وملابسنا والبضائع الاخرى • ومع ذلك فالتغير الرئيسى ليس فى كمية السعرات الحرارية أو البروتين أو فى الملابس أو فى المنازل الحديثة ، ولكن التغير يظهـر فى أن الألياف الصناعية حلت محل الالياف الطبيعية كالقطن والصوف ، وحل الالومنيوم والبلاستك محل الصلب والخشب ، والمنظفات الصناعية محل الصابون ، والصلب التصفيح محل الزجاجات •

وهناك تكاليف اقتصادية أخرى لايمكن قياسها تنتـج عن النمو ، فاستنزاف التربة يكلفنا فقدان فى المواد الغذائية وتخفيض الانتاج، وتغير تكنولوجيا المزرعة خلق أيضا تلوثا واضحا ومشاكل مدمرة، فبينما ظل الانتاج فى نفس المعدل أو تناقص فان مواسم الحصاد قد تناقصت بالرغم من استخدام المخصبات ، وبالمثل فان استخدام المبيدات الحشرية الصناعية والمبيدات العشبية حلت محل أساليب التعهد والرعاية القديمة •

وهكذا فان العامل المسيطر فى المجتمع العـالمى اليوم هـو زيادة الانحلال البيئى فى كل المجالات تقريبا • واذا كان من الصعب بالنسبة للإنسان العادى أن يقيم الآثار السلبية لتأثيرات النمو السكانى والنمو التكنولوجى فهناك بالرغم من ذلك اتفاق عام وهو أنه اذا لم نضبط النمو السكانى والتكنولوجيا المسببـه للتلويث فان الامـل ضعيف للغاية فى انقاذ البيئة •

د ـ نحو العصرية ـ تكاليف الانتقـال

ان التكاليف الاقتصادية المتسببة أو الناشئة عن الاحوال البيئية ليست هى فقط التى توجد فى عملية النمو الاقتصادى • فهناك طرق أخرى يجب أن توضع فيها التكاليف الاقتصادية موضع الاعتبار • ومثال ذلك أنه يمكن عمل قائمة مجتمع تقليدى فى طريقة للتحول الى مجتمـع أكثر حداثه •

[illegible] وبعض [illegible] [illegible] الاقتصادية [illegible]
[illegible] النمو (١) —

— [illegible] الروح الاقتصادية [illegible] [illegible]

— [illegible] العلم والفنون [illegible] [illegible] معظم [illegible] [illegible] البناء الاجتماعي ، فالفرد في هذه [illegible] يصبح أكثر [illegible] مسؤولياته نحو [illegible] ، وأكثر معرفة [illegible] [illegible] تجاه [illegible] الاقتصادية .

— [illegible] المهارات الجديدة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الطرق التقليدية [illegible] [illegible] .

— [illegible] الاقتصاديات التقليدية [illegible] [illegible] [illegible] فيما [illegible] [illegible] [illegible] ويصبح الفرد [illegible] منه شخصية مستقلة ، وينعكس ذلك [illegible] [illegible] .

— [illegible] الانسان عبدا للساعة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ومواعيده .

— يؤدي الانتاج الضخم الى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] وتنمو على حساب [illegible] .

— [illegible] [illegible] والأجور [illegible] توزيع غير عادل [illegible] [illegible] [illegible] العمل مما يضمن [illegible] [illegible] [illegible] التوزيع .

---

(1) Arthur Lewis, «The Theory of Economic Growth» [illegible] and Unwin, 1956, pp. [illegible] - 435.

وقد كـــان « ارثرلويس » حريصـــا عند تصنيف تكاليـــف النمو الاقتصادى الى الاشارة الى أن بعض الأشياء التى تندرج على أنها تكاليف ليست فى الواقع تكاليف على الاطلاق • فالتغير فى البناء الاجتماعى ليس شرا بحكم الظروف • وكذلك فان تطور المهارات الجديـــدة ، وتقسيم العمل لايعنى أن المهارات القديمة غير مرغوب فيها أو أنها تصبح زائدة عن حاجة المجتمع •كما أن حقيقة أن الانتاج الضخـــم يتضمن هيئات كبيرة فيها يستخدم بعض الأفراد الذين لا يملكون شيئا فى رأس المـــال ومع ذلك فان هذا لايعنى أن الصناعات الضخمة هى شىء ردىء •

وهناك طريقة أخرى لحساب التكاليف الاقتصادية فى عملية الانتقال وهى التأكيد على التخلص بالبيع المتضمن فى عملية التطور والنمو • وهناك على الاقل ثلاثة أساليب للتخلص بالبيع وهى :

١ ــ فى محاولة زيادة معدل سرعة النمو فاننا نضحى بوقت الفراغ من أجل العمل • « فالانتاجية المرتفعـــة ، والتكاليف الناتجـــة عن العمل تجعل الناس أكثر وعيا بأن الوقت هو نقود : ويبـــدو أن هذا يؤصل الاعتقاد بأن الوقت يجب أن يستغل بالكامل » [1] •

٢ ــ بزيادة معدل سرعة النمو فان الاستهلاك الحالى يتاجر به من أجل الاستهلاك المستقبلى •

٣ ــ كلما زاد معدل سرعة النمو والتغير كلما زادت صعوبة التحول فى استعمال المصادر الموجودة •

والنقطة الهامة هنا هى أن التكلفة الزائدة لكل من الأساليب السابقة

1) Tibor Scitovsky, «Paper on Welfare and Growth». Stanford, Calif. Stanford Unicersity Press, 1964. p. 219.

تساوى اضافة الى معدل النمو سوف تكون أعلى بزيادة هـذا المعدل • فتضحيات الوحدات الأولى للاستهلاك من أجل زيادة النمو لن يكون مؤلمة الى حد كبير ، ولكن التضحيات الأكبر تبدأ فى التأثير عـلى الضروريات وهنا قد تصبح مؤلمة بالفعل • وطالما أن فوائد التطور أكبر من التكاليف التى تنفق لتحقيق هذه الفوائد فان التحول الى النمو يسـير بانتظام ، ولكن عندما تكون الفوائد الهامشية لزيادة تدفق البضائـع فى المستقبل مساوية للتكاليف الهامشية لتحقيقها فان التحركات الأبعد تقلل فقط من انجازات المجتمع ، لان تكاليف زيادة معدل سرعة النمو ستكون أكبر من الفوائد الناتجة عنها •

٢ ـ التكاليف الاجتماعيـة

لقد أكد الجزء السابق من هذا الفصل على التكاليـف الاقتصادية للتغير • ومع ذلك فهناك عدد من التكاليف الاجتماعية الموجودة فى المجتمع والتى لاتظهر فى حساب التكاليف الاقتصاديـة • حيث أن تمـزق بيئة الانسان والتكاليف الاجتماعية الناتجة عن الانشطـة الانتاجية هى من ضمن القضايا الاساسية التى واجهتها الانسانية •

وفكرة التكاليف الاجتماعية هى فى الأساس مفهوم معيارى • فهى غير قابلة للقياس ، وليست مقصورة على أفراد معينين ، ومـن الصعب كذلك تحديدها بدقة • فالمصطلح يغطى جميع الخسائر المباشرة وغـير المباشرة التى يواجهها الناس من خلال الانشطة الاقتصاديـة الخاصة • وهذه الخسائر الاجتماعية يمكن ملاحظتها فى الاضرار بصحة الانسان ، أو فى اتلاف قيمة الاملاك ، أو فى استنزاف الثروة الطبيعيـة • ويمكن أن نتتبع بعض الخسائر فى الصناعات الفردية وبعض عمليـات الانتاج أو ممارسات العمل • وهناك تكاليـف اجتماعية أخرى تظهـر فى عملية التنافس داخل مؤسسات وسياسات حكومية • ويتسع تصور التكاليف

الاجتماعية ليشمل حتى « تكاليف الفرصة الاجتماعية » أى عناصر التكاليف الاجتماعية التى تأخذ شكل الفاقد أو عدم الكفاية من أى نوع .

ومن خلال مصطلحات « تكاليف الفرصة الاجتماعية » يمكن اثارة قضية « الاجيال المضحى بها » (١) . فعلى مدار التاريخ عاش الناس فى ظروف أقل بكثير مما هو ضرورى لكرامة الانسان ، وهكذا تمت التضحية بكثير من الاجيال ، فى المراحل الأولى للتحديث والنمو نجد « أن البضائع الاستهلاكية يجب أن توزع بعدالة لكى تبنى أساسا ، وتعطى سببا للتضامن . فاذا حدث ذلك فانه ان تكون هناك أجيال يضحى بها بمعنى مطلق ، ولكن بمعنى نسبى فى أن كل حرمانها الاجتماعى مستمر ... ولذلك فاننا نحتاج الى بعض المجهودات لمواجهة الحد الادنى للمطالب . ولكن التضحية الأساسية للاجيال تكمن فى التحول الراديكالى ، إما نحو الوفرة أو نحو التعاسة .

وهناك محاولات لتبرير التكاليف الاجتماعية وخاصة فى المجتمعات الاشتراكية حيث ينظر لها باعتبارها ثمن يدفع على مدى وقت قصير من أجل تحقيق مستوى عال للمعيشة على المدى الطويل ، وأداء اجتماعى كامل للنسق الاقتصادى . وسوف نحاول فيما يلى تقديم قائمة بالخسائر الاجتماعية التى تسببت عن التغير .

أ ــ السيارة

عند مناقشة التكاليف الاجتماعية للتغير نجد كثيرا من الكتاب يتحدثون عن السيارة لتصوير مايهدفون اليه . حيث يرى الكثيرون منهم

---

1) Denis Goulet, «The Cruel Choice : A New Conept in The Theory of Developments», New york, Athenceum, 1973, p. 230.

أن اختراع السيارة الخاصة هو أحد الكوارث الكبرى التى حلت بالجنس البشرى ، ويسمونها « أكبر كابوس للبشرية » (١) وبالرغم من أنها تعتبر عند البعض من أكبر الاختراعات العلمية وأهمها الا أن السيارة مسئولة فى الواقع عن عدد كبير من الوفيات وتعاسة الانسان أكثر من أى عامل واحد وخاصة فى الدول المتقدمة التى ترتفع فيها نسبة اقتناء السيارات الخاصة لدرجة أنه فى بعض الأحيان يكون لكل فرد من أفراد الأسرة سيارته الخاصة • فالسيارة هى السبب المؤدى لوفاه الناس فيما بين سن ١٥ — ٣٤ • وتزيد الوفيات الناتجة عن حوادث السيارات فى أمريكا عن كل الوفيات التى حدثت فى الحروب منذ عام ١٧٧٥ • ويستهلك انتاج وتوزيع السيارات والعناية بها ١٦٪ تقريبا من قوة العمل (٢) • ومن الواضح أن هذا لايشمل الهيئات والمؤسسات الاخرى التى تكون فى خدمتها مثل المستشفيات والبوليس والمحاكم • وبالرغم من ذلك فان أى تحسين فى التكاليف الاجتماعية المصاحبة للسيارة سوف لاتتطلب أقل من اعادة بناء الاقتصاد الامريكى الحالى •

ب — نوعيــة الحيــاه

حدث فى السنوات الاخيرة زيادات لها دلالتها فى مستوى المعيشة كما يشير الى ذلك دخل كل فرد ، واستهلاكه ، ومصروفاته ، وقدرته على الاستهلاك وغير ذلك من المؤشرات • وتظهر كثير من الجرائد والمجلات أن مستويات المعيشة أعلى من قبل • ومع ذلك فليس هناك دليل على دقة هذه الارقام ، وبالرغم من ارتفاع دخل الفرد وانفاق الطاقة بالمقارنه بالفترات السابقة • ومع ذلك فهناك انحدار فى « نوعية الحياه » حسب

---

1) Ezra Michan «The Costs of Economic Growth, New York, Praeger, 1967, p. 173.
2) Barry Weisberg, «Beyond Repair : The Ecology of Copitalism» Boston, Beacon, 1971, p. 102.

مقاييس المؤشرات المختلفة • فمصطلح « نوعية الحياة » يشير الى الحكم على الطموحات والقيم والتوقعات ، وهو مؤشر لدى الادراك الشخصى للحقيقة الاجتماعيه • ويشير«لويس هاريس»[1] فىكتابه «آلام التغير» أن « الخوف نما فى موجات متتالية خلال الستينات كعامل مرتبط بزيادة معدل الجريمة • مع العلم أنه لم يكن هناك قبل ذلك اهتمـام بالجريمة والعنف كقضية هامة فى أوائـل الستينات ومع الوقت أصبـح الناس يعيشون فى خوف حتى فى منازلهم ، كما يشير « هاريس » الى ان أغلبية النساء فى المدن الكبيرة تخشى السـير فى الشوارع • وسواء كـان هذا الخوف له ما يبرره أم لا ، فان هذا ليس هو القضية الأصليـة ،و لكن القضية هى وجود « الخوف » وهو تكلفة اجتماعية ندفعها دون أن ندرى •

وطبقا لاحدى الدراسات الحديثة بعنوان «العمل فى امريكا»[2] فان نوعية الحياة فى العمل سيئة كالمعتاد ، وبالرغم من التعليقات المتفائلة عن وجود تحسينات وأمان فى العمل ، فان الحوادث المرتبطة بالعمل تسبب وفاة أكثر من ١٥ الف شخص فى السنة ، و٩٠ الف حالـة عجز دائم ، وكذلك حوالى ٢ مليون حالة عجز مؤقت • وفى عام ١٩٦٩ كان المتعرضون لحالات التلوث الصناعى فى مكان العمل يصلون الى مليون حالة جديدة من أمراض العمل ، بين هذه الحالات ٣٦٠٠ حالة وفاة ، وحـوالى ٨٠٠ الف حالة حروق وأضرار بالرئة ، والعينين ، والتهابات الجلد ، واصابة المخ • وتمثل الحوادث المرتبطة بالعمل والامراض المتعلقة بهـا ضعف حالات الخسارة بالنسبة للانسان مما تمثله حالات الاضراب والفصل •

د ـ تناقص الاختيـارات

هناك طريقة أخرى للنظـر الى التكاليف الاجتماعيـة وهى ترك الاختيارات مفتوحـة أمام الافـراد ، فنتيجة لنقص المصـادر وسوء

1) Louis Harris, «The Anguish of Change», New York, Norton, 1973. pp. 168 - 169.

2) Work in America, Cambridge, Mass, MIT Press, 1973. P. 26.

استعمالها نجد أن الحاجة الى تنظيم النشاط الانسانى تزداد . فتنظيم الاختيارات يؤثر بدوره على أساليب الحياه ، وذلك يتضمن ما نأكل ، وأين نسكن ، وأين نسافر .

وعموما فان النمو الاقتصادى يحدث تغييرات فى الطعام . فقد تغير محتوى الطعام أثناء النمو من الاعتماد على الاطعمة النشوية الى منتجات الماشية والطيور ذات النسبة العالية من البروتين . وبالرغم من ذلك فان هذا الاتجاه قد يحد منه زيادة الضغوط على مصادر الطعام . ويحاول العلماء اليوم عن طريق الاختبارات والتجارب استنباط نوعيات جديدة من الاطعمة تساهم فى حل أزمة الطعام الحالية . وقد توصلوا بالفعل الى تحويل بذرة القطن الى دقيق وهكذا يمكن لبس القطن وأكله فى نفس الوقت . الا أن هذا الحل لن يفيد الدول النامية ، حيث أن معظم شعوب هذه الدول لايقبلون على النوعيات الجديدة من الأطعمة التى لم يألفوها من قبل وقد يستغرق تقبلهم لها وقتا طويلا . كما تحاول كثير من الدول الآن انقاص مقدار اللحم الذى يأكله الفرد فى العام نظرا لأزمة اللحوم وارتفاع اثمانها . وسواء اعتبرت نسبة الاستهلاك فى الطعام تكلفة اجتماعية أم لا فهى ثانويه ، وتكون التكلفة هنا فى صيغة تناقص الاختيارات .

واختيار المكان الذى يعيش فيه الانسان بدأ يتناقص أيضا فى العالم . فمنذ وقت قريب كانت فرص الهجرة من بلد الى آخر منتشرة ، وبالرغم من ذلك فمن الملاحظ فى السنوات الاخيرة أن الهجرة أصبحت تخضع لقيود كثيرة ، لان الدول أصبحت تهتم بالازدحام ، وتعتبر أن الهجرة غير مقبولة اقتصاديا واجتماعيا . وفى بعض المناطق داخل نفس المجتمع أصبحت عملية الهجرة الداخلية من المجتمعات الريفية الى المجتمعات الحضرية أكثر صعوبة ، وتقابل بالمقاومه والرفض . فالصين مثلا ينقل عدد من الشباب كل فترة من المجتمعات الحضرية الى الريفية فى محاولة لخلق نوع من الاستقرار فى المناطق الحضرية . وحتى فى

الولايات المتحدة فهناك باستمرار اجراءات للحد من نمو المدن الكبرى ، ولمراجعة اتجاهات الهجرة من المناطــق الريفية الى المدن ، ومــن المدن الصغيرة الى الأكبر منها • وهناك مراجعات متعددة ومتلاحقه فى مراكز اتخاذ القرار تختص « بالسياسة القومية لانتشار السكان » و « سياسة توزيع السكان » (١) •

وتحد « التكاليف الاجتماعية » أيضا من القيــود المفروضة على تحرك الانسان ، فالى أى مدى نستطيع الابتعاد عن بلادنا أو منازلنا • وقد يمتلك الانسان سيارة خاصة ومع ذلك فان ازدحام حركة المرور قد يحد من حركته ويقيدها ، كما أنه قد لايجد مكانا يضع فيه سيارته • ومن ناحية السفر بين الدول ، فهناك كثــير من البلاد تمنع الدخــول اليها أو تكون غير قادرة على تحمل التدفق الكبير الذى لايمكن منعه اذا سمحت باستقبال المسافرين • ونفس الشىء نلاحظة بالنسبة للمصايف والمناطق السياحية ، فمدينة الاسكندرية مثلا تمتلىء بطريقة تفوق اسكانياتها فى شهور الصيف ، لدرجة أن سكانها الاصليين يصبحون غــير قادرين على الحركة أو الانتقال أو المعيشة بطريقة طبيعية نتيجة لمزاحمة المصطافين لهم فى كافة المرافق والخدمات •

وهناك أيضا انخفاض فى فرص امتلاك الارض وحريــة استغلالها طبقا لرغبات الفرد • وهكذا نلاحظ حدودا وقيودا ضد كثير من رغبات الفرد المشروعة والتى كانت متاحة له من قبل نتيجة للتغير ممــا سيؤدى مستقبلا الى تناقص الاختيارات وزيادة القيود بالنسبة لحريــات الفرد المختلفة •

---

1) James Sundquist, «Dispersing Population : What America Can Learn from Europe.» Washington, D.C, Bookings, 1975, pp. 6 - 12.

د ـ الحياه الحضرية

بالرغم من أن التكاليف الاجتماعية تكون أكثر ظهورا فى مجال التغيرات التى تحدث فى البيئة نتيجة لزيادة الحجم ، والوفرة ، ومتطلبات الطاقة ، فهناك مناطق عديدة فى الحياه الاجتماعية تتأثر أيضا . ومثال ذلك أن المناطق الحضرية تواجهها نسبة عالية من الجرائم والتخريب . وهناك وجهة نظر ترى أن درجات الحضرية وأنواع الانحراف الاجتماعى يرتبطان بشدة . وهذا لايعنى التأكيد المطلق بأن مشاكل التلوث والجريمة لاتوجد سوى فى المدن ، ففى المدينة توجد أفضل الاشياء ، ر ح ذلك فالمدينة تحوى القوة فى أرقى صورها وكذلك الضعف . فالمناطق الحضرية فيها الثروات الضخمة والفقر المدقع ، والجريمة والثقافة ، والتلوث والصناعة والضوضاء والتنقل الاجتماعى ، كل هذه المظاهر تبدو فى صورة واضحة وجلية أكثر بكثير مما تظهر فى المناطق الريفية .

وقد لاحظ « برجس » [1] وآخرون أن الجريمة والمشاكل الاجتماعية ليست موزعة توزيعا عشوائيا ، وأن كل منطقة فى المدينة لها ملامحها أو خصائصها الاجتماعية المميزة . وقد قسم « برجس » المدينة الى خمسة مناطق أو حلقات ، أطلق على المنطقة الاولى أو الوسطى « منطقة العمل المركزية ، وهى مركز البيع بالتجزئة أومكان السوق ، والمخازن والى جانب ذلك توجد الفنادق والمطاعم والمسارح ، وهذه المنطقة تكون باعثا على زيادة معدلات السطو ، والسرقة ، والانحراف ، والدعارة ، والمرض العقلى ، والجسمانى ، والانتحار ، والعجز بجميع أنواعه . هذا فضلا عن ارتفاع نسبة الوفيات .

---

1) Ernest Burgess. «The Growth of the City : An Introduction to Research Project», Publications of the American Sociological Society. Vol. 18, December, 1924, pp. 85 - 97.

وتلى المنطقة السابقة منطقة عالية الكثافة يعيش فيها سكان ذوى دخول منخفضة وهم عادة مهاجرون من الريف • وخلال الوقت أصبحت هذه المناطق متميزة بارتفاع معدلات الجريمة والتفكك الاجتماعى • أما المنطقة الثالثة فتسمى أحيانا منازل العمـال ، والمنطقـة الرابعة أفضل ويسكنها غالبية الطبقة المتوسطة وهى منطقة تتميز بالمنازل العائلية عاليه المستوى والشقق الفاخرة • وتعد المنطقة الخامسة من أعلى المناطق من حيث الدخل وتسمى « الضواحى » وهى تشمل أعلى مستويات السكان من حيث درجة التعليم ، والمهن ، وأقل معدلات الجريمة •

واذا أردنا اعداد قائمة توازن بين التكاليف والفوائد بالنسبة للافراد والعائلات والمجتمع الناتجة عن تغير الظروف فى المناطق الحضرية فانهـا ستكون قائمة معقدة جدا حتى لو استطعنا تحديد كل العوامل التى يمكن قياسها • وكذلك فان حساب هذه التكاليف يكون أكثر تعقيدا نظرا لوجود بعض العوامل التى لايمكن قياسها • فلا يمكن وضع أرقام لكل التكاليف مثل الوقت الذى يفقـده ملايين العمال فى رحلاتهـم اليوميه فى وسائل المواصلات الشاقة ، ووسائل الترويح المحدودة خارج المنـزل ، وتلوث الهواء ، والضوضاء ، ونتائج الازدحام •

ولا زال علماء الاجتماع يحاولون قياس هذه التكاليف الاجتماعية، وفى هذا المجال يرى « كلاود فيشر » (1) أنه ربما تكون المتاعب الجسمية والاجتماعية لحياه المدينة طفيفة جدا أو غير واضحة ، أو روحية جـدا فى طبيعتها لدرجة أنه يكون من الصعب جـدا قياسها بأدوات العـلم الاجتماعى • وهناك كثير من المناقشات الجـديرة بالاهتمام عن هـذا الموضوع ولكنها سوف تسبب ازدواجا وتعارضا مع كثير من النظريات » فالمناقشات عن « التكاليف الاجتماعية » يمكن أن تكون عن نتائج نقص

---

1) CLaude Fischer, «The Urban Experience» New York, Harcourt, 1976, p. 201.

الروابط الاجتماعية ، وانتشار الخوف ، والانعزال ، والاحتكاك بين السكان غير المتجانسين فى المناطق الحضرية . وقد تنعكس التكاليف الاجتماعية أيضا فى الانحدار غير العادى فى السنوات الاخيرة للرخاء القومى . والنقطة الهامة هنا هى أن الانغماس المعنوى أصبح أكثر ظهورا بين سكان المدينة حيث تنخفض درجة رضائهم عن مستواهم المعيشى وكذلك تفاؤلهم بالنسبة للمستقبل (١) ومع ذلك فسواء أحب الناس ضوضاء المدينة وحياتها أم لا فان معظمهم يفضل الحياة فيها . وهناك بالطبع من يفضلون الحياه غير الحضرية ، ولكن العديدين منهم بينما يعيشون فى بيئات بسيطة فانهم مازالوا يأملون فيما تقدمه المدينة من راحة ومتعة . هذا بالاضافة الى أن حلم العودة الى الحياة السابقة الأكثر فقرا والأسلوب البسيط للحياه غير عملى بوجه عام ، فالحضرية اليوم أصبحت الامل بالنسبة للكثيرين ، وتسعى معظم الدول النامية الى تحقيق هذا الأسلوب من الحياه ، وتعمل على تحقيقه بشتى الطرق .

د — مازق التخصص العلمى

أصبحت التكاليف الاجتماعية الناشئة من التغيرات فى مجال التعليم أكثر ظهورا . فنحن نلاحظ أنه فى السنوات الاخيرة أصبح الاقبال على التعليم العالى مستمرا فى التوسع والاختلاف ، وكان له عدد كبير من النتائج ، وأهمها هو حقيقة زيادة نسبة السكان التى تلتحق بالتعليم العالى . وقد أثر هذا على مستويات الطموح والتوقعات فى مجالات كثيرة ، بما فى ذلك أساليب الحياة والقناعة المشتقه من العمل . وبالرغم من اتساع نظم التعليم وتفرعها فان الهرم الوظيفى ظل ثابتا كما هو فى مجال الاختيار التى تؤثر فى « العمل المناسب » للكل . وهذا ما نلاحظه فى مجتمعنا فبالرغم من التخصصات المختلفة والمتنوعة فان الكثيرين يعملون فى مجالات بعيدة عن تخصصهم وخاصة بالنسبة للدراسة فى

---

1) Ibid, pp. 175 - 176.

الكليات النظرية . هذا فضلا عن أن الكثيرين من المؤهلين يأملون فى وظائف فى المراتب العليا أكثر مما تتسع له الفرص الحالية فى الهرم الوظيفى . وبينما ترتفع الطموحات الوظيفية فان الامكانات الموجودة فى المجتمع صبغت أغلب الاعمال بصفات الروتينية والتكرار . وكان الثمن هو عدم الرضى الوظيفى والنفور منها .

وبالرغم من ذلك فهناك تكاليف اجتماعية أكبر تنشأ من التقليل من فائدة الطاقات البشرية الحاصلة على درجة عالية من التعليم . ويعلق على هذا كل من « برج وفريدمان » بقولهما « ان هناك درجة واضحة من التقليل من فائدة هؤلاء . وهذا التقليل لايمكن تجنبه فى مجتمع يكون فيه التركيب الوظيفى مستقرا بينما الانجازات التعليمية تتجه الى أعلى » (١) وفى دراسة أجريت فى عام ١٩٧٥ تبين أن حوالى ٤٥ فى المائة من ١٤ مليون موظف من خريجى الكليات كانوا أقل استفادة فى العمل . وبناء على المفاهيم والمستويات الموجودة فان قلة الاستفادة الآن تتراوح بين ربع ونصف الخريجين (٢) . وقد ترتب على هذه التكاليف الاجتماعية لقلة استخدام الطاقة البشرية للخريجين مظاهر عديدة منها الانحراف الوظيفى ، والسخرية السياسية ، ونوع من الضمور العقلى يصاحب ضحالة العمل المكلفين بانجازه ، وينعكس بالتالى على حياتهم وقدراتهم المختلفة . وينظر كل من « برج وفريدمان » الى المشاكل الناشئة من موقف عدم تقدير فائدة هؤلاء على أنه « تردد عقلى » ويؤكدان على عدم وجود أى تغيير ملحوظ فى أماكن العمل لكى تستوعب الأعداد المتزايدة من العاطلين خريجى الكليات . وعموما ، فان هذه الظاهرة ملحوظة جدا فى المجتمع المصرى حيث يتكدس خريجو الكليات فى المكاتب والمؤسسات ، دون أن يكلفوا بأى عمل فعلى أو أى انجاز خلاق .

---

1) Ivar Berg, and Marcia Freedman, «The American work Place : Illusions and Realities.» Change, November, 1977, p. 30.

2) Ibid. p. 26.

وحتى هؤلاء العاملين المتخرجين من الكليات الـذين تنخفض قيمة عملهم وفائدتهم فانهم يواجهون بمجموعـة من المصاعب والمعضلات . وعموما فان التعليم الزائد يرتبط بزيادة فى التخصص . فالعلماء بوجه خاص سواء كانوا يعملون فى مؤسسات ، أو هيئات بحـث ، أو جامعات فاننا نجدهم يخضعون لضغوط متزايدة على وقتهم وعلى قدرتهم الذاتية فيما يتعلق بالانتاج العلمى سواء فى الابحاث النظرية أو التطبيقية » (١) وربما أكثر من أى مهنة أخرى فان الاكاديمى يميل الى أن يكـون أكثر انتشارا ، وأن تكون قدراته مستقطبة جدا فى مجال تخصصه لدرجة أنها لاتستجيب تماما لمظاهر الحياه الأخرى ، لانها عقلية وجمالية أو انفعالية ومثل الجميع أيضا فان أغلبنا اليوم قد يبحث عن البهجة ولكنه لايستطيع. ان الأكاديمى المعاصر يتوقع منه أن يشارك فى نطاق تخصصه بنوع من البحث العلمى المنشور كشرط للترقية الى الدرجة العلمية الأعلى ، ونتيجة لذلك فانه ينظر الى عمله الذى ينشره كأنه بخيل يعد الذهب الذى يملكه ، فهى مطالب معرفته وفـوق كل ذلك فـان شهاداته العلميـة هى التى تتحرك » (٢) .

ويقوى الضغط من أجل البحث والنشر عملية التخصص الضيق ، وبالتالى تنحصر تلك المعارف فى عدد قليل من الناس ، الذين لايعرفـون سوى أجزاء محدودة من العمل الذى يؤدونه ، بحيث لاتكون لديهـم القدرة على الحكم على عمل زملائهم ومن الملاحظ أن رؤساء تحرير الجرائد العلمية يواجهون صعوبة فى ايجاد متخصصين يقيمون ويراجعون العمل الذى يقومون بنشره . وليس هناك من يستطيع أن يقرأ أكثـر من جزء محدود ، أو أجزاء من انتاج هذه المجلات العلمية ، وخاصـة فى مجال عمله . ويذكر « ميشان » أن الجريدة العلمية يقرؤها ١٫٣ من الناس ، بينما هناك الكثير من الجرائد التى يقرؤها عديد من الناس ، وقليل منها

---

1) Mishan, op. cit, p. 139.
2) Ibid, pp. 140 - 141.

يقرؤها المئات ، وعدد آخر لايقرؤه الا مؤلفيه ، اذا استبعدنا المحررين ، ثم يضيف « ان الانسان قد يعجب لما يكون عليه الموقف عنـدما تنهار الحضارة الحالية تحت ثقل المعارف غير المترابطة ، والتى تتزايد بسرعة فى الانهيار (١) فان الكثيرين سوف يوافقون على ملاحظات «ميشان»ومثال ذلك أنه فى علم الاجتماع والمجالات المتصلة به توجد حوالى ٣٥٠ مجله باللغة الانجليزية لها اتجاهات متعددة (٢) ، وكل منها تظهر تقريبا أربعة مرات فى السنة ، وتحتوى على عدة مقالات سنويا • قد تصل الى حوالى ١٦٫٨٠٠ مقال فى السنة ، أى حوالى ٤٦ مقال يوميا ، ومن الواضح أن ملاحظة « ميشان » ليست غريبة أو غير معقولة ، فحتى طلبة الدراسات العليا الذين يعدون للدكتوراه قد يجدون فى قراءة هذه المقالات واستيعابها عملا بعيدا عن قدرتهم • ويكتفون بقراءة الأجزاء التى تدخل فى صميم تخصصهم فقط •

احتمالات التغير فى عالم الغـــد :

ليس هناك شك فى ان تقدم اى مجتمع وقدرته على مواجهة مشاكلة المختلفة سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية رهين بمدى قدرة هذا المجتمع على تصور المستقبل والاعداد والتخطيط للقائه • ذلك أن الفاصل الزمنى بين الحاضر والمستقبل أوشك أن يكون فاصلا افتراضيا • وما لم يضع الانسان احدى قدمية فى المستقبل فـان قدرته علـى اجتياز « صدمه المستقبل » تصبح أمرا محفوفا بالمخاطر •

وفى هذا الجزء من الكتاب نحاول أن نقدم تصور « الفين توفلر » عما سيحدث للناس عندما تغمرهم أمواج التغير ، وهل يستطيع الناس

---

1) Ibid, p. 140.
2) Marvin Sussman (ed.), Author's Guide to Journals in Sociology and Related Fields, New York, Howorth Press, 1976.

الترافق معها -أم سيفشلون واذا كان المجتمع الغربى قد عاش خلال القرون الثلاثة الماضية عاصفة من التغير فان عواصف أشد وأعتى من التغير تكتسح المجتمعات صناعيا اليوم • وهذا التغير المتلاحق لا يطرق أبواب الصناعات فحسب ، بل يتغلغل فى أعماق حياتنا الشخصية • ويصيبنا بمرض نفسى جديد عنيف مدمر ، يمكن أن نسميه « صدمة المستقبل » •

ولعل أروع ما قيل فى هذا التحول ما قاله الاقتصادى الكبير « كينيث بولدنج » وهو : « ان عالم اليوم يختلف عن العالم الذى ولدت فيه بمقدار اختلاف هذا الاخير عن عالم يوليوس قيصر • لقد ولدت فى منتصف التاريخ البشرى ، لان ما حدث منذ ولدت حتى الان ، يماثل تقريبا كل ما حدث قبل أن أولد » [1] •

ويمكن ان نشرح قول « بولدنج » بالطريقة التالية : اننا لو قسمنا الخمسين الف سنة الاخيرة من عمر الانسان الى أعمار ، طول كل منها ٦٢ سنه ، لكان ناتج القسمة حوالى (٨٠٠) عمر ، أنفق الانسان منها (٦٥٠) عمر داخل الكهوف • وخلال الاعمار السبعين الاخيرة فقط • أمكن التواصل بين عمر وعمر عن طريق الكتابة ، ولم يتم لجماهير الناس أن تطلع على الكلمة المطبوعة الا خلال الاعمار الستة الاخيرة فقط •

ولم تتهيأ للانسان أية وسيلة دقيقة لقياس الوقت الا فى الأعمار الاربعة الاخيرة منها • ولم يعرف المحرك الكهربائى قبل العمرين الاخيرين • أما الاغلبية الساحقة من الأدوات والاجهزة الموجودة حاليا فلم تظهر الى الوجود الا خلال العمر الحالى فقط ،اى العمر رقم ٨٠٠• وهكذا نرى أن العمر رقم (٨٠٠) يمثل نقطة تحول خطير فى تاريخ البشرية ، وافتراقا واضحا وحادا فى خبرة الانسان الماضية •

---

1) Elvin Toffler, op. cit.

أ — تحول فى علاقة الانسان بالموارد الطبيعية :

لقد حدث خلال العمر الحالى (العمر رقم ٨٠٠) انقلاب جذرى فى علاقة الانسان بالموارد .ويبدو هذا أوضح ما يكون فى مجالات التنمية الاقتصادية : ففى هذا العمر ولأول مـرة فى تاريخ البشريـة ، أخذت الزراعة تفقد سيطرتها فى مجتمع بعد آخر ونحن نجد اليوم أنه فى اثنتى عشرة دولة من الدول المتقدمة تقل نسبة القوى العاملة فى الزراعة عـن ١٥٪ من مجموع القوى العاملة . اما فى أمريكا فتقل هذه النسبة عن ٦٪ بالرغم من أن مزارعها تطعم ٢٠٠ مليون امريكى بالاضافـة الى ١٦٠ مليون آخرين فى انحـاء متفرقة من العـالم . ومازالت هـذه النسبة تتضاءل .

ب — عصر ما فوق التصنيع :

اذا كانت الزراعة هى أول مراحل التنمية الاقتصادية ، واذا كـان التصنيع هو المرحلة الثانية ، فاننا اليوم نشهد مرحلة ثالثة أخطر وأجرأ وهى مرحلة عصر ما فوق التصنيع « ان المجتمع المعاصر لـم يكتف فقط بالتخلص من سيطرة الزراعة بل تخلص أيضا من سيطرة العمل اليدوى . وقد أصبحنا نشهد اليوم تناقص عدد من اصطلح على تسميتهم بذوى الياقات الزرقاء (وهم عمال المصانع والحرفيون) وتسير فى هذا الاتجاه الآن معظم الدول المتقدمة تكنولوجيا .

ان المجتمعات البشرية التى سادت فيها الزراعة مدة عشرة الآف سنه ، لم تحتاج الا لقرن واحد أو لقرنين لتحقيق تفوق الصناعة ، وهى اليوم تشهد عصرا جديدا هو « عصر ما فوق التصنيع » .

د — تلاشى الحـدود والمسافات :

يختلف عصرنا الحاضر عن الازمنة الماضية من حيث تلاشى الحدود

والمسافات حيث أصبح لكل حدث معاصر انعكاساته الفورية فى العالم أجمع فقيام حرب فى أى مكان فى العالم مثلا يفرض تعديلات فى الخطوط السياسية فى « واشنطن » و « موسكو » ويثير مظاهرات فى« استكهلم»، ويؤثر فى المعاملات المالية فى زيورخ ، ويحدث تحركات دبلوماسية فى دول العالم الثالث وهكذا ..

ان الحدث نفسه كان يحدث فى الماضى ، ولكنه كان يظل منحصرا داخل مجتمع واحد ، أو مجموعة من المجتمعات المتجاورة ، بحيث كانت تمر اجيال ، واحيانا قرون قبل أن يتخطى أى أثر من آثاره حدود مجتمعاتها . أما الآن ونتيجة للتقدم المذهل فى وسائل الاتصال فيظهر مايسمى « بالتزامن الحدثى » حيث يعلم الناس وفى جميع أنحاء العالم بالحدث فى نفس لحظة حدوثه .

د — العجز عن مجاراة التطورات الحديثة :

وتعانى المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا من ارتفاع غير عادى فى سرعة التغير ونحن نلاحظ أن كثيرا من الناس فى تخصصات مختلفة اصبحوا يشكون من أنهم لايستطيعون مواكبه آخر التطورات فى مجالات اختصاصهم ، وكثير من الناس — أيضا اخذت تعتريهم حالة من القلق والشك فى أن التغير أصبح خارج نطاق التحكم وهناك حقيقة مزعجه وهى أن الغالبية العظمى من الناس ، ومنهم المتعلمون والمثقفون ، يرون أن فكرة التغير فكرة مزعجة ، ومن ثم يحاولون انكار وجودها . ويعلق الروائى والعالم الانجليزى س.ب. سنو على هذه الاوضاع بقوله « كان التغير الاجتماعى قبل القرن الحالى بطيئا لدرجة أنه كان يمر عمر كامل دون أن يلحظ » . اما معدل التغير فى أيامنا فقد ارتفع لدرجة ان الخيال لم يعد قادرا على ملاحقته . ويقول « وارين بينيس » الاخصائى فى علم النفس الاجتماعى : « لقد انفتح الصمام خلال السنوات الاخيرة . انه لا المبالغة ولا الافراط بقادرة على أن تصف مدى التغير وسرعته والواقع أن المبالغات وحدها هى التى تبدو قريبة من الواقع » .

هـ ـ سرعة التوسع فى المدن :

من الممكن أن نفسر رأى « بينيس » فيما طرأ على عملية عمارة الانسان خلال الفى السنة الماضية قد استهلك مثله خلال القرن الاخير المدن عرفها العالم ، ففى عام ١٨٥٠ ـ لم يكن هناك سوى أربع مدن تعداد سكانها المليون فأكثر • وفى عام ١٩٠٠ أصبح عددها تسع عشرة ، وبلغ عددها ١٤١ مدينة فى عام ١٩٦٠ ويتزايد سكان المدن فى وقتنا الحاضر بمعدل ٦ر٥٪ سنويا •

وهذا يفسر لماذا شرع مخططو المدن الرئيسية فى وضع تصميمات لمدن تحت الارض ولماذا وضع منهدس يابانى تصميما لمدينة تبنى على دعامات داخل المحيط •

و ـ سرعة استهلاك الطاقة :

كى نتصور استهلاك الانسان للطاقة ، يمكن أن نستخدم حرف (ك) كرمز للطاقة المستمدة من احراق (٣٣) مليون طن من الفحم ، وعندها سنجد أن متوسط الاستهلاك العالمى خلال الثمانية عشر قرنا ونصف القرن التالية لميلاد المسيح كان أقل من نصف (ك) فى القرن الواحد ، وفى عام ١٨٥٠ ارتفع المعدل الى (ك) واحدة فى كل قرن ، ووصل المعدل اليوم الى (١٠ ك) فى كل قرن • وهذا يعنى أن نصف الطاقة التى استهلكها الانسان خلال الفى السنة الماضية قد استهلاك مثله خلال القرن الاخير وحده •

وهناك مثال آخر مثير على هذه النزعة التسارعية ، نجده فى النمو الاقتصادى المتسارع للامم التى تتجه نحو مجتمع « ما فوق التصنيع » حيث النسبة السنوية لزيادة الانتاج فيها هائلة جدا ، كما أن معدل الزيادة نفسه فى تزايد مستمر • فاذا لاحظنا الزيادة الكلية فى استهلاك الطاقة فى فرنسا مثلا خلال تسعة وعشرين عاما تبدأ بعام ١٩١٠ نجد أنها لم تتعد

٥٪ عن ذى قبل ، ولكن هذه الزيادة بلغت ٢٢٠٪ خلال سبعة عشر عاما (١٩٤٨ — ١٩٦٥) • وهكذا نرى أن الزمن اللازم لمضاعفة الانتاج يتقلص باستمرار نتيجة لاتجاه معدلات الزيادة السنوية الى الارتفاع •

ان مثل هذا التغيير فى النسبة بين القديم والجديد ، له تأثيراته العنيفة فى العادات المعتقدات • ولم يحدث فيما مضى من نتائج البشرية أن تغيرت مثل هذه النسبة ، وبمثل هذه الجذرية فى مثل هده الفترة القصيرة من الزمن •

ز — التكنولوجيا وتسارع التغيرات :

وراء كل هذه الحقائق التى ذكرناها تكمن آلة التغيير ، وهى التكنولوجيا ولايعنى هذا أن التكنولوجيا هى المنبع الوحيد للتغير فى المجتمع ، ولكنه يعنى أنها قوة دفع كبرى له • واستخدام التكنولوجيا يجعل من الممكن استخدام تكنولوجيا أكثر تقدما ، فهى تغذى نفسها وتنميها • فالتكنولوجيا تمر بثلاث مراحل مترابطة ، فهناك أولا « الفكرة » ثم « التطبيق » ثم الانتشار فى المجتمع • وعندما تتم العملية وتكتمل الدائرة فانها تساعد على توليد أفكار جديدة ، وواضح فى عصرنا الحاضر أن الفترة بين كل مرحلة من المراحل الثلاث قد اختصرت بشكل واضح ، وأصبحت الافكار الجديدة تدخل مجال التطبيق أسرع بكثير مما كان يحدث فى السابق ، وتمثل هذه الظاهرة أحد الفروق الاساسية بيننا وبين أسلافنا • انها ظاهرة مدهشة ، والمدهش أيضا أن نتذكر ان ٩٠٪ ممن أنجبت البشرية من العلماء يعيشون الآن •

وفى الماضى كان ينقضى زمن طويل بين الفكرة والتطبيق ، والتقدم فى وسائل النقل يعطينا صورة واضحة لهذا التسارع ، ومثال ذلك أنه فى عام ٦٠٠٠ قبل الميلاد كان الجمل أسرع وسيلة نقل للمدى البعيد عند الانسان ، فقد كان يسير بمعدل ثمانية أميال فى الساعة وحوالى ١٦٠٠ ميلادية اخترع الانسان العربة ذات العجلات ، فارتفع معدل السرعة الى

حوالى عشرين ميلا فى الساعة ، وفى الثمانينات من القرن الماضى وبفضل القاطرة البخارية المتطورة استطاع الانسان أن يصل الى سرعة قدرها مائة ميل فى الساعة . وهكذا احتاج الانسان الى ملايين السنين ليصل الى هذا الرقم فى سرعة الانتقال . ولكنه احتاج الى ثمانيـة وخمسين عاما فقط ليصل الى أربعة أمثال مثل هذه السرعة ، وذلك حين استطاع فى عام ١٩٣٨م أن يطير بسرعة ٤٠٠ ميل فى الساعة ثم احتاج الى عشرين عاما فقط ليضاعفها . وفى الستينات من هذا القرن وصلت سرعة الطـائرات الصاروخية الى ٤٠٠ ميل فى الساعة . واستطاع الانسان أن يدور حول الارض فى كبسولات الفضاء بسرعة ١٨٫٠٠٠ ميل فى الساعة .

فاذا كانت التكنولوجيا بهذا المفهوم هى المحرك الضخم للتغير ، فان المعرفة هى وقود هذا المحرك . فمنذ عشرة الاف سنة ومعـدل اختزان الانسان للمعرفة النافعة بنفسه وبالكون فى تزايد . ثم قفز هذا المعدل قفزة عالية باختراع الكتابة ولكنه مع ذلك ظل منخفضا قرونـا عديدة . وحقق الانسان قفزة عظيمة تالية فى القرن الخامس عشر عندما اخترع أول ماكينة طباعة وبعد أربعـة قرون ونصف قرن أى فى عـام ١٩٥٠ م أصبح لايحتاج الى أكثر من عشرة شهور بمعدلات عام ١٩٥٠ وبعد عشرة أعوام : أى فى عام ١٩٦٠ أصبح من الممكن اتمام عمل مائة عام فى سبعة أشهر ونصف وحوالى عام ١٩٥٠ دخل الكمبيوتر الميدان بقدراته الفائقة التى لم يسبق لها مثيل .

لقد سبق أن قال فرانسيس بيكون « المعرفة هى القوة » ونستطيع نحن أن نقول اليوم « المعرفة هى التغير » فالسرعـة فى تحصيل المعرفة التى تغذى وتدفع محرك التكنولوجيا يعنى السرعة فى التغيير . وليس هناك شك فى أن السرعة فى التغيير تغير من البيئة الفكرية للانسان . وكذلك من طريقة تفكيره ومن نظرته الى العالم . وهذا التغير السريـع الذى يجرى فى العالم من حولنا يزعزع بالضرورة من توازننا الداخلى ويقول

« كريستوفرر ايت » عندما تتغير الاشياء من حولك ، فان تغـيرا موازيا يحدث فى داخلك » •

ومن أجل البقاء ، ومن أجـل ان نتفادى ما سميناه فى البداية « صدمة المستقبل » لابد آن يصبح الفرد أكثر قدرة على التكيف منه فى أى وقت مضى • ولابد ان يبحث عن مسالك جديدة تماما توصله الى بر الامان ، لأن كل الجذور القديمة الثابتة تهتز الآن كلها بقوه تحت التاثير العاصف لدفعة التغيير السريعة المتسارعة • وهو لن يستطيع أن يفعل ذلك ، ما لم يفهم بالتفصيل كيف تتغلغل تأثيرات التسارع فى حياته الخاصة ، وكيف تتسلل الى سلوكه وتغير من قيمة وجوده •

الفصل الخامس

مجـــالات التغيـــير

مقدمـــة

أولا : الاسرة

أ ــ وظائف الأسرة المتغيرة

ب ــ بناء الأسرة المتغير

حـ ــ الطـــلاق

د ــ عمـــل المـــرأة

هـ ــ التنشئة الاجتماعية

ثانيا : السكان

نتائج معدلات النمو السريع

التحول الديموجرافى

أ ــ الاخصاب والخصوبة

ب ــ الوفيـــات

جـ ــ الهجـــرة

الزيادة الحديثة فى سكان العالم

ثانيا : التعليم

أ ــ وظائف التعليم

ب ــ التعليم وتشكيل الشخصية الاجتماعية

حـ ــ التعليم والتكامل الاجتماعى

د ــ التعليم العالى فى المجتمعات الصناعية

رابعـــا : الاقتصاد

أ ــ الانتـــاج

ب ــ توزيـــع

حـ ــ الاستهـــلاك

الفصل الخامس
مجـــــالات التغـــير

مقدمـــــة

يتفق المحللون الاجتماعيون على ملاحظة عامة مؤداها أن هناك تغيرات اجتماعية تحدث الآن بسرعة متزايدة لم يسبق لها مثيل فى أى وقت مضى ، وعموما فان التغير لايترك بعيدا عن متناوله أى مجال من مجالات الحياة سواء على مستوى التغـيرات الأساسية أو البنائية أو التغيرات الصغيرة التى لاتحصى ولا تعد فى حياتنا اليوميـــة أو حياة الجماعات الاجتماعية المختلفة •

وسوف نحاول فى هذا الفصل الاشـــارة الى بعض المجالات أو الميادين التى تكون عرضة للتغير ومتقبلة له سواء على مستوى المجتمع المصرى أو على مستوى العالم والتى كانت السبب فى حـدوث تغيرات اجتماعية متتالية • وقد يرى القارىء أنه يمكن اضافة مجالات أخرى يرى أنها أكثر أهمية ، أو حذف بعض المجالات التى سوف نستعرضها، الا أننا على أية حال نرى أن هذه التغيرات التى ســوف نشير اليها هنا يجب أن تتضمنها أى قائمة تستعرض مجالات التغير الكبرى •

وسوف نهتم فى تحليلنا بمجموعة من التغيرات الهامة التى تحدث فى بعض المجالات الملموسة مثل الاسرة والسكان ، والتربية والاقتصاد كنماذج فقط لأهم المجالات • والتغيرات التى تحدث فى هذه المجالات مترابطة ، ويؤثر كل منها فى الآخر كما يؤثر على المجتمع ككل •

أولا : الأسرة

ان اتجاه التغير فى العالم المعاصر الذى يعزى الى الاسرة مثل معدلات الطلاق ، وسن الزواج يختلف من مجتمع لآخر ، كما يبدو أيضا أن جميع المجتمعات تتحرك نحو نمط « الأسرة النــواة » التى تتكون

من الوالدين وأبنائهما الصغـــار فقط • وقد أدى ظهور هـــذا الشكل للأسرة الى انهيار نمـــط الأسرة الممتدة • وقد أشار « وليـــم جود » الى عدد من التغيرات الهامة التى حدثت فى أنماط الاسرة فى جميع أنحاء العالم • وتتضمن هذه التغيرات زيادة الحرية فى « الاختيار الزواجى »، كما أصبح الزوجان الشبان أكثر استقلالا من الناحيـــة الاقتصادية ، وارتفع سن الزواج بالنسبة للنساء ، تناقص فارق السن بين الزوجين ، ويتناقص معدل الزواج بين الأقارب ، وخاصة أبناء العمومة أى الأقارب المباشرين ، كما اختفى فى كثـــير من المجتمعات نظام المهـــر أو « ثمن العروس » ، وتزايدت نسبة النساء العاملات ، وبالرغم من تزايد معدلات الطلاق على مستوى العالم ، فان نسبته تختلف من مجتمع لآخر ، كما زادت نسبة الزواج الثـــانى للذين انتهى زواجهم بالطـــلاق أو بموت القرين • وهذه التغيرات فى أنماط الأسرة من حيث البنـــاء أو الوظائف ترتبط بدون شك بالنمو السريع للمجتمع فى مجالات أخـــرى عديدة مثل التصنيع والحضرية والتحديث الخ ••

أ — وظائف الاسرة المتغيرة :

هناك شبه اجماع بين دارسى الأسرة أنها كانت مكتفيـــة بذاتها وخاصة فى المجتمعات البدائية والتقليدية ، ذلك أنه الى جانب الوظائف الاقتصادية ذات الطابع الانتاجى ، فانها كانت تنهض بوظائف اجتماعية متعددة مثل التنشئة الاجتماعية ، ومنـــح المكانة ، والتوجيـــه الدينى ، والترفيه والحماية ، والتعاطف والمحبة وقد أرجع هؤلاء الدارســون تغير هذه الوظائف وانتقال بعضهـــا الى مؤسسات ومنظمات خـــارج نطاق الأسرة مثل الثورة الصناعية ، والتقـــدم التكنولوجى ، ونشـــأة المدن بشكلها الحالى والتحديث وما صاحب ذلك من طابع مختلف للحياة لـــم تألفه المجتمعات القديمة ، وربما كان هـــذا هو السبب فى أن كثيرا من علماء الاجتماع المعاصرين يرون أن استمرار التغير فى هـــذه المجالات ، سيؤدى الى فقدان أكثر لوظائف الأسرة ، مما قد يؤدى الى تحلل بنائها .

وربما انهيارها التام ، وهنــاك كثير من الدراســات الامبيريقية التى ساقت وراء هذا التوجيه النظرى ، ووصلت الى نتائج تؤيد ما سبق ان ذكرناه . لكن المناقشات النظرية التى تزايدت فى السنوات الأخيرة فى ميدان علم الاجتماع فى محاولة لبنــاء نظرية متكاملة تصلــح لتوجيه البحوث الميدانية قد فرضت مراجعة المادة الامبيريقية المتجمعة فى مختلف الميادين ومنها ميدان الأسرة ، ولذلك وجد « بارسونز » أن التفكك الذى مال الى تأكيده غيره من العلماء والذى أعتبر متضمنا أساسيــا فى بناء « الأسرة النواة » ليس الا علامة على تكيف هذه الأسرة لمتطلبات التغير المعاصر ، وأن الأسرة ستظل قادرة على استيعاب المعوقــات الوظيفية باستمرار وهكذا ينتهى « بارســـونز » الى القول بــأن الاسرة نسق اجتماعى يميل الى التوازن باستمرار (١) .

ومع ذلك يوجه كثير من النقـــد الى الاسرة الحضرية المعــاصرة لفقدها كثيرا من وظائفها التقليدية التى كانت تقوم بها فى الماضى ، وبتتبع التاريخ المكتوب نجد أن الأسرة فى العصور السابقة كانت هى النظام الاجتماعى الرئيسى . وقد صاحب التغيرات التى تعرضت لها المجتمعات مثل : زيادة التخصص وتعقد المجتمع الحديث تغيرات فى الوظائف التى كانت الأسرة تقوم بها من قبل ، الأمر الذى أدى الى انتقال عدد كبير منها الى مؤسسات أو تنظيمات خارج نطاق الأسرة .

وقد أكد « وليم اجبرن » (٢) أن مأســاة الاسرة الحديثة تكمن فى فقدانها لأغلب الوظائف التى كانت تقوم بها وهى : —

١ — **الوظيفة الاقتصادية :** حيث كانت الأسرة فى الماضى وحدة اقتصادية

---

1) Talcott Parsons., «The Social Structure of the Family» in Ruth Anshen (ed.). **The Family : Its Function and Destiny**, Haper and Brothers, New York, 1959.

2) William Ogburn «Technology and the Changing Family» Hougton Mifflin, Boston, 1955.

مكتفية ذاتيا لانها تقوم باستهلاك ما تنتجــه ، وبالتالى لم تكن هنـــاك حاجة للبنوك أو المصانع أو المتاجر .

٢ ـ وظيفة منح المكانة : كان أعضاء الاسرة يستخدمون مكانتهم الاجتماعية من مكانة أسرهم فى الوقت الــذى كان اسم الاسرة يحظى بأهمية وقيمة كبرى .

٣ ـ الوظيفة التعليمية كانت الاسرة تقوم بتعليم أفرادها ولا يعنى ذلك تعليم القراءة والكتابة وانما يعنى الحرفـــة أو الصنعة ، أو الزراعة ، والتربية البدنية ، والشئون المنزليه الخ ..

٤ ـ وظيفة الحماية : كانت الأسرة أيضـــا مسئولة عن حمـــاية أعضائها ، فالأب لايمنح لأسرته الحماية الجسمائية فقط وانما يمنحها أيضا الحماية الاقتصادية والنفسية وكذلك يفعل الأبناء لآبائهم عنــدما يتقدم بهم السن .

٥ ـ الوظيفة الدينية : مثل صلاة الشكر عند تناول الطعـــام ، وصلوات الاسرة الجماعية ، وقراءة الكتب المقدسة ، وممارسة الطقوس الدينية .

٦ ـ الوظائف الترفيهي : كانت الوظيفة الترفيهية محصورة أيضا فى الأسرة أو بين عدة أسر وليس فى مراكز خارجية مثــل المدرسة . أو المجتمع المحلى ، أو وسائل الترفيه المختلفة .

ونتيجة لفقدان الأسرة لهذه الوظائف فان « اجبرن » يرى أنهـــا أصبحت مفككة والدليل علـــى ذلك هو زيادة عــدد الأسر المنهارة بسبب الطلاق . وقد تعرضت آراء « اجبرن » لكثير من النقد حيث يرى بعض علماء الاجتماع أنه من الخطأ التأكيد على المحتوى التقليــدى والشكل المعين للوظائف بدلا من النظر اليها باعتبارها وظائف تقلص أداؤها بالنسبة

للأسرة . وليس هناك شك فى أن الأسرة فقدت بالفعل بعض وظائفها التقليدية . الا أن هذا الفقدان ينطوى على تغير فى الشكل والمضمون . ومثال ذلك أن الأسرة فى المجتمعات الصناعية المتقدمة لم تعد وحدة اقتصادية منتجة فى المحل الأول ، ولكنها أصبحت وحدة اقتصادية مستهلكة . فهل استهلاك الوحدة الأسرية أقل أهمية كوظيفة اقتصادية فى المجتمع الحديث عما كان عليه فى الماضى كوحدة منتجة ، والى أى مدى يستطيع الاقتصاد الحالى أن يستمر اذا لم يعتمد على الأسرة من حيث هى كذلك فى « إستهلاك » الملابس والمنازل والعربات ، والمنتجات الغذائية ، والاثاث الخ ...

ويمكن تقديم الدليل بنفس الطريقة على أن الوظائف الأخرى التى تدعى نظرية « أجبرن » أن الاسرة فقدتها مثل التعليم ، والدين ، والحماية . فاذا كانت الأسرة قد فقدت بالفعل هذه الوظائف المشار اليها فلماذا اذن نجد أن الأبناء يعتنقون المعتقدات الدينية والسياسية ، وكذلك المعتقدات الطبقيه المشابهة أو المتماثلة مع تلك التى يعتنقها آباؤهم ؟ ولماذا نرجع أكثر الانحرافات وارتكاب الجرائم الى الأسرة وليس الى دور العبادة ؟ كذلك اذا كانت الأسرة قد فقدت بالفعل وظيفتها التعليمية فلماذا نعتبرها بوجه عام والوالدين بوجه خاص ، المفتاح الذى يحدد مدى تقدم الطفل فى المدرسة ؟

الا أن النظرية البنائية التى قدمها « بارسونز » لم تفسر التغيرات الحديثة فى أنماط الأسره على أنها انهيار أو تفكك ، بل على العكس من ذلك تماما نجد أن بارسونز كان واضحا عندما أكد أن «عملية التمايز » تؤدى الى تزايد المؤسسات والهيئات والوحدات التى تقوم بوظائف محددة ، ومعنى هذا أن الوظائف التى كانت تقوم بها فى الماضى وحدة واحدة (الأسرة) أصبحت تضطلع بها وحدات عديدة متخصصة بينما تقتصر الوحدة الأصلية على وظائف محدودة ، ويشير « بارسونز » الى أن التغيرات التى تحدث فى الأسرة تنطوى على مكاسب كما تنطوى

على خسائر ، والوحدة التى تفقد بعض أو كل وظائفها ، وتصبح أكثر حرية فى تبنى وظائف أخرى : « عندما تكون وظيفتـان مستغرقتان فى نفس البناء ثم يحدث أن يقوم بأدائها بناءان مختلفان فانهمـا يؤديان بدقة وعناية أكثر ، وبدرجة أكبر من الحرية . واذن فتحرر الاسرة من الاعمال العديدة التى كانت تقوم بها فى الماضى يجعلها قادرة عـلى أداء الأعمال المتبقية لها بطريقة أكثر نجاحا ، كما تصبح فى مركز يسمح لها بتلبية الاحتياجات العاطفية والشخصية لكل من البالغين والأطفال ، ويؤكد « بارسونز » أن الأسرة أصبحت أكثر تخصصا عما كانت عليه من قبل ، ولكن هذا لايعنى أنها أصبحت أقل أهمية لان المجتمع أصبح يعتمد عليها أكثر فى أداء عديد من وظائفه المختلفة (١) .

هذا ويبرز « وليام جود » أهميـة الوظائف الوسيطـة للاسرة ، وجدير بالذكر هنا أن فكرة الاسـرة كوسيط (صاقل — قامع — مؤثر) بين الفرد والمجتمع الكبير قد ظهرت ضمنيـا فى كتب الأسرة منـذ مدة طويلة الا أن « جود » هو أول من وضح الأهمية الاستراتيجية للاسرة وخاصة من خلال وظائفها الوسيطة (٢) .

ويتحدث « هوبارت » أيضا عن فقدان الأسرة الامريكية لوظائفها ويركز على توفير الصحبة والأمن العاطفى باعتبارها الوظائف الأساسية والعامل الأهم وراء قيام أسرة اليوم (٣) .

---

1) T. Parsons and Bales. «The Family, Soaialization and Interaction Process», The Free Press, 1955. PP. 10 - 11.

2) W. Goode, «The Family», Prentice - Hall Inc., Englewood Cliff, New Jersey, 1964.

3) Charles Hobart, «Commitement, Value Conflict and the Future of the American Family. «Marriage and Family Living, 24 November, 1963 pp. 405 - 412.

وعموما . فان وظائف الأسرة المعاصرة قد تغيرت الى حد كبير ومع ذلك فكل فقدان لبعض الوظائف استجابه للتغيرات الجارية يدعم من وحدة الأسرة وتكاملها ويزيد من قدرتها على مواجهة متطلبات التنشئة الاجتماعية ، وتنمية شخصية الأطفال . وعموما تحدد المراجع العلمية وظائف الأسرة المعاصرة فيما يلى :

١ — انجاب الأطفال

٢ — المحافظة الجسدية لاعضاء الأسرة .

٣ — منح المكانة الاجتماعية للاطفال والبالغين .

٤ — التنشئة الاجتماعية .

٥ — الضبط الاجتماعى .

هذا بالاضافة الى وظيفة جديدة لم يهتم بها التحليل السوسيولوجي من قبل وهى « الوظيفة العاطفيــة » ونعنى بها التفاعل العميــق بين الزوجين وبين الأباء والأبناء فى منزل مستقل ممــا يخلق وحــدة أولية صغيرة تكون المصدر الرئيسى للاشباع العاطفى لجميع أعضاء الأسرة ... وتعد هذه الوظيفة من الملامح المميزة للاسرة الحضرية الحديثة بعكس الحال فى الاسرة الممتدة فى المجتمعات الزراعية ، حيث يتم التفاعل بين حلقة كبيرة من الأقارب الذين يعيشــون متجاورين .

وقد ترتب على هذه الوظيفة الجديدة أن أصبحــت الأسرة النواه تحمل عبئا ثقيلا ، لانها أصبحت المصدر الوحيد الــذى يستمد منــه الأفراد الحب والعاطفة ، ولهذا لايريد الافراد البالغــين الزواج فقط وانما يريدون الزواج السعيد (١) .

1) James B. Mckee, «Introduction to Sociology», Holt Rinehart and Winston, Inc. N.Y., 1969. PP. 352 - 353.

ب ـ بناء لأسرة المتغير

١ ـ هناك كثير من علماء الاجتماع يرون أن التغير الذى يتعرض له المجتمع كان له أثره الواضح على بناء الأسرة التى تمثل وحدة بناء المجتمع . فبناء الأسرة الكبير أخذ فى التلاشى فى معظم مجتمعات العالم بما فى ذلك المجتمع المصرى . وأصبحت الأسرة الصغيرة المسماه « بالنواه » من السمات المميزة للأسرة فى عالم اليوم . وهذه الأسرة المعاصرة تنحصر التزاماتها فى الزوجين وأولادهما الصغار فقط . كما أصبحت هذه الأسرة تحدد علاقاتها بكل من أسرتى الزوج والزوجة ، وصار الصغار يقضون معظم وقتهم بعيدا عن الأسرة سواء كانوا فى المدرسة أو أماكن اللعب ، الى جانب أن دخل الأسرة أخذ يتزايد تأثيرة فى تحديد حجمها ، وبالرغم من زيادة معدلات الزواج ، فهناك اتجاه عالمى نحو نقصان حجم الأسرة ، وقد ساعد على ذلك استعمال وسائل ضبط النسل ، الى جانب تلقى تربية جنسية سليمة ، وتغير قيم الوالدين عن عدد الأطفال المرغوب فيهم (١) .

٢ ـ أن التنقل الاجتماعى الذى أصبح من خصائص المجتمع الحديث يميل الى أضعاف الروابط الأسرية والقرابية . فحركة الأفراد سعيا وراء العمل والارتقاء فى سلمه يؤدى الى اتساع المسافة الاجتماعية بينهم وبين أقاربهم . والدليل على ذلك هو أن الشخص الناجح الذى ينتمى أصلا الى بيئة متواضعة يقطع روابطه بأسرته وأقاربه لانهم سيكونون بالنسبة له مسئولية اجتماعية .

وقد كان الزواج فى الماضى يتم عن طريق ترشيح الاسرة لعروس ابنهم ولم يكن للشاب أو الفتاة دخل فى هذا الاختيار ، كما لم يكن

1) Everett Rogers, «Social Change in Rural Society» New York, 1960, p. 171.

للحب أو التفاهم قبل الزواج أية أهمية . أما الآن فان ظروف الدراسة والعمل تدفع الشباب الى مغادرة منازل أسرهم والاقامة بمفردهم والاستقلال بشخصياتهم ، وعندما يشرعون فى الزواج فانهم يؤسسون منازلهم بحيث تتسع لهم ولأولادهم فقط .

وقد كان للتغيرات الاجتماعية الكبرى مثل نمو التصنيع والطرق الحضرية فى الحياه وانتشار التعليم تأثيرات واضحة فى طريقة اختيار شريك الحياة والتى يمكن تلخيصها فى النقاط الآتية :

— ارتفاع سن الزواج ، فالشاب أو الفتاه أصبحا لايستطيعان الاقدام على الزواج الا بعد اتمام فترة الدراسة والحصول على عمل ملائم وأجر مناسب يمكنهما من تكوين أسرة .

— التأكيد الكبير على الحب والتفاهم كأساس للزواج على عكس ما كان يحدث فى أيام الآباء والأجداد .

— الحرية المطلقة تقريبا فى اختيار شريك الحياة دون السماح للوالدين أو الأقارب بالتدخل فى هذا الاختيار على اعتبار أن الزواج مسألة شخصية بحتة لاتعنى سوى الفردين المقبلين على الزواج .

— تفضيل الشباب الزواج من فتاه عاملة ، حتى تشارك ماديا فى تحمل أعباء الأسرة .

— الاتجاه فى الزواج نحو الرفقة ، مع التأكيد على الاتفاق الجماعى فى الرأى ، وكلمة الرفقة هنا تؤكد أن الروابط الأساسية فى الزواج أصبحت الآن قائمة على العلاقات الشخصية بين الزوجين اذا قورنت بالأشكال النظامية للأسرة ، المرتبطة بالقانون والعادات والرأى العام والواجب (1) .

1) Eugene schneider., «Industrial Sociology : a Industrial Souiology : The Social Relation of Industry and the Community» Mc Graw - Hill Book Company.. Inc., New York. 1957, pp. 430 - 433.

د ـ الطـــــلاق :

من السهل أن نبين أن معدل الطلاق ارتفع فى العصر الحديث ، الا أنه من الصعب أن نبين العلاقة بين نمو التصنيع وتقدم الحضرية وتفكك الأسرة ، على الرغم من ازدياد معدل الطلاق فى البلاد الصناعية المتقدمة. ولعل ذلك يرجع الى زيادة حرية المرأة بدخولها ميدان العمل واستقلالها الاقتصادى عن الرجل وحريتها فى اتخاذ القرارات [١] . وهناك أثر اخر للتغير المعاصر على الأسرة ، وهو أن الفرصة التى تقدمها الصناعة للمرأة لكى تستقل ماديا تشعرها بعدم حاجتها المادية الى زوجهـا ، وعندما تحدث خلافات شديدة بين الزوجين يمكنها الانفصال عنه فى ظل امكانية حصولها على عمل . ومما هو جدير بالذكر أيضا أن عــددا من المشاكل الحالية فى الأسرة يمكن تحليلها عن طريق مفهومات الصراع الناتجة عن توقعات أدوار الأزواج والزوجات والآباء والأبناء ، مثل توقع الزوج من زوجته أن تكون مطيعة له مثلما كانت والدته بالنسبة لأبيه ، بينما تطمح هى الى وظيفة أو نشاط اجتماعى خارج المنزل الى جانب مكانة متساوية مع زوجها ، بحيث لايفرض سيطرته عليها [٢] . وهناك صعوبات عديدة تواجهها الأسرة وتؤدى أحيانا الى الهجر أو الطلاق ، ومثال ذلك « تعدد الأدوار » وخاصة بالنسبة للمرأة عندمـا تكون عاملة وتقــوم فى نفس الوقت بدورها كزوجة وأم ، وبذلك تواجه صعوبات التكيف لهذه الأدوار المختلفة مما يؤدى الى ظاهرة التبرم بالدور الذى يبدو فى عدم اقتناع المرأة بدورها الأساسى كأم وربة منزل . هذا الى جانب «صراع الأدوار» الذى يحدث عندما يقاوم الرجل محــاولات المرأة للحصـــول على دور يتناقض مع دوره أو مع ترفعه لمسئوليته فى الأسرة ، خاصة وأن حقوق

---

1) Stanley Hetzler., «Technological Growth and Social Change» Routledge and Kegan Paul Company. London. 1969. p. 454.

2) Ernest Burgees., «The Family in a Changing Society» in Hatt, K. P and Othrs (eds.), Cities and Society, the Free Press of Glencoe, Inc., New York, 1961, P. 485.

الرجل مازالت تساندها مقرراتقانونية ودينية واجتماعية واقتصادية[1].

ان تغير العلاقات البنائيـــة فى الأسرة الحديثـــة أدى الى تغيرات واسعة المـــدى فى وظائفها ، وكلمـــا زاد التغير فى العلاقـــات تضاءلت الوظائف ، وأصبحت غير مقنعة للرجل أو المرأة ، حتى أن الطلاق لم يعد ينظر اليه على أنه جرم أو اثم فى الوقت الذى زادت فيه نسبة الزواج الثانى للمطلقين . ولكن زيادة معدلات الطلاق فى الوقت الحاضر لاتعنى أن الزواج فى الماضى كان أسعد حالا مما هو عليه الآن ، وانمـــا كانت تتحكم فيه ظروف اجتماعية معينة مثل الخوف من التقاليـــد والتقولات وحاجة الزوجه الاقتصادية الى الزوج الخ ...

د ــ عمـــل المـــرأة

لقد مكن المجتمع الصناعى الحديث المرأة من أن تدخل ميدان العمل والحصول على عمـــل دون مساعدة الرجل . وقـــد أجريت كثـــيرا من الدراسات لمعرفة الآثار التى يتركها عمل المرأة العاملة عـــلى أسرتها ، وكان من نتائجها أن المركز الوظيفى للزوجة يؤثـــر على أنماط الأسرة واتخاذ القرارات فيها . وقد أكدت بعض الدراسات أن الزوجات عززن قوتهن وأصبحن ندا لأزواجهن نتيجة التحاقهن بالعمل ، الا أن عمـــل الزوجات لايؤثر مباشرة فى قوة العلاقات الاسرية . ومـــع أن اشتغال الزوجات يزيد من وقوع الصراع بين الزوجين الا أنه لايغير من المستوى العام للسعادة فى الزواج . ولكن هذا الصراع يقابله الارضـــاء النسبى الذى تحصل عليه المرأة من العمل فى حد ذاته وفى الوقت الذى فقدت فيه الزوجة العاملة جزءا من سلطتهـــا بالنسبة للاعمـــال المنزلية أنيط بالزوج دور هام فى تلك الأعمال . ومن ناحية أخرى نجد أن دور الزوجة فى التأثير على القرارات الاقتصادية الرئيسية قد تزايد ، الا أنهـــا لم تحرز تقدما فيما يتعلق بالسيطرة على الزوج ولم تظهر حتى الآن نتيجة

---

1) Lee BurChinal., «The Rural Family of Future» in John Edwards (ed.), The Family and Change Alfred A. Knoph, Publisher, New York, 1969, P. 424.

عامة عن الأثر الهدام لعمل الام على الطفل أو على العلاقـــة بينها وبين أطفالها • فهناك عوامل عديدة تتفاعل بطريقة معقدة فى النتيجة النهائية، مثل : المكانة الطبيعية ، نمط العمل ، سن وجنس الأطفال ، نوع المسكن.. وهكذا [١] •

وبالرغم من التغير فى مركز المرأة الذى صاحب التغير ، الا أن ذلك لم يكن فى صالحها دائما • فجميع المجتمعات تواجه بالمشاكل التى تتصل بمركز المرأة وتقاوم تلك التغيرات • وتتخذ هذه المشاكل أشكالا مختلفة باختلاف المجتمعات • اذن ماهى العناصر التى يشتمل عليها هذا الموقف؟ انها وطأة التقاليد ، مثل الاعتقاد بأن الأعمال المنزلية يجب أن تقوم بها المرأة ومازال هذا التقليد معمولا به كثير من المجتمعات حتى وقتنا هذا بالرغم من خروج المرأة الى العمل • فمعظـــم الأزواج الذين تعمـــل زوجاتهم فى مجتمعنا مثلا لا يقومون بمساعدتهن فى أعمال المنزل عـــلى الاطلاق •

٥ ــ التنشئة الاجتماعية

ليس هناك شك فى أن مناهج التنشئة الاجتماعية كانت أيضا مجالا للتغير • فمن المتعارف عليه أن المجتمعات ثابتة البناء نسبيـــا لايوجد اختلاف حول مسئولية الفرد عن أولاده • لان قواعد التربية موجودة فى العرف والتقاليد كما أنها متداخلة فى العملية البطيئة للتعليم • أمـــا فى المجتمعات التى تتغير باستمرار نتيجة للتصنيع والتحضر فقد أصبحت العلاقات بين الآباء والأبناء مشكلة ، وأصبحت السيدة الشابة لاتستطيع الاستعانة بوالدتها أو حماتها فى طلب المشورة لعـــدة أسباب من أهمها اختلاف درجة ثقافه كل منهما عن الأخرى [٢] • وتعتبر مناهـــج تربية

1) Goode op. cit, pp. 76 - 77.

2) Milton yinger., «The Changing Family in a Changing Society» in John Edwards (ed.), The Family and Change, op. cit, pp. 275-276.

الطفل جزءا من النسق الاجتماعى المركب ، وهى تتأثر الى حد كبير بالظروف الاقتصادية والسياسية والدينية والطبقية ، فاذا تغير أحد مظاهر النسق الهامة ، ولم تتغير تبعا لها الطرق المتبعة فى التنشئة الاجتماعية للاطفال ، فان الاسرة تكون حينئذ عرضة للارتباك •

ومن الملاحظ أن تأثيرات التصنيع والحضرية على الأطفال فى الوقت الحالى لاتكون بصورة مباشرة ، ولكنها تنتقل اليهم عن طريق « بناء الأسرة » أما فى الماضى فقد كان لهما أثر مباشر عليهم حين كانوا يعملون فى سن صغيرة ، ولم يكن هناك قانون يحدد سنا معينة للالتحاق بالعمل •

وأبلغ دليل على التغير السريع الذى يحدث فى مجال التنشئة الاجتماعية أنه منذ ثلاثين سنه تقريبا كان الاتجاه العام يؤكد معاملة الأطفال كما يعامل البالغين أى بالحزم بل بالقسوة أحيانا ، فى حين يؤكد اليوم علماء التربية وعلم النفس وعلم الاجتماع أيضا على أهمية مصادقة الأطفال ومنحهم الحب والعطف والحنان • كذلك لم يعد ينصح بالتفرقة بين الأبناء على أساس السن أو الجنس ، الا أن هذا لايعنى أن المجتمع بأسره يعتنق هذه الايديولوجية الجديدة فى التربية والتنشئة لأن الاختلاف بين فئات المجتمع اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا ينعكس على مدى الابقاء على الأساليب القديمة أو الأخذ بالمناهج الجديدة •

لقد كانت التنشئة الاجتماعية تقع مسئوليتها برمتها على عاتق الأسرة الممتدة التقليدية حتى سن النضج تقريبا ، لكن التغير الذى أصاب الأسرة بنائيا ووظيفيا نقل جوانب عديدة من التنشئة الاجتماعية الى مؤسسات أخرى خارج المنزل كالمدارس ، والنوادى ، ودور السينما، كما أن اشتغال المرأة وتركها مسئولية رعاية الطفل لغيرها يؤدى الى مفارقات عديدة فى هذا الميدان •

ثانيــا : السكان

تعتبر التركيبات السكانية من أكبــر مجالات التغــير فى العصر الحديث ، وتعتبر كذلك مثالا على التغيرات الكبرى والهامة التى لها تأثير واضح على حياة الناس ، حيث أن التغير السكانى ليس بأى صورة من الصور نتيجة لقرارات اتخذها القــادة السياسيين . وانما هــو نتيجة لبلايين القرارات العامة التى اتخذها الأفراد لصالح أهدافهم الخاصة، على مستوى العالم ككل ، وهى غالبا ضد رغبات هؤلاء القادة . فقــد يفكر بعض الافراد فى الهجرة الى المدينة ، أو انجاب عدد كبير أو صغير من الأطفال ، وهؤلاء لايفكرون على الاطلاق فى أنه يجب أن تكون بلادهم أكثر أو أقل تحضرا ، أو يجب أن يكون عدد سكانها كبيرا أو صغيرا .

نتائج معدلات النمو السريع

ومن النتائج المترتبة على نمو السكان الحديث ، الكثافة الشديدة ، مما قد يشكل كارثة بالنسبة لكثير من المجتمعات ، وهذا مايحدث بالفعل فى مجتمعنا فى الوقت الحاضر . والمعــدل الحديث لنمو السكــان على المستوى العالمى هو ٢٪ سنويا ، وهذا يعنى أن سكان العالم يتضاعفون كل ٣٥ سنة ، وفى نهاية عام ١٩٧٥ كان سكان العالم حــوالى ٤ بليون نسمة . وهذا المعدل لايمكن أن يظل أو يستمر دون تدخل ، لان عواقب هذه الزيادة المستمرة ستكون وخيمة بلا شك ، ومع ذلك فان كل الجهود المبذولة حتى الآن وخاصة فى مجتمعات العالم النامى لم يــأت بالنتيجة المطلوبة وهــى انقاص عدد السكــان بحيث يتلاءم مــع الامكــانيات الاقتصادية للمجتمع (١) .

ولعل هذه الزيادة المطردة فى السكان ترجع الى نتائج الاكتشافات

---

1) William. Goode, «Principles of Sociology» op. cit, p. 496.

الفنية والعلمية الهائلة والتى توالت عبر التاريخ • وهذا أدى الى الانخفاض الملحوظ فى معدل الوفيات بينما ظل معدل المواليد كما هو أو تناقص تناقصا طفيفا • وهناك أرقام تكشف لنا عن أسباب هذا الموقف الذى يثير القلق على الاقل فى جزء كبير من العالم • اذ أنه عندما يزداد عدد سكان دولة ما بنسبة ١٪ فلا بد من انفاق ٤٪ من الدخل القومى حتى يمكن أن يتمتع هذا العدد الزائد من السكان بمستوى المعيشة ذاته والذى كان يتمتع به سائر السكان من قبل • ولما كانت القدرة على الادخار فى الدول النامية قلما تتجاوز ٥٪ من الدخل القومى ، لذلك ففى كل مرة يزداد فيها عدد السكان بنسبة تتجاوز ١٫٢٥٪ فان الدولة تواجه صعوبة لا بالنسبة لرفع مستوى معيشة سكانها فحسب بل بالنسبة للمحافظة على هذا المستوى عند حد مناسب دون اللجوء الى مساعدات خارجية ، واذا قارنا ذلك بما يحدث فى الدول الصناعية المتقدمة لوجدنا أن نسبة الادخار تصل بسهولة الى ١٨ أو ٢٠٪ بحيث يصبح من اليسير مواجهة الأعباء الناجمة عن تزايد السكان ، بل ويمكن زيادة دخل الفرد فى الوقت نفسه • وهكذا يصبح الموقف خطيرا بالنسبة لملايين الأفراد ، وذلك لان منحنى ازدياد المنتجات الغذائية لايسير مع منحنى ازدياد السكان • وفى الواقع لوتم استغلال موارد الكرة الارضية بالطرق العلمية ولصالح المجتمع الانسانى بأسره فلن تكفى الى الابد لتغذية سكان يتزايدون زيادة لامتناهية • وبالرغم من أنه من الممكن انتقاء النباتات والحيوانات التى نتعهدها بالرعاية ، وفى الامكان أيضا زرع المحيط كما فعل اليابانيون ، وبالرغم من كل هذه الجهود سيصل الانتاج الغذائى ان عاجلا أو آجلا الى حدة الأقصى • ومن ثم اذا استمر السكان فى الازدياد بالصورة الحالية فسوف تتكفل المجاعة وحدها بمهمة الزيادة التى كانت تقوم بها من قبل الأمراض والأوبئة والحروب • ونظرا للزيادة السريعة فى حجم القوى العاملة ، فان البطالة المقنعة تشكل مشكلة حقيقية •

والنمو السكانى السريع يرتبط أيضا بالهجرة الداخلية والحضرية•

وهو يلقى أعباء متزايدة على كاهل الحكومة من حيث الخدمات الصحية ، والتعليم ، والرعاية ووظائف أخرى ، كما يلقى عبئا ثقيلا على المصادر والبيئة [١] •

التحــول الديموجرافى

على عكس الاتجاه فى الدول النامية اليوم ، فانه خلال المائتى سنه الاخيرة نجد أن الـــدول الصناعيـــة الآن مارست ما يطلق على علمـــاء الديموجرافيا « بالتحول الديموجرفى » ويعنون به التحرك من معدلات خصوبة عالية الى معدلات منخفضة فى الوفيات وفى الخصوبه • وقـــد بدأت معدلات الموت فى التناقص قبل معدلات المواليد مما جعل معدلات النمو السكانى تزيد بسرعة مـــع الوقت • وبالتدريـــج بدأت معدلات المواليد أيضا فى التناقص أو التراجع • كما أن معدلات النمو فى معظم الدول الصناعية ثبتت فى مستويات منخفضة نسبيا •

ولنحاول الآن النظر الى المتغيرات الرئيسية فى ديناميات السكان• أنها « الوفيات » أو معدل الموت ، ونعنى عدد الوفيـــات فى كل الف من السكان • و « الخصوبة » وهى تشير الى عـــدد المواليد فى السكـــان بالنسبة لكل الف من النساء فى سن الحمل (وهى عادة ما بين ١٥ و ٤٥ سنه) • « أما الهجرة » فهى تشير الى تحرك قطاعات من السكان مـــن منطقة ديموجرافيه الى أخرى • أما تركيب السكان ، أو تركيب « السن والجنس » فهو يشير الى نسبة الذكـــور والاناث فى جماعـــات العمر المتعددة فى أى تركيب سكانى •

---

1) Simon Kuznets, «Population, Capital and Growth», New York, Norton, 1973.

أ ـ الاخصاب والخصوبـة

ان ديناميات السكان هى مجموعة من العمليـات البيولوجية التى تتشكل الى حد كبير بالمتغيرات الاجتماعية . وتفـرق الديموجرافيا بين مصطلحى الاخصاب والخصوبة . فالاول يعنى القدرة البيولوجية على انجاب الأطفال ، والثانى يعنى العدد الفعلى للاطفال المولودين ، والمتغير الاخير وهو الخصوبة يعبر عنه عادة « كنوع » من « معـدل المواليد » وعلى سبيل المثال : عـدد الأطفال المولودين كـل سنة فى كل الف من السكان .

وهناك كثير من العوامل التى تؤثر فى القدرة أوالطاقة البيولوجية على التناسل والانجاب . وعلى سبيل المثال قد نجد بعض الافراد يولدون بعيوب خلقية تحول دون قدرتهم على الانجاب . كما أن بعض العيوب الوراثية قد تسبب موت الأجنة ، وهذا يعنى أن معدل الوفـاه مرتفع للأجنة قبل ولادتها ، كما أن أى عوامـل بيولوجية يمكن لهـا تحسين الصحة العامة للأفراد فانها سوف تزيد من اخصابهم ، وهذا يشتمل على نوعية الغذاء أيضا ، فنقص الغذاء بصفة عامة أو نقصه من حيث معادن أو فيتامينات خاصة [1] ، سوف يقلل من القدرة على انجاب الأطفال . ومع ذلك فان بعض المحللين يعتقدون العكس لأنهم لاحظوا أن الأفراد الذين لايحصلون على غذاء كاف وملائم ترتفع عندهم معدلات المواليد . ولكن هؤلاء فشلوا فى رؤية أنهم يلاحظون فقـط الاختلاف الظاهر فى عمليات واجراءات ضبط المواليد أو ضبط النسل .

ومن أهم المتغيرات البيولوجيـة التى تؤثر فى الاخصـاب متغير « العمر » فالصغير لا يكون خصيبا ، ولكنه يصبح خصيبا جـدا خلال

---

1) William Peterson, «Population» 3d ed., New York, Macmillan, 1975, PP. 190 - 200.

فترة المراهقة ، وعندما يقترب الفرد من فترة العمر المتوسط تنخفض القدرة على الانجاب ببطء عند الذكور وأكثر سرعة عند الاناث • وتلخص هذه الحقائق عن العمر اختلافات فردية كبيرة ، فبعض الأولاد يفرزون سائل منوى كاف فى الحادية عشرة من العمر ، وبعض النساء يستمرون فى فرز بويضات يمكن اخصابها حتى بلوغهن الخمسين من العمر ، وعلاوة على ذلك فان هذه الأعمار تتفاوت من حيث صحة الأفراد •

كما أنه من الواضح أن العامل البيولوجى « للاخصاب » ربما يتأثر بالسلوك الاجتماعى • وعلى سبيل المثال نجد أنه فى المجتمع الذى تكون فيه الرضاعة من الثدى هى المفضلة ، نجد أن الفاصل أو الفترة الزمنية بين المواليد تكون عامين أو ثلاثة أعوام • ومع ذلك ، اذا نظرنا الى عمليات الخصوبة بصورة أوسع ، وذلك بالنظر الى المدى الواسع للعوامل التى تؤثر فى معدلات المواليد سواء بالزيادة أو النقصان [1] • حيث يتبين لنا أولا أنه لايوجد مجتمع له بناء اجتماعى منظم جدا لدرجة أن يتحكم تماما فى عملية الاخصاب وكل المجتمعات تربى أطفالها لكى يصبحوا آباء فيما بعد ، كما ينظر بعين الازدراء والاحتقار للمراهقين أو الشباب الذين لا يعملون لكى يتزوجوا ويصبحوا آباء • هذا بالاضافة الى أن المجتمعات تستطيع اعتمادا على قيمها وأساليبها المتاحة أن تختار « أين » فى العملية الكلية بدءا من الاتصال الجنسى حتى قبول الطفل كعضو فى الأسرة أن تؤثر فى نتاج الخصوبة ، وسواء اختارت هذه المجتمعات بوعى أولا فان اختلافات سلوكها سواء كانت مقصودة أو غير مقصودة تلعب دورا هاما فى هذا الصدد •

أما فى المجتمعات التى ترتفع فيها معدلات الوفاه بصفة عامة ،

---

1) Kingsley Davis and Judith Blake, «Social Structure and Fertility : An Analytical Framework» Economic Development and Cultural Change, 4 (1956). PP. 211 - 235.

وربما يكون ذلك راجعا الى الأساليب التى تؤثر على المراحل الأخيرة فى دورة الميلاد مثل الاجهاض أو قتل الأطفال • وأيضا ، فانه بعد ظهور الأوبئة أو المجاعات فان الأنماط الاجتماعية الموجودة تزيد من معدل الانجاب حتى تحدث نوعا من التعويض السريع بدلا من السكان الذين فقدتهم •

هذا وتفرض كل المجتمعات تقريبا نوعا من الضبط على المرحلة الأولى بواسطة تقييد الاتصال الجنسى بين الذكور والاناث بطرق مختلفة • فهناك جماعات العزاب مثل الرهبان فى بعض المجتمعات ، وتفرض مجتمعات عديدة أشكالا عديدة من السلوك لحماية البنات البالغات والصالحات للزواج من الذكور المراهقين والبالغين ،وهناك أيضا عادات وتقاليد اجتماعية تحرم الاتصال الجنسى بين المرأة وزوجها فى فترات شعائرية وطقوسية معينة • وعموما فقد حدث فى العصر الحديث ونتيجة للتغير الاجتماعى والثقافى والتكنولوجى تغيرات واضحة فى سن الزواج حيث أصبح سن الزواج للفتاة فى منتصف العشرينيات وأكثر من ذلك بالنسبة للذكور ، وهذا التأخر فى الزواج يؤدى بدون شك الى تقليل فرص الانجاب المتكرر بالنسبة للأفراد • وهذا يؤدى بالتالى الى الاقلال من الخصوبة الكلية فى المجتمع ، لدرجة أن الهرم السكانى فى كثير من مجتمعات العالم المتقدمة أصبح مقلوبا أى أن قاعدته الضيقة فى الأسفل وقاعدته الواسعة فى الأعلى •

وعموما ، فقد كانت هناك منذ القدم أساليب ووسائل مختلفة تستخدمها الجماعات فى ضبط النسل • فمنذ آلاف السنين كان الناس يحاولون التقليل من عدد مواليدهم باستخدام وسائل وأساليب سحرية وشعوذه • أما فى العصر الحديث فان الأساليب المستخدمة تعتمد على علم التشريح والفسيولوجيا وعلى التقدم المذهل فى عالم الطب والدواء، وكذلك على الأساليب المتنوعة والمتعددة لمنع الحمل سواء بالنسبة للرجال أو النساء •

وقد كان قتـل الأطفال فى المـاضى هو أحد الوسائـل التى يتم استخدامها فى المرحلة الأخيرة لعمليه الحمل والـولادة • ويسمح بهذا الاسلوب عندما يكون لدى الزوجين معرفة كامله عن قدرتهمـا الضعيفة للعناية بالطفل وتربيته •

ويستطيع الزوجان والمجتمع أيضا فحص الطفل للتحقق من قدرته وصلاحيته للعيش • ففى المدينة الاغريقية « اسبرطة » كان الأطفـال المتخلفين يتركون فى العـراء وبدون طعـام حتى المـوت • وفى بعض المجتمعات كانوا يقتلون التوأمين أو أحدهما • وفى كـل المجتمعات التى تسمح بقتل الأطفال ، نجد أن الاناث يتعرضن للقتل بصورة أكبر مما هى عليه الحال بالنسبة للأطفال الذكور • والواقـع ان الفقراء هـم الذين يستخدمون هذا الاسلوب أكثر لأنهم أقل قدرة على العنايـة بأطفالهم وتربيتهم ، وهـذا مايحدث فى قبائـل « التودا » فى الهند فانـه نظرا لفقرهم الشديـد فانهم يلجـأون لقتل الاناث • وقد خـاربت الأديان السماوية ، والقادة السياسيون الذين يطبقون اسلوب قتل الأطفال أو تركهم حتى الموت • وفى السنوات الحديثـة نجد أن اتجاهـات الأباء ومواقفهم نحو أطفالهم جعلتهم لايطبقون هذا الاسلوب مهمـا تعرضوا للفقر أو المتاعب • كمـا أن الظروف المعاصـرة التى تمر بها كثـير من المجتمعات مثل تفشى المجاعات والحروب التى تؤدى بحياة الآلاف قـد خففت الى حد كبير من أعداد السكان • ومع ذلك فان كثيرا من مجتمعات العالم المعـاصر أصبحت تسمـح « بالاجهاض » وهو نوع من قتـل الأطفال وهذه ظاهرة تستحق الاهتمام •

وعموما فان معدلات الخصوبة تتفاوت من مجتمع لآخر ومن جماعة فى المجتمع الى أخرى وهى تخضـع أيضا لعدة عوامل مثـل المستوى التعليمى ، والدخل ، والمهنة ، والعقيدة • وعموما فان الـدول منخفضة الدخل ترتفة عندها معدلات الخصوبة والعكس صحيح ومعدل الخصوبة فى المجتمعات الناميه اصبح أقل مما كان عليه منذ مئات السنين ، وتكون

الخصوبة أعلى فى المناطق الريفية عنها فى المناطق الحضرية . كما أن الخصوبة فى المجتمعات النامية تكون عالية بين الأشخاص الذين ينتمون الى الطبقات الدنيا اقتصاديا واجتماعيا وأقل بين الطبقات المتوسطة والعليا .

وبالاضافة الى هذه الاختلافات ، فهناك اتجاه تنازلى فى الخصوبة فى معظم المجتمعات ، كنتيجة أولية لعمليات اجتماعية واقتصادية ، وقد حدد « هارفى لينشتين » (١) بعض أسباب هذا التحول التنازلى فيما يلى :

١ — ارتفاع درجة تعليم النساء والتغير الواضح فى دورهن وقيمهن .

٢ — التزايد فى المشاركة النسائية فى قوة العمل غير الزراعية .

٣ — التناقص الواضح فى وفيات الأطفال .

٤ — انهيار المعتقدات التقليدية التى تؤيد معايير الخصوبة المرتفعة .

٥ — الخصوبة وتأثيراتها على أنماط السلوك التقليدية .

٦ — نمو التعليم الاجبارى والانهيار فى استخدام وقيمة عمل الطفل .

٧ — تزايد حقوق النساء والتغير فى أدوارهن خارج المنزل .

٨ — ضعف نسق الاسرة الممتدة .

٩ — اتاحة وسائل منع الحمل الكيماوية والآلية الفعالة .

١٠ — نمو انساق رعاية كبار السن خارج المنزل .

---

1) Harvey Leibenstein «An Interpretation of the Economic Theory of Fertility : Promising Path or Blind Alley ? Journal of Economic Literature, 12, 1974, pp. 457 - 479.

١١ — تزايد فرص التنقل الاجتماعى والمكانى •

ومن الواضح أن هذه الأسباب السابقة هى مجرد قائمة جزئية ، وبالرغم من ذلك فهى توضح كثيرا من التغيرات التى ترتبط بنقص الخصوبة • وهذه القائمة يمكن أن تستكمل بتساؤلات عن دوافع الفرد عن عدد الأطفال الذين يرغب فى انجابهم • وفى هذه الحالة يمكن أن نستنتج أن أسباب مستوى أى خصوبة يقوم على عدد الافراد الذين لديهم أطفال بالفعل • ويبقى بعد ذلك أسباب أخرى أكثر عمومية وهى موجودة على مستوى المجتمعات ككل مثل التعلم ، وزيادة الثروة والخصوبة ، ونمو الاقتصاد والتصنيع وهذه كلها تسهم فى نقص الخصوبة • وعلى العكس ، فانه عندما تبقى معدلات الخصوبة عالية ؛ فان الأطفال يحتفظون بقيمتهم الاجتماعية والاقتصادية التقليدية بالنسبة لأسرهم •

وبالاضافة الى انهيار معدلات الخصوبة الفعلية ، هناك أيضا تغيرات فى « النسق التفضيلى » الذى يؤثر فى قرار أن يكون للانسان أطفال (١) • والنسق التفضيلى يصف ببساطة القيمة التى يضعها الزوجان على طفل اضافى بالنسبة لقيمة الأهداف الأخرى التى كان يمكن لهم انجازها دون أن يكون لديهم هذا الطفل • والتغيرات المؤثرة فى النسق التفضيلى تتضمن النقص فى وفيات الأطفال ، والنقص فى العمل المنتج بالنسبة للأطفال ، والتغيرات فى المؤسسات التى تعول المسنين ، والانهيار فى الجزاءات التى يمكن توقعها من المجتمع بالنسبة للأفراد الذين يعولون عددا كبيرا من الأطفال •

---

1) Joseph Spengler J, «Values and Feritlity Analysis Demography 3 (1), 1966, PP. 109 - 130 .

ب — الوفيـات

لو أخذنا عينة قوامها ١٠٠٠ طفل ، فان الاحتمـال القوى للموت يكون مرتفعا فى السنوات الأولى للميلاد ، وينخفض الى حـد ادنى فى الفترة مابين ١٠ الى ١٤ سنة ، ويظل ينخفض بوضـوح حتى مرحلة النضج والرشد لهؤلاء الباقين على قيد الحياة • ومن بداية سنوات العمر المتوسط وما يتلوها نجد أن منحنى معدل الوفيات يرتفع ويزداد بشدة تجاه نقطة يتعذر تجنبها وعندها يموت الكل • وفى المجتمعات التى تنتشر فيها الأمراض المعديـة ، وتكون فيها حمـاية الصحة العامـة بدائية ومحدودة ، نجد أنه من ٢٠٪ الى ٤٠٪ من الأطفال حديثى الولادة ربما يتعرضون للموت فى السنة الأولى من عمرهم ، وفى معظم المجتمعات قبل القرن العشرين ، نجد أن أغلب الأسر كانت لاتشتمل على ثلاثـة أجيال يعيشون معا فى نفس منزل العائلة •

ولعالمية الموت عديد من النتائـج والعواقب الاجتماعية ، كمـا أن عمومية الموت ذاتها تتأثر بعوامل اجتماعية عديدة :

١ — تستلزم من كل المجتمعات أن تبتكـر اجراءات منظمـة من أجل تسليم الأدوار الاجتماعية وأيضا الملكية من جيل لآخر •

٢ — لان الموت فى ذاته يمثل أمرا جائرا وظالما بالنسبة لكل من الفرد المتوفى وأولئك الذين يعتنى بهم ، فان الكائنات البشرية تعتنق ديانات وفلسفات ترى كل الأحداث باعتبارها جزء من نظام كونى قائم على العدالة •

٣ — لان الموت ينتظرنا ويترقبنا جميعا فى لحظات لا نتوقعها ، فانـه يجب أن يستعد له الناس بطريقة أو بأخرى•وعلى سبيل المثال ينبغى أن يكون لدى الآبـاء مزيدا من الأطفـال حيث أنـه من المعروف أن عدد قليل منهم فقـط سوف يبقى على قيـد الحياة

طويلا ، ويصبح دعامة وسندا اقتصاديا لأبائهم عندما تتقدم بهم العمر . وعندما ترتفع نسبة من يعيشون الى سن متقدمة وكما هو الحال فى المجتمعات الصناعية ، تظهر بعض أشكال الاعانات المالية لكبار السن التى يجب على المجتمع ككل أن يدفعها لهم .

٤ — ان عددا كبيرا من البرامج التجارية والحكومية تقام وتؤسس ليس على الطابع الغريب والظالم للموت ، وانما على مقاومته . وبالرغم من أن الموت لايمكن توقعة بسهولة كحدث فردى ، أو كحدث جماعى يمكن التنبؤ به بصورة دقيقة . وقد اعتمدت شركات التأمين على هذه الحقيقة منذ مئات السنين (١) .

وخلال القرن الماضى كان ارتفاع توقعات طول العمر فى المجتمعات الصناعية واضحا الى حد كبير ، ولعل السبب فى ذلك يرجع الى انخفاض معدل وفيات الأطفال وهذا يعنى أن الزيادة الكبيرة فى أعداد السكان منذ القرن التاسع عشر قد حدثت جزئيا بسبب الطب الحديث الذى يحفظ كبار السن أحياء مدة أطول . وعندما تنخفض معدلات الوفاه فى الأطفال الى ٤٠ أو ٥٠ فى الألف ، تحدث الزيادة لأن أغلب الاطفال يعيشون حياه مديدة جدا .

كما أن المجتمعات التى أدخلت نظام رعاية الصحة العامة الحديث ، والسيطرة على الحشرات ومقاومتها ، والتطعيم ، واجراءات الصحة العامة الأخرى ، كل هذه المجتمعات أظهرت انخفاضا كبيرا فى معدلات الوفاه ، وزيادة كبيرة فى معدلات « طول العمر » . وعلى أية حال فان التغيرات التاريخية فى معدلات الوفاة ، ما لم تكن كوارث ونكبات فانه لايكون من السهل اطلاقا توضيحها ووصفها .

---

1) Goode, «Principles of Sociology» Op. Cit, pp. 500 - 501.

وهكذا نجد أن الاختلافات فى معدلات الوفيات لها علاقة بالعديد من العوامل البيولوجية والسوسيو اقتصادية • فالآباء « طوال العمر » يكون أولادهم « طوال العمر» أيضا أكثر مما عداهم • كما ان الآبـاء والابناء يشتركون فى بنية بيولوجية متماثلة ومتشابهة وتمسكهم بالعادات الصحية • وبسبب اختلافات وراثية متباينةذ نجد أن جماعـات سلالية وأجناس معينة تكون عرضة بصفة خاصة لأمراض معينة أكثر من غيرهم من عامة الناس • كما أن معدلات الوفاه عند الفقراء تكون أكثر ارتفاعا مما هى عليه عند سواهم من ميسورى الحال والأغنياء •

وعموما فانه منذ الحرب العالمية الثانية تضمنت برامـج الصحة استخدام المضادات الحيوية والتعطيم ضد العديد من الأمـراض مما أسهم الى حد كبير فى تناقص معدلات الوفيات فى المجتمعات الناميـة • وأكثر ما يثير الدهشة هو التراجع فى معدلات « وفيات الأطفال » والذى يعنى عدد الاموات فى كل الف خلال السنة الأولى للحياة •

وهناك تغيرات عديدة ترتبط بانخفاض الوفيـات • ففى المجتمعات التى تتميز بارتفاع نسبة الوفيات ، نجد أن الأسرة تعتمد عـلى بعض الجماعات القرابية الأكبر • والعكس فى المجتمعات التى تكون الوفيات فيها منخفضة مثل المجتمعات الغربية ، فان الأسرة النواه تعيش غالبا على مسافات بعيدة من الاقارب الآخرين وبهذا تقل فرصة الاطفال فى التيتم أو الحاجة الى معونـة الأقارب • وأخـيرا ، فهناك أيضـا تغيرات فى مؤسسات الحداد نتيجة للتناقص فى الوفيات •

د ــ الهجـــرة :

ان البحث فى الاتجاهات العامة للوفيات أو الخصوبة أسهل بكثير من البحث فى اتجاهات الهجرة وأسبابها • فالمادة العلمية الموجودة عـن الهجرة ليست متاحة غالبا ، بل أكثر من ذلك ، فان الاتجاهات فى الهجرة

تختلف من مجتمع لآخر ، كما لايوجد تغير عام مثل الـذى يحدث فى الوفيات والخصوبة •

وعموما فان الهجرة تنقسم الى نوعين : هجرة خارجيـة وهجرة داخلية وقد كان الناس فى الماضى يولدون ويعيشـون ويموتون فى نفس المكان أما الآن فان فرص العمل الأفضـل وتحسين مسـتوى المعيشة والانفتاح العالمى والرغبة فى العلم والكسب تدفع الكثيرين الى الهجرة بنوعيها • والهجرة من النوع الأول تعنى ترك الوطن الأصلى الى وطن جديد مما يحدث تغيرات سكانية فى هذا المجتمع • أما الهجرة من النوع الثانى فهى تحدث داخل نفس المجتمع مثلما يهاجر أهل الصعيد أو الريف الى القاهرة أو الاسكندرية بحثا عن فرص أفضل للحياه • وعموما فان الهجرة الريفية الحضرية تلعب دورا كبيرا فى المجتمعات النامية • ولعل السبب فى ذلك يرجع الى أن سكان الريف يزدادون نموا لدرجة أن هؤلاء السكان ستقابلهم منافسة شديـدة على العمـل اذا ماظلوا ومكثوا فى مجتمعهم الريفى الفقير • كذلك يشعر الفقراء فى المجتمعـات المتخلفة بأنهم أفضل حالا وأكثر غنى من غيرهم فى بقية المجتمع • وان متوسط الدخل فى المدينة مرتفع وأنهم يجدون على الأقل بعض الفرص المتـاحة لتعديل وتغيير حياتهم •

الزيادة الحديثة فى سكان العالم

لقد أشرنا فى بداية هذا الفصل الى أن الزيادة الحديثة فى سكـان العالم تعتبر أسرع من أى وقت مضى • الا أنها سوف تتوقف فى آخـر الأمر • فالأرض محدودة جغرافيا فى رقعتها وفى مواردها أيضا • وكـل من معدلات الوفاه المرتفعة أو معدلات المواليد المنخفضة تمنع وتوقف هذا النمو • ولنحاول الآن النظر الى دناميات هذه العملية الكبرى لنمو السكان • لقد دار نقاش بين المحللين فى أواخر القرن الثامن عشر حول ما اذا كان السكـان يتزايدون أم يتناقصون • واتفق معظمهـم فى هذا

الوقت على أن تزايد السكان مفيد بالنسبة للمجتمع ككل اقتصاديا وعسكريا • وفى عام ١٧٩٨ قدم « توماس مالتوس » اسهاما كبيرا فى تلك المناقشات عندما كتب « مقال فى السكان » وان كان قد أدخل عليها تعديلات كثيرة فى السنوات التالية • وفى مناقشاته الأولى أكد «مالتوس» أن السكان سوف يتضاعفون كل ربع قرن اذا لم يتم ضبط نموهم • وهذا يعنى نمو السكان هندسيا : ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ٣٢ ، ٦٤ • بينما يتزايد الغذاء أو ماتغله الأرض حسابيا فقط أى ٢ ، ٤ ، ٦ ، ٨ ، ١٠ ، ١٢ وهكذا • وقد هوجمت هذا الفكرة مما دعاه الى تعديلها وتنقيحها . ولكنه مع ذلك استمر يؤكد أن ميل الناس للنمو يسبق ويفوق معدل تزايد غذائهم • ويرى أن الموانع والعقبات الايجابية كالبؤس والحرب والأوبئة والعمل الشاق ، ربما يضع هذا الميل تحت الضبط والسيطرة وهناك أيضا الموانع الوقائية كضبط النسل والتغير الاخلاقى وتأخير سن الزواج •

وقد ظن « مالتوس » أنه قد اكتشف أن سكان العالم يختلفون عن الأشياء التى تنمو لتطعمهم وتغذيهم ، فهى تنمو بمعدل مختلف • وفى الحقيقة أن ما قرره « مالتوس » ولم يراه بوضوح هو أن الكائنات البشرية مثل كل الأشياء الأخرى التى تنمو • فالكل ينتج مزيدا من الانتاج طالما استطاع البقاء حيا أو موجودا حتى سن البلوغ بالنسبة للكائنات ، وقت الاثمار والانتاج بالنسبة للزراعات • وهذا يعنى أن الأعشاب الضارة ، والطيور والقمح والابقار والكائنات الانسانية ، الكل مقيد ومحدود بطبيعته (١) •

وقد أكد « مالتوس » أن الأجور العالية سوف تتيح للافراد فرصة الزواج المبكر وبالتالى انجاب مزيد من الأطفال • كما أكد أنه ليس من

---

1) William Goode, Op. Cit, p. 503.

المناسب تقديم المساعدات والصدقات للفقراء لان هذه المساعدات سوف تساعد الفقراء فقط على زيادة انجاب الأطفال وتشجعهم على ذلك .

وطبقا لعدد من لتنبؤات الخاصة ، نجد أن أفكار « مالتوس » حيالها كانت خاطئة ، فالسكان فى كل المجتمعات منذ عصره قد تزايدوا ، ولكن حياتهم لم تصل الى درجة السوء الذى تخيلها وتنبأ بها . كما أن مزيدا من الطعام أصبح متاحا فى معظم هذه المجتمعات ، ويسم انتاج مزيد من السلع والبضائع لراحة الأفراد ورفاهيتهم وخاصة فى المجتمعات المتقدمة . ومن ناحية أخرى ، وكحقيقة من حقائق الديناميات ، نجد أن فكرته الأساسية صادقة وصحيحة فاذا لم تزداد الطاقة الانتاجية بسرعة تزايد السكان ، فان المقدار المتاح لكل شخص من الانتاج سوف يقل بالضرورة . واذا اتسعت هذه الفجوة كثيرا كما هو مشاهد فى السنوات الحديثة فى المناطق الفقيرة جدا من العالم مثل اثيوبيا وبنجلاديش والشريط الممتد عبر افريقيا وهو بالضبط جنوب الصحراء الكبرى ، حيث نجد أن مئات الالوف أو حتى الملايين من الأفراد يموتون من المجاعات أو الأمراض أو من سوء التغذية . ومن ناحية أخرى اذا استمرت الطاقة الانتاجية تتزايد أسرع من تزايد السكان نجد أن المقدار الذى يحصل عليه كل شخص سوف يزداد أيضا . والملاحظ أن الدول الغنية التى لديها فائض من الطعام . ومنذ وقت طويل بدأت فى ارسال معونات غذائية لمساعدة الدول الفقيرة (1) .

وقد انخفض معدل المواليد فى المجتمعات الغربية التى سارت فى طريق التصنيع خلال القرن التاسع عشر تدريجيا ، وخاصة فى المجتمعات التى ادخلت التصنيع مبكرا ، وأسرع الى حد ما عما حدث فى المجتمعات الاوربية الأخرى . ولكن فى كل هذه المجتمعات يتم هذا التحول تدريجيا

...

---

1) Ibid. P. 504.

ليتيح ويسمح بنوع من التوازن بين معدلات المواليد والوفيات بينما تتزايد الطاقة الانتاجية • وهذا يعنى أنه بالرغم من أن معدلات الوفيات تنخفض ، وأيضا معدلات المواليد (علما بأن معدلات المواليد لاتنخفض بنفس درجة انخفاض معدلات الوفيات) فان الزيادة الطبيعية لا تسبق زيادة الانتاج نتيجة للثورة الصناعية والثورة الزراعية التى غيرت موازين الانتاج فى العالم •

وعلى أية حال فقد خلق العلم الحديث موقفا ووصفا جديدا كلية فى المجتمعات الاقل تحضرا ، وذلك فى شكل انخفاض سريع فى معدل الوفاة ، بينما اتجاهات الأفراد عن الخصوبة لم تتغير بشكل ملحوظ ، كما أن عشرات الملايين من الدولارات التى انفقت فى العقدين الماضيين على تجارب ضبط النسل فى مناطق عديدة من مجتمعات العالم النامى قد فشلت بشكل واضح ، فالتخطيط لضبط الأسرة على مستوى الدولة بدأ فى المجتمع المصرى منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما ومع ذلك فنتائجه حتى الآن محدودة للغاية ، ويهدد الانفجار السكانى كل خطط زيادة الانتاج بالفشل • ويرجع ذلك الى الصعوبة البالغة التى تواجه الدولة فى مواجهة تلك المواقف اذ أن مسألة الانجاب مسألة شخصية بحتة ومن الصعب التدخل أو التحكم فيها • ورغم مشاركة العديد من الناس فى هذه البرامج ، ورغبتهم فى انجاحها ، الا أن الرغبة شىء والواقع شىء آخر • فانهم لم يغيروا من أنماط سلوكهم الأساسية ، وربما يدعى بعض الأفراد أنهم يرغبون فى المزيد من المعرفة عن طرق ضبط النسل ، ويظهرون رغبة شديدة فى تحديد عدد أطفالهم ، ومع ذلك نجد أن عدد الأطفال الذين يرغبون فيه مازال مرتفعا بدرجة يتضاعف معها سكان المجتمع فى جيل واحد •

ويجوز لنا هنا أن نطرح سؤالا وهو : أين يتعين ضبط السكان فى العالم ؟ ان المشكلة تختلف باختلاف الدول من حيث تقدمها أو تخلفها ، ففى الحالة الأولى يبرز الطابع الانسانى والفردى للمشكلة ، أما فى حالة

المتخلف فان تحديد النسل أو ضبطه كما يقولون يصبح هدفا قوميا ينبغى تحقيقه ، وهذا ينطبق على جميع الدول النامية ، ذلك لأنه لابد أن يصحب الجهود التى نبذلها للحد من نسبة الوفيات جهود منظمة للتحكم فى معدل المواليد .

أن أكثر من ثلثى سكان العالم لايجدون من الغذاء ما يكفى لسد رمقهم . وقد أعلن مدير صندوق الأمم المتحدة لاغاثة الطفولة أن هناك ٥٠٠ مليون طفل يعانون من سوء التغذية . ولهذا ينبغى على العلم الذى أحرز تقدما كان من شأنه انقاذ ملايين الافراد من موت مبكر ، أن يوفر لهم الوسيلة اللازمة لعدم استمرارهم فى التكاثر بطريقة غير منظمة تنتهى بهم الى المجاعة .

ويعتبر ارتفاع معدلات الخصوبة أمرا مألوفا فى الدول المتخلفة وبالتالى فنحن لا نواجه ظاهرة جديدة . بل نواجه موقفا جديدا نشأ عن انخفاض نسبة الوفيات مع تزايد الامل فى طول العمر نتيجة للتقدم المذهل فى تكنولوجيا الطب والعلاج . وهكذا أصبح العالم (وخاصة الدول النامية) يعانى من التقدم ذى الحدين ، بحيث أصبحت مشكلة السكان بضرورة ضبط النسل عن طريق الاخذ بالوسائل الطبية الحديثة على الحل فى نفس الوقت .

وقد سجلت أعلى نسبة للمواليد فى الدول الأقل تقدما ، وهى مستمرة فى التزايد ومن المتوقع أن تظل كذلك خلال عشرات السنين القادمة . وهكذا يصبح الموقف خطيرا بالنسبة لملايين الأفراد . وذلك لان منحنى ازدياد المنتجات الغذائية لايسير مع منحنى ازدياد السكان ، وبالرغم من المحاولات العديدة للبحث عن مصادر جديدة للغذاء . الا أن الحل الذى يقضى بتحديد النسل يبقى أكثر الحلول امكانا للتطبيق الفورى ، رغم أنه من الصعوبة بمكان فى أغلب الأحيان اقناع بعض السكان بضرورة ضبط النسل عن طريق الأخذ بالوسائل الطبية الحديثة مثل الاقراص والمعقمات .

ويبدو أن نمو المناطق الحضرية فى كل مكان يكون مضاعفا بالنسبة للمناطق الريفية ، وتظهر أعلى معدلات التحضر فى الوقت الحالى فى آسيا وأفريقيا • لان دول آمريكا وأوربا سبقت فى هذا المجال • ففى المستقبل القريب من المتوقع أن تحدث الزيادة الكبرى فى السكان فى مدن العالم النامى • وتشير تقارير الأمم المتحدة الى أن المدن سوف تزيد بين عامى ١٩٧٥ — ٢٠٠٠ حوالى ١ر٢ بليون نسمة • وهذه تغيرات مذهلة يمكن رؤية بوادرها من الآن •

وتكون المشكلة السكانية فى البلاد الغنية هو التساؤل حول نوعية الحياه ، أما فى البلاد الأقل نموا أو البلاد الفقيرة تكون المسألة متعلقة بالتساؤل حول البقاء • كما أن سكان هذه المناطق سوف يشكلون حوالى ٩٠٪ من نمو سكان العالم من الآن وحتى عام ٢٠٠٠ ، حيث يتضاعفون كل ربع قرن • وهكذا يكون لدينا كل عام ٦٠ مليون شخص اضافى يحتاجون للمأكل والملبس وكل سبل الحياه الأخرى ، فكل فرد يأتى الى الحياة يحتاج الى أشياء ضرورية يجب أن نضعها فى الاعتبار عند تخطيط اقتصاديات المجتمع ، ولهذا شارك هؤلاء القادمون الجدد فى الموارد المحدودة وبالتالى ينخفض مستوى المعيشة بالرغم من كل الجهود التى تبذلها الدولة من أجل رفعه (١) •

ثالثا : التعليم

كان الأفراد فى المجتمعات التقليدية يكتسبون المعرفة والمهارات التى تؤهلهم للقيام بنجاح بأدوار البالغين دون أية حاجة الى التعليم النظامى • ولكن فى المجتمعات الأكثر تعقيدا ، لم يعد فى قدرة الآباء نقل المعارف والمهارات الكافية الى أبنائهم للقيام بأدوار البالغين •

---

1) John Palen, «Social Problems», Mc Graw - Hill Book Company, New York, 1979, P. 108.

ولذلك فانه بقيام الصناعة أصبح التعليم الجمعي بالمدارس ضرورة ، واتسعت المعرفة بسرعة بزيادة خطوات التغير الاجتماعي • وظهر العديد من الأدوار الاقتصادية الجديدة • فالمجتمع الصناعي الحديث يحتم على الناس الحصول على معرفة متخصصة على أعلى مستوى من الدقة ، ومهارات خاصة للقيام بأدوارهم على الوجه الاكمل • ولذلك فان التعليم لايمكن أن يترك للصدفة ، فهو يحتاج الى الانتظام فى تنظيمات رسمية متخصصة مثل المدارس الأولية والمدارس العليا والكليات • وأصبح التعليم فى كل المجتمعات الصناعية تنظيم اجتماعى مركزى •

« والتعليم » بمعناه الواسع يترادف تقريبا مع « التنشئة الاجتماعية » لان كليهما يتضمن نقل الثقافة من شخص الى آخر أو من جماعة الى أخرى • وعموما ، فان الصفة التى تميز التعليم فى المجتمعات الصناعية هى أنه أصبح نشاطا تنظيميا رسميا • فهذه المجتمعات تنظم عن عمد الخبرة التعليمية ، وتجعلها اجبارية على السكان فى مجموعة سن معينة ، وتدرب الاخصائيين ليعملوا كمدرسين ، وتعد الاماكن والمعدات لعملية التعليم والتعلم • ومن أجل الوصول الى أهداف بعينها فقد أصبح التعليم انتقال منظم للمعرفة والمهارات والقيم •

وهكذا أصبح التعليم يتداخل مع النظم الاقتصادية والتكنولوجية والسياسية بطرق كان لا يمكن التفكير فيها منذ سنوات قليلة ماضية • ويركز المهتمون بالتربية والتعليم فى المجتمع الحديث على علاقة التربية بالبيئة وعمليات التأثير المتبادل بينهما ، وقد كانت معظم الدراسات فى هذا المجال تركز على الاثنى عشر سنة الأولى للتربية ، حيث كان التعليم العالى لم يظهر الا منذ فترة وجيزة •

أ — وظائف التعليم

يقوم التعليم بوظيفة هامة وحيوية من أجل بقاء المجتمع واستمزاره ، وذلك نتيجة المحافظة على بعض المعتقدات والمهارات التى

لتورث ولكنها تكتسب عن طريق التعليم الذى يعاون فى تشكيل شخصيات الأفراد بحيث تتلاءم مع الثقافة السائدة • ويسهم بذلك فى تكامل المجتمع عن طريق مساعدة الفرد فى التوافق مع بيئته •

الا أنه يجب أن تضع فى اعتبارنا عند دراسة وظائف التعليم اختلاف المجتمعات التى تعمل فيها ، فقد تكون بدائية أو نامية أو صناعية حيث أن وظيفة التعليم تختلف من مجتمع لاخر كل تبعا لظروفه وتاريخه وبنائه الخاص فالتربية لاتشكل مشكلة فى المجتمع البدائى أذ أن محتوى التعليم فى الثقافة ذاتها التى تنقل عبر الأجيال بصورة آلية تلقائية كما أن التخصص يكاد أن يكون معدوما ومستوى التعليم واحد بالنسبة للجميع • أما التعليم فى المجتمعات الصناعية المتقدمة فهو مسألة معقدة للغاية ، حيث أن الميراث الاجتماعى فيها معقد ومتغير على الدوام ، كما أن التعليم فيها لا ينتهى عند فترة معينة ، بل يستمر فى حياة الشخص البالغ عن طريق التنظيمات التربوية المتخصصة ، ويظهر التعليم العالى فى هذه المجتمعات بشكل واسع هادف الى اعداد المتخصصين فى المجالات العلمية والاجتماعية المختلفة ، والنتيجة التى نتوصل اليها هنا أنه لايمكن فهم طبيعة أى مجتمع دون الرجوع الى نظم التعليم والتربية فيه •

فاذا صنفنا المجتمعات تبعا لنوع الثقافة الذى يندرج تحته نسقها فى الانتاج وهو تصنيف يتدرج من البدائى الى الزراعى الى المجتمعات الصناعية ، فسوف يتضح لنا مدى التعقيد والتباين فى المجتمعات الأخيرة ففى القبيلة البدائية التى تعتمد على الصيد والزراعة نجد أن التعليم منظم اجتماعيا من خلال أنساق القرابة ومستويات السن والنوع • وفى حالة حدوث أى تجديد يكون ذلك بمحض الصدفة وليس متعمداً • فالحياة الثقافية فى مثل تلك المجتمعات تكون تكرارا لدائرة الأجيال • وعلى النقيض من هذا نجد المجتمع الصناعى المتقدم الذى يتميز

بمصادره الواسعه القائمه على التغير الثقافى الموجه . خاصه فى مجالات تطبيق العلم على العمليات الانتاجيه •

ومن استعراض الأنماط السابقه للمجتمعات يتبين لنا أن النسق التعليمى أصبح يتغير بصفة مستمرة ليجارى الأحداث فى المجتمع ، كما أن البحث العلمى أصبح وظيفة متزايدة الأهمية للتعليم العالى ، وأصبح التغير الثقافى هو القاعدة وليس الثبات • وهناك ملاحظة هامة وهى أن المجتمعات الناميه الآخذة بأساليب التكنولوجيا الحديثة تعانى من التعارض بين ثقافتها التقليدية والثقافه الحديثة المستوردة ، ولذلك تبذل هذه المجتمعات فى الوقت الحاضر جهودا ملحوظة لتوجيه وتغيير انساقها التعليمية من أجل استيعاب الثقافة الجديدة المستعارة من المجتمعات الغربية •

ب ــ التعليم وتشكيل الشخصية الاجتماعية

تغيرت وظيفة الانساق التعليمية المعاصرة من تنشئة عامة وواحدة بالنسبة للجميع كما كان يحدث فى المجتمع البدائى ، الى الانتقاء والتدريب على المهن التخصصية المختلفة فى المجتمع الصناعى الحديث • وتشغل الهيئات الرسمية فى الوقت الحاضر موقفا استراتيجيا هاما فى التنشئة الاجتماعية ، لانها حلت محل الأسرة والأقارب وجماعة اللعب والطبقة فى تلقين التعليم للصغار ، وأصبح التعليم فى مراحله الأولى ضرورة للقاعدة العريضة من الأشخاص ، يليه التعليم الثانوى ، والجامعى من أجل اعداد الافراد لنوعيات مختلفة من المهن التخصصية فى الاقتصاد المتقدم •

وترجع أهمية النظم التعليمية والتربوية فى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، الى أن التعليم هناك يهتم اهتماما بالغا باعطاء الأشخاص الأدوار المناسبة لهم • وتقوم المدرسة بتدريس حقائق ومهارات مختلفة

من المتوقع أن يكون لها بعض الفائدة للطلبة فى حياتهم المستقبلية • وهى تزود الطلبة بفرصة تحصيل أشياء لها أهمية كبيرة مثل عادات التفكير والمنظورات الأكثر اتساعا التى هى سمات الشخص المتعلم • ومن خلال هذه المجالات الرسمية وغير الرسمية يتعلم الطلبة قدرا كبيرا عن أنفسهم ، وعن العالم الذى يحيط بهم • ويتناسب جزء من هذا التعليم مع أدوارهم الوظيفية فى المستقبل ، ويكون لهذا قيمة كبرى فى التطور الانفعالى والاجتماعى والعقلى للشخص • واذا أخذنا مثلا واحدا فقط فان مستوى التعليم يكون له أثره القوى على الاتجاهات والآراء •

وقد أصبح التعليم طريقا هاما الى النجاح الوظيفى والمالى فى المجتمعات الصناعية لأن المدارس تقوم « بفرز واختيار » الطلبة للأنواع المختلفة من الوظائف • فكلما زادت الرغبة فى وظيفة معينة كلما زاد عدد الراغبين فى الحصول عليها • والوظيفة الهامة للمدارس والجامعات فى هذه الحالة هى أن تحدد الدخول فى الوظائف المختلفة بمنح الدبلومات الضرورية ، والدرجات أو أى شهادات أخرى لبعض الطلبة ، ولكن ليس لغيرهم • فمنذ السنوات الأولى وما بعدها تقوم المدارس باختبار الطلبة وتقييم انجازاتهم وتوجيه البعض منهم ناحية الوظائف الفنية ، والبعض الآخر تجاه الموضوعات الأكاديمية ، والبعض الاخر نحو سوق العمل مباشرة • فالشهادات التى يحصل عليها الأشخاص فى نهاية تعليمهم لها تأثير قوى على فرصهم فى الحياة •

ولاتقوم المؤسسات التعليمية بمجرد نقل المعرفة الموجودة فقط ، ولكنها تضيف الى الميراث الثقافى بتنمية المعارف الجديدة والمهارات أيضا • وتنشأ هذه الوظيفة لان خبرة التعليم تبعث على حب الاستطلاع العقلى ، والتفكير النقدى ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأنه من المتوقع أن اساتذة الكلية يقومون بتوجيه البحث الذى يؤدى الى زيادة المعرفة العلمية • وهناك الأن أيضا قدرا لايستهان بـه من البحث يتم

خارج المؤسسات التعليمية (المؤسسات الحكومية ومؤسسات الصناعة والبحث المتخصصة) •

فالتعليم اذن يهدف أساسا الى استثمار المقدرة الانتاجية للانسان ، التى تؤدى بدورها الى تمكينه من احتلال مركز وظيفى معين فى المجتمع ، وهكذا يسهم التعليم فى عملية التكامل الاجتماعى عن طريق تنشئة الأشخاص وفقا لنسق القيم العام فى المجتمع وتبعا للبناء المتغير للأدوار التخصصية •

وجدير بالذكر أن الدول النامية تضع تخطيطا وشرحا مفصلين لعلاقة بين التعليم والتكامل الاجتماعى فى ظل ظروف التغير الاجتماعى السريع ، حيث أن معظم هذه الدول تتميز باحتفاظها بثقافتها وبنائها الاجتماعى التقليدى • وتشكل الصفوة المثقفة فى هذه المجتمعات أساس التطلعات نحو اقامة مجتمع صناعى حضرى ، الا أن القيم التقليدية للثقافة المحلية غالبا ما تحول دون ذلك • والطبقات المثقفة فى هذه المجتمعات متميزة وصغيرة العدد ولا تتشابه مع غالبية أعضاء المجتمع الذين هم فى العادة ريفيين وأميين وفقراء ، وتختلف بالتالى نظرتهم الى الحياة وطرق المعيشة •

وتحت هذه الظروف المتباينة تعترض التكامل الثقافى والاقتصادى والسياسى مشاكل عديدة ، فقد بينت الابحاث أن الديموقراطية ترتبط أرتباطا وثيقا بمستوى النمو الاقتصادى للمجتمع كما يرتبط نمو التعليم وفعاليته بالسياسات الديموقراطية • ولهذا كان خضوع معظم الدول الأفريقية النامية لحكومات عسكرية أو ديكتاتورية معوقا كبيرا أمام بلوغ التعليم لأهدافه •

د ــ التعليم والتكامل الاجتماعى

يرتبط التعليم بالتكامل الاجتماعى من خلال توجيه المناهج

والمقررات المدرسية لتشكيل الشخصيات الاجتماعية بصورة تتلاءم مع متطلبات البناء الاجتماعى • وبهذا المعنى تكون أهداف التعليم مقررة من قبل• ونستطيع أن نقدم مثالا على ذلك من «الاتحاد السوفيتى» حيث كان التعليم فى بادىء الأمر أداه سياسية لبناء المجتمع الاشتراكى ، وذلك عن طريق اسهام التعليم فى تشكيل النظرة المادية للعالم بالنسبة للطلاب ، وامدادهم بأسس مناسبة فى مختلف مجالات المعرفة ، واعدادهم للقيام بأعمال اجتماعية محددة • وهكذا يكون للأهداف الواضحة دورا بارزا فى تشكيل الشخصيات الاجتماعية ، الا أن التنظيم المدرسى يتضمن الى جانب وظيفته الظاهرة وظيفة أخرى كامنة ، وهى التى يتولاها التحليل السوسيولوجى بالبحث ، وهنا يرى كثير من علماء الاجتماع أن المدرسة تقوم بوظيفتين هما : التنشئة الاجتماعية والاختيار • حيث أصبح النسق الاختيارى للتعليم يرتكز على تكافؤ الفرص ونبذ فكرة النخبة فى التعليم • وهذا يؤكد أهمية الاختيار فى تنشئة الفرد وتطويعه • ويؤكد هؤلاء العلماء على الأهمية المتزايدة لعمليات الاختيار ، وارتفاع مستويات التعليم فى كل جيل جديد ، وهو أمر سيؤدى بالضرورة الى التقارب بين الأجيال وليس الى الصراع كما يدعى الكثيرون •

د — التعليم العالى فى المجتمعات الصناعية

أصبحت الجامعات تحتل مكانة خاصة فى عالم اليوم حيث تشير الى قيام علاقة من نوع جديد بين التعليم العالى ومتطلبات المجتمع الصناعى الحديث • ومن هنا أصبح التعليم العالى جزءا رئيسيا من رغبات وأمنيات الناس من أجل مستقبل أفضل ، وهدفا جوهريا فى خطط الدولة القومية من أجل النمو الاقتصادى • ولما كانت العلاقة بين التعليم هى التى تحدد اليوم مركز التجديد الثقافى ، ولم تعد الجامعة تقتصر على عدد محدود منعزل من الأساتذة والطلاب • بل أصبحت الآن مليئة بالأقسام المختصة والمعامل ومراكز البحث •

هذا وترتبط الجامعة فى الوقت الحاضر وبشكل واضح بالاقتصاد فى أى مجتمع صناعى من خلال سوق القوة البشرية الحرفية ، ومن خلال الأنشطة البحثية فى العلوم التطبيقية ، وقد ظهرت علاقة جديـــدة يمكن ادراكها بين الجامعة كبناء متكامل وبين المجتمـــع الصناعى ، وذلك عند تطبيق نظريات العلم على العمليات الصناعية التى تمخضت عنها الثورة انصناعية فى القرن التاسع عشر ، مما أدى الى تطورات متتالية للمهن التكنولوجية فى مجال الزراعة والكيمياء ، وصناعة استخراج المعادن ، والهندسة الميكانيكية والكهربائية وما شابه ذلك ، وأصبحت هذه الوظائف الجديدة التى يشغلها المتخصصون تشـــير الى مرحلة جديـــدة فى تطور وسائل الانتاج وهذا أدى الى أن أصبح الشخص الحاصل على درجـــة عالية من التعليم هو الأساسى الذى يقوم عليه المجتمع الحديث •

اللامساواه الاجتماعية والتعليم

ان نظرة فاحصة لمنظور الصـــراع تبين ان النـــاس لاتكون لديهم الفرصة المتساوية لتحقيق النجاح التعليمى • ويتبين بالتجربة أن فرصهم تتأثر بشدة بالطبقة الاجتماعية للاسرة التى ولدوا فيها • ويوزع التمايز الاجتماعى الفرص التعليمية بطريقة غير عادلة كما يوزع الثروة ، والقوة والمكانة • وذلك بتقوية المزايا التى حصل عليها بعضـــ الناس من قبل نتيجة المولد ولذلك فـــان المدرسة تحافظ عـــلى اللامساواه الاجتماعية الموجودة بالفعل (١) •

١ ـــ الطبقة الاجتماعية والتعليم

من الواضح أن الانجاز التعليمى يرتبط بالدخل ، ومع ذلك لا يكون من الواضح دائما أن الطبقـــة الاجتماعية تؤثـــر فى مستوى التحصيل

---

1) Ray Rist, «Student Social Class and Teacher expectations : The Self - fulfilling Prophecy in ghetlo Education» Harvard Educatinal Review, 40. 1973, pp. 411 - 451.

العلمى . وبالرغم من ذلك فالحقيقة هى أن الطفل الذى ينتمى الى مكانة دنيا يبقى فى المدرسة مدة أطول من الطفل الذى ينتمى الى مكانة اجتماعية اعلى . ونتيجة لذلك فان التحصيل العلمى العالى للشخص من النوع الأول يترجم الى مزايا اجتماعية واقتصادية يحرم منها الآخر .

٢ ــ تكاليف التعليم

من الأشياء التى تؤخذ بعين الاعتبار القدرة على بقاء الطفل فى الدراسة حتى يصل الى المراحل العالية من التعليم ، وخاصة اذا كان التحاقه بهذا المستوى من التعليم سيكون مكلفا وذلك عندما تظهر تكاليف غير مباشرة مثل فقدان مكاسب الطالب المحتملة ، فكلما زادت ثروة العائلة كلما كانت قادرة على تحمل هذه التكاليف .

٣ ــ توقعات الاسرة

اذا توقعت الاسرة أن الطفل سوف يظل فى المدرسة الثانوية وأنه سوف يلتحق بالجامعة فان هذه التوقعات سوف تؤثر على دوافع الطالب . وتميل العائلات المتوسطة وكذلك العائلات من الطبقات العليا الى التسليم بأن أبنائهم سوف ينجحون أكاديميا ، أما الطبقات الدنيا فلا تضع أهمية كبيرة لهذا الموضوع .

٤ ــ الخلفية الثقافية

تتم عملية التنشئة الاجتماعية لاطفال الطبقتين الوسطى والعليا بطريقة تزيد من احتمال استمرارهم فى التعليم الى أقصى حد ممكن . وبمقارنة هؤلاء بأبناء الطبقة الدنيا نجد أنهم ينشأون فى عائلات أصغر، ويعيشون فى منازل مليئة بالكتب ويشجعون من قبل والديهم على تأجيل الارضاء السريع من أجل الأهداف البعيدة وهم أيضا أكثر تعرضا للقيم المطلوبة للنجاح التعليمى .

• — تغذيـــة الأطفـــــال

أما الأطفال الذين ينشأون فى محيط فقير ، فانهم يواجهون عقبات كبيرة وخطيرة من أجل النجاح التعليمى . فســوء التغذيـــة فى الطفولة المبكرة يمكن أن يضعف التطور العقلى ، كما أن سوء التغذية فى المرحلة الاكبر سنا ميكن أن يثبط مستويات نشاطهم وقدرتهم على التركيز [1] ومشكلة سوء التغذية ليست قاصرة على المجتمعات النامية ولكنها توجد فى كثير من المجتمعات المتقدمة وخاصة فى المناطق الريفية .

٦ — اتجاهــات المدرس

ينتمى أغلب المدرسون الى اتجاهات وقيم الطبقة المتوسطة ، وقد يصبحون متحيزين نتيجة لذلك ضـــد الطلبة الذين يفشلـــون فى تحقيق توقعاتهم . فالمدرسون يميلون الى فهم الطلبة الذين يتصفون بالانتظام والنظافة والاخلاق والأناقة والعمل الجاد والطاعة والطموح . والطلبة الذين لايسلكون طبقا لمبادىء الطبقة الوسطى ينظر اليهـــم المدرسون باعتبارهم « سيئين » بصرف النظر عن ذكائهم وقدراتهم .

٧ — التسمية

عندما يطلق على الطالب تسمية معينة على أنه غبى مثلا فانه يتبع هذا التنبوء ويحققه بالفعـــل . فالأطفال ذوى القدرة الأقـــل غالبا ما يوضعون فى مجموعات متشابهة وينصحون باختيار مناهج واقعية تناسب قدراتهم المحدودة . كما تؤثر جماعات النظراء فى المـــدارس والكليات بدرجة كبيرة على الدافع الاكاديمى وخطط المنهج لدى أعضائها . وتتكون هذه المجموعات عادة من أفراد لهم خلفية اجتماعية وثقافية متشابهة .

1) David Levitsky. (ed.), «Malnutrition, Environment and Behavior; New Perspectives» Ithaca, Cornell University Pres, New York, 1979.

فنجد أن الطلبة فى المدارس الثانوية ترتبط خططهم للمستقبل بطموحات زملائهم وأصدقائهم ، أما جماعات النظراء فى الطبقة العاملة فان المعيار المفضل لديهم قد يكون دخول قوة العمل عند مستوى المدرسة الثانوية أو حتى قبل ذلك (١) .

رابعا : الاقتصـــاد

يقوم بناء أى نظام اقتصادى على الانتاج والتوزيع والاستهلاك ويعتبر النظام الاقتصادى مجالا خصبا للتأثر بالتغير الاجتماعى . ويشمل الاقتصاد بوجه عام الانتاج الذى هو تجميع واستخدام المصادر وهو يتطلب الأرض ورأس المال والعمل . ونعنى بالأرض المنطقة الطبيعية والموارد ، ويتكون رأس المال من وسائل الانتاج أى المال والمعدات والأدوات أما العمل فهو يشير الى الناس الذين ينتجون البضائع والخدمات . ويتضمن التوزيع نظام معين للتبادل يكون للبضائع والخدمات فيه قيم متساوية . وأخيرا فان الاستهلاك يشير الى استخدام الناس للبضائع والخدمات التى أنتجها الاقتصاد .

أ ـ الانتـــاج

كان الانتاج فى المجتمعات التقليدية يحدث داخل نطاق الأسرة الممتدة . فقد كانت الزراعة هى العمل الأول والى جانبها تقوم بعض الصناعات الأخرى التكميلية وهى كلها مرتبطة بالأسرة والقرية . ويشير « نيل سملسر » (٢) فى هذا المجال الى أنه بتطور الاقتصاد فان كثيرا من

1) S.M. Miller, «The Outlook of working class youth.», in Arthur, p. Shostak and William Gomberg (eds.). Blue - Coller world : Studies of the American Worker. Englewood Cliffs. N. J. Prentice - Hall, 1964.

2) Neil Smelser «The Sociology of Economic life.» 2 nd ed. Englwood Cliffs, N.J. : Prentice - Hall, 1976, P. 151.

أنشطة الانتاج انتقلت من الاسرة والجماعة المحلية • ففى الزراعة ميز دخول البيع بين المضـامين الاجتماعية للانتاج والاستهلاك • كذلـك فرق استخدام العمال الزراعيين المأجورين بـين أدوار العمل عمـا كان يحدث سابقا من خلال وحدة عائلية منتجة • وفى الصناعة أيضـا هناك مستويات عديدة للتمايز • وأبسط صورة لها الصناعات المنزلية ، حيث يقوم العامل بانتاج احتياجاته الخاصة ولا يتعامل مع السـوق • ومن ناحية أخرى فان « الصناعـات الصغيرة » تتضمـن عدة تمايـزا بين الاستهلاك والمجتمع ، لأن الانتاج فى هذه الحالـه يكون لمستهلكين غير معروفين فى السوق وعادةً من خلال تجار الجملة • وفى أنساق الصناعة والشركات يعزل العامل عن رأس المال وغالبـا عن أسرته أيضـا • فهى تحدث تمايزا بنائيا فى قوة العمل كاستجابة لمقتضيات الانتاج والتسويق• وقد أدى هذا الى ظهور الحاجة الىأدوار ومنظمات أكثر تخصصا وكفاية عما كان عليه الحال فىالعائلة التقليدية وأبنية المجتمع المحلى • فالتغيرات فى عملية الانتاج أحدثت تحـولات هامة المثابة فى تركيب قـوة العمل وزيادات كبيرة فى حجمها وتنوعها •

وقد نمت بناء على هذه التطورات فى مجال الصناعة زيادة ملحوظة فى قوة العمل المدنية ، وحدث تغير واضح فى تركيـب السكان وتشمل هذه التغيرات انحدار الزراعة كوظيفة ، وزيادة فى فئة المهنيين والعمال وكذلك الوظائف المهنية والفنية ، وحركة ضخمة للمرأة للدخول فى قوة العمل ، والانتقال من عمال ينتجون البضائع الى عمال ينتجون الخدمات•

ومنذ دخول الصناعة الى المجتمع بدأ كثير من العمال الزراعيين فى التحول اليها وترك العمل بالزراعة • وقد تناقصت نسبـة العاملين فى الزراعة بصورة ملفتة فى المجتمعات المتقدمة حيث تصل الى أدنى مستوى فى الولايات المتحدة الامريكية اذ تصل هذه النسبة الى ٣٪ فقط ، بينما تصل فى الاتحـاد السوفيتى الى ٢٦٪ وفى فرنسا ١٥٪ وفى المـانيا ٨٪ وفى اليابان ٩٪ وفى كثير من الدول النامية تزيد على ٦٠٪ • ومـن

المثير للدهشة أن العامل الزراعى الامريكى فى ١٩٤٠ كان ينتج غذاء يكفى ١١ شخصا وهو اليوم ينتج غذاء يكفى ٥٠ شخصا .

وفى السنوات الأخيرة ازداد عدد العمال المهنيين بصورة ملحوظة وذلك لان ضرورة تشغيل وخدمة الآلات الحديثة لمواجهة متطلبات الصناعة الحديثة واحتياجات المستهلك مسئولة عن هذه الزيادة . وقد حدثت أيضا زيادة كبيرة فى مجالات الموظفين والعمال الفنيين ، ويعمل الكثيرون منهم فى مجالات جديدة تماما مثل « اخصائيين الكمبيوتر » الذين وصلوا فى الولايات المتحدة الآن الى ما يقرب من ٢٦٠ الف اخصائى . وقد أصبحت كثير من الوظائف متخصصة . وبدأ الناس فى تغيير أسماء منهم ليكون لها تأثير أقوى وآكبر مثل « المشتغلين فى مجال التجميل » بدلا من « الكوافيرات » ومجهزى الموتى للدفن بدلا عن « الحانوتى » ، وكذلك تطور أخلاقيات وحقوق الأعضاء نحو اكتساب شغل الوظائف كمهنيين . وهذا الاتجاه يرتبط بزيادة الحصول على شهادات وترخيص بالعمل المهنى .

ومن التغيرات الواضحة فى مجال الاقتصاد أيضا دخول المرأة فى سوق العمل وبأعداد تتزايد باستمرار . الا أن النساء فى بداية التحاقهن بالعمل كن يعملن فى مهن محدودة مثل السكرتارية أو الخدمات . وبمرور الوقت أصبحت النساء تتهافت على الالتحاق بالمهن المربحة التى كانت فى الماضى حكرا على الرجال . لدرجة أنه من الصعب فى الوقت الحاضر أن نجد مهنة قاصرة على جنس واحد . ونتيجة لهذا الانهيار فى تقسيم العمل بدأ المفهوم التقليدى القديم عن « عمل الرجال » و « عمل النساء » يختفى بالتدريج .

ويقسم العمل عادة بين هؤلاء العاملين فى انتاج البضائع والعاملين فى انتاج الخدمات . ونود هنا أن نشير الى أن كلمة « خدمات » تعنى أشياء مختلفة . وفى عملية التحول من المجتمع الصناعى الى ما بعد الصناعى هناك مراحل متعددة . أولها ، فى حالة التقدم الصناعى الكبير

هناك توسع ضرورى فى النقل والفوائد العامة لخدمات اضافية من أجل حركة البضائع وزيادة استخدام الطاقة . وثانيا ، فى نظام توزيع الاستهلاك (البيع بالجملة والقطاعى) والتحويل والتأمين .وهناك قطاع ثالث للخدمات الشخصية بدأ فى النمو وكذلك المطاعم والفنادق وخدمات السيارات أو السياحة ، والترويح ، والرياضة . وأخيرا ظهرت مطالب لخدمات أكثر ، وعدم كفاية السوق فى مواجهة مطالب الناس الذين يحتاجون لبيئة مواتية ولصحة وتعليم أفضل مما أدى الى نمو فى الحكومات وخاصة على مستوى الدولة وعلى المستوى المحلى حيث يجب مواجهة هذه الاحتياجات (١) .

ب — التوزيع

كانت البضائع والخدمات فى المجتمعات التقليدية يتم استبدالها على أساس غير اقتصادى بدون استخدام النقود أو نظام واضح للتسويق . وفى مثل هذه المجتمعات لم يكن من الضرورى أن يقوم الانسان باستبدال البضائع النادرة أو العمل ليحصل على احتياجاته . وبالتدريج بدأ يتقرر سعر ذاتى للسوق لتبادل البضائع والخدمات بواسطة الفائض الاقتصادى ، وادخال النقود كوسيلة للتبادل . وبالرغم من ذلك ، فمن الملاحظ أنه ليست كل تبادلات البضائع والخدمات تحدث فى السوق . ومثال ذلك : اعادة توزيع الثروة من خلال الضرائب يعتبر تبادلا للبضائع القابلة للتسويق خارج السوق . وأكثر من ذلك « فان انتقال المصادر الاقتصادية من أجل الأهداف العامة (من خلال سيطرة الحكومة ، وفرض الضرائب ، ومصادرة الاملاك الشخصية) فان هذا

---

1) Daniel Bell. «The Coming of Post - Industrial Society : A Venture in Social Forecasting», New York, Basic Books, 1973, pp. 177 - 178..

يتضمن انتقال البضائع الاقتصادية والخدمات دون تدخل سوق اقتصادية » (١) .

ويرى عالم الاقتصاد « كارل بولانية » (٢) أن الأنشطة الاقتصادية تنقسم الى ثلاثة أنماط للتبادل . النمط الأول يطلق عليه اسم « تبادلى » وهو الذى تصوره الهدايا التى تقوم بين العائلات والقبائل . فالفلاحون فى عدة مجتمعات يساعد بعضهم البعض فى الحصاد . انها التقاليد التى تحتم تقديم الهدايا والخدمات . والمبدأ الوحيد للحساب هو مبدأ واسع فضفاض يشير الى آن اعطاء وتسليم البضائع والخدمات يجب أن « يتوازى » على المدى الطويل .

والشكل الثانى للتوزيع هو ما يسمى « اعادة توزيع » وهو يتضمن جلب البضائع الاقتصادية والخدمات الى مركز رئيسى (يكون حكوميا فى العادة) ثم اعادة توزيعها من خلال الجمهور . وقد ظهرت عدة أمثلة لهذا النوع فى حضارات آسيا القديمة وأفريقيا . أما النماذج الحديثة فتظهر فى شكل تنظيم متقدم ودقيق للضرائب . ويشبه هذا النموذج للتوزيع الشكل السابق من حيث عدم وجود حساب اقتصادى أو دفع للثمن . ففى هذه الحالة يكون مبدأ الحساب هو العدالة القائمة على تصور تقليدى بما يستحقه المستلم .

والشكل الثالث للتبادل هو الاكثر انتشارا فى عالم اليوم وهو الذى يمكن أن ينطبق عليه حقا مصطلح « التبادل » ، وفى هذا النوع يتم توزيع البضائع والخدمات فى مجال السوق . ولا تقوم الأسعار على أساس التقاليد وانما تكون نتيجة للمساومة من أجل الحصول على فوائد اقتصادية . وفى المجتمعات الحديثة يمكن أن نشاهد التوزيع أيضاكتبادل

---

1) Smelser, op. cit, p. 119.

2) Karl Polanyi, Conrad Arensberg and Harry Pearson, «Trade and Market in the Early Empires», New York, Free Press, 1957.

فى اتجاه واحد حيث تقدم البضائع والخدمات دون أخذ ما يقابلها كقيمة تبادلية للسوق . ومن الأمثلة على هذا التبادل ذو الاتجاه الواحد التوزيع من خلال الضرائب والهبات ، والمعونات التى تقدم للاطفال والمساعدات القانونية (١) .

د — الاستهـــلاك

من الواضـــح أن المجتمعات التقليديـــة ذات الانتـــاج المحدود لاتستطيع الوفاء بكل احتياجات الاستهلاك . وعلى العكس من ذلك فان انساق الاقتصاد الجديث تعتمد على احتياجات ضروريـــة واضافية . فالنمو فى مجال الاقتصاد يعتمد على استمرار التوسع فى الاستهلاك . (فالاستهلاك) فى المجتمعات الحديثة أصبح واجبا على الجماهير أكثر من مجرد كونه امتيازا للصفوة » (٢) .

وغالبا ما يكون للمجتمعات التقليدية « قوانين انفاقية » أو قوانين تعطى لقوة الدولة صلاحيات من خلال معايير اخلاقية ودينية للتحكم فى الاستهلاك . ومثل هذه القوانين تخلق استهلاكا متمايزا مثل أن الطبقة الارستقراطية فقط هى التى يلبس أعضاؤها الفراء أو الحريـــر . وفى المجتمعات الطائفية أو ذات العقائد المختلفة ، أو العرقية تظهر أنـــواع متعددة من التقاليد التى تحدد أشكال مناسبة للاستهلاك لكل مستوى أو قطاع فى المجتمع وخاصة فى مجالات الطعام أو المشروبات أو الملابس .

وتتميز المجتمعات المعاصرة وخاصة المتقدمة منها فى أن نسبة كبيرة من السكان يستهلكون نفس أنواع البضائع ونفس الخدمات . كما ظهر

---

1) Kenneth E. Boulding, «Urbanization and the Grants Economy : An Inroduction. in Boulding et Al (eds.), **Transfer in an Urbanized Economy»** calif : Wadswororth ,1973, pp. 1-6.

2) Tl. Kando, «Lesure and Popular Culture in Transition. st Louis Mosby, 1975, p. 14.

اتجاه حديث فى الاقتصاد الصناعى الى خلق سوق قومية أو دولية للمنتجات والخدمات والى تحويل المواطنين الى مستهلكين متساويين • فمن الواضح أن اقتصاد الانتاج بالجملة لايبحث فى تحديد الاستهلاك طبقا للوضع الاجتماعى أو للعوامل الدينية أو العرقية • فلا يوجد قيد على الاستهلاك سوى الدخل •

وبطبيعة الحال ، فان الطبقات الاقتصادية المختلفة تنفق كميات مختلفة فى استهلاكها ككل • ولاتوجد اختلافات فى الاستهلاك وما ينتج عنها من تمايزات حادة فى المكانة فى المجتمعات المتقدمة كما هو الحال فى البلاد النامية • والسبب الأول فى ذلك هو أن غالبية السكان تستهلك على نطاق واسع نفس المنتجات وغالبا تكون بضائع لها ماركات مشهورة وتأثير قومى كالاطعمة والمشروبات (اللبن والحلوى والمشروبات الخفيفة) ومنتجات المنازل (الصابون ومعجون الاسنان) والأجهزة (الثلاجة والمكانس الكهربائية) والملابس وأشياء أخرى كالسجائر ، ومنتجات الترفية ، والبضائع الرياضية • والنقطة الهامة هى أن نسبة كبيرة من الجمهور أصبحت تستهلك هذه البضائع بصرف النظر عن الدخل •

وعموما ، فقد تضاعف دخل الفرد على مستوى العالم خلال السنوات العشر الأخيرة • وبالاضافة الى التضخم فان هذه الزيادة فى النفقات ترتبط بزيادة دخل كل فرد ، والتقدم المستمر فى التكنولوجيا مما أنتج بضائع جديدة متاحة للطلب ، وتحديد ساعات العمل والزيادة المصاحبة له فى وقت الفراغ أدى بطبيعة الحال الى تزايد القدرة على الاستهلاك فى بضائع مرتبطة بوقت الفراغ مثل السياحة والتلفزيون والترويح • ويقضى معظم الناس أوقات فراغهم فى الاستهلاك • وهناك احتياجات ورغبات فى منتجات جديدة تخلق باستمرار عن طريق الاعلانات ، وذلك بزيادة الوقت الذى يقضى فى مشاهدة برامج التلفزيون • ونحن نلاحظ انتشار ظاهرة اقتناء جهاز التلفزيون حتى فى

الريف بالاضافة الى اقتناء « الفديو » فى الوقت الحاضر . كما أصبح الناس يحرصون على اقتناء التلفزيون الملون . وتقضى النساء والأطفال وقتا طويلا اسبوعيا وهم يشاهدون التلفزيون أكثر مما يفعل الرجـال والشباب . ..

ويرى «جون كينيث جالبرث» (١)أن المستهلكين النموذجيين يكونون غالبا من النساء . فهـو يرى ان النساء تقـوم بالخدمة فى المنـزل ، ويحتفظن بالبضائع والطعام ، ويرعين الأطفال ، وهو يلاحظ « ان دور النساء الخدمى منتقد ويتحدى الاستهلاك فى المجتمع الحديث ، ففـى أمور قليلة نجد أن النظام الاقتصادى يكون ناجحا للغاية فى اقامة قيم جديدة وصياغة أنواع مـن السلوك ناتجة عـن احتياجاتها فى تشكيـل اتجاهات المرأة وسلوكها . ودور الشباب والنساء فى زيادة الاستهلاك واضح جدا فى طريقة الاعلان وبرامج التلفزيون .

وبزيادة الدخل فى المجتمع فان أنماط الاستهلاك تتعرض لتغيرات خطيرة . فنسبة الدخل التى تنفق على الطعـام والاسكان تقل عنـدما تكون هناك زيادات فى الانفاق على السياحة الخارجية والترويح والتعليم الخاص والرعاية الشخصية . ونحن نلاحظ فى السنوات الأخـيرة تزايد شركات السياحة بصورة ملفتة وهذا دليل على مدى اقبال أفراد المجتمع على السياحة الخارجية وذلك على مستوى العالم .

وبالاضافة الى الزيادة العامة فى الانفاق عن طريق المستهلكين فقد ظهر نوع من التراجع فى درجة مباهاة الأغنياء بأنفسهم مع زيادة فيما يسميه « دافيد كابلوفتز » (٢) بالاستهلاك التعويضى الى شراء الفقراء

1) Galbraith, John Kenneth. «Economics and the Public Purposé Boston, Houghton Mifflin, 1973. pp. 33 - 37.

2) Coplovitz, David, «The Poor pay More : Consumer Practices of Law - Incomè Families». New York, Free Press, 1963, p. 13.

الأشياء الاختيارية التى كانت قاصرة من قبل على الطبقـات المتوسطة مثل زوج أحذية غالى الثمن ، أو جهاز تلفزيون ملون ، أو ثلاجة فاخرة، وهذا يعرض بطريقة رسمية نجاحهم فى مجالات أخرى •

وترتبط تغيرات أنماط الاستهلاك بنمو أنشطة المستهلك الأساسية ففى المجال العام نجد أن « الآن جارتنر وفرانك رايسمان » يشيران الى أنه فى عام ١٩٢٠ لم تكن لاى دولة مكاتب تختص بشئون الاستهلاك • ولكنها بدأت تظهر بعد ذلك وتزايدت عاما بعد عام ، كما ظهرت القوانين المختلفة لحماية المستهلك ، وكذلـك مجموعات اختصاصية فى شئـون الاستهلاك •

وباختصـار فان هذه هى بعض التغـيرات التى حدثت فى مجـال الانتاج والاستهلاك والتوزيع فى الميدان الاقتصادى • ويبدو أن الاتجاه العام فى المجتمعات النامية بما فيها المجتمع المصرى يسير نحو الزيادة المستمرة فى الانتاج ، يصحبها نمو فى المستوى العام للدخـل وزيادة فى نفقات الاستهلاك وهناك أيضا اتجاه نحو تخفيض مدى الاستهلاك بين القطاعات المختلفة فى المجتمع •

وعموما فقد ناقشنا فى هذا الفصل التغيرات التى حدثت فى مجالات عديدة وهامـة ، وهى هنـا النظم الاجتماعيـة الرئيسية أى النظـام الاقتصادى والنظام التربوى والنظام العائلى ، ونعود هنـا فنقول أن التغير الاجتماعى يمكن أن يظهر فى أى مجال ، متسببا عن تغـيرات فى مجالات أخرى ، والتى تؤدى بالتالى الى توافقات فى المجال الاول للتغير • والتغيرات التى تحدث فى المجالات المختلفة مترابطة • ويؤثر كل منها فى الآخر ويتأثر به بطريقة أو بأخرى •

---

1) Gartner Alan and Frank Riessman. «The Service Society and the Consume Vanguard». New York, Harper, and Row, 1922, pp. 76-78.

الفصل السادس

التحديث : منظوراتــه وظروفه الموضوعيــة

في تعريف التحديث

التغير كشرط للحياة الحديثة

أولا : العالم القديم والعالم الحديث

ثانيا : انتشار خصائص التحديث

ثالثا : العلاقات بين المجتمعات

الدافع الى التحديث

مستقبـــل التحديث

واجبات المجتمع الحديث

الفصـل السـادس

التحديث : منظوراته وظروفه الموضوعيـة

فى تعريف التحديث : (١)

يركز كل مجال من مجالات العلم الاجتماعى على عناصر مختلفة فى عملية التحديث • حيث يرى الاقتصاديون التحديث بصفة مبدئية مـن خلال مصطلحات تطبيق الانسان للتكنولوجيا من أجل السيطرة عـلى المصادر الطبيعية بهدف الوصول الى زيادة ملحوظة فى دخل كل انسان فى المجتمع • أما علماء الاجتماع والانثروبولوجيا فيهتمون أولا بعمليـة التمايز التى تميز المجتمعات الحديثة • وهم يدرسون الطريقة التى تظهر من خلالها البناءات الحديثة لتنهض بوظائف جديدة ، أو تضطلع بوظائف كانت تؤدى عن طريق بناءات أخرى • وهـم يركزون اهتمامهـم على التمايزات التى تحدث فى البناءات الاجتماعية مثل ظهور مهن جديدة ، أو أنماط جديدة من المجتمعات المحلية • ويدرس علماء الاجتماع أيضا صور التمزق فى عملية التحديث مثل التوترات المتصاعدة ، والامراض العقلية، والطلاق ، وانحراف الاحداث ، والصراع العقائدى والطبقى •

ويهتم علماء السياسة أيضا ببعض المظاهر السلبيـة للتحديث ، ولكنهم يركزون بصفة خاصة على مشاكل بنـاء الدولة والحكومـة عند حدوث التحديث • وهم يهتمون بالطرق التى تزيد بها الحكومات قدراتها لقبول التجديد والتكيف مع التغير من أجل وضع سياسات للمجتمـع • وبما أن هذه القدرات تفترض أن الجماهير تشارك فى نـوع من التطابق القومى ، وتنظر للنسق السياسى باعتباره نسقا شرعيا • لذلك فان علماء

---

1) Myron weiner, «Introduction» in Myron weiner (ed.); **Modernization : The Dynamics of Growth**, Basic Books, Inc, New York, 1966, p. 1

السياسة يركزون اهتمامهم على الظروف التى تنمو من خلالها أية اتجاهات ٠وهم يهتمون أيضا بالطرق التى تكون من خلالها الصفوه الحاكمة مسئولة عن مجهودات المشاركين الجدد فى السياسات ليشاركوا فى الصفوة ولكى يلقوا المسئولية على هؤلاء الذين يسيطرون على القوة٠ وبمعنى آخر ، فان علماء السياسة الذين يهتمون بالتنمية ، لايهتمون فقط بمن يمارسون القوة ولكن يهتمون أيضا بالكيفية التى تزيد بها الحكومات قدرتها على تجديد التغير ، والاستجابه لمتطلبات التغير ، والتغلب على الصراع الاجتماعى ٠

ومع ذلك فان هذه التفسيرات حتى لو بسطت تماما فأنها تبعدنا كثيرا عن تعريف شامل « للعصرية » ، وذلك لسبب بسيط وهو أنه لايوجد أى تفسير من التفسيرات السابقة كاف بصورة عامة ليشمل اقتصادا ، ومجتمعا ، وحكومة « حديثة » ٠ ويرى بعض الدارسين أن نقطة البدء فى أى تعريف للتحديث ليست فى طابع المجتمع ولكن فى طابع الافراد ٠ ولهذا فان المؤرخ « سيريل بلاك » يبين فى بحثة ان المجتمعات الحديثة تتميز بنمو المعرفة ، وأن هذا يفترض وجود الناس مع زيادة القدرة على فهم اسرار الطبيعة ، وأن يطبق هذه المعرفة الجديدة على المسائل الانسانية ٠ ويندرج الاعتماد على النفس ، والاتجاه الى الانجاز كخصائص أساسية للانسان الحديث وذلك من وجهة النظر النفسية ٠ كما ركز بعض الدراسين على « التعليم » وتنمية المهارات ، وروح الخلاق والابداع ٠ وباختصار ، فقد ركزت جميع هذه التعريفات على طرق جديدة للتفكير تتيح للانسان خلق صناعة حديثة ، ومجتمع حديث ، وحكومة حديثة ٠

وهناك تأكيد من معظم الدارسين والباحثين على اختلاف تخصصاتهم على أهمية المهارات والقدرة على الخلق والابتكار كمظهر ثابت للمجتمعات الحديثة ٠ ولكن كيف ينمى الانسان المهارات الحديثة والاتجاهات الحديثة ؟ وكيف يستطيع مجتمع ما ، أو اقتصاد ما ، أو

سيدمة ما أن يصبح حديثا ؟ وأيهما يأتى أولا : الانسان الحديث أم المؤسسات الحديثة ؟ انهمن السهل أن نثبت أن الانسان الحديث والمؤسسات الحديثة مترابطان ، ولكن كيف يرتبطان ببعضهما البعض ؟ ان هذه التساؤلات ومحاولات الرد عليها ، أحدثت نوعا من الصعوبة والمناقشات والجدل فى العلوم الاجتماعية المعاصرة .

ويرى بعض الدارسين أن وجود نوع من الاتجاهات الحديثة يعتبر مطلبا سابقا من أجل النمو . وهذا يقتضى وجود طريقة للتفكير تؤدى بالانسان بأن يكون لديه ما يسمى « بالفيروس العقلى » وهو مايطلق عليه علماء النفس « حاجة الانجاز » ، ويذهب دارسون آخرون أبعد من ذلك حيث يؤكدون ضرورة وجود حلقة أوسع من القيم الحديثة اذا كانت هناك رغبة فى ظهور « التحديث » ويمكن اعتبار وحدة الاسرة من العوائق التى تقف عقبة أمام السلوك الحديث . وبالمثل يمكن النظر الى القدرية ، والكسل ، وتفضيل الفراغ على العمل ، والاستهلاك عن الاقتصاد وهكذا . ولكن اذا كانت هناك بعض القيم تقف عقبة فى سبيل التحديث ، فكيف يستطيع أى مجتمع أن يحدث قيمة ؟ ومن أين تأتى القيم الحديثة أولا ؟

كما يرجع بعض الدارسين للاجابة على هذه التساؤلات الى كتابات « ماكس فيبر » الذى يرى أن أى مجتمعات تقليدية تحوى داخلها بذور العصرية . وهو يرى أن النسق القيمى الكالفينية يحوى « الفيروس العقلى » الذى جعل الالتزام العصرى ممكنا . الا أن كثيرا من العلماء يرون أن الكالفينية ليست الا واحدة فقط منعوامل عديدة . وان العقيدة لايمكن أن تفسر لنا لماذا يكون الهنود والصينيين أكثر انتاجا خارج أوطانهم عنهم فى داخلها . وأكثر من ذلك فان كثيرا من قيمنا التى نعتبرها تقليدية يمكن أن تسارع بالنمو . وذلك اعتمادا على المناخ الاجتماعى والاستخدام الذى تخضع له القيم . كما يرى آخرون أن

الأسرة لاتقف عقبه فى سبيل التحديث والدليل علــى ذلك مدى التقــدم والعصرية التى وصلت اليها اليابان ومع ذلك مازالت تحتفظ بنمط الأسرة التقليدية .

والاعتراض الثانى على آراء «فيبر» أبداه الانثروبولوجيون حيث يعترضون على رأيه القائل بأن المجتمعات التقليدية ثابته وأنها متجانسة فى قيمها بالضرورة . حيث يمكن للمرء أن يلاحظ تنوعا فى نسق القيم فى أكثر الجماعات التى تتصف بالجمــود والتقليديـــة . وأن الممارسات والمعتقدات الدينية يمكن أن تكون هى ذاتها تغيرات كبرى . وباختصار فان الدراسات الحديثة تبين أن العلاقة بين العقيدة والتحـــديث ليست الاستثناء الوحيد ، ويمكن ان تكون واحدة من الحالات العديدة للتفاعل المتبادل والتكيف بين التغير الاجتماعى والعقائدى .

ويفرق الدارسون أيضا بين التقليـــد Traditien والتقليدية Traditionalism . فالتقليد يشير الى الممارســـات والمعتقدات المنحدرة من الماضى ، وكما نقدم تفسيرا جديدا لماضينا ، فـــان تقاليدنا تتغير . وعلى العكس من ذلك فـــان التقليدية تعنى تمجيـــد المعتقدات والممارسات القديمة كشىء ثابت غير قابل للتغير . ويـــرى التقليديون « التقليد » كشىء ثابت . وأن الانسان يصنع الاشياء كما كان يقوم بها من قبل فقط . وهذا التمييز بين التقليد والتقليدية يجـــذب الانتباه الى موضوع أساسى فى التنمية وهو : كيف ينظر الناس الى ما ضيهم ؟ هل يحتفظون بقيمهم وممارستهم الماضية كما هى أم يكيفونها ؟ ونستطيـــع تقديم مثال على ذلك بالصين واليابان فى القرن التاســـع عشر . فبينما بحث اليابانيون عن تقديم تفســـير جديد لماضيهم لجعلـــة يتماشى مع مجهوداتهم فى التحديث . فان كثيرا من القادة الصينيين كانوا عدائيين نحو التجديدات التى تنتهك الممارسات السابقـــة . وعندما كـــان الناس يتعلقون بالماضى بطريقة ما نظراً لعدم توافقهم مع الممارسات الجديدة التى غيرت سلوكهم الســـابق ، فنحن نواجه بنـــوع من الايديولوجية

التقليدية . فالتقليدية نظرا لعدائها للتجديد تكون متناقضة ومضادة لنمو التحديث ، أما التقاليد التى تكون باستمرار موضوعا للتحول والتغير فهى لا تشكل أى عائق (١) .

واذا كانت الاختلافات بين التقاليد لاتقودنا بعيدا جدا عن تفسير : لماذا تصبح بعض المجتمعات حديثة بينما لاتصبح الأخرى كذلك ، مـاذا اذن تكون الوسائل التى تحدث قيم الانسان واتجاهاته . ومن بين هذه القيم الاكثر تأثيرا وانتشارا التعليم ، ووسائل الاتصال ، والايديولوجية، وخاصة القومية ، والقيادة الكارزمية ، والسلطة الحكومية العسكرية .

وعموما فان « القيم الشخصية » فى حالة التحديث تتغير بشكـل واضح ، والناس أيضا يتغيرون . فهم ينظرون الى المستقبل أكثـر مما ينظرون الى الماضى ، وهم أقل قدرية ، ولديهم اعتقاد أكبـر فى القدره الانسانية من حيث امكانية السيطرة على البيئة وتغييرها ، وأهم مـن ذلك أنهم يطورون احساسا قويا بالفـرد ، وبقيمته فى حـد ذاته وقد يصاحب ذلك وفى نفس الوقت فقدان الولاء للجماعة. اذ لم تعد الجماعات الأولية الصغيرة وخاصة شبكة العلاقات القرابية قادرة عـلى مواجهة الاحتياجات الاجتماعية أو الفردية ولأسباب عديدة حلت محلها جماعات ثانوية متعددة الاتجاهات . وقد تحولت معظم النظم الاجتماعيـة الى نظم بيروقراطية والى تنظيمات رسمية كبيرة . مثال ذلك أن الشركات الصناعية والمؤسسات الحكومية المنتشرة فى المجتمعات الحديثة أصبحت مراكز جديدة للقوة والتأثير .

وقد ظهرت فى المراحل الأولى للتصنيع هـوة أو فجوة بين دخـل

---

1) Ibid, p. 7.

القلة المتميزة وجموع الجماهير • وبنمو المجتمعات الصناعية أدت زيادة ثروة المجتمع الى ارتفاع مستويات المعيشة بالنسبة للجميع ، وتلاشت الفوارق الشديدة ، وهذا ما نراه الآن فى المجتمعات الحديثة المتقدمة • كما زادت معدلات التنقل سواء كان مكانيا أو اجتماعيا ، هذا بالاضافة الى أن الفرد أصبح يحصل على مكانته الاجتماعية بمجهودة الشخصى وليس بانتمائه الى فئة أو طبقة معينة • وقد تغيرت أيضا طبيعة ودرجة الاشكال الأخرى « للامساواه » الاجتماعية • ففى المراحل الأولى للتصنيع كانت النساء تميل الى البقاء فى المنزل ، وبالتالى كانت مكانتهن الاجتماعية أدنى نسبيا من مكانة الرجال • ثم أصبحت مشاركتهن فى المراحل التالية فى القوى العاملة سببا فى حصولهن على مساواه أكبر • كما أثر التصنيع أيضا فى مكانة المسنين حيث فقدوا القوة والوضع المتميز الذى كان لهم فى مجتمعات ما قبل التصنيع • وتحولت القوة الى الشباب ومتوسطى العمر الذين أصبحت لهم قيمة كبيرة •

وقد أدى التصنيع والتحديث الى اختفاء نسق « الأسرة الممتدة » الذى كان شائعا فى جميع المجتمعات التقليدية ، ولم تعد الأسرة وحدة الانتاج ، وأصبحت الأسرة الممتدة غير وظيفية نظرا لما يتطلبه المجتمع الحديث من تنقل مكانى واجتماعى بين اعضائه ، وحلت محلها « الأسرة النواه » الصغيرة المكونة من الزوج والزوجة وأطفالهما الصغار ، وانهارت الى حد بعيد روابط القرابة التقليدية • هذا وقد حلت التنظيمات الرسمية والمدارس محل عديد من وظائف الاسرة فى التنشئة الاجتماعية المبكرة • وامتد « التعليم » الى جموع الجماهير وليس فقط الى القلة المتميزة ، لأن القوى العاملة الصناعية تحتاج الى العمال المهرة والمثقفين ، وهكذا أصبحت الجامعات ، والكليات ، ومراكز البحوث تعمل من أجل خلق هذه المعرفة المتخصصة •

كما يبدو « العلم » للوهلة الاولى كنظام اجتماعى كبير ، خاصة وأن التصنيع يقوم على تطبيقات المعرفة العلمية • وتصبح الكفاية

التكنيكية قيمة حيث ينظر الناس للتكنولوجيا من أجل ايجاد حلول لمشاكلهم بما فى ذلك المشاكل غير المتوقعة والتى يخلقها التطبيق التكنولوجى ذاته . هذا وقد أصبح « النشاط الاقتصادى » يقوم على الانتاج الصناعى الذى ينتج ثروة لم يسبق لها مثيل . وأصبح تقسيم العمل على درجة عالية من التخصص ، وزادت أعداد الناس الذين يعملون فى مهن ما يسمى « بذوى الياقات البيضاء » أكثر ممن يطلق عليهم « ذوى الياقات الزرقاء » وهم العمال . وأصبح الاغتراب من العلامات المميزة لمكان العمل . وأصبحت الاقتصاديات تتجه نحو الانساق الاشتراكية أو الرأسمالية فى الانتاج والتوزيع ، وفى المجتمعات الرأسمالية تصبح الشركات الوطنية أو متعددة الملاك مراكز جديدة للقوة الاقتصادية والتأثير السياسى .

أما دور « الايديولوجيا » كأداه من أجل تغيير السلوك والاتجاهات الجمعية . فقد تبين أن الايديولوجيا النامية المعاصرة فى الشرق الأوسط وفى أفريقيا.وفى بعض مناطق أسيا تصلح كتأثير موحد لتجنب الانشقاق الاجتماعى فى المجتمعات الجمعية ، وكأداة للصفوة يستعملونها من أجل تغيير سلوك جموع الشعب . فالقومية على سبيل المثال تستخدم كمخفف للاحتكاك من أجل تغيير قيم الناس وأنماط العمل . وتغرس معانى متعددة أخرى مثل الولاء العاطفى ، أو الموت أو العمل بصورة أفضل من أجل الوطن . ويرى بعض الدارسين أن الصفوة قد يكون لها ايديولوجية تبدو وكأنها حديثة ، ولكنهم يعمون بالطرق التى تسهل النمو . وأكثر من ذلك ، فانه ليس من الممكن أن بعض الايديولوجيات النامية المعاصرة يمكن أن تكون بالفعل عوائق هامة أمام توافق السياسات العامة التى تعجل بالنمو (1) .

ويمكن أيضا من المنظور السياسى أن تلعب السلطة الكارزمية أو

---

1) Ibid, pp. 8 - 9.

العسكرية دورا فى أضفاء الشرعية على السلطة الوطنيـــة والحفاظ على الاطار الوطنى • ويمكن أن تكون نفس هذه العناصر عائقا أمام النمو • فالقومية عندما تكون تحت سيطرة نظام سلطوى يمكن أن تؤدى بالمجتمع الى توسع انتحارى بالخـــارج أكثر من النمو الداخـــلى • فالكاريزما (وقد تبين أن كثيرا من القادة الملهمين هم فى الحقيقة ضعـــفاء وليسوا بالصورة التى يظهرون بها أمام الجماهير) قد تستخدم كأداة للتمجيد الشخصى أكثر منها أداه للنمو القومى • كما أن النظام السلطوى قـــد يقوى مشاعر الخضوع والطاعة أكثر من تقوية مشاعر الاستقلال والثقة بالنفس •

التغير كشرط للحياة الحديثـــة (١)

اولا : العالم القديم والعالم الحديث

لقد أصبحت التغيرات الثورية فى أساليب حياه الانسان فى العصور الحديثة والتى كانت قاصرة ولسنوات طويلة على الشعـــوب الغربية ، تؤثر اليوم فى البشرية كلها • فلاول مرة فى التاريخ ، يظهـــر نمط عالمى للعصرية منبعثا من التشتت الواسع للقيم والمؤسسات التقليدية ، ولهذا يواجه الناس فى جميع الدول بتحديات تحتم عليهم تجدد اتجاهاتهم نحو التغيرات الأساسية التى أصبحت تشمل العالم بأسره • وتقديم تعريف مناسب لهذه الاتجاهات ليس عملا سهلا بالقدر ، لان انجازات الانسان فى العصر الحديث أصبحت تمده بفرص وامتيازات لم تكن متوقعة من أجل رخاء البشرية وانجازاتها ، ومع ذلك ، فقد وضعت هذه الانجازات بين يدى الانسان أدوات للتخريب والدمار على نطاق عالمى • ولذلك فانه من المناسب أن يبحث الناس عن فهـــم صحيح للعصـــر الحديث ، وأن

1) Cyril Edwin Black, «Change as a Condition of Modern Life» in Arnold Anderson (ed.), Modernization : The Dynamics of Growth, Basic Books, Inc, New York, 1966, pp. 17 - 27.

يدعموا القيم والمؤسسات التى تدعم رخاء البشرية ككـل ، والا يكون الأمر قاصرا على مقاييسهم الخاصة •

وعند محاولة تتبع أصول الحياة الحديثة نجد أنها ترجع أولا الى النمو المتعاظم للمعرفة والذى يمكن تتبع اصوله بدءا من انتعاش العلوم اليونانية فى أوربا الغربية فى القرن الثانى عشر ، حيث توصل الانسان الى نجاح متزايد ببطء أولا ثم أخذ وقع هذا النجاح يتسارع بعد القرن الخامس عشر فى فهم أسرار الطبيعـة من حوله ومحاولاتـه الجـادة والمستمرة فى تطبيق هـذه المعارف الجديـدة على شئـون الانسـان واحتياجاته • وقد أصبح هذا التوسع فى التطبيـق فى القرن العشرين سريعا جدا لدرجة أن نظم المعرفـة المقبولة فى المجـالات المتخصصة انقلبت رأسا على عقب فى خلال جيل واحد فقط • ومازالت هذه العملية النمو العقلى تسير دون أى ابطاء فى خطواتها ، مما قد يـؤدى الى أن تكون التغيرات فى السنوات القادمة أكبر بكثير مما رأينا • طوال حياتنا السابقة كما سبق أن أشرنا عندما تحدثنا عن احتمالات التغـير فى عالم الغـد •

ومن أهم نتائج تطبيـق المعارف الجديدة على شئـون الانسان المختلفة زيادة التكامل فى وضع السياسة التى يسير عليها المجتمع ككل حيث نجد أن أنساق النقل والاتصال والعمل والتعليم تميل الى أن تكون أكبر وأكثر تركيزا • فأغلب وسائل الاتصـالات أصبحت موحـدة على المستوى القومى بل ان كثيرا منها ينظم فى الوقت الحاضـر على أساس عالمى • وشبيه بذلك ما يحدث على المستويات العامة ، فقـد أصبحت الحكومات الآن تميل الى تجميع وظائف واهتمامات كانت تقوم بهـا من قبل المقاطعات والأقاليم والقبائل والعائلات • لدرجة أن أكبر الحكومات طغيانا وسيطرة فى العصور القديمة لم يكن لها هذه الدرجة من السيطرة على الأفراد والجماعات كما نرى اليوم عند حكومات المجتمعات المتقدمة• ونظرا لتعقد الحياه وتشابكها فقد نما النسق القانونى أيضا لدرجـة أن

كل انشطة الانسان تقريبا أصبحت لها صلة بالقانون بصورة أو بأخرى. هذا التكامل فى صنع السياسات على مستوى المجتمع كان لها تأثيرها الواضح على الناس وأتاح علاقات أكثر وتوقا،كما نتج عنه تعقيد وتركيب كبير فى التنظيم الاجتماعى .

كما يمكن ملاحظة تأثيرات المعرفة الجديدة فى المجال الاقتصادى . فقد أتاح التقدم التكنولوجى امكانية تحويل العمل الى عمل آلى نتج عنه الانتاج الجمعى أو ما سميه الانتاج بالجملة ؛ وأيضا النمــو السريع فى انتاجيه الفرد ، والزيادة فى تقسيم العمل . وقد أدى هذا الى انتاج كمية من البضائع أثناء القرن الماضى أكبر مما انتجته البشرية فى الفترة السابقة كلها . كما نلاحظ الآن أن هناك فرقا شاسعا اليوم بين مستوى المعيشة فى البلاد الحديثة نسبيا ومستوى المعيشــة فى المجتمعات التقليديــة ، فبينما يتراوح دخل الفرد بين ٢٥٠٠ الى ٣٠٠٠ دولار فى البلاد المتقدمة، نجد أن دخل الفرد فى المجتمعات التى لازالت تستخدم الأساليب القديمة فى العمل والانتاج يتراوح ما بين ٥٠ الى ١٠٠ دولار فى العام .

ومن أهم التغيرات أيضا تلك التى حدثت على المستوى الاجتماعى ، فقد كانت المجتمعات التقليدية مغلقة ومحددة البناء ، وغالبا مــا يكون أعضاؤها من الفلاحين الذين يعيشون فى قرى منعزلة نسبيا ، وهم عادة فقراء وأميين . واتصالاتهم بالسلطات السياسية المركزية قليلة للغاية . وقد ظلت هذه الطريقة الريفية فى الحياة مستمرة دون تغيير كبير لقرون عديدة . ولقد كان للمعرفة الحديثة ، وما خلقته من تكنولوجيا تأثير ضخم على هذه الاساليب التقليدية للحياة ، فأصبح حوالــى ثلثى السكان فى المجتمع الحديث يعيشون فى مدن ، وأصبحت معرفة القراءة والكتابــة شيئا منتشرا على المستوى العالمى . وتحسنت الصحة أيضا الى حد كبير وحلت المعايير العالمية المتحررة للصداقة الشخصية محــل القيود التى فرضها العنصر ، والعقيــدة ، والاســرة ، والطائفة . وقــد تحولت التقسيمات السابقة للناس بين فلاحين ، وسكان مــدن ، وارستقراطيين

الى مجتمع أكثر تجانسا تتوقف فيه مكانة الشخص على انجازاته الفردية رئيس على وضعه الاجتماعي الموروث .

وقد أصبحت هذه المجموعة المعقدة والمترابطة من التغيرات فى طريقة حياة الانسان تعرف باسم « التحديث » .ولقد تعرضت شعوب المجتمعات الغربية لهذه العملية لمدة خمسة قرون ، وتعرضت لها شعوب العالم الأقل تحضرا لمدة لاتقل عن قرن من الزمان . وقد أصبح « التحديث » جزءا من الخبرة العالمية .وهو فى كثير من الحالات يحمل آملا كبيرا من أجل رخاء البشرية ومع ذلك فقد كان أيضا متسببا فى كثير من العمليات التخريبية . فلقد خرب الأنماط التقليدية للحياة التى طورت كثيرا من القيم الانسانية على مر العصور .ولقد أدى أيضا الى سقوط كثير من الامبراطوريات والأمم وانحلالها الى مجموعة من المجتمعات المحلية ، وكانت الحربين العالميتين الأولى والثانية من ضمن أكبر عوامل التخريب فى التاريخ . كما أدى التحديث الى الاضرار بنمط حياة الأسرة الريفية الذى كان الفرد يستمد منه الرضى والقناعة ، وأدى كذلك الى انفجار سكانى يهدد بالزيادة عن انتاج الطعام فى كثير من البلاد . ومن خلال استبدال المجتمع القديم بمجتمع جديد خلق التحديث مجتمعا ضخما تمحى فيه الخصوصية ، والفردية ، والكيفية بمستويات الذوق وعمليات ادارية تكون فيه الملائمة مع عامة الناس هى العامل المؤثر .

ثانيا : انتشار خصائص التحديث (١)

وهكذا فقد أصبحت السمة الرئيسية للعصر الحديث هى انتشار المؤسسات الحديثة على نطاق العالم من أوربا الغربية حيث نشأت هذه المؤسسات فى بقية أنحاء العالم . فقد جلب المستوطنون الأوربيون فى

---

1) Ibid, pp. 20-23.

جنوب وشمال أمريكا الى العالم الجديد صيغا سياسية كانت بالفعل حديثة نسبيا ، وأحدثت تعديلات فى الانساق الأوربية للحكومة • وقد ظهر نمط مختلف عن هذا قدمته بلاد أخرى مثل روسيا واليابان وتركيا والصين • أما الدول التى لم تشارك بشكل واضح فى النمو الأصلى للافكار الحديثة فقد ورثت من الماضى تقليد الحكومات القوية • وعندما واجهت هذه الدول المنافسة مع الدول الأوربية الغربية الأكثر حداثة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فانها قبلت أولا الاصلاحات الحديثة لأسباب دفاعية ، وفى الجزء الأخير منا لقرن التاسع عشر بدأت هذه الدول تأخذ بأسباب التحديث بطريقة أكثر جدية واتقان •

وأما بقية المجتمعات الموجودة فى العالم ، والتى دخلت عصر التحديث كمستعمرات لمجتمعات حديثة فهى لازالت فى حالة مبكرة من النمو ، كما أنها مازالت تبحث عن صيغتها الخاصة للتحديث السياسى • وفى بعض المجتمعات مثل مصر والهند ، وهى شعوب لها تاريخها العريق ولها تراثها السياسى الموروث فقد وقعت تحت وطأة احتلال مجتمعات أكثر حداثة وتقدما ومع ذلك تفاعلت معها بنجاح ، وتوصلت الى درجة كبيرة من التحديث والتقدم بالمقارنة بمجتمعات أخرى • فالمجتمعات الأقل نموا فى أفريقيا ، استعارت من المجتمعات الحديثة ليس فقط المؤسسات السياسية ، ولكن أيضا لغتها وعناصر ثقافتها •

وقد كان الاستقرار النسبى للمجتمعات التى مرت بعملية التحديث أولا يرجع الى حد ما الى حقيقة انهـا تطورت فى وقت كـان لها فيه منافسين قليلى العدد ، وأصبحت فى النهاية أكثر المراكز تأثيرا للقوة السياسية ، وفى كثير من الأحوال أصبحت النموذج الذى تحتذى به المجتمعات الأخرى • وعلى العكس من ذلك فان المجتمعات التى سارت فى طريق التحديث فى فترة لاحقة فانها لم تقم فقط بالعملية تحت ظروف نضال أكبر ، وعدم استقرار ، ولكنها كانت تقع أيضا تحت الضغط الملح فى أنها ترى أمامها نماذج أكثر تقدما لدرجة أن الهدف الذى تسعى اليه

كان يبدو صعب المنال • ان تجاور المجتمعات التى تختلف بشكل كبير فى درجة التحديث لايمكن الا أن يحدث تأثيرا ممزقا ومدمرا على المجتمعات الاقل حداثة ، بالرغم من أن مدى هذا التمزق يتوقف على الظروف التى تقدم فيها عملية التحديث • وعلى أية حال ، فانه حيث توجد الدائرة النفاثة والعربة التى يجرها الثور جنبا الى جنب ، فان توترات التحديث تصبح أكبر بطريقة لا يمكن احصاؤها أكثر مما لو كانت وجوه المجتمع المختلفة تنمو بطريقة تدريجية ومتوازنة •

وبالرغم من ذلك فان المجتمعات التى بدأت متأخرة فى طريق التحديث فانها تتمتع بمزايا واضحة • فالاستعمار غالبا ما ينظر اليه فقط على أنه مصدر القهر السياسى • ولكن فى واقع الامر قدم خدمه بنشر فوائد التحديث فى هذه المجتمعات • فنتيجة للاستعمار نجد أن كثيرا من انجازات المجتمعات المتقدمة قد أصبحت متاحة فى أرقى صورها مما يعفى المجتمعات الاقل تحديثا من التجارب المكلفة التى كانت فى الأصل مطلوبة لخلق هذه الانجازات • وفى نفس الوقت ، فقد كانت البلاد المتقدمة بالفعل لاتريد أن ترى تحديثا كاملا قد يؤدى بالتأكيد الى استقلال المستعمرات ، وفقدانها للمزايا التى كانت تكتسبها نتيجة العلاقات غير المتساوية • وأكثر من ذلك فان التحديث الكامل يمكن اعتباره عملية ثورية ، وليس لدى الدول المتقدمة الدوافع الشخصية أو الوسائل المادية للقيام بمثل هذه الثورة فى المستعمرات التى تقع تحت سيطرتها • وهكذا فان خطوة التحديث قد ساعدتها الى الحد الذى يكون فيه توازن القوة والتأثير من الممكن الاحتفاظ به بين المجتمعات الأكثر تحديثا مع اعطاء الذين وصلوا الى طريق التحديث أخيرا حرية العمل طبقا لدرجة قوتهم •

وعلى المدى الطويل فان انتشار المؤسسات الحديثة على مستوى العالم كان تأثير التشجيع للاتجاهات المتناقضة نحو القومية والاستقلال• فمن ناحية نجد أنها قد شجعت نمو العدد المتزايد للدول المستقله ، وهذا

بدورة ضخم من الصعوبات المتعلقة بالمحافظة على النظام الدولى • فبينما تميل معظم دول العالم وبصورة متزايدة الى القيام بالوظائف العامة المميزة للعصرية مثل النهوض بالمعرفة ، والتكامل السياسى ، والتطور الاقتصادى ، والتبدل الاجتماعى • والوسائل التى تقوم بها بهذه الوظائف تعتمد الى حد كبير على المؤسسات التقليدية لكل مجتمع • وهكذا فان البلاد التى طورت المؤسسات الاقطاعية فى شكلها التقليدى مثل مجتمعات أوربا الغربية ، فانها كانت تميل الى دمج المؤسسات السياسية النيابية فى العصر الحديث • أما المجتمعات التى كانت لها مؤسسات أوتوقراطية (تقوم على حكم الفرد) فيبدو أنها تحمل أفضل فى الأوقات الحديثة بمالها من قوة مركزية سياسية متسلطة •

وحتى الآن فان معظم المجتمعات لم تصل الى درجة النمو التى تسمح لها بالحكم على كيفية اندماج مؤسساتها السياسية تحت الظروف الحديثة • ولكن من المحتمل أنه بمرور الوقت وربما بعد فترة قصيرة سوف تصبح صيغ الحكومة الحديثة كشىء متميز عن الوظائف التى تقوم بها أقل اختلافا عما كانت عليه فى الماضى ، أى سيحدث نوع من التجانس والتوافق بين الحكومة وبين الوظائف المختلفة والمتباينة التى تقوم بأدائها ، وهذا يساعد بدون شك على أداء العمل بصورة أفضل ، وعلى التوازن والاستقرار فى المجتمع ككل • فالصيغ التقليدية للسلوك السياسى تشبه اللغة من حيث أنها تكون قادرة على العيش تحت قدر كبير من التعديلات ، وبالرغم من احتفاظ الدول الحديثة بكثير من مميزاتها التقليدية ، الا أنها أصبحت تندمج بصورة مكثفة فى مجالات معينة مع المشاكل المحلية على حساب المصالح الدولية • فقد أدت مطالب العصرية واحتياجاتها الى فرض بعض أنواع القيود الاجتماعية فى المجالات الاجتماعية والاقتصادية من أجل خلق درجة معقولة من النظام • والاجماع فى الرأى ، وتماثل المؤسسات فى عصر التغير السريع ، ويقع العبء الأساسى فى هذه المسئوليه على عاتق الدولة • ولهذا تصبح الدولة

اكثر حماسا من أجل التفوق وفرض النفوذ فى شتى المجالات حتى ولو كان ذلك على حساب اضعاف سيادتها على الاهتمامات الدولية •

وعلى عكس هذا الاتجاه القومى ، فمن الواضح أن هناك ميل من كثير من القوى نحو دفع المجتمعات الى الاعتماد على بعضها البعض — وهى قوى مثل التحسينات فى وسائل الاتصال الحديثة ، وعالمية الافكار الحديثة والمؤسسات ، والتوسع فى المجال الذى يتم فيه تبادل البضائع والخدمات ، وهجـرة ملايين النـاس من مجتمع الى آخر ، وظهور الاتحادات الدولية للجماعات الوظيفية ، والتخصص الاقتصادى للاقاليم ، وحتى للمجتمعات ككل • ويتطلب النمو الكـامل للافكـار والمؤسسات الحديثة حلقة واسعة من المصادر والمهارات التى نادرا ما توجد فى حدود مجتمع واحد منظم سياسيا • فالمجتمعات القادرة على اتمام التحديث بعيدا عن خبراتها أو طلب المساعدة من الآخرين بفضل اتساع اراضيها وتنوع مواردها ومهاراتها قليلة جدا فى الواقع • وبالرغم من ذلك فهناك استثناءات ، فالقوى العظمى فى العالم تتجه باستمرار نحو زيادة قوتها ، لأنها [illegible] تثبيتها قوى أخرى ، وهذا الوضع القلق ينتج عنه شعور حاد بعدم الأمان تشاركها فيه كثير مـن المجتمعات •

ثالثـا : العلاقات بين المجتمعات

لا يؤثر التحديث فقط فى النمو المحلى للمجتمعات ، ولكنـه يؤثر أيضا فى العلاقات بينهـا • فلقد تسبب فى تغيـير علاقات القـوة بين المجتمعات بالتقوية السريعة لأوضاع بعضها على حساب الاخرى • وقد تأثرت العملية التى تتم داخل كل مجتمع على حده بعمـق بنقطة الوقت التى بدأت فيها عملية التحديث على النطاق العالمى •

وفى نفس الوقت أصبحت المجتمعات أكثر اعتمادا على بعضهـا

البعض وتغير نظام علاقاتها ، فبالرغم من بقاء واستمرار كثير من الصيغ التقليدية للعلاقات الدولية مثل التحالفات الحربية ، والغزو والاستعمار ، والانتشار الثقافى ، والدعاية ، الا أن كل هذه الأشكال والصيغ قد تشبعت بمعان جديدة وظهرت بصورة جديدة تماما • وأكثر من ذلك ، فان زيادة الاعتماد المتبادل قد أدى الى نمو الاجراءات المنظمة لتنظيم العلاقات بين المجتمعات مثل الممارسات الدبلوماسية ، والمؤتمرات والقانون الدولى •

ولعل المظهر الأكثر اثارة لهذه العملية ، وفى كثير من الحالات ، هو أثرها على المكانة النسبية للمجتمعات التى وصلت الى مرحلة التحديث أولا • فقد تحولت هذه المجتمعات من قوى متقدمة لامبراطوريات قوية تقليديا الى أن أصبحت أكبر مراكز للتأثير عرفها العالم • ونظرا لان هذه الدول كانت أول من بادر الى عمليات التحديث ، فقد عملت عن طريق مبشريها بنشر الأفكار الحديثة والمؤسسات الى أقصى جهات الأرض • وقد وصل أقصى تأثيرها لدرجة أن مجتمعات غرب أوربا كانت تتحكم فيما لايقل عن نصف بليون من غير الأوربيين (١) • وقد تولد عن هذه العلاقة كفاح مستمر بين الحكام والمحكومين ، ورفضت المجتمعات المستعمرة الخبرات الحديثة عدة مرات عندما فرضت عليها بقوة السلاح وقد شجعت أيضا ظاهرة المحدثين المناهضين للاتجاهات الأوربية ، الذين استعاروا الخبرات لأوربية ، ومع ذلك حاربوا الحكم الأوربى ، وبالرغم من ذلك فان المجتمعات الاكثر تحديثا قد قدمت على المدى الطويل خدمات كمرشدين وموجهين للمجمتعات الأخرى ، ونقلوا اليهم مزايا التحديث ، وأيضا مشاكله التى لا مفر منها • وبهذه الطريقة يمكن النظر الى الاستعمار على أنه قوة للتحديث • ونتيجة لهذه العملية فانه حينما تصل المستعمرات الى مرحلة القدرة على رفض التحكم السياسى،

---

1) Ibid pp. 23-24.

ووصاية المجتمعات الاكثر تحديثــا فان التأثير الواســع لهذه الاخيرة يتلاشى تدريجيا .

وقد صاحب هذا التحول فى العلاقات بين الشعوب احساس متزايد بعدم الأمن يمكن ارجاعه الى التوترات الناتجة عن كل من نمو القومية والاعتماد المتبادل . وهكذا ، فان الشعور بعدم الامن كان هو القــوة السائدة التى يخاطر الانسان بتفسيرها من خلال الاشكال المختلفــة للاستعمار وعلاقات التحالف ، والحروب ، وتجارب التكامــل السياسى التى تتميز بها العلاقات الدولية فى العصر الحديــث ، واذا استعرضنا الموقف فى هذا الضوء مثلا فان الاستعمار الذى وصل الى حدة الاقصى فى عشرات السنين الاخيرة من القرن التاسع عشر يمكن أن يعتبر كمحاولة من جانب المجتمعات الحديثة لضمان أمنها بمد سلطتها على المجتمعــات الأقل حداثة لتى تكتسب السيطرة على مواردها وامكاناتها ومهاراتها .

ومن الواضح أنه لا الاستثمارات والتجارة والزيــادة السكانية تتبع الدولة بالضرورة ، كمــا أن الجماعات التى تؤيــد الاستعمار فى المجتمعات الحديثة كانت مدفوعة أيضا باعتبارات مختلفة . ففى نفس الوقت ، وفى عدد كاف من الامثلة نجد أن الدول الاستعمارية قد اكتسبت مزايا كان من الصعب الحصول عليها لولا ممتلكاتها عبر البحــار ، لذلك كانت تحرص على السيطرة على هذه المستعمارات كضمان معقول لأمنها . وكذلك فانه نظرا لان الفوائد التى يمكن الحصول عليها من المستعمرات لا يمكن احتسابها مقدما فقد ظهر ميل قوى من ناحية الدول الاستعمارية للاستحواذ على الاراضى لكى تمنــع المنافسين من الحصول عليهــا . بالاضافة الى أن الاحتفاظ بالامبراطورية غالبا ما يستلزم الحصول على مواقع استراتيجية من أجل حماية الممتلكات البعيدة ذات القيمة . وقــد استطاعت بعض الدول الحديثة ان تفرض حكمها على شعوب أقل تحضرا وعصرية تعيش فى مناطق قريبة منها ، وأن تدمجها فى مجتمــع العاصمة

بدلا من حكمها كمستعمرات [١] •

وقد انتهى تقريبا هذا الاسلوب من التوســع فى أراضى المجتمعات الاقل تحضرا حوالى عام ١٩٠٠ ، ولم يكن السبب الأساسى بسبب الثورة من جانب هذه المجتمعات الاخيرة وانما بسبب أنه لم تعد هناك أرض جديدة معرضة للغزو • فالمجتمعات الحديثةومن خلال حرصها على الأمن أصبحت تبحث الآن عنه من خلال الاستعمار • فعلاقات التحــالف التى كانت تعد حتى ذلك الوقت حصونا ثانوية للامن يمكن التضحية بها عند الضرورة، وعندما تكون مكاسب الأرض موضع رهان أصبحت الآن قضايا لها الأهمية الاولى • وقد اعتبرت هذه العلاقات التحالفية حيوية جــدا لدرجة أنها كان تمبررا لقيام حرب عالمية لحمايتها مهما كانت صغيرة، اذا كان البديل هو اضعاف نظام التحالف • وتحت مثل هذه الظروف كانت الصراعات الدولية مستوطنه ، وقد حدثت الحرب العالمية الأولى نتيجة لمثل هذه العوامل •

هذا وقد نشأت الحــرب العالمية الأولى عن عــدم قدرة النظــام السياسى الأوربى من أن يتكيف مع الضغوط المتناقضة للقومية والاعتماد المتبادل وأكثر من ذلك فان معاهدة السلام فى عام ١٩١٩ لم تفعل شيئا أكثر لحل هذه المشكلة الأساسية • بل على العكس فقد استمالت الحرب كل القوى التى كانت تميل الى تقوية القومية ، وتركيز السلطــة فى يد الدولة ، والاكتفاء الذاتى الاقتصادى ، واضعاف المؤسسات والمعتقدات التى كانت تعمل من أجل التوفيق بين الاختلافات الموجودة فى المجتمعات• وهكذا فان القومية الثقافية ، والسيادة الاقتصادية المطلقة أصبحتا هما نظام اليوم ، وأثرتا ضد كل مقترحات مؤتمر السلام ، وكانت فيما بعد

---

1) Ibid, p. 25.

عملا مقويا للترتيبات التى وضعت من أجل اقامة مؤسسات للضغوط الدولية من أجل التحديث •وقد ازدادت شدة وضراوة الازمة الاقتصادية التى لم يحدث لها مثيل من قبل نتيجة لحركات القومية الاقتصادية التى اضعفت أيضا كل المجهودات من أجل ازاحة الأزمة بالطرق الدولية • وبالرغم من ذلك فقد كانت النتائج العميقة للازمة والتى ظهرت فى المقدمة هى ثلاثة برامج للعمل أصبحت واضحة الصراع فى الحرب العالمية الثانية: تهدف الأولى منها الى تكامل القطاعات الكبرى من العالم تحت قوى محورية ، والثانية تؤيد اقامة دولة اشتراكية عالمية تحت رعاية السوفييت ، والثالثة تؤيد نظاما دوليا متعددا داخل اطار عمل واسع من الترتيبات السياسية الدولية والاقتصادية تحت قيادة الديموقراطيات الغربية (١) •

وعند هزيمة قوى المحور فى الحرب العالمية الثانية ، أصبحت البرامج الغربية ، والبرامج السوفيتية للتحديث فى منافسة من أجل التأثير فى العالم كله لفترة عشرين عاما تقريبا • وقد تضخمت هذه المنافسة بالاسراع فى العملية ــ نتيجة للحرب ــ لمدة جيل أو أكثر فى الاستقلال القومى لكثير من المجتمعات التى كانت تحت الحكم الاجنبى • ولم تقدم الحربين العالميتين لهذه المجتمعات فرصا لم تكن متوقعة فقط للتخلص من الحكم الأجنبى ، ولكنها أثرت أكثر فى ظهور حركة تحديث أسرع بسبب عدم قدرة البلاد المتروبوليتية فى الاحتفاظ بالخدمات التى كانت تقدمها فى وقت السلم • وفى السنوات التى اعقبت الحرب العالمية الثانية ارتفعت ضرورة والحاح مشاكل التحديث عامة ، ولان تكاليف الحرب العالمية كانت عائقا فان قدرة القوى العظمى فى التنفيذ ، واكتساب التأثير على ثورات التحديث المحلية كانت تتزايد فى القبول كوسيلة رئيسية لتغيير التوازن الدولى للقوة • وفى نفس الوقت فان الاستقطاب الحاسم الذى كان يميز السياسة العالمية فى السنوات

---

1) Ibid, p. 26.

العشر أو العشرين التى اعقبت الحرب العالمية الثانية تحلل تدريجيا الى مجموعة أكثر مرونة فى العلاقات • وفى هذه الظروف أصبحت المجتمعات النامية قادرة على أن تبحث عن المساعدة من خلال مصادر مختلفة ، كما تزايدت حريتها فى التكيف ، ودمج نماذج أجنبية مختلفة خـلال بحثها عن المؤسسات الحديثة التى تتناسب مع تراثها التقليدى ـ

وفى منتصف الستينيات لم يكن هنـاك أكثر من خمسـة عشر أو عشرين بلدا فى العالم يمكن اعتبارها على أنها بلاد «متقدمة» بمعنى أنها ذهبت الى مدى بعيد من استغلال امكانيات التحسن والتقدم المتاحـة للمعرفة الحديثة • ومازالت الغالبية العظمى من شعوب العالم فى حوالى مائة بلد أو أكثر تواجه الالتزام الطويـل والشـاق من أجـل تكييف مؤسساتها للوظائف الحديثة وللتعاون من أجل اقامة نظـام دولى يجعل المجتمع آمنا ومطمئنا وهو فى طريقه للتحديث •

الدافع الى التحديث (1)

بعد أن تكلمنا فى الجزء السابق من هذا الفصل عن « التغير كشرط للحياة الحديثة » وعقدنا مقارنة بين العالم القديم والعالـم الحديث ، وكيفية انتشار خصائص التحديث من مجتمع الى آخر وشروط هـذا الأنتقال ، والعلاقات بين المجتمعات وخاصة نوع العلاقة التى قامت بين المجتمعات التى سبقت فى مجال التحديث وأصبحت من القوى العظمى فى العالم والمجتمعات المستحدثة والتى مازالت تبحث عن الطريق الذى يناسبها من أجل التحديث • ولهذا سوف نحاول هنا أن نبحث عن الدافع الى التحديث • ونبدأ بالتساؤل : لماذا تنطلق بعض الدول فى طريق النمو الاقتصادى والاجتماعى السريع بينما تقف الاخـرى ثابتة أو تتراجع

---

1) David C. McClelland, «The Impulse to Modernization» in Myron Weiner (ed.), op. cit, p. 28.

وتنحدر ؟ ولقد أثار هذا السؤال الكثيرين من المؤرخين دائما . لماذا ظهرت حضارات عظيمة وقوية مثل المدن الاغريقية الكبرى وخاصة أثينا وبدأت فى التوسع بدءا من القرن السادس قبل الميلاد وحتى بعد ذلك بقرنين من الزمان وبدأت تنتشر ثقافتها دون تمييز على أصول الحضارة الغربية ؟ ولماذا هزم البحارة الرومانيين فى معاركهم البحرية مع القرطاجنيين مرة بعد مرة فى القرن الرابع قبل الميلاد وأصروا على ايجاد الوسيلة التى تمكنهم من بناء أساطيل جديدة وقوية حتى انتصروا فى النهاية ؟ ومع ذلك فقد كان الرومان فى حالة توسع مستمرة لدرجة أنه الى جانب الانتصارات كانت توجد هزائم كثيرة ومكلفة لا تتوقف واذا انتقلنا الى القاء نظرة على عصر حديث نسبيا يمكن لنا أن نتساءل عن السبب الذى أدى بالانجليز الذين سكنوا جزءا من أمريكا الشمالية فى البداية الى أن يتطوروا وينموا اقتصاديا بسرعة كبيرة بعكس الجزء الاخر الذى سكنه الاسبان أولا والذين اعتقدوا أن الجزء الذى احتلوه أغنى من الجزء الاخر ومع ذلك تقدموا ببطء شديد وحتى وقت قريب ؟ ولماذا انطلقت اليابان من الناحية الاقتصادية فى القرن التاسع عشر ولم تنطلق الصين مثلها رغم تشابه الظروف الاقتصادية والاجتماعية ؟ وعموما ، فاننا يمكن ان نعقد المقارنات الى مالا نهاية . وهنا يظهر السؤال الذى بدأنا به وهو : ما هو الدافع الذى ينتج عنه التقدم الاقتصادى والتحديث ، وما هى صيغته ومن أين يأتى ؟

لقد توصل علماء النفس الى نتيجةغيرمتوقعة لتفسير هذا الغموض القديم ، وهى نتيجة غير متوقعة بمعنى أنهم لم يكونوا يعملون مباشرة فى دراسة هذه المشكلة عندما توصلوا الى الاكتشاف الذى القى بعض الضوء على عملية النمو الاقتصادى . لقد كانوا يعملون فى المعمل لعزل ما يمكن أن يسمى بنوع معين من « الفيروس العقلى » أى طريقة معينة للتفكير كانت نادرة الحدوث ، ولكنها حينما تصل الى الفرد فانها تجعله يسلك بطريقة نشطة بشكل خاص . وباتباع طريق هذا الاكتشاف للحظة

فانه يساعدنا على أن نفهم بتفصيل أكثر م هـو ند فع مى التحـدث ومن أين يأتى .

وقد أطلق العلماء على هذا الفيروس العقلى اسم « الحـاجه الى الانجاز » لانه ظهر فى عينة من أفكـار الشخص التى بواسطتها تتعلق الأفكار مع « أداء الشىء جيدا » أو « أداء الشىء أحسن » عن أدائه قبل ذلك ، وبكفاءة أكبر ، وسرعة أكثر ، ومجهود أقل ، ونتيجـه أحسن وهكذا . فمثلا يمكن ان يطلب من الافراد أن يسردوا بعض الوقائـع للحصول على عينـه من أفكارهم التلقائيـة فالفرد (أ) يحكى قصـة « شاب يدرس من أجل الامتحان ولكنه يجد صعوبة فى التفكير والتركيز لانه يظل يفكر فى الفتاه التى يحبها » . أما الفرد (ب) فانه يتكلـم عن « شابمصمم على الحصول على درجة عالية فى الامتحان لانه يريـد الالتحاق بمدرسة مهنية معينة : فهو يدرس بجـد ، ويسهر الليالى ، ويعانى من القلق لانه يعتقد أنه لم يؤد عمله بدرجة كافية وهكذا » ومن الواضح أن الفرد (ب) لديه « حاجه الى الانجاز » أكبر من الفـرد (أ) ويصل الى تسجيل أعلى ، وهو يتأثر أكثر بهذا الفيروس العقلى . وطرق الوصول الى هذا الفيروس (أى وجود مثل هذه الافكار) دقيقـة جدا وموضوعية . ويمكن تطبيقها آليا على عينات من الافكار من الافراد من وسط الجماهير أو على أشكال أخرى من الأدب الشعبى .

وعندما تم تصنيف عينات من الأدب الشعبى لمعرفة مدى وجـود ظاهرة « الحاجة الى الانجاز » على مدى فترات طويلة من الوقت وقد ظهرت العلاقة بين هذا الفيروس العقلى وبين النمو الاقتصادى بصورة واضحة . فمثلا وجد أن محتوى « الحاجة الى الانجـاز » فى الأدب الاغريقى القديم (من القرن السابع الى القرن السادس قبل الميلاد) كان أعلى من « الحاجة الى الانجاز » عند الاغريق بعد ذلك (من القرن الخامس ق.م وبعده) ، وأن محتوى « الحاجة الى الانجاز » فى الأدب

الشعبى الانجليزى فى القرن السادس عشر كان أعلى من شبيهه فى الأدب الاسبانى فى نفس الوقت • فهل يمكن تفسير ذلك بأن تكون « الحاجة الى الانجاز » هى الفيروس العقلى الذى جعل الاغريق الأوائل أكثر نجاحا من الناحية الاقتصادية عن الاغريق الذين أتوا بعد ذلك ، وجعل من الانجليز فى أمريكا الشمالية أكثر نجاحا من الناحية الاقتصادية اكثر من الاسبان ؟ ولقد ظهرت بعد ذلك نتائج أكثر اثارة وأهمية ، وذلك من خلال دراسة محتوى « الحاجة الى الانجاز » فى انجلترا من خلال الاغانى الشعبية الشائعة ، والمسرحيات الشعبية ، التى أمكن تدوينها فى مجموعات كل ربع قرن من أيام ملوك التيودور حتى الثورة الصناعية• وفى نفس الوقت احتسبت معدل سرعة النمو الاقتصادى منذ وقت استيراد الفحم الى لندن • وقد أمكن تتبع الارتفاع فى ظاهرة « الحاجة الى الانجاز » فى التفكير الشعبى بعد ذلك بحوالى ٥٠ عاما عن طريق الارتفاع السريع فى معدل النمو الاقتصادى مرة فى حوالى عام ١٥٢٥ ، ومرة أخرى فى حوالى ١٧٢٥ ـــ ١٧٥٠ وحدث بعد ذلك انحدارين فى ظاهرة « الحاجة الى الانجاز » تلاهما حالة من الركود النسبى بعد ذلك•

وقد بدأ النظر الى « الحاجة الى الانجاز » كما لو كانت جزءا من الدافع الى النمو الاقتصادى ـــ جزء يمكن التعرف عليه وقياسه • وقد تبين من دراستين قام بهما « دافيد ماكليلاند »وقدمهما فى كتابه «مجتمع الانجاز» [1] حيث أوضح أن « مستوى العدوى » فى مجتمع ما بفيروس « الحاجة للانجاز » يمكن تقنينه من خلال القصص الخيالية التى تستخدمها الدولة فى تعليم جيلها الثالث أو الرابع من الأطفال كيفية القراءة • حيث تبين أن هذه التقديرات لمستويات العدوى بفيروس الحاجة الى الانجاز ترتبط بوضوح مع النسب التالية للنمو الاقتصادى على أساس خطى ١٩٢٩ أو ١٩٥٠ ، أى أن المجتمع الذى كان مستواه

1) David C. McClelland, «The Achieving Society», Princeton, N.J : O. Van Nostrand Company 1961.

كانت فى حيدر . بحدس الأطفال من حيث « الحاجـه الى الانجاز .
فى حوالى ١٩٢٥ كان من المحتمـل أن ينمو بسرعة أكبـر من ١٩٢٩ الى
١٩٥٠ من بلد اخر ذى مستواه أقل من ناحيه « الحاجه الى الانجاز »
فى عام ١٩٢٥ . وقد حصل « مالكيلاند » على نفس النتيجة عندما ربط
مستويات « الحاجـة الى الانجاز » فى عـام ١٩٥٠ مع نسـب النمو
الاقتصادى فى أواخر الخمسينيات بالنسبة لعينة تشمل حوالى اربعين
مجتمعا ، فالمجتمعات التى كانت أعلى من حيث « الحاجة الى الانجاز »
نمت أسرع من الاخرى .

ولكن لنفرض الآن أن علماء النفس وجدوا طريقا لقياس جزء من
الدافع للعمل نحو الافضل ، وللنمو اقتصاديا فكيف تتم هذه العملية ؟
لقد ظهرت نظريات عديدة فى هذا الموضوع ، ولكن أبسط طريقة لفهمها
وتلخيصها هو أن نأخذ مجتمعا واقعيا ، ونشاهد الدافع وهـو فى حالة
عمل فعلية بطرق عينية واقعية . فمنذ سنوات مضت تقرر أنه اذا كان
هذا الفيروس أى « الحاجـة الى الانجاز » هـاما فى عملية النمـو
الاقتصادى فان الانسان يحاول أن ينقل العدوى به الى المجتمع ليرى اذا
كان ينتج عن ذلك تأثيرات توصف بالتأمل فى استعادة الماضى بعد أن يبدأ
الانطلاق . ويستطيع الانسان أن يجرى التجارب بنفسه لكى يتحدث عن
أى نوع من المجتمع يمكن أن يتأثر بالعدوى ، وأيها لا يمكن ان يتأثر ،
وان يرى اذا كان هذا العامل فى الحقيقة حاسما فعلا فى عملية الانطلاق .
وقد كان المجتمع الذى وقع عليه اختيار « ماكلينان » [1] هو مدينـة
« كاكينادا » وهى مدينة يبلغ تعداد سكانها حوالى ١٠٠ الف نسمة وهى
تقع فى « اندهرا براديش » بالهند على خليج البنغال . وقـد برهنت
البحوث السابقة على أن رجال الأعمال هم أحسن من « يستضيف » هذا
الفيروس . فهم أكثر احتمالا للتمسك ببعض « الحاجة الـى الانجاز »

1) McClellond, op. cit, p. 13.

والاستفادة عينيا من الاصابة بالكثير منه • وبهذا دعى رجال الاعمال فى كاكينادا ليشاركوا فى هذه التجربة التى تضمنت رحلة تستغرق ٣٥٠ ميل الى حيدر أباد العاصمة لحضور مجموعة دراسات عن التقدم الذاتى لمدة عشرة أيام فى معهد للتدريب على الصناعات الصغيرة وقد صممت لزيادة « حاجتهم الى الانجاز » وأن تعطيهم تأملا لانفسهم ولأعمالهم • وعموما • فقد تدرب اثنان وخمسون منهم فى مجموعات على فترات أثناء عام ١٩٦٤ •

ولعله من الصعب وصف طبيعة الدراسة بالتفصيل • ويكفى أن نقول أنها كانت اختيارية ، وملائمة لمكان الاقامة ، ومكثفة ، وقد استفاد الباحث من كل معلومة استطاع جمعها عن طبيعة وتوظيف « الحاجة الى الانجاز » فى خلال سبعة عشر عاما من البحث ، أى أن المشاركين فى التجربة تعلموا كيف يفكرون بسهولة بلغة « الحاجة الى الانجاز » وأن يتصرفوا فى الحياة كأشخاص لهم حاجة عالية للانجاز وذلك لكى تتلاءم الحاجة للانجاز مع صورتهم الذاتية ، والقيم الثقافية المتصارعة وذلك لتكوين مجموعة ذات مصالح مشتركة اطلق عليها اسم « اتحاد ملتزمى كاكيناوا » الذى حرص على ابقاء الفكرة حية ومستمرة وهكذا •

وقد كانت نتيجة هذه الدراسة شديدة الصلة بالموضوع ، فقد نجحت بدرجة كبيرة فى غرس فيروس « الحاجة للانجاز » فى رجال الاعمال • وعلى أساس الدراسات التى اجراها الباحث فى هذه المدينة وفى أجزاء أخرى من الهند استطاع أن يقرر أنه فى خلال عامين فقط فان ثلث هذه المجموعة من رجال الاعمال سوف تظهر لديها علاقات نشاط عملى غير عادى ، وابداعى مثل البدء فى مشروع انتاجى جديد • والقيام بعمل ينتج عنه ارتفاع فى الاجور ، أو الدخول فى دراسة الحسابات • وعموما فان ثلثى رجال الأعمال فى كاكيناوا « ظهرت لديهم علامات للقيام بالتزامات غير عادية • وبمعنى أخر فان الالتحاق بهذه الدراسات لغرس فكرة « الحاجة الى الانجاز » قد ضاعفت من النسبة العادية أو التلقائية

للنشاط الابداعى فى الهند ، وقد حصل المؤلف على نفس النتيجة عندما طبق نفس الدراسة فى مدينة « بومبى » •

ومع ذلك فان الاحصاءات تخفى الجزء الهام • وهو الـذى يدور حول : ما الذى يستطيع رجال الاعمال كأفراد القيام به ؟ وللاجابة على هذا السؤال يمكن أن ننظر فى بعض الحالات كمثال : —

١ — لقد بدأ كثير من الناس فى الاهتمام بالعمل بصورة أكبر بعد الدراسة • وكان بعضهم قد ورث عمل الاسرة مثل محلات الـدراجات التى كانت تعطى عائدا مجزيا اذا عهد بها الى مساعدين موثوق بهم ؛ فى الوقت الذى يتمتع فيه صاحبها بالحياة • وقد أثار التغير فى « الحاجة الى الانجاز » درجة حضورهم الى العمل • فقد كانوا يحضرون مبكرا ، ويظلون لفترة طويلة ، ويهتمون بالزبائن بانفسهم ، وتدريجيا وجدوا أن أعمالهم تتحسن ، ودخولهم ترتفع • ووجهة نظر رجل الاعمال كشخص يدفع الى العمل بصورة جدية تدفعة الرغبة فى الربح لم تحدث ببساطة عند كثيرين من رجال الاعمال • فقد كانت لديهـم نقود تكفيهـم لكى يعيشوا حياة مريحة فلماذا يجهدون أنفسهم ؟ وبعد التحاقهم بالدراسة واقتناعهم بها بدأوا يجهدون أنفسهم ليس من أجل اكتساب المال فقط ، ولكنهم كانوا مصممين على القيام بعمل أفضل ، وأن يظهروا أنفسهم فى صورة أحسن من أجل أنفسهم ، ومن أجل مدينتهم كاكينادا ، ومن أجل الهند • ومن الملاحظ أن « حب العمل أو الاجتهاد » ولم يكن مـدرجا اهتمام بالربح ، فهم لم يكونوا «يحبون» العمل أو النقود بعد التحاقهم بالدراسة أكثر من ذى قبل ، فقد عملوا ساعات أطول ، لان هذا كـان يبدو أنه الطريق المناسب لهم فى القيام بعمل أفضل ، والحصول عـلى اكتفاء أكثر من الحياة •

٢ — بدأ بعضهم فى الابتكـار والتجديد • حيـث كانت تجرى مناقشات لا نهاية لها عما هو التجديد أو الابتكار الحقيقى • وهذا معناه

باللغة البسيطه القيام بشيء جديد أو مختلف لموقف ووقت معين . فما يعد ابتكارا أو تجديــدا بالنسبـــة لمدينة كاكينادا قد لا يعتبـــر كذلك بالنسبه لمدينة بومبا ى. وأغلب التجديدات كانت توسعات فى عمل كان يقوم به الشخص من قبل . ومثال ذلك أن أحد المصورين الفوتوغرافيين قرر أن يعمل فى صقل العدسات لان النظارات لم تكن تصقل محليا ، ولقد استغل تاجر فى الجنوب أنواعا مختلفة من الطواحين ليجد الطاحونة التى يمكن استخدامها بشكل ينتج له أكبر قدر من الربح فى السوق المحلية . وقرر أحد أصحاب محلات الدراجات أن يصنع قوائم الدراجة محليا . كما بذلت مجهودات لاكتشاف كيف استطاع اليابانيون تحويل الألياف وادخالها فى صناعة الفرش لكى تنتج محليا بدلا من تصدير المادة الخام. وقد استطاع أحد قادة المجموعة أن يحث الآخرين على التجديد حيث أشار الى أنه قد طرد من عملية انتاج زيت الخروع لان شـــخصا ما فى بومباى قد طور فنا لانتاج زيت خروع نقى جدا . ولقد كـــان هؤلاء الرجال جميعا نشطين بطريقة مكثفة فى البحث عن طرق جديـــدة لعمل الأشياء القديمة ، أو على الاقل أن يقوموا محليا بعمل ما يمكن أن يتم الآن بنفقات كبيرة اذا تمت الاستعانة بالمراكـــز الحضارية الكبـــيرة . فالابتكار أو التجديد الذى يعمل فيه الافراد ذوى « الحاجـــة العالية للانجاز » ليس ابداعا فنيا حقيقيا أنه يتحرك بالرغبة فى ايجـــاد طريق أفضل لانجاز العمل (١) .

٣ ــ لقد بدأ الكثيرون فى استثمار المال بطرق مختلفـــة ، وأكثر هؤلاء وضوحا كان مدير أحد البنوك المحلية الذى يقول أنه قبل التحاقه بهذه الدراسة واقتناعه بمنهجها كان يقرض النقود فقط فى حدود الضمان المقدم . ومعنى هذا هو رهن الارض كضمان اضافى ، والـــذى يعنى بدوره أن النقود لايمكن أن تقرض الا لأصحاب الارض الاغنياء الذين (أ) لا يحتاجون الى قروض بالفعل و (ب) الذين لم يكونـــوا نشطين فى

1) Ibid, p. 33.

نقيم بالتزاماتهم باى طريقه ، وأنهم يحتاجون للاقتراض فقط من أجل بعض المصروفات سداده كالزواج مثلا ، وكنتيجة لذلك فان البنك تحت ادارته لم يقم باقراض نقود كثيره وكانت أحواله ثابته الى حد كبير ، وبعد انتظامه فى الدراسة الحالية فقد قرر أنه يجب أن يقـدم القروض المالية ليس فقط تحت هذا الضمان ، ولكن أيضا بشروط تحـدد نوعية الانسان الذى يطلب القرض ، ونوعية المشروع الذى يريد المال من أجله، وحرصه على تطبيق هذين المعيارين الجديديـن « الثوريين » للقروض أدى به الى قبول بعض المخاطر التى كانت أكبر مما كان يقبلـه طبقـا للمستوى القديم من حيث الأمان المطلق ، ولكن طالما يقـوم المقترضون بدفع قروضهم ليس فقط فى النشـاط المتزايد فى قسم القروض التجارية، ولكن فى الايداعات أيضا ، وهكذا أصبح البنك تحت هذه الادارة الثورية الجديدة قوة تغيير وتنشيط فى المدينه ، وأصبح له عمل أفضل فى كاكنتا ، ولكنه قرر أن يستمر فى عمله الحالى ليساعد مجتمعه على النمو ، حيث كان يشعر بفخر عظيم فيما كان يؤديه من أجل « كاكينادا » ، والملاحظة الهامة هنا هى أن الانتقال نحو أداء العمل بصورة أفضل كان له تأثـير اقتصادى ضخم على المستوى المحلى عندما حدث عند رجـل فى موقع يمكنه من اتخاذ قرارات هامة ،

وقد تساءل أحد رجال البنوك وهو مقرض تقليدى للمال بقوله : لماذا يجب أن استثمر أموال فى الصناعة فى هذه المدينة مع العلم أننى استطيع أن أقرض المال بربح اثنان فى المائة شهريا مع ضمان مطلق ؟ اننى قد أفقد نقودى فى الصناعة ، وأيضا على أن انتظـر وقتا طويلا قبل أن أحصل على أى عائد » ، وهنا نتساءل نحـن أيضا : لمـاذا فى الحقيقة يجب عليه أن يستثمر ماله فى العمل ؟ اننا نريد اجابة اقتصادية على سؤاله هذا تقنعه بأن يقلع عن اقراض المال بفائدة ٢٤٪ فى السنة قابلة للدفع الفورى بنسبة ٢٪ شهريا مع ضمان مطلق من أجل استغلال طويل الاجل فى صناعه قد تبدأ فى تسديد ما دفع فيها خلال من ثلاث الى خمس سنوات وعلى أحسن تقرير بربح يصل من ١٠ الى ١٥ فى المائة ، ومع ذلك فهذه هى المشكلة الاساسيـة فى كاكينادا ، فهناك كثـير من

الأسر الغنية فى المجتمع ، وليس هناك اذن أى نقص فى رؤس الأموال المطلوبة من أجل تمويل مشروعات جديدة ، ومع ذلك فليس هناك أسباب مالية تحتم استخدام الاموال فى أغراض التنمية . فالاتجاه السائد عند عامة الناس وكما يحدث هنا فى المجتمع المصرى هو تخزين النقود وتحويل جزء كبير منها الى ذهب تتحلى به النساء . وبالرغم من ذلك فقد تحول الكثيرون الى استثمار أموالهم فى تنمية الأعمال ، ولذلك بعد اصابتهم بعدوى فيروس « الحاجة الى الانجاز » فانهم لن يحترموا أنفسهم بعد ذلك اذا جلسوا ساكنين دون أن يفعلوا شيئا .

٤ — بالرغم من قلة عدد الذين بدأوا مشروعات جديدة تماما ، فقد قرر أحد أصحاب المحلات الصغرى للراديو اقامة مصنع للطلاء والورنيش له اهتمامات أكبر مما هو قائم بالفعل . وقد خصص للمشروع المال اللازم ، واستخدم كيماويا له دراية بالموضوع ، وحصل على المصنع ، وبدأ عملية الانتاج والبيع فى خلال شهور قليلة . وبعد هذا جعل كل الميزات الموجودة فى المعمل ترتبط بمستوى عال من « الحاجة للانجاز » ، فقد أقبل هذا الرجل على مخاطرة محسوبة النتائج بعد أن فحص الموقف بدقة من حيث الارباح المتوقعة عند بيع منتجات مختلفة . وقد اتخذ لنفسه مسئولية شخصية فعالة وذلك من حيث متابعة المشروع وهو يعمل ، وكان يقوم بعمل جديد ومختلف ، ولم يكن يؤديه غيره ، مما كان يعطيه شعورا بالتفوق والامتياز والانجاز . وكان يكتسب فى كل هذا قناعة الانجاز وهو ينفذ بنفسه مخاطرة لم يقدم عليها أحد من قبل ، وأن يحدد عينيا تقدمه بلغة المبيعات والأرباح . وأكثر من ذلك، فانه بدأ أيضا فرعا جديدا فى محل الراديو حيث عين سيارة للادارة وكان هذا تجديدا مثيرا فى هذه المدينة . وهذا الموقف الجديد يصور بوضوح كيف أن الرغبة القلقة للتقدم المستمر قد تحطم التقاليد الاجتماعية الثنوية بحثا عن طرق جديدة لأداء الأشياء بطريقة أفضل . وهذا يفسر الى حد ما لماذا يكون رجال الاعمال غير محبوبين لانهم غالبا يصطدمون بالتقاليد عندما يصابون بعدوى « الحاجة للانجاز » .

وباختصار ، فان ثورة اقتصادية صغيرة ومحدودة يبدو أنها تحدث فى « كاكينادا » ويمكن ان تستمر اذا ظل فيروس « الحاجة الى الانجاز » ثابتا ، فانه بمرور الوقت سوف تظهر انطلاقه الى حركة تنمية اقتصادية سريعة ومن الملاحظ أن ماورد من الخارج لم يكن مادة معينة ولاتعليمات فنية ، فكل ما كان لدى . جال الاعمال فى « كاكينادا » أو كل مايستطيعون الحصول عليه من الحكومة ليس فكرة ، أو دافع ، أو شرارة ، أو حافز يبدو ضروريا لوضع هذه العملية موضع الحركة والتنفيذ • ومع ذلك فقد كانت تأثيراتها بعيدة المدى ، لان رجــال الاعمال هــؤلاء يتحكمون فى غالبية المؤسسات الهامــة فى المدينة مثل : البنــوك ، ودور السينما ، والمحلات ، ومصانع السباكة للمعادن ، والمطاحن الــخ • وسوف تؤثر أفعالهم وقراراتهم بصورة حيويــة فى دخول ألوظائــف ، ومستويات الطلب على البضائع ، والاسعار التى يحصل عليها الفلاحون ثمنا لبعض محاصيلهم وكل الحياة الاقتصادية بوجه عام •

ومع ذلك ، فــان « الحاجة الى الانجــاز » ليست كــل شىء فى التحديث • انها فقط أحد المفاتيح له • ولكى نوازن الصورة قليلا نرى أنه من المناسب أن نصف أحد مصادر التحديث الاخرى ، وان لم تكن قد بحثت بعد بدرجة كافية ، ولكنهــا على درجة كبــيرة من الاهمية ، فالحاجة الى الانجاز نفسها تعتبر فضيلة أو ميزة فردية ، وهى لاتقود الفرد آليا نحو أنشطة أو مشروعات اجتماعية مفيدة • ففى غياب الضمير فانها يمكن أن تقود الى نجاح فى مجال الجريمة مثلا • ومع ذلك فانــه فى دراسة « كاكينادا » كان واضحا منذ البداية أن الناس كانوا يريدون عمل شىء ليس من أجل أنفسهم ، ولكن من أجل مدينتهم ومن أجل الهند بوجه عام ، بل من الممكن أن يكون من أجل العالم كله ، وخاصة بالنسبة للمجتمعات التى تشبه مجتمعاتهم • ولقد كان هذا الحافز بمثابة «هداية» لهم فقط لها أهمية اجتماعية دفعت بهم الى الامام بالفعل وأكثر من ذلك ، أرادوا أن ينضموا الى بعضهم البعض لكى ينشطوا ويقيموا دولة صناعية

فى مدينتهم . وأى انسان يعرف الهند جيداً ، يعرف أيضا كيف أن هذه العملية التعاونية محدودة للغاية ، ومع ذلك ، فقد تحرك هؤلاء الرجال بالرغبة فى عمل شىء موحد من أجل الصالح العام .

وقد وجد هذا الموضوع الذى يخص الصالح العام أيضا فى الكتب المدرسية للاطفال . (والتى سبقت الاشارة اليها من قبل) والتى تستخدمها البلاد التى كانت سباقة فى مجال التنمية ، وهذه القصص تصف الناس أو الشعوب التى تتأثر برغبات واحتياجات الاخرين . أما قصص الاطفال فى المجتمعات التى تنمو ببطء فقد كان هناك رجوع الى التقاليد أو الأساليب العادية لعمل الاشياء . فالانسان فى هذه القصص كان يؤدى عملا ما بطريقة معينة لانه لابد أن يتم بهذه الطريقة ، وليس بسبب احتياجات شخصية أخرى . وقد كانت معظمها كما لــو أن بعض المجتمعات تحتفت من أنه لكى تجعل الناس يفكرون فى التحديث فقــد كان عليهم أن يحلوا محل تقاليدهم العادية اهتماما جديدا برخاء الاخرين الذين قد يكونون غرباء عنهم ، وأكثر من ذلك فمن المحتمل أنــه بهذه الطريقة يمكن للانسان أن يشرح بسهولة أكبر عوامل الارتباط التى وجدت بين استثمارات الصحة والتعليم والمعدلات التالية للنمو الاقتصادى . فماذا تسارع استثمارات الصحة فى النمو الاقتصادى ؟ قد يتوقع البعض انها سوف تقلل من سرعتها بتقليل وفيات الاطفال ومن ثم تزيد عــدد السكان أسرع من النسبة العادية النشطة للجماهير مع انتاج الطعام . ومع ذلك ، فان الدراسة الواعية لتاريخ حوالى ثلاثين أو أربعين من البلاد النامية توضح أنه فى كل حالة تقريبا يتضح أن أقل مستوى للصحة العامة قد تحقق قبل أن تستطيع الدولة أن تندفع نحو معــدل سريع للنمــو الاقتصادى . وقد يكون هناك تفسير واحد ، وهو أن العناية بالصحــة يؤثر مباشرة فى اهتمام الانسان بزملائه ، وهذا بــدوره هو المفتــاح السيكولوجى الثانى المقوم والضرورى للتحديث . وشبيه بذلك أيضــا الاستثمارات فى التربيــة حتى عــلى مستوى المدرسة الثانويــة فانها لاتسارع من معدلات النمو الاقتصادى فى الحال ــ ولكنها على المــدى

الطويل تفعل شيئا له قيمة ، أى بعد حوالى عشرين عاما ، عندما يكون خريجى المدرسة الثانوية فى قمة سلطتهم وقواهم • ومرة أخرى ، فانها لايمكن أن تكون مكسبا اقتصاديا سريعا ، أو حتى حاجة الى الانجاز تقود الشعب الى البدء فى التأكيد على تربية أطفالهم • ومن المأمول فيه أن يكون هذا المقوم الاخير والذى نطلق عليه « الاهتمام بالرخاء العام للكل » موضوعا للتحقيق • وبالرغم من ذلك فان هذا الاهتمام ينتج ربحا اقتصاديا •

وباختصار فان « الدافع الى التحديث » باللغة السيكولوجية المثالية يبدو أنه يتكون من ناحية من الفضيلة أو الموهبة الشخصية وهى « الحاجة الى الانجاز » ومن ناحية أخرى من فضيلة اجتماعية وهى « الاهتمام بالرخاء العام للاخرين » ولكن من أين يأتى هذا الدافع أو هذا الحافز ؟ وللاجابة على هذا السؤال نود أن نشير الى أن « الحاجة الى الانجاز » ليست ميزة عنصرية أو بيئية لانه من الواضح أن أى ثقافة يمكن أن تصبح مجالا للعدوى بالفيروس فى احدى لحظات التاريخ، وليس الامر كذلك فى وقت آخر • وهى لاتستمد من الغزو العسكرى ، والحقيقة أن العكس هو الصحيح ، فان المهزوم يبدو أنه ينمى « الحاجة الى الانجاز » بصورة مكثفة لان القوة تنقصه • وهى لاتنتج عن انتشار التعليم ، والتكنولوجيا ، أو النمو الاقتصادى على الاقل ليس بطريقة بسيطة • وهنا نجد مثلا للسلوك الذى يمكن أن يصورة كل اقتصادى مئات المرات • فقد قررت حكومة الهند أن تساعد صائدى الأسماك فى « كاكينادا » بتزويدهم بشباك صيد من النايلون ، والتى كانت تتعبر تحسنا تكنولوجيا فى هذا المجال • فهى تحتاج الى اصلاح أقل ، ولاتقطع أو تتلف بسهولة • وقد كانت الفكرة أن الصيادين سوف يصطادون أسماكا أكثر ، ويربحون أكثر ، ويشترون بضائع استهلاكية أكبر ، ويقودون رجال الاعمال فى « كاكينادا » الى توسيع أعمالهم وهكذا • ومن المؤكد أن الصيادين حصلوا على صيد أوفر ، ولكن حدث شيئين غير متوقعين • فبعضهم توقف عن الصيد بمجرد حصولهم على كمية توازى

ه كانوا يصطادونه من قبل (لقد عملوا أقل)وبعضهم كسب أرباحا أكثر وكون ثروات صرفوها فى شـــرب الخمور • ومع أن هـــذا ليس نهـــاية الموضـوع ، فان التجديد التكنولوجى أثبت مرة بعد أخرى أنه لا يحدث أو لايؤدى بالضرورة الى الاتجاه نحو التغير • فشباك الصيد الجديدة ذات النوعية الجيدة • لم ترفـــع درجة « الحـــاجة الى الانجاز » عند الصيادين ، ولا رغبتهم فى الأداء الافضل ، أو الادخار ، أو الاستثمار • فخلال تغلغل الثورة الصنـــاعية على الشاطىء الشمالى للبحر المتوسط فان سكان الشاطىء الجنوبى فشـــلوا فى الاهتمام بكـــل التجديدات التكنولوجية التى ظهرت فى شمال البحر بالرغم من مواجهتهم لهم • وفى هذا الوقت المبكر فان الدول العربية بوجه عام لم تكن مهمته بثقافة الآلة التى كان الاوربيون يجددون فيها ويطورونها •

ولكن من أين تأتى تغيرات الدافع أو الحافز ان لم تكن من الأحداث الظاهرة من البيئة هنـــاك ؟ فاذا لم تكن الظروف هى التى تخلق الدافع للاستفادة منها فما الموقف ؟ أحيانا يبدو أن مستويات « الحـــاجة الى الانجاز » هى نتيجة للظروف التاريخية التى مرت بها منطقـــة بعينها • فمثلا نجد أن الزنوج الامريكيين فى الطبقة الدنيا تكون حـــاجتهم الى الانجاز منخفضـة دائما ، وهذه الحقيقة تبدو واضحة لانه نتيجة اقتراب هؤلاء الزنوج من حالة العبودية وخاصة فى الجنوب لانه من المتعـــارف عليه أن الشعوب المحتلة غالبا ما تكافىء بسبب طاعتها ومسئوليتها أكثر من أن تكون معتمدة على نفسها أو أن توجه نحو الانجاز • ومن ناحية أخرى فاننا نستطيع أن نقدم مثالا واقعيا من نيجيريا حيث نجد أن قبائل « الايبو » « واليوربا » تصيبهم عدوى فيروس « الحاجة الى الانجاز » بصورة واضحة ، بينما قبائل « الهوسا » من الصعب اصابتهم عـــلى الاطلاق بهذا الفيروس • والتحليل الواعى والمدقق فقط للتاريخ المحلى لهؤلاء وهؤلاء هو الذى يمكن أن يدلنا على الاسباب التى غالبا ما تتوقف على أنماط مختلفة تتعلق بالهجرة •

وبالرغم من ذلك ، فاننا يمكن أن نضع تعميما•فالجماعات المتحمسة

والتى تقوم بالاصلاح الدينى — أو على الاقل أطفال الجيــل الاول — نجدهم جميعا تقريبا سريعى العدوى بفيروس « الحاجة الى الانجاز » وأصدق مثل يؤيد هذا الرأى هو الايام الاولى للاصلاح البروتستنتى فى الغرب الذى نتج عنه سلوكا عمليا مصــابا بعدوى « الحــاجة الى الانجاز » مثل سلوك سكان « كاكينادا » الذى استعرضناه • ولكن كانت هناك أقليات دينية أخرى مثل « البارسيس » فى الهند ، واليهود فى عدة بلاد ، « والساموراى » فى اليابان ، أو الهنود عبر البحــار فى شرق أفريقيا أو آسيا الذين أظهروا نجاحا بارزا فى العمل ، وحاجــة مرتفعة فى الانجاز • وما يميز كل هذه المجتمعات هو شعور مكثف لــه أساس عقائدى بأنهم أعلى وأرقى من الذين يعيشون حولهم ، وأنهم بمعنى أو أخر مفتاح الخلاص ليس لانفسهم فقط ولكن للبشرية جمعاء • وهكذا فان العنصرين السيكولوجيين الضروريين للنجاح الاقتصادى موجودين وهما الرغبة فى البرهنة على أن الفرد أفضل من الآخرين ، والحاجة الى الارتقاء بالمصلحة العامة أو الصالح العام وذلك على الاقل فى مجموعة الاقلية التى هى غالبا تكون مضطهدة نوعا ما • وقد تمكن الشيوعيون من العمل على خلق هذه القناعات بقوة عنــد أنصارهم فى القــرن الحالى ، ولذلك فلن يكون من المثير للدهشة أن نرى أن مستوى عدوى الحاجة الى الانجاز » قد ارتفعت فى الأدب الروسى ، والأدب الصينى بعد ثوراتهم الشيوعية • ومن التناقض الغريب أن الشيوعيين تمكنوا من تحقيق نمو اقتصادى سريع فى بلاد مثل روسيا ليس كما يعتقدون أنه بسبب تطبيق الاشتراكية ، ولكن بسبب اعتقادهم المتعصب بتفوقهم • أى أنه هنا كما فى أى مكان آخر فان الاقتناع بأن الانسان متفوق هو الذى يساعد على انتشار عدوى فيروس « الحاجة الى الانجاز » الذى يعتبــر المسئول المباشر عن الاسراع بالنمو الاقتصادى أكثر من أى نموذج أخر للتنظيم الاقتصادى •

وفى النهاية نتساءل . هل يجب اذن أن نشجع الناس على أن يؤمنوا بصرامــة بالنواحى النظرية ، وقناعــات الأقلية لكى يشعــروا بأنهم

متفوقين ، ويقبلون على زيادة الحاجة الى الانجاز ؟ من حسن الحظ أن العلم أمدنا بالبديل الأقل خطرا على سلام العالم ، والأكثر تأثيرا فى نفس الوقت . فقد تبين أنه بالتدريب المباشر والمنتظم أننا نستطيع أن نحقن الذين يحتاجون الى هذا الفيروس بكل من الحاجة الى الإنجاز ، والشعور بالمسئولية العـامة تماما كما حدث فى تجربـة « كاكينادا » الناجحة . لقد أمدنا العلم على الاقل ببعض المعلومات التى يحتاج اليها الناس الذين يرغبون عن طريق الفكر أن يزيدوا من قوة دافعهم الشخصى الى التحديث .

مستقبل التحديث (١)

قبل أن يتبنى الناس فكرة « التحديث » كهدف قومى ، ينبغى أن نعلم أن الناتج العام يوحى بأنهم يبحثون عن مصيرهم النهائى وطبيعته، ومن المألوف أن عددا كبيرا من الامم يلزمون أنفسهم بعملية التحديث ، ويتوقعون أنه طالما أنهم يضحون بجهود فوق العادة متضمنه فى التصنيع وفى التنمية : فان مستقبلهم سوف يكون خاليا من المشاكل . ومما لاشك فيه أنه اذا تفحصنا جيدا الخطط الخمسية فى أى مجتمـع فسوف نجد متضمنا فيها نوعا من الطموحات أو الآمال التى تستعصى على التحقيق ، ذلك أن القادة ومعهم الجمهور أيضا يميلون الى تصديق أن الجرى وراء التحديث أو الحداثة يسير فى طريق يحقق لهم فى نهايته الثمرة المرجوة والآمال العريضة التى ينتظرونها .

والحق أن الامة التى تمتلك قاعدة صناعية واسعة النطاق بطبيعة الحال ، وتتوصل الى مستوى عال من المعيشة ، مضافا اليه تكنولوجيا متقدمة لايمكن لمثل هذه الامة وبرغم كلذلك الا تكون لها مشاكلها المتميزة ومثال ذلك أن الولايات المتحدة ، وغرب أوربا ، واليابان يواجهون بدون شك تعقيدات وصعوبات ذات طبيعة انسانية وخاصة ما اتصـل منها

1) Robert C. wood, «The Future of Modernization» in Myron weine (ed.), op. cit, pp. 40 - 52.

بالشئون العامة للمواطنين وهى مسائل يمكن ان تظهر فى المراحل المتقدمة من التنمية . كما أننا نلحظ فى الجانب الاخر فى الاتحاد السوفيتى مثلا الذى يخطط مركزيا للتنمية من خلال مشروعات خمسية تصمم وتنفذ بطريقة صارمة أنه يواجه بين الحين والآخر ، بل وفى كل خطة خمسية كثيرا من المصاعب فى مجال الانتاج الصناعى أو الزراعى أو فى ميادين الخدمات والمرافق المختلفة .

ولعله من المهم لكل الدول أن تتفهم على نحو أفضل متضمنات التحديث وأن يتبينوا بكل جلاء أن الالتزام بالتغير هو التزام بلا نهاية ولايمكن أن يكون التزاما مرحليا بأى معيار ، ومن أجل هذا لابد أن نحاول أن نفهم طبيعة الحياة فى المجتمع الحديث بشكل يؤدى الى التعرف على ما يطرحه التغير أو نتائج التنمية من ملابسات جديدة أو تجديدات ربما تفرض مراجعات لأساليب الحياة قد يكون بعضها صعبا أو مضيئا أو يحتاج الى تعديلات واسعة النطاق فى كثير من أوجه النظام الاجتماعى ، مثل هذا الفهم واستشراف المستقبل والتعرف على أبعاده ضمانة هامة للغاية لابد أن تكون واضحة تماما لانها تفيد فى مقاومة أى وهم أو احباط لاى أمة تسير فى طريقها نحو التقدم وتسعى الى تحقيق أكبر جرعة من الرفاهية ممكنة .

ان أحد الطرق التى يمكن اتباعها للتعرف المستقبلى على طريق التحديث هو أن تتفحص ظروف الحياه التى تمر بها المجتمعات المسماه بالمتقدمة ، ومن ثم نستطيع من خلال ذلك أن نتعرف على المستقبل القريب أو المباشر ، وقد يفهم من هذا أننا نحاول أن نتبنى نماذج ثبت نجاحها فى مجتمعات معينة (كأمريكا ، وأوربا الغربية ، والإتحاد السوفيتى ، واليابان) باعتبارها النماذج الوحيدة التى ينبغى أن تحتذى اذا أريد للتحديث أن يدخل الى مجتمع معين من الباب الصحيح . ولكننا نقول ذلك لان تجربة التحديث تجربة انسانية وتاريخية فى المحل الأول ، والمجتمعات مهما كان موقعها على سلم التقدم الحضارى تتشابه

فى بعض الاتجاهات العامة وان لم تتطابق فى كثير من الظروف التى قد تجعل تطبيق النموذج بحذافيره معوقا للتحديث وليس محققا له . ومن الواضح أننا نستطيع فى مجال محدود أن نرسم بشكل عام الطابع المعاصر لهذه المجتمعات من خلال أوسع المصطلحات أو المقترحات ، ذلك لان عملية التحديث عملية مستمرة ، وحبسها فى نموذج محدد يتنافى مع طبيعة الواقع ، ومع مقتضيات المنهج العلمى . كما أنه من الواضح كذلك أنه لاتوجد مشاريع مكتملة أو واقعية تماما ، وهذا راجع الى أن عملية التغير تجرى بسرعة ملحوظة وخاصة اذا كانت التنمية المخططة تسير فى اتجاهها المرسوم وتدفع الى طريقها كل الامكانيات المتاحة أو التى يمكن اتاحتها . ويعنى ذلك أن نتوقع تيارا مستمرا من التجديد فى العلم والتكنولوجيا ، والاقتصاد ، والتنظيمات الاجتماعية و السياسية، وهو الأمر الذى لايستطيع معه أى دراس أن يحدد طريق التحديث المتنافى بشكل دقيق حتى لو أخذ فى اعتباره الحقبة القادمة مباشرة ، ومع ذلك فان المحاولة التى ينصح بها كثير من الدارسين من أجل تلخيص الظروف الحالية البارزة ومن ثم يمكن بناءا على هذا وضع المشاريع اللازمة فلن تفيد الا فى تحديد النقاط الهامة التى تصف التحديات الكبرى التى يمكن توقعها ، أو ربما تلك التحديات التى تقف على مقربة مباشرة من هذه المشروعات وخاصة اذا وضعت موضع التنفيذ (١) .

ان خير ما نحاول أن نقدمة هنا بصدد مستقبل التحديث هو التعرف على المشاكل التى حاولت المجتمعات المتقدمة أن تواجهها بالحل الصحيح، وينبغى أن نؤكد هنا أن أكبر انجاز لهذه المجتمعات هو السيطرة التكنولوجية على المصادر الطبيعية . أى القدرة على توفير مصادر الطاقة ، واستخدام المواد للوصول الى أعلى مستوى مادى للغالبية العظمى من سكانها ،ونستطيع أن نضرب هنا أمثلة عديدة فالولايات المتحدة مثلا التى تمتلك ٦٪ من أرض العالم و٩٪ من تعداد سكانه

---

1) Ibid, p. 41.

ينتج الآن ٣٠٪ من مخرجات العالم فى النفط و٢٥٪ من الصلب ، و٣٥٪ من الطاقة الكهربائية الكلية ، فاذا أخذنا أوربا الغربية مثلا آخر لوجدنا الأمر فى بعض جوانبه يفوق ما هو حادث فى أمريكا ، وخصوصا اذا أدخلنا المانيا الغربية فى الاعتبار ، فقد تضاعف انتاج الصلب والسفن وبناء المساكن فى الاثنى عشر سنة الأخيرة • ومما لاشك فيه أن فترة السبعينات والثمانينات تشهد نموا هائلا كذلك فى الاتحاد السوفيتى ، بل وفى بعض دول آسيا وأمريكا اللاتينية • ان هذا التدفق الهائل والمستمر للسلع المادية ، والاعتماد المستمر على مصادر الطاقة اللاانسانية ، والتصاعد المذهل فى الانتاجية شانه يعنى وفرة مادية ملحوظة تتمثل فى مزيد من الطعام والملابس ومساكن أفضل • وينعكس ذلك على التوقعات التى يمكن أن نلحظها على طابع الحياه فى هذه البلاد وخصوصا بالنسبة للمواطن العادى ، ويكفى أن نشير هنا أن كثيرا من الأمراض التى كانت معروفة ، ويقع الأطفال فريسة لها كالدفتريا والامراض الوبائية أصبح من الممكن السيطرة عليها • هذا فى الوقت الذى تعانى فيه مجتمعات العالم الثالث من نقص فى مصادر الطاقة ، وامكانات التصنيع ، وتراجع فى مستويات المعيشة يظهر عاما بعد عام نتيجة لمجموعة من العوامل أكثرها ظهورا فى هذه الايام هو ازدياد الكثافة السكانية دون محاولة للتدريب والتعليم وفتح مجالات جديدة للعمل والتوسع المحتوم فى الارض الزراعية وغير ذلك •وفى المقابل نجد أن الافراد فى المجتمعات الحديثة لديهم فرص كبيرة للغاية لاكتساب المهارات وتنمية المواهب مما يساعد بالتالى على مزيد من التحديث والتنمية والتقدم • ومن هنا يدعى كثير من الباحثين فى ميدان التحديث أن الناس الذين يتمتعون بصحة أفضل وبمهارات ملحوظة ، وبقاعدة معرفية عريضة مستندين فى ذلك الى تكنولوجيا متعاظمة تنطوى كل عناصرها على كفاية ممتازة ، هؤلاء الناس أمامهم فرصة حقيقية لتحقيق ذواتهم والعيش بطريقة أفضل دون متاعب طاحنة ، ان كثيرا من المؤلفين يشيرون بذلك الى الظروف التى تكتنف العالم المتقدم ، ويحددون ضمنا

الظروف المتناقضة التى تؤدى الى عكس ما ذكرنا فى مجتمعــات العالم الثالث وكأن طريق التحديث واضح وما على ابناء هذه المجتمعات الا أن ينقلوا التجربة الأوربية والأمريكية نقلا كاملا على الرغم من التحفظات التى يبديها بعضهم فى هذا المجال والتى أشرنا اليها من قبل .

وهناك شبه اجماع على أن تنمية المصادر الطبيعية ، والتحرر من المرض ، وزيادة التربية والتعليم ، واتاحة الفرصة كاملة أمام الافراد ، والاختيار المهنى يعتبر قاعدة أساسية للتغــير الذى يحدث فى العــلم والتكنولوجيا . ومعنى ذلك أنه بغير تحريك هذه المسائل جميعا فى اتجاه التنمية وتحديث الأساليب المستخدمة فى عملياتها فلن يتمكن أى مجتمع من أن يهىء الفرصة للتغلب على مشاكل التخلف، أو أن يؤمن الحياة العادية للاجيال القادمة . وليس الامر مجرد تجميع لهذه المصادر والعنــاصر ، بل يتوقف كثير من نجاح المجتمعات عن طريقها فى مواجهة مشاكلها على المدى الذى يمكن ان نصل اليه ، وعلى نوع المعرفة العلمية ، والمهارات التى يمكن أن تخلق مصادر جديدة للطاقــة وأن تستخرج موادا جديدة من باطن الارض ، وفى هذا المقام يذكر الكثيرون أن تنظــم المؤسسات العلمية التى تعنى بالبحث العلمى وتوفير كافة الامكانــات لاستمرار عمليات البحث مسألة أساسية للنجاح فى مشروعات التنمية والتحديث . ولعل هذا المعنى هو الذى دفــع كثيرا من الامم المتقدمــة الى اغراء الدارسين والعلماء وخاصة من مجتمعات العالم الثالث بالاقامة الدائمة أو الاقامة فترة طويلة نوعا ما للاستفادة بخبرتهم وما توصلوا اليه من عادوا بدافع الوطنية أو بدافع آخر الى بــلادهم الاصليــة أصيبوا أو الصناعى أو حتى أبحاث الفضاء ، وهم لا يجتذبون هــؤلاء لمجرد اغرائهم بالاقامة أو بالمرتب الكبير ، أو بالتسهيلات السكنية والترفيهية. وانما يضعون تحت تصرفهم امكانات هائلة للبحث والتنقيب والتجديد والابتكار وهى الامكانات التى لن يجدوا لها مثيلا فى بلادهم حتى أن من عادوا بدافع الوطنية أو بدافع آخر الى بلادهــم الاصليــة أصيبوا باحباط شديد لانهم على الأقل لم يتمكنوا من تحقيق ذاتهم . ان اجتذاب

العمالة الماهرة لم يعد القضية الهامة التى تشغل المجتمعات المتقدمة اليوم وخاصة بعد أن كانت مطلباً جوهريا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ولكن المطلب الحيوى الآن هو اجتذاب ما ذكرنا من دراسين وباحثين الى الاستغناء عن أعداد هائلة من العمالة الفنية أو الماهرة ولا أحد يستطيع أن يتنبأ بكل دقة مستقبل القوى العاملة فى عصر الكمبيوتر .

ان الشرط الجوهرى والدائم للتحديث هو فى قدرة الناس على التوافق لظروف التغير كل سنة وليس مرة أو مرتين خلال حياتهم ، وتتطلب عملية التوافق هذه منظمات اجتماعية وسياسية فضلا عن العمليات والأساليب السلوكية التى تسمح بادخال المنتجات الجديدة والعمليات الجديدة ، والمهن الجديدة فضلا عن المستويات الجديدة للسلوك ونسجها داخل بناء المجتمع بشكل فعال ودون حدوث اضطراب كبير سواء بالنسبة لطبيعة حياة الناس أو لاعمالهم المفضلة أو التى تعودوا عليها لفترة طويلة . ان تنمية هذه المنظمات والعمليات وأساليب الحياة كما توصلت الى ذلك المجتمعات الحديثة ليس أمرا سهلا ، ان أحد الضغوط المستمرة التى تظهر فى مجال المهن والوظائف العليا والصناعات أنها تفقد فعاليتها بل وفائدتها خلال فترة قصيرة لاتمتد الا لسنين قليلة جدا ، ومثال ذلك أنه فى الجيل الماضى فقدت الولايات المتحدة وأوربا الغربية عددا كبيرا من الايدى العاملة التى كانت تعمل فى الزراعة مما ترتب عليه هجرة قسرية لكثير من الأسر التى كانت تعمل فى القرى أو المزارع الى المدينة ، كما لوحظ نفس التدهور فى المؤسسات العاملة فى بعض الصناعات من خلال قلة الطلب على العمال شبه الماهرين أو غير الماهرين كلية [1] وفى المقابل بدأ الطلب يزداد بسرعة على العلماء والمهندسين والفنيين جنبا الى جنب مع تزايد الطلب على العاملين فى ميادين الخدمات مثل من يعملون فى ميدان المحاسبة أو التأمين أو التسويق أو النقل أو المرافق العامة . وينبغى أن نلاحظ أن التحولات

---

1) Ibid. p. 45.

التى تتم داخل هذه المهن أمـر غير سهل الا اذا جـاهد الفرد بنفسه للحصول على تربية ومعرفة جديدة فى الوقت الذى ينبغى أن يتحلى فيه بمشاعر الثقة فى النفس .

ان هذا التحول الذى أدى الى ازاحـة كثير من جماعات العمـال والأسر بسبب فقدانهم لاعمالهم الاصلية يكون دائما مصحوبا بالحيرة والقلق ، وخاصة اذا دخل فى الاعتبار كيفية توجيه المنجزات الجـديدة لتكون فى خدمة الغالبية حتى لايدفع هؤلاء ثمن التحديث غالبـا . هذا ويذهب بعض الفلاسفة الى القول أن المسائل المتصلة بالـروح والدين والأخلاقيات تفتقد فى مجتمع يقوم اقتصاده على الاستهـلاك الموجه ، فالمجتمعات الحديثة تتهم بأنها وصلت الى مرتبة أدنى وخاصة فى مجال الاهتمام الذى تعطية الثقافة والعادات والاخلاقيات ، والمحافظة عـلى العنصر الانسانى فى مجتمعاتهـا . حتى أن البعض يقـول أن المجتمع الحديث هو مجتمع متخلف فيما يتعلق بوحدة الاهداف القومية ، ومشاعر الألفة الجماهيرية ، ونتيجة ذلك أن المواطنين يعرفون كيف يعيشـون فى حالة من الراحة ، ولكنهم لايعرفـون كيف يعيشون تغمرهـم مشـاعر السعادة ، وراحة البال ، ويقظة الضمير .

واجبات المجتمع الحديث

ان النقد الذى وجهناه من قبل لما يحدث فجأة من تحولات فى المهن أو تحركات لجماعات العمال ، أو زيادة فى الطلب على تخصصات بعينها ليست فى واقع الامر المشاكل الحيوية للثقافة الحديثة ذلك لان التمحيص الدقيق يمكن أن يكشف أن الرغبة فى الامن ، والمستوى المـادى اللائق للمعيشة تعتبر من العناصر الأساسيـة فى الطبيعة الانسانيـة ، الا أن الحداثة أو التحديث يصغدان هذه الخصائص ويضعانها فى محور هام . ان فشل الحياة الحديثة ليس فى تدهور الطابـع القومى بتحولـه الى طابع غير متميز ، وانما المهم هو القدرة على التعامل مع الحياة من خلال أوسع نطاق ، وبأى حجم فضلا عن التكامل مع الانماط شديدة التعقيد

التى تظهر فى الميادين الاجتماعية والاقتصادية والسياسيـــة • وهنا قد يقال ان المجتمعات النامية تضع فى قمة أهدافها توسيع نطاق الاعمـــال العامة التى يمكن أن تسهم بشكل فعـــال فى بناء الهياكل الاجتماعيـــة والاقتصادية بينما تشغل المجتمعات المتقدمة ببناء القوة الغاشمة ، مثل القوة النووية ، وتنمية مشاعر الفردية،والمنافسة المميتة من أجل الوصول الى أعلى انتاجية ، للوصول الى أعلى عائد من الربح • الا أنه مع ذلك فان هذين النوعين من المجتمعات يحتاجان الى تنظيمات جديـــدة أو اذا أردنا الدقة الى أنساق جديدة يمكن أن تؤدى الى تنمية مشاعر الالفـــة والتعاون والعائد المشترك الذى يمكن أن ينعكس على مصالـــح المجتمع العليا • وفى هذا الصدد تبرز أربعة حاجات أساسية أولها : كيف يبنى المجتمع الجديد المدن ، ويهىء نفسه ليتحول الى ثقافة حضرية بدلا من أن يظل قانعا بثقافته الريفية ، وثانيهما : كيف يتسنى للمجتمع الحديث أن يقدم الحماية للفرد فى وقت تتدهور فيه الروابط العائلية ، والصداقة، والجوار ، ومشاعر الالفة المجتمعية ، وثالثهمـــا : كيف يضمن المجتمع الحديث أن يشارك كل أعضائه وبجدية فى الوصول الى مجتمع الوفرة • ورابعهما : كيف يحافظ المجتمع الحديث على عملياته التجديدية،أى على طاقته ودوافعه وقدرته على الاستمرار فى طلب التغير وقبولـــه فى نفس الوقت •

ان مستقبل التحديث ليس مستقلا وبلا مشـــاكل اذ كيف نعيش المدن وكيف نصل الى الثراء • ذلك لان الفرد يعيش ظروفا بالغة التعقيد تجعله يتساءل كيف يضمن كل أعضاء المجتمـــع الحصول على المصـــادر الملائمة للحياة ، وكيف يتسنى للفرد أن يتصور وبكل وضوح أن مجتمع المستقبل سيكون مجتمع المعيشـــة الملائمة • ان هـــذه التساؤلات تثير قضايا محيرة ولايمكن رسم خطوط تحليلها ، ومواجهة مايتمخض عنها من تحديات بسهولة ،الا أنه من المهم هنا أن نؤكد مرة ثانية أن هذه هى ليست الموضوعات الحيوية التى أبرزها المعلقون فى نقدهم للتحديث ، فالمجتمع الحديث لم يقهر الفرد عن طريق منظماته الهائلـــة وخصوصا

عندما يصاب بالانزعاج حينما يواجه آلاف الفرص التى يتعين عليه أن يختار بينها ، كما أن المجتمع الحديث لم يؤكد المادية والخبرة الحسية على حساب الاتجاهات النقدية والتأملية بل والانفعالية ، ان الملاحظ تأكيدا لهذا أن وقت الفراغ فى المجتمع الحديث هو أكبر من أى وقت فراغ فى أى مجتمع مضى ، ويلاحظ أيضا أن الفلسفة والموسيقى والفنون تنمو بسرعة كما تنمو الالعاب الجماعية ، والاستعراضية . كما أنه ليس هناك أى دليل مادى يمكن أن يثبت أن هناك خللا أو عنفا أكثر فى الحياة الحديثة عما كان يحدث فى الأزمان السحيقة ، أو أن الطابع الحديث أقل قوة ، أو أقل اخلاقية ، أو غير موجه قيميا . أن أروع ما فى حياه البشر الحالية هى القدرة على مزج الكم بالكيف ، وتناول وتوجيه حشود الناس فى الاتجاه الذى يحقق مصالحهم فضلا عن الانساق المعقدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ولهذا نجد أن الاجابة على ما أثرنا من اسئلة ليس أمرا صعبا أو مستحيلا فاليوم تكون قدراتنا فى المعمار والتخطيط والتنظيم الاجتماعى لبناء مدن تتميز بالجاذبية هى قدرات أكبر مما كانت عليه فى أى وقت مضى وهذا ينطبق على المعرفة وأساليب التربية ، ويمكن أن يضاف الى ذلك أيضا قدرتنا على توجيه العلم والتكنولوجيا نحو الاستخدامات السلمية لبنى الانسان .

ان أغلب المجتمعات الحديثة تتحرك الآن نحو خلق استثمارات عامة جديدة وايجاد الانظمة المختلفة التى تواجه الصعوبات التى تعززها التغيرات المتلاحقة أو التجديدات المستمرة ، وهى التى يمكن أن تقف عقبة أحيانا أمام بعض الناس فى سبيل التكيف لحياة أفضل . ويمكن ادراك ذلك بكل سهولة اذا أخذنا فى الاعتبار المشروعات العديدة فى كثير من دول العالم التى تجعل كل هدفها موجها نحو تحقيق آمال الانسان وطموحاته واذا أضفنا الى ذلك تلك الجهود التى تستثمر فى تسهيل التدريب وتحصيل المعرفة لتأكدنا من أن مستقبل التحديث مستقبل مملوء بالامل الذى يستند على معطيات واقعية معروفة ومحددة ، وهذه النظرة الى مستقبل التحديث قد تكون نظره متفائلة جدا ، الا أنه اذا

أخذنا فى الاعتبار مدى النمو الذى حققه العالم فى خــلال الالف سنه الاخيرة حتى فى وجود أعتى الصعوبات والتحديات والحروب المدمرة التى طال بعضها لعشرات الاعوام لوجدنا أن ما نقوله ليس بعيدا عــن التحقيق ولا ينبغى أن نتشاءم اذا أفرزت التنمية أو التجديدات أيــة تحديات فعلى الارادة الانسانية التى قهــرت التخلف هنا أو هنــاك أن تتصدى أو تنجح •

الفصل السابع

تحديث المجتمع والثقافة

تحديث العلاقات الاجتماعية

أولا : تغير علاقات العمل
ثانيا : تغير العلاقات الاسرية
ثالثا : تغيرات فى الجماعة المحلية والحياة داخل المنظمات

تحديث الانســان

تحديث التعليــم

أولا : درجة التعليـــم
ثانيا : نوع التعليم
ثالثا : التعليم لمن ؟

تحديث المجتمع والثقافة

تحديث العلاقات الاجتماعية (١)

يشغل موضوع النمو الاقتصادى حيزا كبيرا من مجال تفكير القادة السياسيين فى الدول الجديدة ، وهو يشغل أيضا تفكير صناع السياسة فى المجتمعات الغربية ، كما انه موضوع له أهمية بالغة عن علماء الاجتماع عندما يحاولون فهم كل ما يتصل بالتغيرات الاجتماعية التى تحدث ثورة فى العالم المعاصر .

ونظرا لان هذه الفكرة عن النمو الاقتصادى أصبحت من المقومات التى تواجهنا يوميا فى الوقت الحاضر ، فانه من المحتمل ان نفكر فيها كنموذج لعملية بسيطة متكاملة . ولكن النمو الاقتصادى ليس بسيطا ولا متكاملا . ونحن حين نستخدم هذا المصطلح يكون لدينا أربعة عمليات على الاقل متميزة فى عقولنا أو واضحة فى أذهاننا ومع ذلك فان هذه العمليات الأربعة تكون مترابطة ضمنيا :

١ — فى مجال التكنولوجيا ، يتغير المجتمع النامى من الفنون التقليدية البسيطة نحو تطبيق المعرفة العلمية .

٢ — فى مجال الزراعة ، يتطور المجتمع النامى من الزراعة كمصدر للاكتفاء الذاتى الى الانتاج التجارى للبضائع الزراعية ، ومعنى هذا التخصص فى المحاصيل التى تباع نقدا ، وشراء المنتجات غير الزراعية الموجودة فى السوق ، وغالبا أجور العمل الزراعى .

٣ — فى مجال الصناعة ، يتدرج المجتمع النامى من استعمال طاقة الانسان والحيوان نحو الآلية والتصنيع أو الناس الذين يعملون

---

1) Neil Smelser, «The Modernization of Social Relations» in Myron Weiner (ed.), Modernization : The Dynamics of Growth, op. cit. pp. 110 - 121.

من أجل الحصول على الاجر على آلات تعمل بالطاقة ، والتى تنتج بضائع تسوق فى خارج مجتمع الانتاج .

٤ — وفى مجال الايكولوجيا ، يتحرك المجتمع النامى من المزرعة والقرية الى التركيز فى الحضر .

وبينما تحدث هذه العمليات الأربع فى وقت واحد أثناء عملية النمو فانها لاتحدث بهذه الطريقة دائما : فالزراعة قد تصبح تجارية دون حدوث أى تغيرات مفهومة فى القطاع الصناعى (كما كانت الحال فى المستعمرات حيث كانت القوى السائدة فيها تتحرك نحو زيادة المنتجات الأولية) ، وقد يحدث التصنيع فى القرى كما حدث فى انجلترا فى بداية ظهورة وكذلك فى بعض مجتمعات آسيا . وقد تتكاثر المدن حتى فى الأماكن التى لايوجد فيها تصنيع واضح كما حدث فى بعض أجزاء آسيا وأفريقيا . وخلاصة هذا هو أننا يجب أن نتوقع أن أسباب ومجالات ونتائج النمو الاقتصادى يمكن أن تتغير على نطاق واسع من مجتمع الى آخر .

وأكثر من ذلك ، فان النمو الاقتصادى يعتبر مظهرا واحدا من مظاهر التغير الاجتماعى المركب الذى تتعرض له الدول النامية . فمصطلح « التحديث » قريب جدا من مصطلح « النمو الاقتصادى » ، وهو أكبر ملائمة فى هذا المجال حيث يشير فى الحقيقة الى أن التغيرات الفنية والاقتصادية والايكولوجية تتشعب خلال كل النسيج الاجتماعى والثقافى . ففى أى دولة ناشئة يمكن أن نتوقع تغيرات جذرية فى العديد من المجالات :

أ — ففى المجال السياسى حيث كانت انساق سلطة القبيلة أو القرية هى السائدة أصبح الطريق مفتوحا أمام انساق التصويت ، وحق الانتخاب والاحزاب السياسية ، وبيروقراطية الخدمات المدنية .

ب ـ وفى المجال التعليمى ، يكافح المجتمع النامى من أجـل تخفيض درجات الامية ، وزيادة المهارات الانتاجية الاقتصـادية .

جـ ـ وفى المجالات الدينية ، تبدأ انساق المعتقدات الدنيوية فى الحلول محل العقائد التقليدية .

د ـ وفى مجال الطبقات ، تظهر قابلية التنقل الجغرافى والاجتماعى ، وظهور الميل الى انساق أقل وراثية وثباتا .

الا أن هذه التغيرات المتباينة والمختلفة تبدأ فى أوقـات مختلفة ، وتعمل بمعدلات مختلفة فى المجتمع النامى ، ولذلك فان المجتمعات التى تخضع لعملية التحـديث لابد أن تخضـع لعدة تغيرات فى المؤسسات القائمة ، ولايهم كيف يخطط للتغير الاجتمـاعى ، فبعض التغـيرات فى المؤسسـات هى التى تقود الطريـق دائما ، وبعضها سـوف يتخلف بالضرورة . وهكذا فان المجتمع النامى اذا حاولنا أن نرسم له خطا بيانيا فسوف نجد أنه يشبه حيوانا ضخما يندفع الى الأمام بتحريك كل جزء من أجزاء جسمه أحيانا فى ترابط جزئى ، وأحيانا تتعارض هذه الاجزاء مع بعضها .

وتشمل بعض تغيرات المؤسسات وعدم استمرارها التى هى جزء من عملية التحديث تغير علاقات العمل ، وتغير علاقات الأسـرة ، وتغير علاقات المجتمع المحلى ، وليس من المناسب هنا أن نتوسع أكثر من ذلك، وندرس التعميمات التى قد تؤدى أحيانا الى تعقد عملية النمو . ولكننا داخل هذه الحدود ، نستطيع أن نحدد العلاقـات بين مختلف التغيرات التى تتعرض لها المؤسسات القائمة وعدم استمرارها نتيجة للتغـيرات المختلفة التى يتعرض لها المجتمع ككل وبقية نظمه ، وأن نستنتج بعض الاسباب التى تجعلنا نتوقع احتمالا كبيرا للقلق الاجتماعى والسياسى فى الدول النامية .

أولا : تغير علاقات العمـــل

يحدث الانتاج فى المجتمعات قبل الصناعية فى وحدات تقـــوم على القرابة حيث تسود الزراعة من أجل انتاج الطعام ، وصناعات أخرى ، مثل تربية الدواجن والصناعات المنزلية ، وهى صناعات زراعية ، ولكنها لاتزال تنتسب الى القرابة والقرية • وفى بعض المجتمعات يتحدد الوضع الوظيفى عن طريق الانتساب الى جماعة معينة مثل الطوائف الاجتماعية المغلقة • كما أن عـــلاقات التبادل تحـــددها روابط القرابـــة التقليدية والواجبات والالتزامـــات الاجتماعيـــة • وباختصار ، فان الانشـــطة الاقتصادية فى هذه المجتمعات كانت لاتختلف نسبيا عن الوضع الاجتماعى الذى تشغله الأسرة •

هذا وقد أدى النمو الاقتصـــادى المعاصر الى انعـــزال الانشطة الاقتصادية عن هذه الاوضاع التقليديـــة • فدخول محاصيـــل البيع فى ميدان الزراعة يعنى اختلافها عن المحاصيل اللازمة للاستهلاك المنزلى ، وكذلك العمل الزراعى بالاجر أى استئجار أفراد يقومون بالعمـــل من خارج الاسرة ، كل هذا يفسد بدون شك وحدة الانتاج المغلقة للاسرة • أما النمو الاقتصادى فى مجال الصناعة فانه يعنى أن الانتـــاج اليدوى والصناعات الزراعية داخل المنزل أصبح يتم بحيث أن الأسر كوحدات لا تنتج لاستهلاكا الخـــاص ولكن لغيرها ، أى لاسر غير معروفـــة . والأسرة تعرض انتاجها لمن يدفع الثمن ، وعندما ظهرت انساق التصنيع والمصانع أصبح العامل منعزلا ليس فقط عن رأسماله ولكن أيضـــا عن أعضاء أسرته ، وأصبح يعمل جنبا الى جنب مع أفراد من العمال دخلوا سوق العمل • وبهذه الطرق فصل التحديث الانشطة الاقتصاديـــة عن أنشطة الأسرة والجماعة •

ونتيجـــة لهذه التغـــيرات ، تغيرت علاقات العـــامل مع الحياة الاقتصادية الى حد كبير • فهو الآن يحصل على أجر مقابل العمل الذى

يقوم به ، ويصرف هذه النقود على بضائع وخدمات متاحة فى السوق لمن يدفع ثمنها ، وكلما زاد دخله ومستوى معيشته كلما قلت الحقوق والواجبات التقليدية نحو الاقارب والجيران • وهذا معناه أن العامل يواجه عددا من مشاكل التوافق فى السوق التى تكون عرضة للتحديث •

وأول هذه المشاكل هى أن هناك أساسا جديدا للمحاسبة يفرض عليه • فمنذ بداية التحاقه بالعمل وعندما يجدد وقت انتاجه فانه لايعمل حسب رغبته ، وانما يجب أن يتوافق مع فكرة يوم العمل (وهو عادة ثمان ساعات) وأسبوع العمل ، كما يجب عليه فى أدائه لوظيفته ان يتماشى مع نظام الآلة وليس مع نظام جسمه وعقله • ومنذ بداية تحديد مصدر دخله ، فانه يجب أن يفكر بلغة الاجر الاسبوعى ، ووضع ميزانيته على أساسه ، وقد لايبدو هذا أنه أكثر من عملية توافق ، ولكننا حينما نضاهى مستوى مطالب الحسابات المطلوبة من تيار الانشطة الاقتصادية التى تتم يوما بيوم فى الواقع حيث أرقام المبالغ التى يحصل عليها تكون قليلة ولاتفى التزاماته أو احتياجاته فمن هنا يمكن أن نفهم التغيرات الواضحة التى تطرأ على نظرة العامل الصناعى فى المناطق الحضرية •

والمشكلة الثانية تترتب على الأولى حيث أن العامل يجد أن تحديد أمنه الاقتصادي قد تغير ففى النظام التقليدى للزراعة والصناعة المنزلية كان هناك احتمال أن يصبح العامل عاطلا نتيجة لتقلبات السوق • وفى هذه الحالة فانه يستطيع اللجوء الى أقاربه وعشيرته وجيرانه لطلب المساعدة • وبالرغم من ذلك ، فان الموقف فى المناطق الحضرية أصبح مختلفا الى حد كبير ، فالعامل قد يتعرض للبطالة ، ويخضع لتقلبات أكثر حدة وقسوة بالنسبة لرخائه وأمنه ، حتى لو كان متوسط دخله أعلى منه فى الموقف التقليدى السابق •

ومشكلة التوافق الثالثة ترتبط بالاستهلاك ، حيث أن العامل فى السوق التى تخضع للتحديث ، تواجهه مستويات متغيرة باستمرار •

فالسوق الحضرية تزوده بسيل متدفق من نوعيات جديـدة مثل أنواع المأكولات الجديدة والأدوات والسيارات والترانزستور وما شابه ذلك. ونظرا لان العامل فى الوقت الحاضر أصبح يبتعد عن بعض أوجه الانفاق التقليدى ويتعرض لاشكال جديدة منه ، فمن المحتمل أن يمارس بعض الاتجاهات المغايرة وأن يتجه الى شراء منتجات غير جيدة .

وهناك مشكلة رابعة تعترض التوافق تفرض على المناطق التقليدية فى المجتمع . ذلك أن كثيرا من العمال الحضريين يزورون أقـاربهم فى الريف ويقدمـون صورة جميلة عن حيـاة المدن لاقاربهـم وجيرانهم الريفيين . وهذا يؤدى بدون شك الى زعزعة أسلوب الحيـاة التقليدى فى الريف ، وخاصة اذا لم تكن الأحوال هناك مواتية ، وقد يـؤدى هذا أيضا الى نشوء درجات من الصراع الاجتماعى بين القطاعـين الريفى والحضرى ، وأيضا بين الأجيال الجديدة المهاجرة ، وبين الكبـار الذين يستمرون فى الريف .

وبالرغم مما تقدم فاننا لانريد هنا أن نبالغ فى الاختلافـات وعدم الاستمرار بين القطاعين التقليدى والحديـث ، فقد ظهرت كثـير من الترتيبات الوسط بين الحالتين ، وأثبتت تأثيرها فى عملية التحديث ، ومثال ذلك أن العمال المهاجرين يكونون هم أنفسهم فى العادة نوعا من الحـل الوسط ، أو التفاهـم بين العضوية الكاملـة فى قوة العمـل بالأجر ، والالتصاق بحياة الجماعة القديمـة . فقد أدخلت الصناعـات المنزلية أسواقا واسعة ولكنها احتفظت بالانتاج داخل الاسرة . كـذلك أصبح استخدام الأسر فى المصانع ظاهرة واضحة ، كما أن انفاق الاجور لشراء أمور تقليدية مثـل المهر يحقق نصف المدخل الى البنـاء الصناعى — الحضرى الكامل . والاسباب الاجتماعية والنفسية التى تقف فى منتصف الطريق كثيرة ، ولكن مهما كانت الاسباب فاننا نتوقع أن هذه الترتيبات الوسط والتوافقات وعدم الاستمرار التى ناقشناها هنا تقل تبعا لذلك.

ثانيا : تغير العلاقات الأسرية

من أبرز نتائج انتقال الانشطة الاقتصادية من مجتمع الاسرة هو أن الأسرة نفسها تفقد بعض وظائفهـا السابقة ، وتصبـح هيئة أكثر تخصصا • فعندما تتوقف الاسرة عن أن تكون وحدة اقتصادية للانتاج، فاننا نلاحظ أن عضوا منها أو أكثـر يترك المنزل ليبحث عن وظيفـة فى سوق العمل • وتصبح أنشطة الاسرة أكثر تركيزا على نواحى الراحـة العاطفية وعلى التنشئة الاجتماعية •

والشواهد الاجتماعية لهذه التغيرات البنائيـة فى الاسرة عديدة وأكثر هذه الشواهد أهمية هى التى تفرضها مطالب حركة العائلة ، وهى الانقسام والانعزال الذى يحدث فى الاسرة النواه • فاذا رغبت الاسرة فى الانتقال من مكان الى أخر بحثا عن فرص أفضل للعمل والدخل ، فانها لاتستطيع أن تتحمل نقل كل أقاربها معها ، أو حتى تظل محتفظة بروابط القرابة • وهكذا فان العلاقات مع الاقارب تبدأ فى التآكل ، ويعيش عدد محدود جدا من الأجيال فى نفس المنزل ، ويقيـم المتزوجون حديثا فى منازل مستقلة ويتركون منازل أسرهم • بل ان المسـاكن ذاتها أصبحت صغيرة جدا بحيث لاتتسع سوى للزوجين وأطفالهما الصغار • ومن أهم المشاكل الاجتماعية التى تنشأ نتيجة لهذه التغيرات البنائية فى الأسرة هو المشكلة التى تتعلق بمكانة كبار السن • فهم بعد ابتعادهم عن حماية وحدة الاقارب ، فانهم يلقون مسئوليات جديدة علـى المجتمع ، ولذلك ظرهت ترتيبات جديدة لم تكن قائمة من قبل مثل التعويضات ، وبرامج التأمين الاجتماعى ، والمعاشات التى أصبحت كلها ضرورية للغايـة فى العصر الحديث •

ولايعنى انهيار علاقات الاسرة الممتدة فى الغرب أن هذا النموذج ينطبق على جميع المجتمعات التى سارت فى طريق التحديث • فالاسرة اليابانية مثلا مازالت محتفظة بعلاقاتها التقليدية بالرغم من أن اليابان أصبحت تنافس الدول العظمى فى التصنيع ، وفى مجتمعات أخرى مثل المجتمع المصرى مثلا نجد أن علاقات القرابة تضعف الى حـد كبير ومع

ذلك فان بعض العلاقات الاخرى مثل تبادل الزيارات وتبادل المساعدات وخاصة فى المناسبات مازالت موجودة • وحتى فى المجتمعات المتقدمة جدا يمكن أن نلاحظ وجود علاقات تقوم على القرابة • وبالرغم من ذلك فانه يجب أن نتذكر أن ظروف السوق الحضرى — الصناعى المتقدمة ونظم القرابة الكاملة معادية بعضها لبعض فى كثير من الوجوه •

هذا وقد تعرضت علاقات الآباء والأبناء أيضا لتغير كبير • فالأب الذى أصبح الآن يترك المنزل من أجل الالتحاق بعمل فى مكان منعزل فانه يفقد بالضرورة كثيرا من وظائفه فى التدريب الاقتصادى الذى كان يمارسه من قبل على أولاده • ويتفق مع ذلك أن نظم التعلم المهنى التى تقتضى استمرار وجود الأب والابن تنهار بظهور انتاج المصنع المتخصص وغالبا ما ينسحب هذا الانهيار على فقدان الأب لسلطته الابوية بوجه عام ، بالرغم من أن هذا لم يظهر بشكل تجريبى ولكنه استنتاج ، وتستطيع الأم نظرا لكونها الشخص الكبير الوحيد فى عالم الأبناء أن تنمى علاقات عاطفية أكثر معهم • ويصبح دورها فى عملية التنشئة الاجتماعية أكثر أهمية لانها المسئولة الوحيدة عن نمو الناحية العاطفية فى حياة الاطفال •

وبالرغم من ذلك ، فان تركيز العلاقات بين الأم والاطفال فى السنوات الأولى قصير ، وذلك لان المجتمع الصناعى — الحضرى يتطلب مهارات فنية وخبرات تفوق ما تستطيع الأسرة أن تقوم به ، ومن ثم فان الاسرة تميل أكثر الى التنازل عن كثير من وظائفها التدريبية ، وتتركها لتقوم بها مؤسسات أخرى فى المجتمع مثل المدارس والجامعات والمعاهد الخ • وتفقد الأسرة النواة فى كثير من الاحيان سيطرتها على أطفالها وتترك المسئولية كاملة للمدرسة (أو حتى رياض الأطفال) ، ويصبح الطفل فى سن المراهقة له اتصالات خارجية متعددة ، ليس فقط بالمدرسة ولكن أيضا ببعض فروع سوق العمل • وأكثر من ذلك فان بعض الأبناء قد يتزوجون قبل بلوغ سن العشرين أو بعدها بقليل

ويقيمون فى منازل مستقلة ، ويصبحون مستقلين تماما عن والديهم •

ومن أهم عواقب هذا التغير فى العلاقات بين الأباء والأبناء ما يطلق عليه علماء الاجتماع « ثغرة المراهقــة » أى عندما يتحــرر الابن من العلاقات الأبوية المكثفة لسنوات حياته الأولى ، وهو لم يندمج بعد فى وظائف الكبار ، والزواج ، والادوار المدنية • لذلك فانــه يمارس دورا مفككا لعدة سنوات • وهذا يعنى من الناحية النفسية فتــرة من التردد وعدم التأكد بالنسبة للشاب ، وهذه الفترة ينتج عنها بعض أعــراض الاضطرابات مثل المجازفة ، والبحث عن الأمن ، والحب ، والجرى وراء الموضة ، والاندفاع فى التجارب ، واللامبالاة ، والفتور • وقد أشــار كثير من الدارسين الى هــذه الحقيقة التاريخية وهــى أن المجتمعات الصناعية ــ الحضرية شهدت نموا فى مجازفــة وانحراف المراهقين • ولايمكن فهم هذه الحقيقة التاريخية الا من خلال فهم التغيرات المترابطة والمتزامنة التى تحدث فى النظم الاقتصادية والتربوية والعائلية فى المجتمع الذى يخضع للتحديث •

وهناك نتيجة أخرى تترتب على الثورة فى العلاقــات القرابية فى المجتمع الحضرى ــ الصناعى تتعلق بتكوين عائلات جديدة • ففى كثير من المجتمعات التقليدية يقوم الكبار فى السن بتنظيم عمليــة الزواج ، وتعتبر أذواق ومشاعر الأشخــاص المقبلين على الزواج غير هامــة • فأساس الزواج اذن لايقــوم على الحب أو تبــادل العواطف أو حتى التفاهم وانما يقوم على نواح مادية مثل الشبكة والمهر ومؤخر الصداق وأملاك الاسرتين ومستواهم الاجتماعى والاقتصادى • ونتيجة لتدهور روابط القرابة ، وانحسار سلطة الأب أصبح الابن الشاب مستقلا فى اختيار شريكة حياته • وبالرغم من ذلك ، فان هذا الاستقلال يخلق فى نفس الوقت نوعا من « الفراغ » اذا لم يتح زواج مختلف لتكوين أسر جديدة ، فما هو الاحتمال ؟ وطرح مثل هذا السؤال يجعلنا نحــاول أن نفهم وبصورة أفضل معنى « الحب الرومانسى » كأساس أول للاختيار الزواجى فى المجتمعات الحضرية ــ الصناعية •

وباختصار فان التحديث يميل الى تشجيع نمو وحدة الأسرة التى تقوم على الجاذبية العاطفية ، وتقوم على أساس جنسى — عاطفى . فقد ابتعدت الأسرة عن المجالات الاجتماعية الاخرى فيما عدا روابط الفرد مع أعضاء الاسرة ، ونظرا لكون الاسرة أصبحت منعزلة بهذه الصورة ومتخصصه ، فقد أصبح تأثيرها أقل على هذه المجالات الاجتماعية المتنوعة . بينما كانت فى المجتمع التقليدى هى الاساس الشرعى للقيام بالادوار . وأخيرا فانه داخل الاسرة نجد أن العلاقات المركبة لافرادها بعضهم مع بعض تميل الى أن تكون فقط روابط عاطفية خاصة .

ثالثا : التغيرات فى الجماعة المحلية والحياة داخل المنظمات الاجتماعية

نلاحظ فى النموذج المبسط للمجتمع التقليدى الذى استخدمناه حتى الآن بغرض التحليل أن الجماعة المحلية والحياة داخل المنظمات قد تكونت حسب أسس الواقع الاجتماعى ، وهو القرابة وصلة الرحم ، والاندماج القبلى . ونادراً ما كانت تنمو المؤسسات الرسمية مثل الاتحادات المهنية ، والنوادى الاجتماعية والهيئات الاختيارية ، والجماعات ذات المصالح الخاصة . وكانت أغلب جوانب الحياه الاجتماعية تعمل من خلال الجماعات ذات الوظائف المتعددة نفسها .

وهذه الأسس التقليدية للمجتمع والحياة فى الهيئات ظلت تحتفظ بحيوية كبيرة حتى عند ظهور التعقيد الحضرى والصناعى . فعند ظهور التصنيع فى القرى مثلا ، أو عندما تقام القرى حول مشروعات صناعية حكومية ، فانه يمكن المحافظة على كثير من الروابط الاجتماعية والقرابية فى هذه الظروف الصناعية . وأكثر من ذلك ، فان هناك دليل يوضح أن المهاجرين الى المدن يظهرون ما يمكن أن يسمى بأعراض « الانتساب » فهم يبحثون عن أقارب أو أعضاء من نفس القبيلة يعيشون معهم أثناء البحث عن الوظيفة ، وأحيانا بعد العثور عليها ، ويقصرون حياتهم الاجتماعية على هؤلاء فى البداية . ويبدو أن استمرار العلاقات التقليدية

الخاصة فى المجتمع الصناعى تكون أساسا غير كاف للمجتمع وحياة المؤسسات . فقد مضى بعض الوقت تكمل هذه الروابط التقليدية هيئات أكثر تخصصا مثل الاندية والاتحادات ، واندية الكرة ، والمجتمعات الدينية الخ .. وتوحى أسماء هذه الهيئات بوجود أهداف خاصة ومع ذلك فقد كانت فى بداية تكوينها منظمات متعددة الأغراض . فالمجتمعات المحلية التى كانت سائدة فى انجلترا فى القرن الثامن عشر مثلا كانت فى نفس الوقت اتحادات مهنية ، وجمعيات للتأمين على الحياه ، ونوادى للشرب . و كثير من التنظيمات الرسمية عند المهاجرين الافريقيين فى المناطق الحضرية هى فى نفس الوقت اتحادات قبلية ، واتحادات مهنية ، ونوادى لكرة القدم ، ومراكز اجتماعية ، والملاحظ أن هذه التنظيمات تكون غير مستقرة فى بداية تكوينها ، فقد تبدأ على أنها اتحادات قبلية ، ثم تتحول الى اتحادات للادخار ، ثم يصبح لها اهتمام بالأمور القومية، وبمرور الوقت تتناقص مرونة هذه التنظيمات وتصبح جماعات لها وظيفتها الثابتة المحددة والتى تقوم على المصالح الاقتصادية والسياسية .

وليس هناك شك فى أن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية المختلفة التى استعرضناها فيما سبق تسبب الاضطراب والتمزق فى الانساق الاجتماعية القائمة لعدة أسباب : —

١ — يكون التغير البنائى غير منتظم أثناء فترات التحديث كما لاحظنا فى البداية . وعلى سبيل المثال نجد أن القوى الاوربية فى المستعمرات هى التى طورت العمل الاقتصادى والسياسى وذلك عن طريق استغلال المصادر الاقتصادية ، واقامة الادارات الاستعمارية ، ولكنها فى نفس الوقت شجعت أو فرضت نظما محافظة فى الدين والطبقة والأسرة . وهكذا فان المجتمع الذى يسير فى طريق التحديث بعد الاستعمار يكون عرضة لظهور مثل هذه الفجوات بين نظمه المختلفة . وفى الاقتصاد أيضا نلاحظ أن

التصنيع السريع يتداخل فى البناءات الاجتماعيـــة والاقتصادية ولكى تتحرر أى دولة من الاستعمار فانها تحاول اقامة أى شكل من أشكال الاختراع لكى تدخل مجال التحديث ، وسرعان مـا يؤدى هذا الى نشوء أزمة فى التعليم ، لانه بالرغم من أن اقامة نظام تعليمى جماهيرى يتطلب اقتصادا ناميا لامكان استـــخدام فوائد التعليم ،و لامتصاص الافراد المتعلمين والمدربين للعمل فى أدوار لها وظائف تظهر مدى تدريبهم وتستفيد منهم ، وهكـــذا يؤدى التغير الاجتماعى الى عملية معقدة ويخلق أزمة توافق . فأول تناقض ظاهرى للنمو هو أن المجتمع النامى يجب أن يتغير فى كل الاتجاهات فى نفس الوقت ولكن امكاناته الواقعية لاتسمح له بأن يخطط التخطيط المناسب للوصول الى مثل هذا النموذج المترابط للنمـــو . وهكذا تنشأ درجـــات متفاوته من القلاقـــل الاجتماعية التي يكون من الصعب تجنبها .

٢ ــ ان نمو الانواع الجديدة من الانشطة الاجتماعيـــة والاقتصادية يخلق صراعات يصعب تجنبها مع الاساليب التقليدية والمعتادة للحياة . فعندما تبدأ المصانع فى الانتاج بالجملة الذى يتنافس بشدة مع انتاج الافراد فى المنازل فان السوق يمتلىء بالبضائع الرخيصة ، ويحرم العمال المنزليين وأصحاب الحرف اليدوية من وسائل الحياه . ومن الناحية النظرية نجد أن هذا الوضع الجديد يدفع العمال فى العائـــلات الى انتهاج خط أكثر ربحـــا فى العمل بالاجر . أما من الناحية الواقعيـــة العملية فان عملية تحويـــل العمل المنزلى الى عمل بالاجر يكون عملية بطيئة ومؤلمة ، بل أنها قد تستغرق أحيانا عدة أجيال . واذا أخذنا مثالا آخر فان ظهور ونمو طبة الاطباء المدربين المتخصصين تعتبر تهديدا لرجال الطب التقليديين ، والسحرة ، وأعمـــال العلاج التى يمارسونهـــا منذ وقت طويل .

اذن التناقض الثانى فى عملية التحديث يظهر عندما يحدث النمو الاجتماعى والاقتصادى بصورة تتناقض مع الاوضاع القائمة مما يؤدى الى تحول كثير من سكان المجتمع الى معاداة هذه التغيرات ومحاولة تعويضها لانها تتعارض مع مصالحهم الراسخة ، وهذا الصراع المستمر بين القديم والحديث ، بين الطرق الحديثة والتقليدية يعتبر مصدرا أخر لظهور القلاقل والاضطرابات الاجتماعية .

٣ — ان محاولات حكومات المجتمعات النامية لاحتواء الاضطرابات والقلاقل الاجتماعية غالبا مايخلق ظروفا لقلاقل أكثر . وذلك لان أكثر المجهودات المبذولة لتكامل المجتمعات المحلية وتنميتها تأتى عن طريق الحكومات المركزية . ولكن طالما أن السلطات المركزية هى التى تتولى الحكومات ، فانها تصبح فى نفس الوقت تهديدا لانماط السلطة المحلية ، والهيئات التقليدية الاخرى . فالتناقض الثالث للنمو والتحديث يؤكد أنه حتى ممارسة السلطة تخلق قلاقل واضطراب وصراع مع نظم السلطة المتنافسة معها .

والخلاصة لكل ما سبق من تناقضات واضطرابات هو أن الدول النامية تواجه خطرا محققا اذا حاولت التوصل الى النمو الاقتصادى بأسرع مايمكن ، وبسرعة تفوق امكاناتها وقدراتها ، وكذلك قدرة الناس وامكاناتهم فى متابعة هذا النمو السريع لان هذا يؤدى الى ظهور تكاليف اجتماعية لايمكن التعامل معها مثل القلق والاضطراب الاجتماعى وعدم الاستقرار السياسى وهذه قد تهزم فى النهاية مجهودات النمو ذاتها . فاذا كانت السرعة هى المعيار الوحيد فان الدولة النامية قد تحطم الأشكال التقليدية للتكامل بسرعة أيضا وتحل محلها أنواع من الاضطرابات والقلاقل . وأكثر من ذلك فانه اذا ظهر أى نوع من التسرع فى أى وجه من وجوه النمو وليكن النمو الاقتصادى مثلا ، فانه من المحتمل أن يخلق المجتمع نمطا غير متوازن من النمو يعتبر أيضا مصدرا من مصادر الاضطرابات الاجتماعية . ولهذا يبدو أن مفتاح المشكلة للنمو

الناجح لايكون بالتركيز على معيار واحد للنمو ، ولكن عن طريقة موازنة وقياس النمو طبقا لمعايير عديدة اقتصادية واجتماعية مختلفة .

تحديث الانسان (١)

ان الغرض الاساسى للنمو الاقتصادى هو السماح بتحقيق مستوى لائق للحياة لكل الناس . ولكنه لايمكن عادة القول بأن تقدم أى دولة أو شعب يجب أن يقاس فقط بالرجوع الى الانتاج الاجمالى للدولة ومعدل الدخل الفردى . فالنمو يشمل أيضا فكرة النضج السياسى كما يعبر عنها فى عمليات ثابتة ومنظمة للحكومة بحيث تعبر عن رغبات الشعب . وهو يشمل أيضا تحقيق التعليم على المستوى الشعبى ، وازدهار الفنون ، وتقدم فنون العمارة ، ونمو وسائل الاتصال ، واثراء وقت الفراغ . وهكذا يتبين لنا أن فكرة النمو أو التحديث تتطلب تحولا كبيرا فى طبيعة الانسان ، وهو تحول يعتبر وسيلة الى غاية لنمو أكبر ، وهو فى نفس الوقت غاية كبرى لعملية النمو .

ولكن ماهو الانسان الحديث ؟ وما الذى يجعله هكذا ؟ ان الاجابة على هذا السؤال تثير الجدل بالضرورة ، ولايمكن لاحد أن يناقشها دون أن يثير قدرا كبيرا من الانفعال . ومع ذلك فليس من الصعب التوصل الى الاسباب . فأول تغير من الصفات التقليدية الى الصفات الحديثة فى الانسان تعنى غالبا أن شخصا ما يجب ان يقلع عن وسائل التفكير والشعور التى ترجع الى عشرات السنين بل أحيانا الى عدة قرون ، ولكى يبعد هذه الطرق فانه من الضرورى أن يبعد المبادىء ذاتها التى تخضع لها تلك الوسائل . وهناك شىء آخر وهو أن الصفات التى تجعل الانسان حديثا لاتبدو غالبا أنها مميزات محايدة يجب أن تكون عند كل انسان ،

---

1) Alex Inkeles, «The Modernizaton of Man» in Myron Woiner (ed.), op. cit, p. 138.

ولكنها تمثل فى العادة السمات المميزة للانسان الأوربى أو الامريكى أو الغربى بوجه عام والذى يميل الى فرضها على شعب آخر لكى يرتقى به فى نظره • وثالثا فان أغلب الصفات أو الخصائص التـــى توصف بأنها حديثة ، ولذلك فهى مرغوب فيهـــا هى فى الحقيقة ليست مفيـــدة جدا ولا مناسبة لحياة وأحوال الذين نحثهم على اكتسابها أو نفرضها عليهم• وهذه الأخيرة هى أخطر القضايا وسوف نناقشها باختصار بعد أن نقدم بعض الخطوط لتصوير ما تقصده « بالانسان الحديث » •

ان الخصائص المميزة للانسان الحديث تتكون من جزئين أحدهما داخلى والآخر خارجى ، أحدهما يتعلق ببيئته والثانى باتجاهاته وقيمة ومشاعره • فالتغير فى الحالة الخارجية للانسان الحديث معروفة ويمكن دعمها بالوثائق ، ولايجب الوقوف عندها كثيرا ، ويمكن تلخيصها بالرجوع الى مجموعة من المصطلحات مثـــل : التحضر ، والتعليـــم ، والاتصال الجماهيرى ، والتصنيع ، والتنشئة السياسية الخ •• فهذه المصطلحات تشير الى أن الانســـان فى العصر الحديث يختلف كثيرا عن أجداده الذين كانوا يعيشون نظاما مختلفا تماما • فمن غير المحتمل أن يعمل الانســـان الحديث كفلاح ولكن من المحتمل أن يعمل فى مشروع انتاجى معقد وكبير يقوم على الاستخدام المكثف للطاقة والتكنولوجيا المتطورة • وكذلك فان الاقتصاديات المختلفة الناتجة عن التركيز على الصناعة فى أماكن معينة، وزيادة مطالب هذا التركيز يجعل معيشة الانســـان الحديث فى المناطق الحضرية أو شبه الحضريـــة أكثر احتمـــالا • ولذلك فانه لن يمـــارس الازدحام والتزاحم فقط ولكنه سيتجه الى كل مؤثرات واتجاهات الحياه الحضرية • ومن المؤثرات الهامة التى يتعرض لها الانســـان الحديث وسائل الاتصال بالجماهير كالصحافة والاذاعة والسينما والتلفزيون • وسوف تزداد خبرته بالأماكن المختلفة ، وكذلك بالافكار الجديدة نتيجة تأثير التعليم عليه ، ان لم يكن بطريقـــة مباشرة بالنسبة لـــه فلاطفاله الذين قد يحملون تأثيرات المدرسة الى البيت•ومن المحتمل أيضا أنيكون للانسان الحديث بعض الاتصالات بالسياســـة وخاصة على المســـتوى

القومى ، وهو أكثر تعرضا للاتصال الجماهيرى ، وأكثر تحركا فى مجال الحياه الحضرية ، وأكثر محاولة لاكتساب المنافسة فى الحركات السياسية التى تنظر فى دعمه لانه قد يحتاج الى عونها ومساعدتها لكى يعوض ما كان يكتسبه فى الماضى كرئيس أو عمدة أو رأس عائلة فى قريته . وهناك فى الواقع ميزة أخرى للانسان الحديث وهى أنه لم يعد يعيش فى نطاق روابط القرابة وروابط عدد قليل من زملائه القرويين ، ولكنه سوف يوجد فى وسط أكثر بيروقراطية ، يعتمد فيه فى حالات طلب المساعدة أو القرض للاحداث المؤسفة على أشخاص وهيئات له بهم علاقات رسمية أو هشة .

وكل هذه العوامل التى ذكرناها فى الفقرة السابقة هى صفات عن مكان الحياه التى تؤثر فى الانسان الحديث ولكنها فى حد ذاتها لاتشكل التحديث . فالمراكز الحضرية الكثيفة للغاية قد تظل محتوية على شبكة تقليدية جدا للعلاقات الانسانية . وقد تنشر وسائل الاتصال الجماهيرى الأفكار الشعبية ، والحكمة التقليدية ، كما قد تعمل المصانع على أسس لاتختلف كثيرا عن الطـرق التى كانت متبعة فى المزرعـة ، وقد تسير السياسة بطريقة تعتبر امتدادا لمجلس القرية . وعلى الرغم من تعرض الانسان للمواقف الحديثة قد يساهم بالتأكيد فى تحويله وأن الموقف قد يتطلب منه أساليب جديـدة ، فان الانسان عندمـا يتعرض للتغيير فى جوهرة — فانه يكتسب أساليب جديدة للتفكير والشعور والعمل — لكى نعتبره قد أصبح فعلا انسانا حديثا .

وبالرغم من عدم وجود مستوى واحد لتعريف الانسان الحديث يقبله الجميع ، ويستخدمونه فان هناك اتفاق عـام بين دارسى عملية التحديث على الصفات التى تميز الانسان الحديث عن الانسان التقليدى . وقد قام « اليكس انكلز » [1] بالتعبير عن هذه الصفات عن طريق وصف

---

1) Alex Inkeles «The Modernization of Man» in Myron Weiner (ed.), «Modernization : The Dynamics of Growth» Basic Books, Inc, New york, 1966, pp. 138 - 140 .

هذا الانسان من خلال عدد من الميول والقيم التى تم اختبارها فى عملية التحديث بين العمال والفلاحين فى ستة من الدول النامية • وقد أتاحت له هذه الدراسة ليس فقط تقديم صورة واضحة للانســان الذى نطلق عليه مصطلح « حديث » بل أيضا أتاحت الفرصة للاشــارة الى بعض الاسئلة التى استخدمها لدراسة دلالاتها فى حالات ملموسة • والنظام الذى تظهر فيه هذ هالخصائص هنا ليس المقصود به أن هذه هى النتيجة الفعلية فى عملية تحديث الفرد • حيث أننا لايمكن أن نصل الى مايمكن أن نطلق عليه النتيجة الحاسمة ، ولكن يمكن أن نتوصل الى انطباع أن العملية تتطور على خطوط أوسع مع وجود عدد كبير من التغيرات التى تحدث فى وقت واحــد • وكذلك فان النظــام الذى قدمت من خــلاله الخصائص لايوحى بأهمية أحدها عن بقية الخصائص • ولذلك فانه يرى أنه من المناسب أن نقرر المساهمة النسبية لكل صفة أو خاصية فى تكوين مجموعة الاتجاهات والقيم وطرق العمل التى نعتبرها حديثة • ومع ذلك فاننا لابد أن ننظر الى هذه المجموعــة المعقدة من الاتجاهــات والقيم باعتبارها متماسكة مع بعضها البعض : فهى بالمعنى الاحصائى تشــكل عاملا مترابطا نسبيا • وبمرور الوقت ، فان دليلنا العلمى سوف يظهر ما اذا كان هذا الفرض صحيحا أو غير صحيح •

والعنصر الأول فى تعريف « الانسان الحديث » هو مدى استعداده لتقبل الخبرات الجديدة وكذلك انفتاحه على التجديد والتغــير • فنحن نعتبر أن الانســان التقليدى أقل اقتناعــا فى تقبل الافكــار الجديدة والوسائل الجديدة للشعور والعمل ، ولذلك فنحن هنا نتحدث عن شىء هو فى حد ذاته العقل ، والاقتناع النفسى ، والاستعــداد الداخلى ، أكثر من حديثنا عن فنون ومهارات معينة يمتلكها الانسان أو جماعة من الناس وبسبب المستوى التكنولوجى الذى توصلوا اليه • وهكذا ، فانه بالمعنى الذى نقصده نجد أن الانسان قد يكون حديثا فى روحه حتى لو كان يعمل بالمحراث الخشبى أكثر من انسان آخر فى منطقة أخرى مــن العالم يعمل على جرار حديث • فالاستــعداد لتقبل الخبــرة الجديدة

والطرق الجديدة لصنع الاشياء قد تعبر فى حد ذاتها عن أشكال وقرائن مختلفة : مثل الرغبة فى تبنى دواء جديد ، أو اسلوب صحى جديد ، أو قبول بذرة جديدة ، أو تجربة سماد جديد وركوب وسيلة جديدة للنقل ، أو الاهتمام بنوع جديد من الاخبار ، والموافقة على صيغة جديدة للزواج ، أو نوع جديد من التعليم بالمدارس • فالافراد والجماعات قد يكون لديهم استعداد أكثر لشىء جديد فى أحد مجالات الحياه منه فى مجال آخر ، ولكننا يمكن أن ندرك أيضا أن الاستعداد لقبول الابتكارات لازال هو السائد أكثر ، وهى ميزة عامة تظهر رغم اختلاف مواقف الانسان ، ونحن نعتبر هؤلاء الذين لديهم هذا الاستعداد أن يكونوا أكثر تحضرا •

والفكرة الثانية فى نطاق بحثنا هذا تنقلنا الى مجال الرأى • فنحن نعرف انسان ما بأنه حديث أو متحضر اذا كان لديه اقتناع بأن يكون أو يعتنق آراء عن عدد كبير من المشاكل والقضايا التى تظهر ليس فقط فى بيئته المباشرة ولكن أيضا فى البيئة الخارجية • وقد قام « دانييل ليرنر » (١) فى معهد ما ساشوستس للتكنولوجيا بدراسة رائدة عن هذا الموضوع ، فقد وجد أن الافراد فى أى بلد ، وأن السكان فى بلاد مختلفة ، فى الشرق الاوسط يختلفون بدرجة كبيرة فى قدرتهم أو استعدادهم لتخيل أنفسهم فى موقف رئيس الوزراء أو أى قائد حكومى وبالتالى تقديم النصيحة لما يجب عمله من أجل حل المشاكل التى تواجه البلد • وكلما زادت درجة تعلم الفرد ، وكلما زاد تقدم البلد ، كلما زاد الاستعداد لتقديم الآراء استجابة لهذا التحدى • وعموما ، فان الانسان التقليدى ، يكون لديه اهتمام أقل بشتى الأمور ، وخاصة تلك التى تتصل مباشرة بمصالحة ، وحتى عندما يعتقد فى آراء معينة عن أمور معينة بعيدة عنه فانه يكون أكثر حذرا فى التعبير عنها •

---

1) Daniel Lerner, «The Passing of Traditional Society» Glencoe, Ill. The Free Press, 1958.

ويمكن لنا أيضا أن نعتبر الانسان حديثا أو متحضرا اذا كان اتجاهه نحو عالم الرأى أكثر ديموقراطية • ونحن نعنى بهذا أنه يظهر وعيا أكثر بالآراء المختلفة من حوله ولايعلق نفسه على اعتقاد معين • فالانسان الحديث قادر على التعرف على الاختلافات فى الرأى ، دون الحاجة الى انكار وجود الاختلافات بسبب الخوف من أن هذه الاختلافات قد تغير رأية الخاص • وهو يميل أيضا الى فهم الرأى بطريقة اوتوقراطية أو تسلسلية • وهو لايقبل الافكار التى تأتى ممن هم أعلى منه فى تسلسل السلطة تلقائيا ، ويرفض أيضا آراء من هم أقل منه • وقد تم اختيار هذه القيم بسؤال الناس عما اذا كان من اللائق التفكير بطريقة تختلف عن طريقة رئيس القرية أو القائد التقليدى ، وأيضا سؤالهم عما اذا كانت آراء زوجة الفرد أو ابنه تستحق الاهتمام عند مناقشة قضايا عامة مهمة • وتثبت هذه الاسئلة أنها مؤشر حساس لمساعدتنا فى التمييز بين انسان وآخر ، ونحن نعتبر أنها عنصر هام فى تقرير الاعراض العامة للعصرية كما نتصورها •

والفكرة الثالثة التى نتعامل معها هنا هى فكرة « الزمن » • فنحن نرى الانسان على أنه عصرى اذ اتجه الى الحاضر أو المستقبل أكثر من اتجاهه الى الماضى • ويمكن لنا أن نعتبره أكثر عصرية اذا قبل فكرة الساعات المحددة ، بمعنى أنه يقبل جدولا زمنيا كشىء معقول ، أو مناسب أو مرغوب فيه ، فى مقابل الانسان الذى يعتقد أن هذه القواعد الثابتة تعتبر شيئا رديئا أو قد تكون للضرورة ، ولكنها للاسف تدعو للشفقة والرثاء • ويمكن لنا أيضا أن نعرف الانسان بأنه عصرى اذا كان منتظما أو منظما فى تنظيم شئونه • وهذه الاشياء قد تكون معقدة للغاية، وهذه فرصة طيبة للاشارة الى أنه من الخطأ أن نفهم أن مقاييسنا للتحديث تختلف بين الشعوب التقليدية وغير التقليدية كما تعرف عادة • ومثال ذلك أن « هنود المايا » لديهم شعور أفضل بالوقت أكثر من غزاتهم الاسبان وهم يحتفظون به حتى اليوم • والصفات التى نعرفها بأنها حديثة يمكن فى الواقع أن تتحقق فى شعوب يبدو عليها أنها غير

حديثة اذا حكمنا عليهم من خلال مستوى التكنولوجيا أو الصناعة التى يمتلكونها . ونحن نتكلم عن خصائص أو مقومات الشخص التى تكون بدورها انعكاسا لخصائص ثقافية يمكن أن تظهر فى أى زمان أو مكان . وقد أشار « انكلز » (١) أنه عندما وصف قائمته لصفات الانسان المعاصر لاحد أصدقائه الذى يقوم بدراسة مكثفة عن اليونان قال « يا الهى انك تتحدث عن اليونانيين القدماء ! » وقال له أيضا أن هناك وجهين فقط لايتفق فيهما اليونانيون القدماء مع نموذج الانسان المعاصر كما صوره « انكلز » . بينما يتفق الانسان الانجليزى مع هذا النموذج . ومايريد أن يقوله « انكلز » هو أن المفهوم لايقتصر على زماننا فقط . فكلمة « حديث » لاتعنى مجرد المعاصرة فى مفهومنا .

والفكرة الرابعة التى يشتمل عليها مفهوم « الانسان الحديث » هى « التخطيط » . فالانسان المعاصر يتجه نحو ويدخل فى تخطيط وتنظيم يعتقد فيه كطريقة أو وسيلة للتعامل مع الحياه .

والفكرة الخامسة والهامة هى مانطلق عليها مصطلح « القوة على التأثير » فالانسان المعاصر هو الانسان الذى يعتقد أن الانسان يستطيع أن يتعلم بدرجة أساسية ، أن يسيطر على بيئته ، لكى يتقدم نحو أهدافه وأغراضه أكثر مما تسيطر عليه البيئة . وعلى سبيل المثال فان الانسان الذى يعتقد فى القوة على التأثير « أكثر احتمالا بأن يرد بالايجاب على السؤال التالى : « هل تعتقد أنه سيأتى يوم يستطيع فيه الناس أن يطوروا وسائل السيطرة على الفيضانات أو أن يمنعوا العواصف المدمرة ؟ » فالانسان الاكثر قدرة على التأثير سيقول « نعم اعتقد أنه سيأتى اليوم الذى يستطيع فيه أن يفعل ذلك » حتى لو كان لم ير خزانا من قبل .

والعنصر السادس هو العنصر الذى نعتبره جزءا من الانسان

---

1) InKeles, op. cit, p. 193.

الحديث المعقد ، ويدخل فى أفكارنا هو امكان « الاحصاء » . فطبقا لتعريف « انكلز » فان الانسان المعاصر هو الذى تكون لديه ثقة أكبر فى أن عالمه يمكن احصاؤه ، وأن الناس الاخرين والمؤسسات من حوله يمكن الاعتماد عليهم لمواجهة واجباتهم ومسئولياتهم ، فهو لايوافق على أن كل شئ يمكن أن يتقرر عن طريق القدر أو الاوهام . وبمعنى آخر ، فانه يعتقد فى عالم معقول يخضع لسيطرة الانسان .

والفكرة السابقة التى يؤكد عليها « انكلز » هى فكرة « الكرامة » فالانسان المعاصر يكون لديه وعى أكبر بكرامة الآخرين ، ونزعة أكثر الى اظهار الاحترام لهم . وخاصة بالنسبة للنساء والأطفال .

فالانسان المعاصر لديه ايمان أكبر بقدرات العلم والتكنولوجيا حتى ولو كان هذا الأيمان بطريقة بدائية وهذا يعطينا الفكرة الثامنة .

والفكرة التاسعة تشير الى أن الانسان المعاصر يؤمن ايمانا عميقا بما يمكن أن نطلق عليه « العدالة التوزيعية » . أى أنه يؤمن أن المكافآت يجب أن توزع على الناس تبعا لقدر مساهمتهم ، وليس طبقا لخيال أو صفات خاصة للشخص لاترتبط مع القدر الذى ساهم به .

ويمكن لنا بسهولة أن نزيد على هذه القائمة ، ونقدم صفات وخصائص أخرى للانسان الحديث أو المعاصر ، ويمكن أن نقسم بعض هذه البنود الى غيرها ، ولكننا نعتقد أن هذا سيخدم تكوين فكرة عن الاتجاهات المعقدة التى نعتبرها هامة فى تحديد معنى الانسان الحديث. ولقد اقتصرنا هنا على هذه الافكار التسع لانها ترتبط تماما بالتوافق الناجح للفرد كمواطن فى دولة صناعية حديثة . وهى صفات وخصائص تسهم بالضرورة فى جعل الانسان أكثر انتاجية فى مصنعه ، ومواطنا له تأثير أقوى فى مجتمعه ، وانسان مقنع ومقتنع كزوج وأب فى منزله .

ويجب بطبيعة الحال أن نعترف أن هذه الافكار التسعة التى أشرنا

اليها فى الفقرات السابقة ليست هى فقط الطريق الوحيد لتعريف العصرية أو الحداثة . فبالرغم من تأكيدنا على أفكار معينة تدخل فى مجالات معينة من السلوك ، فان بعض الذين يدرسون المشكلة يفضلون التأكيد على اتجاهات وسلوك يرتبط أساسا بمؤسسات هامة مثل التحكم فى المواليد أو الدين . وليس هناك شك فى سلامة موقفهم . وفى بحث أجراه « انكلز » فى مركز هارفارد للشئون الدولية يتضمن أسئلة عن هذه الافكار مثل القيود على حجم العائلة ، ومعاملة كبار السن ، والواجبات نحو الوالدين والاقارب والأبناء ، وأهمية التغير الاجتماعى ، وأدوار النساء ، وخاصة حقوق النساء ، وكيفية تربية الطفل ، والاتجاهات نحو الدين ، والاتجاهات نحو استهلاك المواد والبضائع ، والمشاكل الاجتماعية والسياسية للمجتمع ، والدولة ، والمجال الدولى ، والطموحات التعليمية، والاجتماعية ، بما فى ذلك طموحات التنقل الاجتماعى ، والاحتكاك بوسائل الاتصال الجماهيرى . وبالنسبة لهذه المجالات قد يعرف شخص ما الوضع باعتباره أكثر حداثة ، ويعرفه آخر على أنه تقليدى . وبمرور الوقت تصبح عملية التعريف معقدة للغاية .

وعلى سبيل المثال هناك فكرة واسعة الانتشار وهى أن الناس يفقدون دينهم عندما يتركون الريف وينتقلون الى المدينة . والحقيقة أن الواقع غير ذلك . فهناك قوتان تحدثان ذلك . الأولى هى أنه اذا أراد شخص ما أن يمارس طقوس دينه بصورة طيبة فانه يجب أن يكون حسن التكوين وحسن الشخصية . فالانسان المشتت عاطفيا يهمل التزاماته الاجتماعية ، وارتباطاته . وبالرغم من أن الصورة المثالية التى لدى الناس عن الريف فان الغالبية العظمى من الفلاحين فى العالم هم فى حالة صدمة ثقافية ليست ناتجة عن التحديث وانما نتيجة لصعوبة الحياة الريفية . وعندما يذهب الانسان الى المدينة ، وخاصة اذا ضمن عملا فى الصناعة فانه يصبح أكثر احتراما وأكثر تحكما فى النفس ، وهذا يسهل له عملية ممارسة عقيدته . فهو يتجه الى أشياء كان يهملها من قبل من

أجل أن يتماسك . فهو بعد أن يستقر يعيد تكامل نفسه مـع الاشياء الرسمية من حوله ، وأحد هذه الاشياء هو الدين .

والعامل الثانى الذى قد يساهم فى تسهيل الممارسـة الدينية فى المدينة هو الاقتصاد . فان ممارسة العقيدة تكلف الانسان شيئـا ما ، حتى ولو كان الوقت ، أو الزكاه ، أو الاحتفالات الدينية ، أو النذور ، فاذا كان الانسان يعيش حياه هامشية كفلاح فان هذه قد تكون تكاليف لايقدر عليها ، وعندما يذهب الى المدينة ويكتسب دخلا أكثر ثباتا ، فانه يكون أكثر رغبة فى تحمل هذه التكاليف .

وبعد استعراض هذه الصفات أو الخصائص التى تميز الانســان الحديث أو المعاصر ، أرى أنه من المناسب أن نتكلم عن القـوى التى تؤدى الى وجـود مثل هذا الانســان ، والتى توجد فى السكـان هذه الاتجاهات والقيم والاحتياجات والوسائل التى تناسبه لكى يتمكن من الحياه بصورة مناسبة فى مجتمـع حديث ؟ وكما عرفنـا الحداثة بعدة خصائص وصفات معقدة وليس بصفة واحدة فاننا نجد أيضا أنه ليس هناك قوة اجتماعية واحدة ، ولكن عدة قوى تساهم مجتمعـة فى تحويل الانسان من انسان تقليدى الى انسان حديث .

وبالرغم من ذلك ، فانه فى داخل هذه القوى المعقـدة المتشابكة يوجد أولا : « التعليم » ، فكل الابحاث العلمية الجادة عن هذا الموضوع أظهرت أن درجة تحديث الفرد تزداد بزيادة مقدار التعليم الذى يتلقاه. ويجب أن تكون هناك بعض التحفظات فى هذه العبارة ، حيث أنه فى كثير من المجتمعات يـؤدى ضعف مصـادر الدولـة الى السـماح بنوع ضعيف من التعليم ، وأن الضغوط المختلفة على الفقراء يرغم الاطفـال على عدم الانتظام فى الذهاب الى المدرسة . وفى بعض المجتمعات نجد أنه اذا استطاع الطفل أن يتعلم لمدة عامين أو ثلاثـة فقط ، وخاصة اذا كان هذا فى ظروف لاتشجع فيها البيئة الاجتماعية التعليم ، فان تأثيرات

التعليم على التحديث تكون قليلة بالفعل • وبالمثل فان درجـــة التقليدية فى المدرسة تلعب هى نفسها دورا ما • فهناك تغير قليل نحـــو التحديث يظهر بوضوح فى المدارس التقليدية أو التى تختص بالتعليم الدينى أو الممارسات الدينية (مثل الكتاتيب) وبهذه التحفظات يمكن أن نقول أن التعليم وخاصة فى المدارس التى تؤكد على النموذج الحـــديث للمناهج هى العامل الاقوى فى تطوير السكان وجعلهم أكثر تحضرا فى اتجاهاتهم وقيمهم • ويعتمد هذا التأثير فى ناحية منه على التعليم المباشـــر ولكننا نفترض أيضا أن المدرسة هى مؤسســة اجتماعية تؤدى خدمات كنموذج للعقلانية ، وأهمية المنافسة الفنية ، وكقاعدة للمستويـــات الموضوعية للاداء ولمبدأ العدالة التوزيعية الذى ينعكس فى نظام الفصول ، وكـــل هذه النماذج نستطيع المساهمة فى تشكيل الشباب فى صـــورة الانسان الحديث كما وصفناه • .

وهناك اتفاق محدود حول التأثيرات الاخرى غير التعليـــم والتى تؤثر فى درجة تحديث الافراد • فكثير من المحللين للمشكلـــة يقترحون البيئة الحضرية على أنها المؤثر الهام التالى • فهى تشجع الفرد بل انها قد تضطره فى بعض الاحيان الى تبنى كثير من الاساليب الجديـــدة فى الحياة فعن طريق تعريض الناس لمختلف وسائل المعيشة ، ولحلقة واسعة من الافكار والآراء ، وزيادة الحركة ، وكثرة المصادر المعقـــدة لجميع الانواع ، كل هذا يسرع عملية التغير • وفى نفس الوقت فانه فى المدينة يكون هناك فرصة أكبـــر فى أن يتحرر الفرد من الواجبـــات والقيود المفروضة عليه فى القرية عن طريق روابط القرابة ، والكبار فى القرية ، والمجتمع الضيق للجيران • وهذه الاختلافات البنائية تساعد الفرد على أن يتغير ، ولكن لايوجد ضمان فى أنه سوف يتغير بطرق تجعله عصريا • وفى كثير من المدن ، هناك امثلـــة قوية عن العقلانيـــة وعن استخدام التكنولوجيا للسيطرة على المطالـــب الطبيعية للحيا ه ، وعن الجـــزاءات التى تتوافق مع المهارات الفنية والمنافسة ، وعن قيمة التعليـــم ، وعن ضمان كرامة الانسان طبقا للقانون • ولكن هناك عدة مدن كبيرة تعطى

امثلة قويه تسير فى اتجاه مضاد لهذه المؤثرات الخاصـــة بالتحديث فى كل مجال • فهذه المدن اذا انتجت نوعا جديدا من الانسان ، فمن الصعب أن تجعل منه صورة لما اسميناه عصرى أو حديث • وبالاضافة الى ذلك فانه فى ظروف النمو السريع تصبح المدينة غير قـــادرة على امتصاص وتكامل كل المهاجرين اليها لدرجة أنه فى المناطق القديمة من المدن ، نجد مجتمعات فقيرة ومتخلفة يمكن أن تنمى داخلها أناسا يكونون فى المدينة ولكنهم منعزلين عن كثير من فوائدهـــا ، وعن التأثير المتحضـــر للحياة الحضرية •

وهناك مصدر آخر للتحديـــث يصاحب الحضرية ، ولكنـــه مؤثر مستقل ، وهو « الاتصال الجماهيرى » • وتشير كل الدراسات عن نمو تحديث الفرد الى أن هؤلاء الذين يكونون أكثر تعرضا لوسائل الاتصال الجماهيرى يكون لهم اتجاهات حديثة أكثر من غيرهم • ولان مثل هذا التعرض وخاصة فى حالة قراءة الجرائد يعتمد على التعليم ، ومعرفـــة القراءة فانه من المناسب أن نؤكد على أن تأثيرات التحديث للوســـائل الجماهيرى يمكن أن يتضح أنها تكون داخل الجماعات ذات المستـــوى المتعلم •وبطبيعة الحال ، هناك امكانيـــة أن الانسان ذو الاتجـــاهات الحديثة يبحث عن الوسائل الجماهيرية أكثر من الوسائل التى تجعـــل الانسان عصريا ولكن التأثير المتبادل يكون أمرا مشكوك فيـــه • وهذه الوسائل تضخم مجال خبرة الانسان اذ يستطيع بواسطتها أن يكون على اتصال بانجازات الآخرين • فهم يقدمون دائما أدوات جديدة ، وبنود للاستهلاك ، ووسائل للنقل ، وطرق جديدة لصنع الأشياء • وهم يظهرون أمثلة للسلوك الفعال من أقوى الأنواع مثل بناء الســـدود ، والتحكم فى الفيضانات ، ورى الصحارى ، وحتى غزو الفضاء • وهم أيضا يقدمون نماذج للقيم الجديدة ، ومستويات السلوك التى يكون بعضها بعيدا عن متناول الانسان العادى ، ولكنه يمكن أن يقلد ويؤثر فى السلوك بطريقة مباشرة • وكما هو فى حالة التأثيرات الحضرية ، فاننا يجب أن نعلم أن وسيلة الاتصال الجماهيرى يمكن أن تكون وسيلة فى اعادة تأكيد القيم

التقليدية ، والمعتقدات ، وطرق العمل ، أو تنشر مفهوما جديداً لا يتفق مع نموذج الانسان الحديث الذى وصفناه •

مصدر آخر لتأثير التحديث وهو نمو الدولة القومية وما يرتبط بها من أجهزة حكومية بيروقراطية ، وأحزاب سياسية ، ووحدات حربيـة وما شابه ذلك • فكلما كان المجتمع أكثر تحركا ، كلما كانت الحكومة أكثر اهتماما بالنمو الاقتصادي ، وكلما انتشرت ايديولوجية « التقدم » كلما زادت واتسعت اتجاهات وقيم التحديـث • وقد تلعـب بعض هيئات الدولة ـــ وخاصة الجيش ـــ دورا هاما فى ادخـال الافراد فى العـالم الحديث من خلال التعليم المباشر الذى تقدمة ، وكذلك بطريقة مباشرة فى نموذج الروتين ، والتنظيم ، والمهارة الفنية ، والكفاية التى تدخل فى كثير من العمليات • ويمكن أن نعلم أيضا أن قوة الدولة يمكن أن تستخدم أيضا فى تقوية القيم التقليدية ، فالسياسة على سبيل المثال يمكن أن تسير فى طريق لايكون مثالا للسلوك الحديث والجيوش يمكن أن تسير فى طريق يبعد الانسان عن بذل أى مجهود ، أو أن يمارس نوعا من المبادرة ، أو يحترم كرامة الاخرين •

وهناك مصدر أخير لتأثير التحديـث ، وهو ما يمكن أن نضعـه فى مكان بارز وهام وهو المصنع أو أى مشروع انتاجى أو ادارى • فهناك خصائص معينة للمصنع الحديث تعتبر ثابتة نسبيا ، وهى تنقـل نفس التأثير بغض النظر عن الموقف الثقافى الذى توجد فيه • هناك يوجد تركيز مكثف على الطاقة الجسمية ، والآلية لتحويل المواد الخام ، واجراءات روتينية فى العمل ، كما يعتبر الوقت مؤثرا هاما فى سير العمل ، وتعتمد السلطة على المناقشة الفنية ، وتتفق الجزاءات أو المكافآت مـع درجة الأداء • وبالاضافة الى ذلـك فان المصنع تقوم عليه ادارة حـديثة ، وسياسات وظيفية تعطى العمال نموذجا للسلوك العقـلانى ، والتوازن العاطفى ، وتفتح مجال الاتصال ، واحترام الآراء ، والمشاعر ، وكرامة العامل التى يمكن أن تكون مثلا قويا للمبادىء وممارسة الحياه الحديثة •

ونحن فى العصر الحديث نمارس عملية تغير تؤثر فى كل شىء ، ومع ذلك لايحكمها شخص معين • فهى تلقائية ، ولكنها فى أحوال معينة قد تكون صارمة لم يعرف التاريخ مثلها من قبل ، ونظرا لان أى انسان لايمكنه الهروب منها ، فليس هناك من لايهتم بها ، فالانسان نفسه يتغير ، وكثير من الشرور يقضى عليها ، ومع ذلك فلا نهاية هناك لاشكال الفساد والشرور فى العالم • فبعض الناس فى البلاد المتخلفة لديهم استعداد للايمان بأن أى تغير يكون الى الافضل • ويشعر غيرهم بأن أغلب مالديهم الآن هو أفضل مما كان لديهم ، وهم مقتنعون تماما أن كثيرا من التغيرات التى دخلت العالم المعاصر ، ودخلت حياتهم ليست تقدما ، كما يصاب أخرون بكوارث • وقد سبق أن أشرنا الى مجموعة من الصفات العقلية التى يطلق عليها مصطلح حديثة ، وهى جديرة بالنظر بالرغم من أنها ليست متسقة فى كل نواحيها مع بعض الصفات والخصائص المنتشرة فى الثقافات التقليدية ، ومع ذلك فهى صفات وخصائص يستطيع الانسان أن يتبناها دون أن يدخل فى صراع مع ما هو أحسن فى تقاليدهم الثقافية وميراثهم الروحى • ومن المعتقد أنها تمثل أفضل الاشياء فى عملية التحديث • ولكن سواء نظرنا اليها على أنها ايجابية أو سلبية فانه يجب أن نعرف أن هذه الصفات هى التى ترعاها المؤسسات الحديثة ، هى صفات مطلوبة لكل المواطنين فى المجتمعات الحديثة • ومن أجل ذلك لابد أن نتعرف عليها لكى نفهمها ، ونقدرها على أنها قضايا هامة فى الحياة المعاصرة •

تحديث التعليم (١)

هناك ثلاثة شعارات يتردد صداها الآن فى جميع أنحاء العالم وهى: « الاستقلال » و « التنمية » و « التحديث » • انها صيحات الحاضر لقادة الدول الحديثة ، وهى الترجمة الحالية للحياة ، والحرية ، والسعى

1) C. Arnold Anderson «The Modernization of Education», in Myorn Weiner (ed.), op. cit, p. 68.

وراء السعادة•وقد يفضل القادةفى بعض البلاد التأكيدعلى أحد الاهداف دون الاخرى ،.وهو فى الغالب الاستقلال • وفى بلاد أخرى تأخذ التنمية مكان الصدارة حتى مع التضحية بجزء من الاستقـــلال • الا أن غالبية القادة يؤمنون أن الاستقلال والتنمية والتحديث تعنى نفســ الشىء • ولكن بما أننا نتكلم فى هذا الجزء من الكتاب عن التحديث ، وهى فكرة من الصعب تعريفها بوضوح كما أشرنا من قبل ، فاننا نلاحظ أن التحديث قد يعنى لبعض القادة الانضمام الى هيئة الامم المتحدة حيث يمكن للعالم كله أن يستمع الآراء هؤلاء القادة الملثين لبلادهم النامية جنبا الى جنب مع آراء الدول العظمى • وقد ينظر الى التحديث فى أماكن أخرى بلغة وجود الخطوط الجوية ، ومصانع الصلب ، وارتفاع مستويات المعيشة، هذا بينما ينظر بعض القادة الاخرين الى أن العلم والتنوير همـــا قلب التحديث وأساسه •

وقد يفهم البعض الآلات على أنها رمز التحديث لانها تزيد الانتاج، بينما يراها آخرون أنها ترمز الى حلول العلم محل الخرافة •ولكن أحيانا نجد أن التحديث يعنى تقوية الاساليب القديمة للحياة وتنقيتها ومثـــال ذلك عندما تقوى معرفة القراءة والكتابة الافــراد فى ادراك النظريات الدينية بصيغتها النقية غير المختلطة بالخرافات • وحتى اذا كانت فكرة التحديث غير واضحة تماما بالنسبة للكثيرين ، فهناك موضـــوع واحد لايمكن الاختلاف عليه وهو أن التحديث يمكن تحقيقه عن طريق وتطوير وتوسيع التعليم ، فلماذا يؤكد قادة المجتمعات النامية على هذه النقطة ؟

أولا : يجب أن نحصل على التعليـــم قبـــل أن نحصل عـــلى التقدم التكنولوجى والاقتصادى فلكى نزيد من انتاج الطعام ، ونشغل المصانع، ونطبق العلم من أجل تحسين الحياه أو لكى نتاجر فى الاسواق العالمية فانه لابد أن يكون فى المجتمع مجموعة كبيرة من الافراد المدربين جيدا • ثانيا: اننا نحتاج الى التعليم بالضرورة اذا أردنا توحيد مجموعة من الناس أو الجماعات فى مجتمع ما ، فالناس لايمكنهم أن يفهموا زملاءهم

يعيشون فى القرية المجاورة اذا لم يكن لديهم ولدى جيرانهم على الاقل فكرة ما عن معنى الامة ، كما أن تأثيرهم على الشئون العامــة سيكون ضئيلا للغاية طالما ظلوا أميين •

ثالثا : تستطيع الدولة السياسية أن تعيش فى العالم الحــديث فقط اذا استطاع موظفوها ربط الادارة فى مجالات واسعة • فسياسات رئيس الوزراء يجب أن تمتد الى مدى أبعد من صوته • ومن المثير للدهشـــة حقا أن قليل من الدول اليوم تتخيل أنها تستطيع الحيــاه والاستمرار دون شىء يسمى رئيس وزراء أو رئيس جمهورية ، وهذا الفرض يعتبر وعدا للعالم بأن الافكار والانشطة يمكن أن توجد وتستمر من خلال عمل الموظفين المتخصصين المتعلمين •

ومع ذلك ، فانه لايكفى فقط أن نتحقق من الحاجــة الى التعليم ، فعلى الجماهير أن تتعلم كيف تسلك لكى تكون هناك دولة حديثة ومجتمعا حديثا • فعلى الفلاحين أن يصبحــوا أكثر انتاجية ، وعلى أصحــاب المشاريع أن يتعلموا المخاطرة والمغامرة من أجل انتاج أفضــل ، وعلى الموظفين أن يتعلموا كيف ينفذون احتياجات وطلبات الجماهير فى الحال وبنظام دقيق • وفى كل هذه الأحوال ،ومن أجل تحقيقها بصورة مناسبة فان التعليم يكون مطلوبا •

ان نظرة واعية الى التعليم تكشف عن أن له عــدة وظائــف هامة وأساسية ، ولايمكن الحصول على نتائج التعليم كلية عن طريق الاقتصاد أو الحكومة • واذا عكسنا هذه الصورة فان المجتمع سوف يجنى كثيرا من الفوائد لم تكن متوقعة عندما بدأ فى بناء نسق المدرسة • فكثــير من الاشياء تحدث للصغار خلال معيشتهم فى المدرسة •

وربما يكون من أهم الاشياء ، هو أن الاطفــال ينمون مفهومات جديدة لنوعية أشخاصهــم • فهم يتبنون قواعد جديدة لســلوكهم ،

ويكتسبون ولاءات لافكار جديدة ، وجماعات جديدة ، وتقوم المدارس أيضا بتعليم الاطفال مهارات خاصة مختلفة (مثل تعلم صنعة ، أو بعض العلوم ، أو كيفية ادارة المنزل) ولكن أيضا بعض القـــدرات التى يمكن أن تكون اهتمامات لتمضية وقت الفراغ : كالتمتع بالموسيقى ، والالعاب الرياضية ، أو حتى مهارات الجدل والمناظرة ، ومن بين المهارات بل ومن أهمها ـــ فان المدارس تساعد الافراد على اكتساب معيشتهم ، فهى تعد الناس لتحويل البناء المهنى بينما هم يعملون فيه (١) .

ويقوم التعليم أيضا بالمحافظة على الانساق الثقافية كالادب والفن، والقانون ،وا لعلوم ، ويتعلم الشباب كيف يصورون الانســـاق الثقافية التقليدية فى أشكال وصيغ جديـــدة والتى يطورون بها المظاهر المـــادية واللامادية للتحديث ، وفى نفســـ الوقت فان المدارس تقوى وتدعـــم النسق التعليمى والتربوى ذاته .

وفى كل مجتمع بما فى ذلك أكثر المجتمعات ديموقراطية ، تســـاعد المدارس على افراز الافراد الذين سوف يصبحون جزءا من الصفوة فيما بعد ، وتعلمهم بعض المهارات الخاصة التى سوف يحتاجون اليها لكى يلعبوا أدوارهم كقادة ، ان التعليـــم يساعـــد بدون شك على اختبار وتدريب حاملى الثقافة ، والمبدعين والحكام .

وأخيرا ، فان للمدارس أهداف سياسية هامة ، حيث تلقن التلاميذ المبادىء الحزبية ، فالاطفال يتعلمون المساهمة فى عـــادات مجتمعهم ، وقبول فلسفات سياسية معينة ، وتعتبر هـــذه من أهم الوســـائـــل التى بواسطتها توجه المدارس عقول الاطفال نحو المستقبل .

وفى كل الاتجاهات المتباينـــة التى استعرضناها نجد أن التعليـــم يشارك فى تحديث المجتمع بصورة أساسية ، ومع ذلك ، فان المدارس قد

---

1) Ibid, pp. 69 - 70.

تكون أيضا هيئات محافظة . فهى اما تؤثر فى تقوية الطرق القديمــة او تبنى طرقا جديدة تعتمد جزئيا على أن التعليم ذاته لابد أن يكون حديثا، ولكنه يعتمد أكثر على ما يجرى خارج المدارس . وعندما نحاول اقتفاء تأثيرات التعليم على عملية التحديث فانه علينا أن نضع فى اعتبــارنا أن ما يعتبر آخر صيحة فى التعليم فى مجتمع ما يمكن أن يكون طرازا قديما جدا للتعليم فى دول أخرى متقدمة جدا .

ويجب أن نتذكر أيضا أن التعليم ليس دواء سحريا يمكن أن يقوم بذاته بتحويل المجتمع . فالتغير الاجتماعى أمر معقد للغاية كما نراه عند تدقيق النظر فى بعض العلاقات التى تظهر بين التعليم والتنمية .

ويبدو الآن أن كل فرد تقريبا يؤمن بأن المستويات القومية للتعليم ترتبط تماما مع مستويات الدخل . ويسجل هذا الايمان فى وثائق كــل الوكالات الدولية ، وفى المجــلات التعليمية ، ويتردد صــداه أيضا فى الصحافة العامة . وعلى المدى البعيد فانه لايمكن أن تقوم دولة ناجحة تتمتع بالرخاء ما لم يكن لديها نسبة كبيرة من العمال يملكون شيئا أكثر من مجرد تعلم القراءة والكتابة . فالمجتمعات المختلفة لن تتمــكن من التخلص من الفقر حتى يتعلم مواطنوها القراءة والكتابــة ، ويتعلمون القيام بالعمليات الفنية والعملية المعقدة ، ويستطيعون ادارة التنظيمات المعقدة أيضا (١) .

ولكن قبل أن نستنتج أن مجتمعا ما يجب أن يتجه نحو تعليم أكثر، فاننا يجب أن نرى ماذا تعنى كل هذه التعميمات الواسعة . وقد يساعدنا فى المحافظة على المنظور فى هذه المشكلة اذا تذكرنا أنه حتى عام ١٨٩٠ كان خمسة فى المائة من الشباب الامريكى فقط قــد انتهى من الدراسة الثانوية . ومع ذلك ففى ١٨٩٠ كانت الولايات المتحدة الامريكية من قبل ذلك تعتبر من البلاد ذات الدخل المرتفع ، وكانت قد دخلــت بالتأكيد فى

1) Ibid, p. 71.

مرحلة التحديث بل لقد كانت على وشك أن تبدأ ثورة السيارات فى العالم • أو فلننظر الى الاتحاد السوفيتى وهو دولة أخرى قامت بتطور اقتصادى كبير فى عشرات السنوات الاخيرة ، ومع ذلك فانه فى عام ١٩٥٩ وبعد مرور جيل كامل من التصنيع ، فان متوسط التعليم الرسمى للرجل العامل فى روسيا كان أربع سنوات • فالتعليم اذن ضرورى للتنمية ، ولكن ما مقدار هذ االتعليم ؟ وهل يقوم التعليم بجلب التنمية ؟

ان أى مجتمع لايستطيع أن يتحرك بسرعة من الفقر الى الرخاء أو من التخلف الى التحديث • فالمجتمع يرتفع من مستوى اقتصادى معين الى المستوى الذى يليه بخطوات قصيرة • فالتنمية على المدى الطويل تعتبر مجموعة من خطوات قصيرة • وفى كل مرحلة من هذه المراحل هل يسبق التعليم أم يتبع الارتفاع فى مستوى الدخل ؟ ان الاجابة تبدو فى أن زيادات الدخل يتبعها ارتفاع فى درجة التعليم ، ولكن كل منهما يؤثر فى الاخر ، لانه بدون تحسين مستوى التدريب فان الارتفاع فى الدخل سوف يتوقف •

ان المجتمع الذى لديه فائض اقتصادى قليل يزيد على أقل مستوى للفقر لايمكنه الا أن يقدم القليل من التعليم • فاذا استغل هذا الفائض المحدود جيدا — وهذه حقيقة — واذا استطاع التدريب أن يصل الى بعض المكاسب فى الانتاجية التى يمكن أن يدفع منها من أجل تعلم أكثر وهكذا • واعتمادا على المكان الذى نبدأ النظر منه على عملية التغير فان اتعليم يمكن أن يبدو أنه هو السبب أو النتيجة • وبطبيعة الحال فان الحركة خطوة فخطوة كما هى فى حالة المشى هى التى تجلب التقدم •

فالخطوات الاولى فى التقدم التعليمى يمكن أن تكون عقيمة • وبالرغم من كل شىء فان المدارس تعتمد على دوافع يرغب فيها الناس فى وضع أطفالهم فى المدرسة ، والاحتفاظ بهم هناك •وتتوقف الفوائد هنا على كيفية استخدام الناس لما تعلموه • وهكذا فان العائد من التعليم يتوقف على كل التأثيرات الاضافية ، والانشطة الموجودة فى المجتمع حول

المدرسة • وهذا أمر حقيقى سـواء قمنا بقياس القيمـة الاجتماعية للمدارس بالانتاجية الاقتصادية أو كيفية ادارة الحكومـة ، أو بحكمة المواطنين عندما يدلون بأصواتهم • ولهذا فانه لكى نتأكد أن أرقى الدول من حيث التعليم لها أعلى دخول ، ولكن هذه النتيجة تعتبر واسعة جدا وشاملة بحيث لايمكنها أن تخبرنا بالكثير عما أسهم به التعليم فى تحديث هذه الدول (١)

واذا نظرنا الى الخلف فى التاريخ لفترة قرن أو اثنين ، فسـوف يتبين أن الفرد فى الدول التى تعتبر حديثة الآن لم يكن لديه تعليما على درجة كبيرة • ومع ذلك فالمجتمعات التى تبدأ الآن فى طريق التنمية ربما تحتاج الى عدد أكبر من الناس الحاصلين على درجات مختلفة من التعليم عما كان لدى البلاد المتقدمة عندما بدأت التحديث ، وذلك لعدة أسباب ؛ فالتكنولوجيا القائمة اليوم أكثر تعقيدا ، وحل الراديو محل التلغراف، والبلاستيك بدلا من الورق • كما نجد أن كل دولة اليوم لابد أن يكون لديها موظفيها وفنييها الذين يستطيعون الاتصال والتخاطب مع ممثلى الدول المتقدمة ذات الثقافات العالية •

وبالرغم من ذلك ، فان بعض المجتمعات النامية تضع أهدافا أعلى للتعليم عما تحتاجه بالفعل • فهى تبالغ فى درجة الحاجة الى التعليم ، وتقللمن قيمة أهمية البيئة الاجتماعية بتأثيرهافى المجتمع كله •كما يذهب الايمان بالتعليم باعتباره هدفا فى حد ذاته فى بعض الاماكن الى مدى غير معقول • وليس هناك شـك فى أن الضغوط السياسية من أجـل افتتاح مدارس أكثر يعتبر أمرا ملحوظا للغاية بغض النظر عن نوعيـة التعليم الذى يقدم فى هذه المدارس كما يحدث فى مجتمعنا •

فلا أحد يستطيع أن ينكر أن للتعليم نتائجه الجديرة بالنظر سواء نتج عنها فوائد اقتصادية أم لا ؟ ومع ذلك فان مجرد بناء مجموعة من

---

1) Ibid, p. 72.

حلال نعليم نظامى لايعتبر ضمانا للفوائد المرجوه • ودلك لان الامر ليس بهذه البساطه حيث يحتاج لاجيال من أجل تطوير فن كيفية المعرفة وحبرة الأعمال ، وعادات الانتاج فى العمل • أنها الخبره ، والجهود الجبارة تلك التى ينتج عنها صفات السكان وخصائصهم . كما يعتبر التعلم عن طريق الكتب وسيلة واحدة فقط فى المساعدة من أجل الحصول على هذه الصفات •

أن « الفجوة التنموية » بين بلاد العالم المختلفة ليست فجوة اقتصادية فقط ، فهناك فجوات أخرى عديدة : فى النضج السياسى للمواطنين ، وفى مهارات الفنانين ، وفى ادارة الاعمال ، وفى المهارة الادارية عند الموظفين الخ ••• وسوف يكون من الاسهل أن تغلق الفجوة فى التعليم بين المجتمعات عن أن نسوى بين المهارات الانتاجية للفلاحين والعمال العاديين • وكل هذا يمكن اعتباره طريقا آخر للقول بأن التعليم فى المدرسة يعتبر جزءا واحدا فقط من التربية الكلية المطلوبة من أجل التحديث •

ومن وجهة النظر العملية ، فان المشكلة يمكن أن تتضح لو حاولنا الاجابة على الثلاثة أسئلة التالية :

١ — ماهى درجة التعليم الذى يجب أن يحصل عليها مجتمع ما ؟

٣ — الى من يوجه التعليم اذا أردنا دفع التحديث الى الامام ؟

٢ — أى النوعيات التعليمية يجب أن يحصل عليها الشباب ؟

أولا : درجة التعليم

نظرا لطول الطريق من التخلف الى الطرق الحديثة للحياة والذى يجب أن نجتازه خطوة فخطوة ، فلايهم اذن مقدار المساعدة التى يتلقاها المجتمع من الدول الأكثر تقدما للاسهام فى برامجه التعليمية أو البرامج الأخرى ، لانه على المدى الطويل يسهم فى ذلك بجهوده وامكانياته

الخاصة • ومع ذلك ، فان الموارد التى يمكن للمجتمع الفقير أن يستغنى عنها من أجل التنمية هى فى الواقـــع موارد محـــدودة • ولكن فى نفس الوقت فان الفوائد الانتاجية التى يجب أن تحدد من أجلها هذه الموارد تعتبر فوائد كثيرة • وبطبيعة الحـــال فان امكانية القيـــام باستثمارات معقولة وحكيمة محدودة الى حد كبير بمقدار الامداد بالنـــاس الذين يعرفون كيفية تقديم الفائدة الانتاجية لمثل هذه الموارد سواء فى المصانع أو فى تحسين النظام التعليمى ذاته • فلا يمكن لاى مجتمـــع أن يدرب مجموعة من الرجال المهرة أثناء الليل ، لان التعليم يستغرق وقتـــا ، كما تقوم المدارس بامتصاص جزء كبير من الناس المدربين من أجـــل تعليم العمال الجدد •

ويمكن التغلب على النقص فى الافراد المهرة فى مجتمع مـــا وذلك بالاستعانة بالمدربين الاجانب أثناء السنوات العشر أو العشرين الأولى وذلك حتى يتم تدريب المواطنين • ولكننا فى هذا الموقف نكـــون عرضة للتصادم بين رغبة المجتمع فى التطوير وتصميمه على أن يقوم بكل اموره بنفسه • وعادة يكون هناك ترحيب بالمدرسين الاجانب ، ولكنهـــم يكون غير مرغوب فيهم للعمل فى الحكومة ، أو الاعمال التجارية • بالرغم من أنهم فيها أيضا يكونون ذوى خبرات ومهارات نادرة •

ونتيجة لذلك فان كثيرا من البـــلاد تضع برامج عاجلـــة لتدريب أبنائها على التخصصات المطلوبة أكثر من غيرها ، ولكن البرامج العاجلة تعتبر مسألة غير موفقة فى أغلب الاحيان • فاذا استطاع بلد ما أن يوظف أجانب أكثر خبرة وتدريبا ، فانه من الممكن أن يقوم بتطوير نظام تعليمى وتدريبى أكثر تخطيطاً وسوف يبقى بعد ذلك موارد أكثـــر للصرف منها على برامج أخرى ضرورية مثل انشاء الطرق، أو التوسع الزراعى الخ•• وهذا يؤدى بنا الى سؤال جوهرى وهو : هل من الملائم أن نحكم على درجة تحديث النظام التعليمى بلغة حجمه ، وعدد الطلبة ، أو بلغة الموارد

التعليمية الكافية والتى تستخدم من خلال برنامج كلى للتحديث ؟ (١)

اذن ماهى الاحتياجات التعليمية الفعلية لمجتمع ما ؟ ان الاجابة تتوقف على ما يتوقعة الفرد عما يحققه التعليم • فاذا حصل الشباب على تعليم واسع : فان الامداد بالمهارات الوظيفية سوف يزيد ببطء • أما اذا بذلت الجهود من أجل تخريج أفراد نصف مهرة وبسرعة فأنهم لن يكونوا معدين للانتقال الى أنواع جديدة من العمل • فهم لايعرفون كيف يكونون مواطنين ، والقليل منهم سوف يصحبون قادة للجماهير •

ان المدخل الى التعليم من خلال مصطلحات التخصص الدقيق لعمال متخصصين من أجل وضع قائمة معينة من الوظائف تسمى تخطيط القوى البشرية • وقد تكون أغلب التنبؤات بالنسبة للطاقة البشرية المطلوبة لايمكن الاعتماد عليها • الا أن الصعوبة الحقيقية هى أن هناك خطر تدريب أفراد اكثر من الحاجة الفعلية للمجتمع ، وهذا ما يحدث فى مجتمعنا بالنسبة لبعض التخصصات الذى يزيد عدد المتخصصين فيها عن الحاجة الفعلية لسوق العمل • وعموما فان النقص فى بعض التخصصات فى المجتمعات النامية يظهر بين المديرين ، وأصحاب الاعمال ومن على شاكلتهم وليس العمال • ومن ثم فهناك صعوبة ترتبط بهذا ، وهو أن بعض القدرات الهامة لايمكن تعلمها فى المدارس ، ولكنها يجب أن تتعلم عن طريق الخبرة فى العمل • ولهذا فان الاجابة الحذرة هى أن المجتمع يحتاج فقط الى قدر قليل من التعليم أكثر مما لديه الآن • ان التنبؤات الضخمة تبدو مناسبة وملائمة على الورق فقط مالم يكن هناك توسعا موازيا لها فى الاعمال فانه سيكون هناك فاقد كثير للموارد عندما نضع كثيرا من الاستثمارات فى التدريب (٢) •

ولكن مهما كان حجم النسق التعليمى ، فهناك أيضا مشكلة تقسيم

1) Ibid. p. 74.

2) Ibid. p. 75.

التعليم الى مستويات ابتدائية وثانوية وجامعية • ونستطيع أن نلمس المناقشات المستمرة فيما يتعلق باعطاء الاولوية لاى مستوى من هذه المستويات • فمثلا اذا لم يلن الانسان العادى ملما بالقراءة والكتابة فانه سيتعرض للغش عند بيع محصولاته ، ولايستطيع قراءة التعليمات المتعلقة بوظيفته • ونتيجة لذلك ، فان كثيرا من البلاد اليوم بما فيها المجتمع المصرى تضع هدفا لها وهو تعميم الدراسة الشاملة لمدة ست سنوات فى التعليم الالزامى •

ومن ناحية أخرى فان درجة التعليم فى أى مجتمع تعتبر هامة للغاية حيث لا يمكن أن توجد حكومة على الاطلاق اذا لم يكن فى المجتمع أفراد يتميزون بارتفاع درجات تعليمهم كى يتمكنوا من وضع سياسة الدولة ، والعمل فى المؤسسات الدولية ، وقيادة الابحاث ، وادارة الاعمال • ان هذه الطريقة فى النظر الى المشكلة تعطى للتعليم العالى أهمية من الدرجة الأولى بالنسبة للموارد المتاحة • ولكننا مع ذلك يجب أن نواجه الحقيقة بأن كل مجتمع يحتاج الى حوالى من ثلاثة الى خمسة فنيين على مستوى متوسط لكل خريج من الجامعة • وسوف تكون الصفوة أكثر قدرة اذا تم اختيارها من بين عدد كبير من خريجى المدارس الثانوية • وبالاضافة الى ذلك ، فان أغلب البرامج الموجودة فى مجال الوظائف مقصود بها أفراد ذوى تعليم على مستوى متوسط (١) •

ومن بين هذه المطالب الثلاثة للاولوية فى التعليم ، فان حالة التعليم الجامعى هى الأضعف لانها تحتاج الى عدد قليل أو عدد من الرجال والنساء تدرب جيدا • وهكذا يمكن أن نقول أن الدولة النامية لاتحتاج الا أن تضع أكثر من نسبة مئوية صغيرة من شبابها فى المدارس الثانوية• ويجب أن تقاوم الضغوط السياسية فى زيادة التوسع فى المستويات التعليمية العليا •

---

1) Ibid, p. 76

هذا بالاضافة الى أننا عندما نحـــدد حاجة المجتمـــع الى الناس المتعلمين ، علينا أن نسأل أيضا عن العدد الذى تستطيع الدولة أن تنفق عليه ، وهذا يجعلنا نفكر فى فاقد المـــوارد • ان الاختيار الاســـاسى لما تستطيعه بلد ما أن تنفقه على التعليم هو أن تسأل نفسها عما تستطيع الاستغناء عنه • ومثال ذلك ، أنه بالتوسع فى المدارس العليا بسرعة فان هذا يضحى بمدارس التعليم الابتدائى المحتملة ، ويقلل من الامـــداد بالناس الذين يشرفون على المحافظـــة على الآلات فى مصانعهـــا • ان التكاليف الحقيقية لاى برنامج هو ما يمكـــن أن نأخذه من مشروعـــات أخرى من أجل الانفاق على البرنامج الذى وقع عليه الاختيار • وبهـــذا الاختيار فان البلد يستطيع بسهولة أن يدخل فى سياسة تمويـــل تعليم تزيد على حاجته • وهناك أيضا تكاليف باهظة ، مع امكانية كثرة الفاقد فى حالة السير فى طريق خاطىء للتعليم (١) •

ثانيا : نوع التعليم

يلاحظ أنه فى جميع المجتمعات ـــ وليس فى المجتمعات النامية فقط يوجد نوع من النقاش بين أنصار التعليم العام وبين هؤلاء الذين يؤكدون على أهمية التدريب الفنى • وتأخذ المجموعة الأخيرة عـــلى المدارس العادية اعتمادها المطلق على التعليم من الكتب موجودة حتى فى أكثر البلاد ينسون أن المدارس التى تعتمد على الكتب موجودة حتى فى أكثر البلاد تقدما • أما هؤلاء الذين ينتصرون للتعليم العام فى المستويين الابتدائى والثانوى فهم يشيرون الى أن المدارس فى المجتمعات النامية لديها كل ما تستطيع أن تفعله لاعطاء الاطفال تعليما أساسيا واعدادهـــم لاكتساب التدريب المهنى •

ومع ذلك ، فان أى مجتمـــع يمكن أن يجمـــع المهارة فى كـــل من

---

1) Ibid. p. 76.

الطريقتين • فهى تستطيع أن تدرب عددا صغيرا الى مستوى عال جدا من المهارة ينافس أحسن الافراد تدريبا فى البلاد المتقدمة • ومن ناحية أخرى تستطيع أن تدرب عددا أكبر فى مستوى متوسط من الكفاءة ، وعددا قليلا من المستويات الاعلى • وقد توصل الكثيرون ممن تعرضوا لدراسة هذه المشكلة الى القول بأن السياسة الثانية هى الاكثر ملاءمة اذا كان الهدف هو الوصول الى الحد الادنى من التنمية بأقل التكاليف ، وبأقل ضرر للاستثمارات الاخرى للتنمية • ومثال ذلك أنه فى مجال الصحة كانت هناك توصية بأن يتم اعداد عدد كبير من المرضات مع عدد قليل من الاطباء للاشراف على توجيه وتدريب المرضات •

وهناك نتيجة أخرى وصل اليها بعض الذين يفكرون فى مشاكل التعليم المهنية ، وهى أنه حيث يكون ممكنا ، فان مثل هذا النوع من التعليم يجب أن يتقدم لاناس لديهم استعداد مسبق للوظائف ، وفى وقت ومكان قريبين من المكان الذى سوف تستغل فيه هذه المهارات • أى أن أغلب التدريب المهنى يجب أن يعطى أثناء القيام بالعمل بالفعل • وهكذا فان الافراد يقومون بالعمل ويدربون فى نطاق نفس البرنامج العريض •

وغالبا ما تقدم المقترحات بأن يبدأ الناس وظائفهم باعطائهم التدريب المهنى فى المدرسة الابتدائية مع دروس فى فلاحة البساتين ، والتدريب اليدوى : ثم ينتقلون فى التعليم الثانوى الى دراسة أشياء مثل الالكترونات • وهذه سياسة غير حكيمة لا أكثر من سبب يمكننا ذكره هنا • فقد أظهرت الخبرة الطويلة أن تدرس الزراعة فى المدارس يجعل الاطفال يكرهون الفلاحة ، لان مثل هذه المهارات يجب أن تدرس للشباب الذين هم فلاحين فى الواقع ، وللاطفال الكبار الذين يختارون هذه المهنة • وفى نفس الوقت نرى أن التوسع فى العمل الزراعى يجب أن ينال عناية كبيرة فى كل المجتمعات ويجب أن ترتفع الانتاجية الزراعية، ومعنى هذا أنه لايجب أن يقتصر التدريب كله على التدريب الصناعى • وهناك اعتراض أخر على ادخال التدريب المهنى فى المدارس الثانوية

لانه فى هذه الحالة يأخذ من الوقت المخصص لتدريس العلوم التى هى أساس أى تعليم فنى فيما بعد (١) .

نصل من هذا الوجه المختصر الى نتيجة واضحة وهى أن النظام التعليمى يجب أن يكون مرنا . واحدى الوسائل لتحقيق هذا هو تحسين نوعية التعليم العام لتخريج عدد من الخريجين ذوى المرونة ، وفى نفس الوقت فان القابلية للمرونة فى التدريب يمكن ضمانها عندما نجعل التدريب قريبا من مواقع الانتاج بقدر الامكان .

ان مشكلة نوعية التعليم هامة جدا . لان كل المدارس الابتدائية فى أغلب مجتمعات العالم لها نوعية يرثى لها . فالمدرسين فيها قليلى الخبرة والتدريب وغالبا ما نجدهم أفضل قليلا من طلبتهم . ومن الواضح أن المدرسين الاجانب لايمكن أن يعملوا فى المدارس الابتدائية ، ولكنهم يجب الاستفادة منهم فى المستويات الاعلى ، ولهذا فان نوعية المدارس الابتدائية يمكن الارتفاع بها ببطء .

أما فى المستويات الاعلى فانه يمكن الوصول الى نوعية أفضل بسهولة أكثر . فهنا تكون نوعية المدرسين مختلفة بالضرورة فهم أكثر تعليما وخبرة .

ولكن نوعية التعليم لاتعود الى المدرسين فقط ولكنها ترجع الى الدارسين أيضا وهذه حقيقة ضد التوسع السريع جدا فى المدارس ما بعد الابتدائية . فما الذى نعنيه بالفعل عندما نتكلم عن نوعية التلميذ ؟ وماهى الصفات الشخصية التى توجد لدى الاشخاص ذوى المبادرة — أشخاص سوف يكونون عمالا منتجين فى المزارع أو المصانع ، أو كرجال أعمال ، أو موظفين ؟ فزيادة على التعليم المناسب فان هؤلاء الافراد

---

1) Ibid, p. 77.

يحتاجون الى أن يكون لديهم اتجاهات معينة ، وسمات معينة للشخصية، ودافع لأن يفعلوا شيئا فى حياتهم . والمدارس لاتقدم الا القليل لانتاج مثل هذه الصفات التى تأتى عن طريق خلفية الاسرة ، والتقاليد المحلية، والمناخ العريض للرأى العام . فالمدارس هى مجـرد أدوات صالحـة للمجتمعات التى تعرف كيف تستغلها .

وهناك سوء فهم آخر يجب حله، وهو أنه غالبا ما يوجه اللوم الى المدارس من حيث أنها تدفع الشباب الريفى الى المدن حيث يحـاولون الالتحاق بأعمال وظيفية معينة ويصبحون من ذوى الياقات البيضاء . ولكن لماذا نحاول ارغام هؤلاء الصغار الذين ذهبوا الى المدرسة على أن يبقوا فى المزارع اذا كان زملاؤهم الاكبر منهم لن يتبنوا وسائل أفضل فى الزراعة ؟ ولماذا يجب على الناس أن يقنعوا بالعمل اليدوى اذا كان هناك أخرون يدفعون أكثر ؟ أن الطموحات المهنية لاتنتجها المدارس . انها تأتى من النظر الى سوق العمل ، وملاحظـة من هم أكبـر ، ومن الطموح الشخصى . فاذا أراد مجتمـع ما أن يكون شبابه فلاحـين أو يتوسع فى العمـال أو المهنيين فان عليه أن يـدفع أجورا أعلى لهـذه المهن (١) .

ثالثا : التعليـم لمن ؟

ان أى مجتمع فقير يجب أن يحاول الحصول على أقصى فائدة ممكنة من الكم الصغير نسبيا من الاستثمار الذى تستطيـع أن تستغلـه فى التعليم ، أو أى مشروع آخر . فلا يستطيع أحد أن يحدد الفوائد بلغة الاقتصاد فقط ، ولكن الاهداف الاقتصادية يجب أن تكون ذات أهمية كبيرة اذا كانت هناك رغبة فى القضاء على الفقر .

ولذلك فانه من المناسب أن تحصل على أكبر ناتج ممكن من المدارس

---

1) Ibid, p. 78.

التى يستثمر فيها المجتمع المدرسين والموارد الاخرى • الا أن هـذا لا يحدث الا فى أجزاء محدودة فقـط من المجتمع النامـى • ففى بعض المناطق فقط نجد أن الوالدين على استعداد لارسال أطفالهم الى المدرسة، وابقاؤهم فيها حتى يتعلموا شيئا ما • وهنـاك بعض المناطـق ترحب بالمساهمة فى نفقات التعليم • ولابد اذن أن يكون لبعض المناطق مدارس أكثر ، وهذا يتيح للشباب فيها الحصول على تعليـم أكثر من الآخرين الموجودين فى مناطق أقل تقدما •

ومعنى هذا أنه ليس كل الاطفال فى المجتمع النـامى سوف يكون لهم فرصا متكافئة فى دخول المدارس الابتدائية • وان مـن بين الذين ينتهون من تعليمهم الاعدادى يوجد أطفال تقدموامن المنازل ومن المحليات واثبتوا كفاءة فى الامتحان • ان هؤلاء الاطفال سوف يتقدمون بدون شك للتسجيل فى المدارس الثانوية والكليات بعد ذلك ، ومن ثم يظهـر نوع من التوزيع غير العادل للفرص ، ولكن طـالما أن البلد فقير فـان عدم المساواه لايمكن تجنبه •

وحتى بين الاطفـال الاكثر غنى ، فان هناك مشكلـة مدى حريه الاختيار فى التعليم ، واختيار الوظيفة الذى يسمح به المجتمع ، فعلى المسئولين أن يقرروا عدد الأمـاكن التى يقدمونها فى كليـات الطب أو الهندسة ، أو الفنون الحرة أو الزراعة الخ •• وهنا فان الشبـاب لن يتمكنوا من الحصول على اختيارهم الأول الا تحت شروط قاسية أولها المجموع الدراسى الأكبر كما يظهر عندنا فى نظام التنسيق تبعا لمجموع الدرجات • ان المشكلة بالنسبة للمسئولين هى ضرورة اعطـاء الأفراد قدرا كبيرا من الاختيار يتفق مع الحاجـة المطلوبة للافراد المدربـين • وبطبيعة الحال فانه ليـس من مسئولية بعض المسئولين عن العمليـه التعليمية أن ينموا الصورة المخادعة فى أنهم يعرفون فعلا عدد الافراد المطلوبين فى التخصصات المختلفة (١) •

---

1) Ibid. p. 79.

كانت هذه بعض العلاقات بين التعليم وبين المظاهر المختلفة للتنمية القومية ، وبعض مزايا ومواطن الضعف الموجودة فى مختلف مداخل السياسة التعليمية من أجل التحديث . فهناك حد لما يستطيع التعليم أن يقوم به من أجل التنمية اذا لم تدعمها بعض مؤثرات التحديث الاخرى. فأى نوع من التعليم ينتج عنه فى الغالب بعض الفوائد الذى يسير فى طريق التحديث . ولكن هناك مزايا تحديدا وأكثر شمولا مرغوب فيها وممكنة التحقيق .

وفى التحليل الاخير فاننا نستطيع أن نقول أن التعليم سوف يقلب الحياه التقليدية . فى نفس الوقت الذى يساعد فيه على وضع أساس طريق جديد للحياه . فكلما زاد تأثير التعليم كلما كانت التغيرات الناتجة عنها أكثر اكتساحا . ولايمكن لكل المؤثرات أن تسهم بشكل مباشر فى التقدم الاقتصادى ، ولا يتحتم عليها أن تكون كذلك . فبعض التأثيرات سوف لايكون متفقا مع رغبات السلطات السياسية . وأفضل ضمان لبعث وانشاء نظام تعليمى هو أن نحيطة بمجتمع له دوافع نشيطة نحو التغير والمبادرة . فالمدارس بمفردها أدوات ضعيفة للتحديث ، ولكنها عندما تدعم جيدا فانها تكون أدوات قوية .

الفصل الثامن

مشاكل التحديث فى العالـم الثالث

الفصـــل الثامن

مشاكل التحديث فى العالــم الثالث

التحديث كمشكلة غربية فى التاريخ الاجتماعى

عند مناقشة مشاكل « التحديث » للدول النامية والتى يطلق عليها دول العالم الثالث ـ فان أى مصطلح أو تلطيف فى التعبير نستخدمه ـ فاننا نكون مع ذلك نتعامل مع مشكلة غربية فى التاريخ الاجتماعى لهذه المجتمعات . فنحن هنا فى مواجهة (سواء من أجل الخير أو الشر) حل اجتماعى عالمى . ومع ذلك فهناك تساؤلات تدور حول ما اذا كانت هذه التغيرات تتداخل جزئيا على الاقل بارادة وتفضيل هذه الشعوب النامية أو أن هذه الانماط فرضت عليهم . فالانماط تتداخل دائما عندمـــا تبدأ عملية التغير ، وتكون الانماط السابقة عرضة للتغير دائمـــا ، وتكون فى تغيرها متجهة نحو نمط المجتمع الحديث . وعندما تبدأ عمليـــة التغيرات فانها لابـــد أن تكون ناجحـــة من وجهة نظر المهتمين بادخـــال هـــذه التجديدات أو التغيرات ، ولكنها فى نفس الوقت قد تكون غير ناجحة وغير مرضية بالنسبة للانماط السابقة ، أو أصحاب المصلحة فى بقاء الاوضاع على ماهى عليه .

ويرى كثير من المفكرين أن تعقد مسألة تحديث مجتمعات العـــالم الثالث يرجع الى العرقية ـ التى يعبر عنها سياسيا بالقومية ونفســيا بعاطفة الخوف من الأجـــانب ـ فالكراهية التى زرعهـــا المستعمرون يحصدها الشرق الاوسط فى رفضه لكل مظهر من مظاهر التدخل الاجنبى. فالذى تطلبه هذه المجتمعات هو مؤسسات حديثة ، وليس ايديولوجيات حديثة ، وطاقة جديدة وليس أهداف جديدة ، وثروة حديثة وليس حكمة حديثة ، ومواصلات حديثة وليس حركة حديثة . وبالرغم من ذلك فانه لايمكن أن تتباعـــد هـــذه الاشياء عن بعضهـــا . لان وضـــع الصيغ

الايديولوجية المختلفة والتى تقدمها الدول الكبرى مثل أوربا وأمريكا وروسيا تفترض وجود نوع معين من السلوك والالتزام بالنسبة للمؤسسات • ولهذا يحاول بعض القادة فى المجتمعات النامية الابتعاد بقدر الأمكان عن هذه التنظيمات التاريخية ومحاولة الدخول فى طرق جديدة بعيدا عن هذه الايديولوجيات (١) • وذلك لنفور شعوبهم من تلك الايديولوجيات ، وبالتالى رفض كل مايأتى من تلك الدول •

وفى هذا الاتجاه يمكن اعتبار التكنولوجيا مكونا هاما فى اختيار المعايير التى يقاس بها التحديث ، وصياغة أهداف التحديث لكل مجتمع على حده ، وبالنسبة لموضوعنا الذى ندرسة الآن فانه من أجل معرفة اتجاهات البناء الحديث ، وصياغة الاهداف نرى أنه من المناسب أن تأخذ التكنولوجيا مكانها الصحيح • فكما أن عملية التصنيع ليست هى المقياس الوحيد للعصرية ، وأن الدول الصناعية ليست بالضرورة دولا عصرية • فكذلك أيضا يكون انتشار المعرفة مؤثرا فى الاتجاه النامى نحو البناءات تماما مثل الاتجاه نحو التكنولوجيا • فالقدرة على اكتساب وامتلاك الاشياء التكنولوجية لم يعد مرتبطا بأى قدرة على انتاجها • حيث أن أى مجتمع يمكنه الحصول على آخر وأحدث منتجات التكنولوجيا اذا دفع ثمنها ، وهذا ما نراه فى مجتمعاتنا ومعظم مجتمعات العالم النامى •

وهذه الانتقائية فى الاختيار ترجع بالضرورة الى الاختلاف فى الأبنية الاجتماعية والمستويات التكنولوجية المختلفة أو قطاعات التطبيق عليها • فامتلاك التكنولوجيا المعقدة من أجل القوات المسلحة أو الطيران المدنى مثلا يتمشى مع الاقتصاديات فى مستوى منخفض نسبيا للتصنيع

---

1) J.P. Nettl and Roland Robertson, «Internationol Systems and the Modernization of Societies.» Oxford University Press, London, 1968, p. 51.

حيث تكون فى البناءات الاجتماعية فى مستوى غير متمايز نسبيا • وهنا أيضا نجد أن أى تعريف غامض للعصرية يجب أن يهتم بالتقييم الذاتى والبحث عن الهدف فى مصطلحات اختيار الاهداف التكنولوجية المناسبة لاى عملية تحديث لاى مجتمع معين • ومرة أخرى تواجهنـــا تحديثات عديدة (١) •

ومع هذه الزيادة الملموسة فى كمية المعلومات الدولية عن البناءات الاجتماعية والاهداف التكنولوجيـــة ، والقنوات التى تسير فيهـــا هذه المعلومات فان أى دولة قادرة على أن تختار أكثر الاشكال العصرية التى نرغبها وتفضلها والاخرى التى ترغب فى القضاء عليها • وهكذا يصبح الرجوع الى مجتمعات أخرى مشروطا من عدة وجوه • وهذه الانتقائية يمكن تسبيلها عن طريق عمليات محددة فى التبـــادل الدولى المعـــاصر للتكنولوجيا • وبالتالى يمكن مناقشة أن الطريقة التى تعمل بها هـــذه العمليات هى فى حد ذاتها دليل على وجود الاهداف الكثـــيرة للعصرية وتناولها • فالمساعدة الدولية فى العقدين الماضيين أدت الى عملية الانتقاء السهل • فبدلا من شراء قدرة على الانتاج ، وانتاج القدرة الاجتماعية الاقتصادية للمحافظة على هذا الانتاج أصبح المنتج التكنولوجى الكامل ومعرفة طريقة تشغيلـــه يمكن الحصول عليـــه واستيراده • فالمنتجات التكنولوجية المعقدة أصبحت جاهزة للاستعمال أكثر من أى وقت مضى ، كما أن فكرة المساعدة مرتبطة بشدة مع التأكيد القوى على اختيار الذى سوف يستخدم هذه الآلات بدلا من تفضيلات التصدير للبلد المنتج • (النظرية الاقتصادية القديمة للتجارة الدولية تفرض نوعا من التوازن بين موقف تصدير الفائض واستيراد المطلوب والذى به عجز ، ويعبر عنه باسم التكلفة المقارنة وهو توازن للقوى المستخدمة والمنتجـــة) • ومن ناحية أخرى فان المظاهر السياسية التى تدعو الى المنافســـة بين الشرق

---

1) Ibid. P. 53.

والغرب فى تقديم المساعدة أوجدت مجالا أوسع لعمليات الاختيار من ناحية الدول التى تقبل المساعدة . وفى هذا المجال فان التجارة العالمية وخاصة بين الشرق والغرب من ناحية ، والعالم الثالث من ناحية أخرى تقدم الدليل على وجود بعض التغير فى أنماط الاستهلاك والتصنيع من ناحية الدول التى تقبل المساعدة على الاقل من حيث التأكيد الجزئى على فكرة الاختيار بين أنماط التكنولوجيا والذى يمكن ان يفهم بصورة أفضل من خلال التعرف على البناء الاجتماعى والسياسى للمجتمع واتجاهاته من حيث تركيزه على أهداف العصرية .

ويمكن لنا أن نتخيل وجود علاقة وثيقة بين هذين الاتجاهين على مستويين . الاول ، أنهما جزء من نسق الاعتقاد المرتبط بطموحات العصرية الذى يختلف عن طموحات الماضى . والثانى ، أنه يمكن الحكم على نمط اختيار التكنولوجيا من خلال اتجاهات البناء مباشرة . فالدول التى تركز على الانفاق الكبير على التكنولوجيا الحربية فأنها سوف تحدد مستوى العصرية بالرجوع الى القوات المسلحة للدول الاخرى التى تنتقيها من أجل شراء معدات الحرب منها والاستعانه بخبراتها فى هذا المجال . والدليل على هذا النوع نجده فى أمريكا اللاتينية وخاصة فى الارجنتين . والدول التى تبحث عن اقامة مشروعات لها تأثيرها مثل الخزانات ومصانع الصلب والتى يقودها الى ذلك اتجاه بناؤها ترجع الى التأكيد على الصناعات الاساسية كدليل للعصرية ولذلك فانها تتجه بصورة سريعة نحو الدول التى لها موقف دولى يقوم على هذه الاولويات . ومع ذلك فان اختيار المنتجات التكنولوجية المعقدة لاستعمالها لم يعد مرتبطا بعملية التصنيع ككل . ولكنه ينشأ من معرفة الميزة العصرية لها فى مختلف المجالات التى يقوم باستخدامها ، وأكثر من ذلك ، فهناك علاقة بين النمط البنائى الذى يختاره مجتمع ما لتحديد معنى العصرية بالنسبة له وأى تكنولوجيا معينة يختار أن يتبناها (١) .

---

1) Ibid, p. 54.

ومع ذلك ، وبالرغم من اعتماد دول العالم الثالث فى الوقت الحاضر على الاستعارة فى مجال العلم والتكنولوجيا ، نرى أن الابتكار الخلاق أساس للتقدم التكنولوجى ، فبدونه يتوقف العلم • ولكن التقدمات التى تحققت فى المجتمعات الغربية ، والتى أصبحت فى متناول ملاحظة العالم أجمع ، وفى استطاعة الاقتصاديات الاقل تقدما أن تطبقها • وأن هذه قابلة للتقدم عن طريق المحاكاه بكل بساطة • وأنها بالتالى ليست فى حاجة الى أن تخلق تكنولوجيتها الخاصة بنفسها •

ولكن اتضح رغم ذلك أن هذا غير صحيح • حقيقة أن التقدم التكنولوجى السابق والذى ظهر فى الخارج من شأنه أن يجعل هذا التقدم أسهل لمجتمع معاصر منخفض الدخل • وهذا صحيح لان المجتمع يكون له الخيار بين بديلين . اما نقل ومطابقة وسائل الغرب ، أو ابتكار وسائله الخاصة • وبدون التقدم السابق فى الخارج لا يجد فى متناوله الا البديل الثانى • ومع هذا فلا بد من توافر قدر كبير من الابتكار الخلاق لكى يتحقق التقدم التكنولوجى فى أى مجتمع تقليدى معاصر ، تماما كما حدث فى المجتمعات المستمرة فى التقدم التكنولوجى ، والتى بدأ فيها التقدم أولا • والمدهش أنه مطلوب لاسباب تكنولوجيه بحتة بالاضافة الى أسباب ثقافية واجتماعية أيضا •

ان مجرد محاكاة وسائل الغرب هى أمر مستحيل وذلك لان القوة العاملة المتاحة فى المجتمعات النامية تختلف الى حد كبير عن تلك الموجودة فى الغرب ، فهناك تستطيع جمهرة الناس قراءة التعليمات والبيانات ، فضلا عن تفهمهم لسير الآلات ، ومن ثم تشغيلها وصيانتها ، بحكم نشأتهم فى ظروف مناسبة حيث تحيط بهم الآلات والادوات التكنولوجية فى كل مكان سواء كان ذلك فى المنزل ، أو فى العمل ، أو فى الشارع • ومن بينهم الكثيرين ممن حصلوا على مستويات أو درجات تدريب مختلفة فى الهندسة ، والمعلومات ، والخبرات الفنية ، وفى العلوم والمالية والمحاسبة

والادارة . ويكون من الصعب جدا تهيئة الرجال اللازمين لتسيير مشروع ما فى اقتصاد أقل تقدما ، أى تهيئة الافراد المقابلين لكل هؤلاء .

وأهم من هذا فان الاقتصاد فى المجتمعات المتقدمة مركب ومعقد من الناحية الفنية والثقافية ، وليس مجرد مجموعة من المفردات التكنولوجية المنعزل بعضها عن الآخر ، والتى يمكن انتزاع أى مفردة فيها واستخدامها بكفاءة فى مكان آخر بدون حاجة الى تكييف المهارات . فكل صناعة فى العالم المتقدم تعتمد فى كفايتها على صناعات أخرى . وهى تفترض دائما توافر المواد وأجزاء الآلات والادوات ، كما تعتمد أيضا على مشروعات تكميلية تقدم ما يطلب منها من خدمات فنية ومالية وادارية ، وعلى شبكة مركبة من تيسيرات وسائل النقل والمواصلات ، وعلى نظام معقد لخبرات الاعمال . أما فى المجتمع الاقل تقدما فانه يفتقر عادة الى الصناعات المكملة ، كما أن صرح الخبرة مختلف الى حد كبير (١) .

والمحاكاه ببساطة ليست بالمستحيلة أحيانا فحسب ، ولكنها أيضا عندما تكون ممكنة ، فانها تكون غير ذات كفاءة . فالوسائل الغربية تستخدم الكثير من التجهيزات المنتجة للعمالة أو رؤوس الاموال الثابتة من آلات ، وأدوات ، ومبان ، وطرق ، وخزانات ، ومحطات قوى ، ونظم مواصلات . والمجتمعات الاقل تقدما أقل قدرة على تجميع مقادير سنوية كافية من رأس المال ، حتى لو تلقت مساعدات اقتصادية سخية من الغرب ، وحتى اذا حاولت التقدم عن طريق استيراد الآلات والتجهيزات المتطورة من الغرب ، فانها لاتتمكن من الحصول الاعلى ما يكفى لفائدة نسبة صغيرة من عمالها . وبحساب متوسط ما يستخدمه

---

(١) ايفرت ا . هاجين « حول نظرية التغير الاجتماعى » ترجمة عبد المنعم سعيد ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ص ٢٠ — ٢١ .

لعامل من رأس المال فى المجتمعات الغربية ، يتضح أن الدولة النامية انما تستطيع أن تهيء سنويا نفس القدر من الرأسمال / عامل لعدد من العمال أقل من معدل الزيادة السنوى فى القوة العاملة . وبهذا يستمر فى التزايد عدد العمال الذين لايسعهم الا استخدام وسائل وتجهيزات العمل التقليدية . فيكون بذلك انتشار التقدم الفنى فى سائر أنحاء الدولة عن طريق وسائل الغرب ، أمرا غير ممكن .

وقد يتساءل البعض كيف لايمهد استيراد المجتمعات النامية لوسائل الغرب ، مستعينة بالساعدات الاقتصادية والفنية بالاضافة الى جهودها الذاتية ، طريقا أمثل للتقدم والتحديث . والرد على هذا التساؤل هو أن الدول التى تنمى اقتصادها بسرعة هى تلك التى تطبق الوسائل الغربية لاغراض مختارة فقط (مثل صناعة الصلب) وحتى فى هذا المجال نرى هذه الدول تكيف هذه الوسائل بحيث تستخدم المزيد من العمال ، والاقل من التجهيز الآلى فى العمليات التكميلية أو المساعدة . كما تعمل خلال اقتصادها فى جملته على تطوير وسائل لاستخدام مبادىء الغرب بأدوات وتجهيزات أبسط وابتكار وسائل جديدة لحل المشاكل القائمة .

ولعله لا يكون من المبالغة اذا قلنا أن حل المشاكل الفنية هو أسهل جوانب التقدم التكنولوجى للدول المعاصرة منخفضة الدخل . فهناك نوعان من العوائق الانسانية . أحدهما أن الناس قد يجدوا فى أنماط النشاط الجديدة تهديدا لاوضاعهم المستقرة كما أشرنا الى ذلك من قبل. فقد يرى صاحب المهنة أو المزارع المنتمى الى طبقة ملاك الارض ، فى مجتمع تقليدى ، فى استخدام الادوات مساسا بكرامته ، لانها تستخدم عادة بواسطة الطبقة العاملة . بل قد يجد أبناء هذه الطبقة فى استخدام الأدوات نوعا من العبودية يشعرهم بالضيق . وأكثر من هذا ، فهم اذا قبلوا عملا يتطلب تواجدهم فى أحد المواسم وغيابهم فى موسم آخر ، قد يجدوا أنفسهم مضطرين لوقف تأدية مهام استقرت فى

وجدانهم أهميتها بالنسبة لعائلاتهم ، أو مجتمعاتهم أو معتقداتهم الدينية (١) .

كما أنه من أكثر الامور أهمية أن البحث عن حل المشكلة ما فى مجال يكون موضع الاهتمام ، يتطلب سلوكا ذهنيا معينا . وهناك ما يبعث على الاعتقاد بأن واحدا من شروط ابقاء المجتمع مجتمعا تقليديا ، هو غياب هذا السلوك ، فيما عدا نسبة قليلة من أفراد هذا المجتمع . بل ان مواجهة المشاكل قد تؤدى الى التوتر . وتجنبا للتوترات التى تنجم عن محاولات حل المشاكل ، يحدث تخوف من محاولة الاخذ بسبيل التغيرات الفنية ؛ حتى من جانب جماعة القيادة . ومن ثم فان التغيرات فى السلوك التقليدى التى تعد ضرورة للنمو الاقتصادى ، لا تطبق الا اذا كرس قدرا محسوسا من الابتكار الخلاق الى مهمة العمل على جعلها مقبولة للناس ، أو اذا وجدت توترات وضغوط اجتماعية تكون من الشدة بحيث تحدث تغييرا فى سلوك الناس . أو قد يكون هذان الشرطان ضروريين معا . فقد يكون صحيحا أنه ما من مجتمع بدأ تغيره التكنولوجى فى الماضى ، أو بصدد الاخذ بسبيله فى المستقبل ، الا وينجز ابتكارات خلاقة فى حل مشاكله الاجتماعية والفنية على السواء . وقد يكون من الصحيح أيضا أن الابتكار الخلاق لايتاتى الا حينما تبدأ التوترات داخل المجتمع فى احداث تغيير فى الناس . فلكى تتحقق جدوى الابتكار التكنولوجى الذى تقوم به قلة من السكان (الصفوة) يجب ان تتقبل الفئات الاكبر الاخرى هذا التغيير ، مع تكييف نفسها له .

وهكذا فان تصورنا عن التحديث يمكن صياغتة بالصورة التالية :
التحديث هو العملية التى تبحث بها الصفوة القومية بنجاح لتغيير حالة المجتمع الثابتة ، والتحرك تجاه التكافوء مع الدول التى أخذت مكانتها .

---

(١) المرجع السابق ، ٢٢ — ٢٣ .

وهدف التكافؤ ليس محددا ، ولكنه « هدف متحرك » وادراكه يتوقف على قيم وضروريات فى النظام الدولى ، وعلى قيم وقدرات المجتمع موضوع التحديث كما تعبر عنها الصفوة القومية •

ومن أجل التعرف على الفرق بين الدول المتقدمة والدول النامية والتى فى طريقها الى التحديث فاننا سوف نعتبر المجتمع الحديث هو الذى تزيد فيه نسبة مصادر القوى غير الحيوية على نسبة مصادر القوى الحيوية ، والاكثر فى مدى تضاعف مجهودات الانسان عن طريق استخدام الآلات • وسوف نعتبر المجتمع مستحدثا اذا زادت التغييرات الصغيرة التى يمكن مقارنتها من نسبة مصادر القوى الحيوية الى مصادر القوى غير الحيوية مما يكون له مضامين بعيدة فى البناء الاجتماعى العام وعموما فلا توجد مجتمعات تنقصها تماما كل عناصر التحديث • لان كل المجتمعات التى نعتبرها حديثة الآن قد تطورت عن مجتمعات غير حديثة نسبيا • وقد تطور بعضها عن طريق أشياء وردت اليه من الخارج • وأن كل المجتمعات المستحدثة لها عناصر مشتركة فيما يتصل بالبناء الاجتماعى أكثر مما لاى مجتمع فيها بأى مجتمع حديث •

مصادر التبسيط لمشاكل التحديث :

أ — المتطلبات والمتطلبات السابقة

ان أغلب أخطاء الأشخاص الذين يقدمون البرامج للدول المستحدثة يقعون فى عدة أخطاء يمكن وضعها فى ثلاثة نقاط :

١ — أنهم يجهلون الحقيقة بأن متطلبات المجتمعات الحديثة ليست بالضرورة هى نفس متطلبات المجتمعات المستحدثة • فنحن لانستطيع أن ننظر ببساطة الى أنماط المجتمع الحديث ونقول بأن أى مجتمع كذا وكذا يجب أن يفعل الآن كذا لكى يصبح حديثا •

٢ — ان المتطلبات السابقة للذين جاءوا أخيرا لعملية التحديث

ليست هى نفسها بالضرورة المطـالب السابقة للمجتمعـات التى سبق لاعضائها أن حققوا هذه الانمـاط بدرجة طبيعية كبيرة وتدريجيا ، وتوصـات الى وضع لم تكن قد توصلت اليه من قبل • أى أننا لانستطيع أن ننظر ببسـاطة الى المتطلبات السابقة للنمو لمجتمع حديث كبريطانيا ونفهم منه مايجب أن يفعله أعضاء مجتمع غير حديث اليوم • ومثال ذلك، أنه فى بداية نمو بريطانيا لم يكن التعليم العالى متطلبا سابقا •

٣ ـــ المتطلبات السابقة لمجموعة من الذين وصلوا أخـيرا ليست بالضرورة هى نفسها مثل المتطلبات السابقة لمجموعة أخـرى من الذين وصلوا أخيرا • فالاختلافات من حالة الى أخرى يرجـع بالضرورة الى قواعد تاريخية مختلفة عن تلك التى يحل محلها التغير • وهكـذا فاننا لانستطيع ان ننظر الى المتطلبات السابقة فى حالة اليابان ونفهم ما يجب أن يفعله الذين جاءوا بعد ذلك (١) • مثل المجتمـع المصرى مثلا وذلك لاختلاف البناء والثقافة والتاريخ •

والفشل فى وضع هذه المسائل فى الاعتبار لن يكون صعب التحقيق اذا لم تكن هناك حقيقة أن بعض متطلبات المجتمع الحـديث هى نفس المتطلبات السابقة للمجتمعـات المستحدثة • كما أن بعض المتطلبـات السابقة لمجموعة من الذين وصلوا أخيراً قد تكون هى نفسها متطلبـات الاخرين • وأكثر من ذلك ، وكلما تقاربت فترات التاريـخ التى يتركز عليها الاهتمام كلما زاد احتمال أن المتطلبات والمتطلبات السابقة لظاهرة معينة سوف تتزامن • والفشل فى التمييز بين الذى وصل أخـيرا وبين رواد التنمية يشير الى أن عملية فى كـل مظاهرها الهامـة هى نفسها

---

1) Marion J Levy, JR., «Social Patterns (Structures) and Problems of Modernization» in Wilbert Moore and Robert M. Cook, **Readings on Social Change.** Prentice - Hall international, inc, Englewood cliffs, N.J. 1967, p. 193.

بالنسبة لكل الناس وهذا من أكبر الاخطاء التى نواجهها • وقد فسر « روستو » هذه الصعوبة الاخيرة بأنه كانت هناك اختلافات فى وقت بداية التحديث ولكن كان لها تأثير عام فى أن العملية كانت بالضرورة هى نفسها بالنسبة للجميع (١) • وهو على صواب بمعنى واحد • فعلى المستوى العام الممكن فهى دائما نفس الشىء — ولكن اهتمامنا لا يتركز مطلقا على حل أى مشكلة عقلية أو علمية على هذا المستوى فقط •

ب — مغالطة الثنائيات

تعتبر التمييزات الثنائية أدوات هامة وقوية بالنسبة للعلماء وغيرهم من المهتمين بالدراسات العلمية • وبالرغم من أننا توصلنا الى أرقى مستويات العلم فهناك للاسف وخاصة فى مجالات العلوم الاجتماعية استعمالات خاطئة كثيرة • مثل الاشارة الى حكومات « المجتمعات غير الغربية » على أنها حكومات لمجتمعات غير حديثة حسب العصبية يعتبر اتجاها مضللا وذلك بصرف النظر عن الحماقة الجغرافية التى يتضمنها هذا التفسير • فالمضمون الموجود هنا هو أن « حكومة المجتمعات الغربية » لاتميزها العصبيات • والذين يكتبون بهذه الطريقة فى فهم هذا الموضوع لن يكونوا مفهومين • فالتمييز بين المجتمعات المتقدمة والمجتمعات غير المتقدمة ليس هو وجود أو عدم وجود العصبيات •

ومن أهم التمييزات المضللة التى تستعمل حاليا على أنها تمييز مزدوجا هو التمييز بين الطرق العقلية والتقليدية فى النظر الى الاشياء • حيث أن هذه الطريقة تؤدى الى ابراز كمية ضخمة من الاختلافات لان التقاليد تعتبر شيئا مضادا لما تبرره المعرفة العلمية • وهذا المضمون غالبا ما يفهم منه أن النموذج التقليدى غير عقلى أو يختلف مع العقلانية

---

1) Maryon J. Levy, op, cit, pp. 193 - 194.

بطريقة عشوائية • وهذا غير صحيح فلا شيء يمكن أن يبعد عن الحقيقة، ففي كثير من المجالات الاجتماعيـة تتفق الاشـياء التي تتم من أجـل التبريرات التقليدية الى درجة كبيرة مع ماهو عقلي بالوسائل المتاحة •

هـ ــ الاتجاهات الروحية فى مقابل الاتجاهات الماديـة

لقد أصبح استخدام الاهداف الوصفية المختلفة أمرا هاما فى هذا المجال ، حيث أصبحت هذه واحدة من « كليشهات » النقد الجديث فيما يتعلق بهذه العملية ككل للتمييز بين هـؤلاء الذين يتجهـون روحانيا ، وهؤلاء الاخرين أصحاب الاتجاهات المادية • وهذا هو الوضع وخاصة بالنسبة لمغالطة الوضع الزائف للثنائيات التي تتطلب وضع قوائم منفصلة لكل حالة ، فلا توجد شعوب تنقصها تماما الاهتمامات الروحانية ، كما أنه لاتوجد شعوب تنقصها تماما الاتجاهات المادية • فهذا الاستعمال الخاطىء للتمييز الثنائي يعطي قوائم منفصلـة ، خاصة وأن الاهتمـام بالمشاكل تحت هذا العنوان يخفي أحد المصادر الرئيسية للاستجابـة للانماط الموجودة فى المجتمعات المتقدمة • وعموما ، فانه يمكن وضع بعض التعميمات التي قد تنطبق على كل الشعوب بصرف النظر عن الاختلافات الموجودة فى أنماطها الاجتماعية : ــ

١ ــ لا توجد شعوب لا تهتم بالعوامل المادية •

٢ ــ لا توجد شعوب تفشل فى التمييز بطريقة ما بين كونها أكثر غنى أو أكثر فقرا من الناحية المادية •

٣ ــ تظهر الشعوب فى كل مكان بعض التفضيلات فى أن تكون أكثر غنى أكثر منها أن تكون أكثر فقرا •

٤ ــ تختلف الشعوب بطريقة كبيرة جدا بالنسبة للثمن الذى يستعدون لدفعه ليصبحوا أكثر غنى من الناحية المادية ــ وذلك فى نطـاق

الآفاق التى يرونها عن امكانياتهم فى أن يصبحوا أغنى • وفى الحقيقة ، فان الفشل فى رؤية امكانيات التحسن أكثر من المعايير الروحانية التى تجعل الناس لايرغبون فى دفع تكاليف تقدمهم المادى •

وبالرغم من ذلك فان الانتاجية المادية فى المجتمعات الحديثة أكبر من الانتاجية المادية فى المجتمعات غير الحديثة • وهكذا فطالما وجد حد أدنى للاهتمام بالتقدم المادى بين كل شعوب العالم فهناك دائما شىء بالنسبة لشخص ما عندما يتصل الموضوع بأنماط المجتمعات الحديثة • كما أن عددا ضخما من الممارسات التى كان ينظر اليها باعتبارها دائرة مفرغة ، وتتجمع معا تحت عنوان « الامبريالية » قد أصبحت غير ملائمة• وحتى بدون السلبيات التى تعززها الامبريالية (الاستعمار) بوجه عام ، فان هذه الأنماط تتداخل فى بعضها وقد تحطم الوضع الراهن ، وقد ينتج عنها الكثير من عدم الرضا والمتاعب • وفى أثناء عملية التحرك نحو الانماط الحديثة نسبيا فان كثيرا من الشعوب يلحقها الأذى • وأكثر من ذلك فانه لا الحركة ولا الضرر ينتج عنها بالضرورة نجاح لهذا الذى نراه فى المجتمعات الحديثة (1) • اذ أن هذه المجتمعات تسير نحو العصرية ولكن بخطى بطيئة نتيجة لكثرة المعوقات والتحديات سواء من الداخل أو الخارج •

د ـ الربط بين أحسن ما فى الشرق والغرب

مرة أخرى نرى أنه من الضرورى أن نتجاهل الحماقة الجغرافية الموجودة فى صياغة هذا العنوان • فهذه هى الصيغة المألوفة فى حل هذه المشاكل • حيث يرى كثير من علماء الاجتماع فى الشرق أن التحديث لن يتبع النمط الاوربى ولن يتضمن الغاء التقاليد • فليس هناك انسان غبى

---

1) Ibid, p. 194 - 195.

لدرجة الاصرار على الاحتفاظ بكل التقاليد فى أى مجتمع غير حديث .
اذ أن كثيرا من التقاليد سوف تختفى مع هذه الاتصالات ، وأن بعضها قد اختفى بالفعل والى الابد . والشىء الصعب فى هذه الصيغة الرومانسية لعنوان هذه الفقرة أنه من الصعب وضع معايير ثابتة يمكننا على أساسها الحكم على أحسن ما يوجد فى الشرق وأحسن ما يوجد فى الغرب اذ أن المسألة نسبية الى حد كبير ، وأن ما يعتبر احسن شىء فى الشرق عادة ما يبرهن على أنه لايتلاءم مع أحسن شىء فى الغرب .

الشرق والغرب هناك صعوبات عديدة حول هذا التمييز ، والصعوبة الاولى هى أنها تحتفظ بنكهة « الشرق الغامض » التى لاتدل على شىء الا على لطف التعبير . والثانية ، اذا ركزنا الانتباه على هذا التمييز فسوف تتجمع أمامنا بعض الحالات السائدة كما فى البرتغال والمانيا الغربية ، والثالثة تجمع حالات مثل فرنسا وانجلترا الحديثة ، والرابعة تتضمن وجود قليل من الاختلافات بين المجتمعات غير الحديثة عند الاهتمام بمضامين التحديث . وقد يكون هناك معنى فى أن كلا من الهند واليابان والصين تمثل حالات من الانهماك الكامل مع « المتصل الجمالى غير المتمايز » ، فاذا كان هناك معنى لهذا فهو ليس سوى أن هذه المجتمعات تختلف عن بعضها الى حد كبير ، وقد كانت تعتبر مجتمعات غير حديثة قبل أن تقفز اليابان قفزتها الحضارية المعاصرة وتحولها الى مجتمع حديث بينما ظلت الهند والصين مجتمعات غير حديثة أو مجتمعات مستحدثة حتى الآن (١) .

هـ — الضغوط الداخلية

لقد أصبحت مشاكل أعضاء المجتمعات المستحدثة مشاكل قاطعة طالما أنها أصبحت على اتصال بأنماط المجتمعات الحديثة ، لدرجة أن الكثيرين منا يفقدون رؤية حقيقة أن هذه الشعوب لم تكن لهم مشاكل

1) Ibid, p. 195.

قبل أن تكون هذه الاتصالات ذات مغزى بالنسبة لهم • فلا يمكــن أن توجد مجتمعات متكاملة ومتوافقة وليس بها أى ضغوط داخلية بالرغــم من صورة الثبات والاستقرار التى تظهر بالنسبة لمن يراها من الخارج • فبعض هذه المجتمعات كانت فى مراحل مختلفة من التغير • ولكن الاهم من ذلك أن بعضها كان له مظاهر درامية للاستقرار وكانت مستقرة فعلا لان الانماط التى كانت سائدة من قبل ، وكانت عناصر الضغط والتوتر كانت موجودة — وليس لانها كانت غائبة (١) •

مراكز الاختلافات بين المجتمعات الحديثة والمستحدثة

أ — تخصص التنظيمـات

ليس هناك شك فى وجود درجة من التخصص معروفة فى المجالات غير الحديثة ، ولكنه موجود أكثر فى المجالات الحديثة • وهذا التخصص مستقل تماما عن نوع المنتجات أو العمليات التى تحدث فى نطاق التنظيم• ويزيد هذا النــوع من التخصص فى المجــالات الحديثة ، وهــو اتجاه متخصص الى وجهة واحدة من السلــوك • فالتنظيمات ذات الاتجــاه الاقتصادى مثل شركات الاعمال أو المصانع هى فى الاصــل تنظيمات موجهة تماما مثل الحكومات ، والاحزاب السياسية ، والتنظيمات التعليمه الموجهة مثل المدارس ، والتنظيمات الدينية ،وكذلك التنظيمات الترفيهية• فكل هذه التنظيمات موجودة وسائدة فى المجالات المتقدمة أو الحديثة• ولاتدخل التنظيمات غير المتخصصة فى مثل هذه المجالات • وبالرغم من ذلك فان أحد الفروق الاساسية بين المجتمعات الحديثة والمستحدثة يظهر فى حقيقة أنه عندما توجد مثل هذه التنظيمات المتخصصة فى المجــالات تميز الحديثة فان نسبة صغيرة جدا من السكان هى التى تعمل فى حدود هذه التنظيمات • بينما تعمل الغالبية العظمى من أعضاء المجتمع الحديث

---

1) Ibid, pp. 195 - 196.

باستمرار فى نطاق هذه المؤسسات ، بالاضافه الى الاعمال التى يستمرون فى القيام بها فى مجالات أخرى • ومن أوجه الزيادة فى مثل هذه المجالات هو ما نسميه باسم « التقسيم الى فئات » فى الحياة فى المجالات عالية التحديث • وهذا التغير بمفرده له مضامين بعيدة بالنسبة للذين اعتادوا على القيام بأغلب أنشطتهم فى مجالات غير متخصصه نسبيا • ولا يمثل هذا فقط نوعا جديدا للمجالات بالنسبة للكثيرين ، ولكن يغير مضامين السلوك داخل المجالات غير المتخصصة نسبيا التى يستمرون فى العمل بها • وزيادة ظهور مثل هذه المجالات فى وقت واحد يزعج الاستقرار السابق للاسرة ، ويزيد من ضرورة تلاؤم الأسرة فى نواحى معينة [1] •

ب — الاعتماد المتبادل

وهناك ارتباط وثيق للتنظيمات المتخصصة المتزايدة وهو المستوى العالى للاعتماد المتبادل الذى يميز المجتمع الحديث • فلا يوجد فى أى مجتمع تنظيمات يكون أعضاؤها قادرين على الاكتفاء الذاتى الكامل ، ولكن مستويات الاكتفاء الذاتى التى يبلغونها فى نطاق تنظيمات مثل العائلة والقرية الخ ••• هى فى أغلب الأحوال عالية • ومستوى الاكتفاء الذاتى لاعضاء جميع التنظيمات كفؤ ويتضمن استمرار الدول فى الانهيار مع الزيادات فى التحديث •

د — تأكيدات العلاقة

يمكن تصور المجالات الحديثة نسبيا على خلاف المجالات غير الحديثة بالتأكيدات المثاليه والواقعية لما يدخل فى مجال التجارة ويعرف بأنماط التخصص ن العقلانى والعالمى والوظيفى فى مقابل التقاليد ، والجزئية ، والتنوع الوظيفى • فهناك تأكيدات واضحة فى كثير من

---

1) Ibid. p 196

المجالات على استخدام المعرفة العلمية (العقلانية) فى اختيـــار الناس والحكم عليهم على آساس ما يستطيعون عمله على أنه مناسب فى مقابل من هم (العالمية) ، وعلى أساس علاقات محـــددة (تخصص وظيفى) بالنسبة لمتطلبات المجتمع الحديث • ومن أكثر صيغ المغالطة هنا الوضع الزائف للثنائية هو التأكيد على أنه فى مثل هذه المجالات الحديثة المتقدمة لاتوجد أى تأكيدات على التقاليد والنواحى الجزئية • فالاسرة مثلا فى كل المجتمعات مجالها تقليدى وجزئى • ولكن اذا نظرنـــا الى المسألـــة بطريقة واقعية فسوف نجد فى المجالات المستحدثة بعض التأكيدات على النواحى العقلانية ، والعالمية والتخصص الوظيفى ، وأحيانا قد نجـــد أنماطا نموذجية من هذا النوع كما يشهد بذلك فحص نماذج البيروقراطية الصينية • وبالرغم من ذلك فاننا نجد من الناحيتين المثالية والواقعية أن الغالبية العظمى من أعضاء كل المجتمعات المستحدثة تعمل فى كل المجالات التنظيمية على أساس تقليدى وجزئى وتنوع للوظائف • ولقد أشرنا فيما سبق الى أن ما يتم بسبب التقاليد لايكون بالضرورة غير عقلانى ، كما أن المعيار الجزئى للوظيفة لا يقلل من مستوى كفاية الموظف فى وظيفـــة معينة (١) •

د — أنمـــاط التمركـــز

تعتبر كل المجتمعات المستحدثة والتـــى توصلت الى درجـــة من الاستقرار ولفترات طويلة نسبيا أمثلة لارتباطات التمركز واللاتمركز • وبالرغم من استقرار كثيرمن أنماط التمركز وتأكيداتها الحديثة فقدأصبح التمركز عمليا أو اقتصاديا بغض النظر عن الاعتبارات الاخلاقية • وفى كل المجالات الحديثة ترتفع مستويات التمركز الى حد كبير ومنذ فترات طويلة من الوقت • لدرجة أن التمركز أو المركزية أصبحت من مميزات

---

1) Ibid, p. 197.

التنظيمات الحكومية • فقد وصل تمركز حكومة الاتحاد السوفيتى الى أبعد مما وصل اليه فى حكومة الولايات المتحدة •

ولكن ما يهمنا هنا هو السؤال عن التمركز أو المركزية بالنسبة الذين وصلوا الى التحديث مؤخرا أو الذين يسيرون فى طريق التحديث هو أن مطالب الارتباط والسيطرة هى دائما مطالب استراتيجية ، وهى دائما استراتيجية فى وقت معين يكون فيه احتمال وجود الانماط السابقة للارتباط والسيطرة فى حاجة الى تغيير راديكالى •

هـ — الوسائط العامة للتبادل والاسواق

تتطلب كل المجالات المستحدثة الى تأكيدات أكبر على الاجهزة المالية والاسواق • وتختلف وسائط التبادل (الأموال) بدرجة كبيرة تبعا للمميزات العامة لها • أى أن عدد الاشياء الممكن تبادلها أو التى تقيم بمصطلحات المال تختلف بدرجة كبيرة • ومثال ذلك أنه فى المجالات الاقطاعية تكون الأرض ليست موضوعا للشراء والبيع الحر • ولذلك فان مستوى تعميم مثل هذا الوسيط للتبادل الموجود فى هذا المجال لايشمل الارض •

وينظر علماء الاجتماع الى الاشتغال بالمال باعتباره أحد الاشكال الدقيقة جدا للمادية • وأن قليل من الاشياء هى التى تؤثر فى الناس مثل ازدياد تأثير النقود • كما أن تعميم وسيط التبادل ، واستخدام النقود يتزايد بوجه عام • وسوف يستمر فى التزايد مستقبلا حتى يتحقق وجود تنظيم قوى ومتكامل يتمكن من توزيع البضائع والخدمات تحت رعاية حكومة ما •

وعلى أى حال فالاسواق مازالت غير معروفة فى المجالات النامية وغير المتحضرة بينما تتكاثر بدرجة كبيرة فى المجالات الحديثة • وهناك دائما بعض الدرجات الحرية ترتبط بالسوق • وهذه الدرجات من الحرية

اذا كانت واسعة بدرجة كافية فأنها تنتشر ومن ثم تقلل من الخطأ وتفرض مشاكل الضبط والسيطرة باستمرار • وبطبيعة الحال فان هذا لايمكن أن يتم بدون ترك الحرية الى درجة ما للاعضاء الموجودين فى السوق لان يخطئوا ، وهذا الموقف يعتبر أحد المشاكل الايديولوجية الحديثة فى أن « الرأسمالية » وما يرتبط بها من درجات عالية من الحرية فى الأسواق من المفروض أنها تتسع لمضامين متزايدة لتحديد أماكن البضائع والخدمات من أجل تحديد أماكن السلطة والمسئولية (١) وبالفعل، فأن مثل هذه الانماط هى الجهاز الاكثر كفاءة الذى استطاع ان يخلقه الانسان ليقلل من حجم مثل هذه المضامين • والمجتمعات التى يمكن وصفها بأنها اقطاعية وفاشستية واشتراكية هى دائما من المجتمعات التى يوجد فيها توزيع القوة والسلطة وأيضا توزيع السلع والخدمات تكون أكثر اعتمادا على بعضها وبطريق مباشر وفورى أكثر مما هو قائم فى المجتمعات الرأسمالية •

و — التلاؤم فى البناء العام

قد يختلف مضمون أى نمط معين بدرجة كبيرة على أساس ملاءمته داخل البناء الاجتماعى العام • وبالرغم من وجود اختلافات هامة فان الأطوار المشتركة التى مرت بها الاسر اليابانية والصينية قد حدث بها تعديل حيث كان الصينى يقدم ولاءه أولا وأخيرا لأسرته بينما الشخص اليابانى فى نفس الفترة (اذا سمحت له الظروف) فانه كان يتحدث عن استعداده للتضحية بمصالح أسرته من أجل مصالح سيده • وهكذا فان الاحتفاظ بالأنماط التى كانت موجودة من قبل لايعنى أن لها نفس المضامين السابقة ، ولايعنى أيضا أن نمطا معينا يمكن أن يؤخذ مباشرة ويستخدم بكفاءة • فكل المجتمعات الحديثة هى مجتمعات يؤكد أعضاؤها

---

1) Ibid, pp. 198 - 199.

على قابليتهم للتنقل الاجتماعى ، ولكن الأنماط النموذجية للتنقل الاجتماعى فى الصين (فى البداية على الاقل) كان لها مضمون سلبى لعمليه التحديث ، بيما كان لانماط الطبقه المغلقة فى اليابان مضامين ايجابية (١) •

ز — الاعتبارات العائليــة

تعتبر الأسرة من النظم الاجتماعية الرئيسية ، وهى موجودة فى كل المجتمعات سواء كانت حديثة أو مستحدثة أو متخلفة • وهكذا فان الغالبية العظمى من أعضاء كل المجتمعات المعروفة لهم أدوار فى أسرة أو أخرى خلال تاريخ حياتهم • ومع ذلك فمجال الأسرة يمكن النظر الى أهميته من وجهة نظر أخرى ، فكل التنظيمات غير الأسرية يمكن تقسيمها الى فئتين ، الاولى هى التى تنتسب اليها الاعتبارات الأسرية المفروض أنها تسبب اختلافا • اذ أن أغلب المجتمعات المستحدثة هى مجتمعات يفترض أعضاؤها أن محاباة الاقارب هو فضيلة أكثر منه رذيلة • وهكذا فان ما يحدث داخل نطاق أسرة شخص ما يؤثر فى الطريقة التى يسلك بها فى أى مجال غير عائلى يعمل به • والنوع الآخر من التنظيمات غير الأسرية هو الذى لا يفترض أن الاعتبارات العائلية فيه تؤثر على كيفية سلوك الشخص • وتكاثر هذه التنظيمات فى المجالات الحديثة ضخم نسبيا • فأكثر التنظيمات المشار اليها هى من هذا النوع وكذلك كل التنظيمات البيروقراطية • واذا تكلمنا بطريقة مثالية فى مجال هذه التنظيمات فان ما يحدث لفرد ما فى حدود عائلية لايؤثر فى سلوكه • ولكن عندما نتحدث بطريقة واقعية ، فانه من المحتمل أن يتأثر سلوك الفرد بصورة أو بأخرى • وأخيرا فانه فى كل المجتمعات المعروفة نجد أن أغلب ما يتعلمه الفرد خلال دورة حياته يمكن له أن يحصل عليه داخل

---

1) Ibid. p. 199.

مجالات الأسرة • وحتى فى أغلب المجتمعات التى وصلت الى أعلى مستويات التحديث حيث يلاحظ أن « وظائف العائلة » عرضة للزوال والاختفاء فأن الغالبية العظمى من الافراد يتعلمون المشى والاكل والنوم والتحكم فى وظائف الجسم ، وضبط أنماط السلطة وتحديد أماكن السلع والخدمات ، وتقبل ومنح العواطف الخ ••• داخل نطاق الأسرة • وهكذا وبالنسبة لكل المجتمعات المعروفة فان الأسرة كتنظيم اجتماعى رئيسى موجودة دائما • وأغلب الافراد ينتسبون الى تنظيم أسرى ما خلال تاريخ حياتهم ، ومايفعلونه فى نطاق المؤسسات الاخرى اما بطريقةمثالية أو واقعية يتأثر بما يحدث لهم فى مجالاتهم الاسرية ، وهكذا فانه لايمكن فهم أى موقف اجتماعى اذا تجاهلنا التنظيمات الأسريه •

وأكثر من ذلك ، فانه فى المجتمعات غير الحديثة فان الغالبية العظمى من سلوك الافراد هى فى الواقع نابعة من توجيهات الأسرة • اذ أنه نادرا ما يعمل العضو العادى خارج نطاق اسرته • وحتى عندما يعمل فى نطاق القرية فأنه فى نفس الوقت يعمل فى نطاق الأسرة ، كما أنه يحصل على أغلب ما يتعلمه خلال دورة حياته داخل نطاق أسرته • فرئيس العائلة هو فى العادة ممثل الجيل الاقدم وهو أكبر الاعضاء سنا ولابد أن يكون ذكرا • كما يمكن السيطرة على أعضاء المجتمع من خلال الأسرة• ومع دخول الانماط الجديدة فان الفرد ولاول مرة يتعلم شيئا هاما فى أدائه لادواره كشاب من شخص أخر غير العضو الاكبر فى عائلته وهذا قد يضعف كثيرا من سيطرة الاعضاء الاكبر سنا • وهذا مثل أى شىء أخر يتناسب مع عدم التكامل فى كثير من الانماط الاجتماعية تحت تأثير التحديث (١) •

هـ ـ الاعتماد المتبادل بين المدينة والقرية

ان الغالبية العظمى من أعضاء كل المجتمعات غير الحديثة هـم من

---

1) Ibid, pp. 200 - 201.

أهل الريف ، فعدد الفلاحين يفوق عدد سكان المدن ، وأغلبهـم يعملون بالزراعة التى تتطلب الاستقرار وعدم التنقل ، فاذا كانت هذه المجتمعات كبيرة من حيث عدد الافراد وحدود المنطقة فهم بدون استثناء لايهتمون بكيفية تعودهم على مستوى معين مما يعتبرونـه مصدر تدفق السـلع والخدمات من المجالات الريفية الى مجالات المدن • فالمصادر الأساسية لمثل هذه الموارد هى بطبيعـة الحال الايجـار والضرائب والأسـهم والارباح • وعموما فان أهل الريف يتخذون هذا منهجا للحيـاه ، فهم لايتحدون أو يقاومون الا اذا كانت هناك زيادة عن الحدود المألوفة ، كما أنهم لايعتبرون أنفسهم كمستقبلين للتدفق المستمر للبضائع والخدمات من المجالات المدنية • وفوق كل ذلك فهم لايعتمدون على المدينة كمصدر لخدمات أو الاجهزة أو الافكار التى تزيد الانتاجية لكل فدان فى المناطق الريفية،حيث أن هذا التصور الاخير هو أحد المظاهر الثورية للمجتمعات الحديثة • وقد وصلت الى أقصى نمو لها فى المجتمع الحديث للولايـات المتحدة • والميزة الكبرى هنا والتى تدعو للمقارنة فى مشاكـل التحديث هى بالتأكيد المهارة الزراعية • ومن الاسهل لنا هنا أن نكثر من المصانع بدلا من محاولة رفع انتاجية الفدان •

مزايا موضار الذين اتوا الى ميدان التحديث اخيرا

المزايـــــا :

ان المحدثين الذى يمارسون عملية التحديث لهم مزايا واضحة ، فهم لا يسافرون فى أرض مجهولة ، فهم عـلى خلاف رواد التحـديث لهم تصوراتهم الصحيحة أو الخاطئة عن المكان الذى يذهبون اليه ، كما أن لديهم امكانية استعارة الخبرات الأولى فى التخطيط ، وتجميع رأس المال والمهارات ، وأنماط التنظيمات الخ ••• وكذلك هناك امكانية تخطى بعض المراحل المبكرة المرتبطة بأى عملية يريدون القيام بها • وهذا فضلا على أن القادة فى المجتمعات التى دخلت عملية التحديث متأخرة (لان المشكلة

التى يخوضونها ليست مجهولة تماما) قد يكونون قادرين على تقوية قيادتهم بالتمسك بتوقعات تحققت فى مكان آخر • كما أن المحدثين يكونون دائما والى حد كبير فى موقع يتيح لهم أخذ ثمار العملية من أماكن أخرى دون أن يتحملوا تكاليف الاختراع أو تكاليف الأخطاء التى وقع فيها السابقون عليهم • ولايطلب المحدثون المساعدة فقط من السابقين عليهم بل انهم أحيانا يصرون على المساعدة •

المضـــار :

يمكن تصنيف المضار التى تحيق بالمحدثين الى ثلاثة أنواع • فهناك مشاكل المقياس ، ومشاكل التحول ، ومشاكل اليأس • فلكى يدخل الذين أتوا الى ميدان التحديث متأخرا فى العملية فيجب عليهم أن يفعلوا بعض الأشياء من البداية وعلى مدى واسع • اذ أن هناك أشياء كان المطورون الأصليون قادرين على القيام بها على مدى فترات طويلة من الوقت وبخطوات صغيرة نسبيا، ومن بين هذه الخطوات الاكثر اثارة نمو وسائل الاتصال الحديثة والتسهيلات التعليمية • فمعرفة القراءة والكتابة على المستوى العالمى مثلا هى شىء « يحتاج » الانجاز لهؤلاء الناس باسرع ما يمكن • وكلما كبرت مشكلة المقياس كلما زادت مضامين أى فشل فى الترابط والسيطرة •

والضرر الثانى الذى يتعرض له المحدثين يتعلق بمشكلة التحول للمصادر والمواد والمهارات الخ •• من وظيفة الى أخرى • فبالنسبة لهؤلاء الذين تم التحديث بالنسبة لهم تدريجيا وعلى فترات طويلة من الزمان فان المواد والمهارات الموجودة فى متناول أيديهم قد تحولت الى مواد ومهارات جديدة • ففى بريطانيا العظمى نجد أن النجارين والحدادين والصناع الذين كانوا يعملون على مواد فى أيديهم قد أبدعوا مواد ومهارات للمرحلة التالية • أما بانسبة للمحدثين فان المشكلة تختلف• فليس ديهم قدرا من الاصالة أو المهارة تسمح لواحد منهم أن يستخدم

النجارين والحدادين والصناع الموجودين عــلاوة على المــوادا المتاحة لصناعة طاحونة • وبعض التحولات التى تتم هى من نفس هــذا النوع فالاختصار فى كل شىء مطلوب فى هذا الطراز فهو هــدية من الخارج (وهذا يفرض مشاكل من نوع مختلف) وكحد أدنى فهناك مشكلة اعادة التوجيه للاشكال السابق وجودهــا للانتاجية من أجل تجميــع التبادل الأجنبى أو ما يساويه •

أما الضرر الثالث فهو المتعلق باليأس • فان هــؤلاء ينغمسون فى العملية بوجهة نظر أنها سوف تفيدهم • والى حد ما فانهم مع قادتهــم يقودون أنفسهم الى توقعات معينة لم تكن موجودة فعلا عند المطورين الأصليين ، فالاشياء لاتتحقق بوجه عام طبقا لتوقعاتهم وآمالهم • ففى بعض الحالات فهناك خدعة السقوط والتخلف بالرغم من أنه يبــدو أن الانسان يكسب • ومن المتعارف عليه أنه فى بداية الشروع فى عمليــات جديدة فان الناس يشعرون بالخوف وأحيانــا باليأس لان الاوضــاع القديمة التى اعتادوا عليها مازالت مســيطرة الى حد ما ، وكثيرا مــا يشعرون أن الاشياء كانت أحسن فى الماضى ، أى فى العصــر الذهبى فى اعتقادهم • وهكذا يكون التعلق بالماضى والاقتناع به أو التعود عليه عند الكثيرين معوقا فعالا لاى شىء جديد يريد البعض ادخاله الى المجتمع بقصد التجديد والتحديث •

ومن المضار التى تواجه المحدثين أيضا « مشكلة المعرفة الكافية » فكلما أصبح نسق معين أكثر تركيزا كلمــا كانت المعرفة الكافيــة أكثر استراتيجية بالنسبة لمستويات التخطيط الضرورية • والمشكلة هنــا أن هؤلاء المحدثين لايعرفون الكثير عن مجتمعاتهــم حيث أن الدراســات العلمية القائمة على الاحصاء الدقيق تكاد أن تكون معدومة فى مثل هذه المجتمعات • وهكذا فان المعلومات العلمية الموجودة تكون أقل بكثير مما هو ضرورى لتكوين الأسس التى تحدث التغير (1) •

1) Ibid, pp. 203 - 204.

العلاقـــات الطبقيـــة

ان اعتقاد أعضاء المجتمع التقليـدى فى تفوق أو سيـادة طبقات الصفوة ، ان هو الا أحد وجهى العملة . أما الوجه الآخر فهـو اعتقاد جميع الطبقات أن وضع العامة لايمكن أن يتحسن ، وأن مكانهم الطبيعى قد تحدد لكل الازمان . ولكن هناك مسالك خاصة لبناء المستقبل بالنسبة للشخصيات غير العادية سواء من الصفوة أو من العامة ، فاذا كان أحد أعضاء الصفوة ، أو الطبقات الاخرى فيما عدا الصفوة ، لديـه اهتمام غير عادى بالدين مثلا أمكنه أن يتحول الى ناسك أو رجل مقدس . أما الطبقات الاجتماعية فهى مغلقة الى حد كبير ، بالرغم من الادعاء بغـير ذلك ، والعلاقات الطبقية ثابتة ، ودائما ينظر الى الطبقـات الادنى على أنها عنصر أدنى فانه لاسبيل الى اكتسابها وضع الصفوة . ولكن هـذا الجمود الطبقى لايجعل أبناء العامة البسطاء يشعرون أنهـم مقيدون أو متسلط عليهم ، لانهم يحبون كلا من تجنب المشاكل الذى ينمح به فى سلم السلطة ، وأطلاق نزعـة العدوان الذى يسمح بـه البناء الداخلى لسلطة العامة (٢) .

وهذه الاوضاع السابقة تساعد على استقرار المجتمع التقليدى ، وذلك لان أفراد العامة البسطاء يساورهم القلق فى تعاملهم مع الافراد الآخرين اذا كانت العلاقة معهم غير محددة . وهم يشعرون بالارتياح اذا كانت قد تحددت فى قواعد العامة بأن شخصا ما سلطته أعلى وآخر سلطته أدنى . كما يساورهم القلق أيضا عندما يواجهون مشاكل خارج الدائرة الضيقة لعملهم اليومى ، ويشعرون بالارتياح اذا أحالـوا هذه المشاكل الى من هو أعلى منهم سلطة لاتخاذ القرار . الا أن هذا لايصح الا فى حالة ما يكون الشخص الذى أحالوا اليه المشكلة علـى استعداد للنظر فيها ، ويبدى احتراما أو اهتمامـا بأمرهم . وعليـه فمن الخطأ

---

2) Everetl E. Hagen, op. cit, p. 40.

تصوير العامة بأنها تجبر على العيش فى ظروف بؤس ساحق تحت نير القوة الطاغية للطبقات الاعلى • ولكن على عكس ذلك قد يشعر العامة بارتياح الى علاقات السلطة التقليدية التى تكون فيها الصفوة حريصة فى معاملاتها على مراعاة الجماهير • وهذه حالة لاتتوافر مع الاسف فى معظم المجتمعات التقليدية المعاصرة • لقد استمرت العلاقات الاجتماعية التقليدية الآف السنين فى سائر أنحاء العالم ، ليس لان الفئات الاصغر المتربعة على القمة تفرض هيمنتها بالقوة فحسب ، ولكن لان العلاقات التقليدية أيضا كانت مرضية لكل من يخصهم الامر •

الا أن علاقات وممارسات ومعتقدات المجتمع لاتبقى بدون تغيير أساسى لفترة طويلة ، الا اذا توافقت مع أغراض ودوافع المجتمع ، الملموس منها وغير الملموس • واذا كانت العناصر الاساسية للبناء الاجتماعى والثاقفى لاتكفل هذا الرضا ، يحدث التغيير فى المجتمع ،حتى ولو كان التغيير بطيئا جدا •

وكما أشرنا من قبل فان معظم المجتمعات التقليدية فى سائر أنحاء العالم تمر بعملية التغير لان المعرفة والاتصال بالعالم الخارجى أوجدا تغييرا فى السلوك والاتجاهات داخل هذه المجتمعات • وحتى فى حالة غياب القوى المؤثرة من الخارج ، فان الصراع على السلطة داخل الصفوة يهدد استمرار العلاقات الاجتماعية التقليدية • وهذا صحيح لان هذه الصراعات على السلطة ، وما تتخذه الصفوة المتسلطة من تدابير لمنع سقوطها أو انتقال السلطة الى غيرها ، تحمل بين طياتهـا من بذور التوترات الاجتماعية ما يؤدى الى التغيير الاجتماعى الاساسى •

تحديث المجتمعات الريفية :

اذا أريد اثراء الحياة اليومية للمجتمعات الريفية وتحريرهـا فان طريقها للتغير سوف يكون طريقا فريدا كما قلنا فى بداية هذا الفصل ، كما أن هذا الاثراء لن يتم بنفس النظام ولابنفس الطرق ، ولا بنفس طرق

العلاج التى بدأت بها المجتمعات التى أصبحت حديثة الآن • ولذلك لان خلفية هذه العناصر فى القرن العشرين تختلف من الناحيتين الطبيعية والسيكولوجية ، لانه من المستحيل أن نعيد باختصار الطرق القديمة للنمو ليس فقط فى الاقتصاديات بل فى نمو الادارة ، والسياسة ، والتربية •

ومن السهل القول بأن هناك « طريق جديد » ولكن المتاح أمامنا أن نتنبأ بالطريق فقط لان المقدمات غالبا ما تكون مضلله أو وهمية أو غير مناسبة فبعض أساليب العمل الحديثة التى يمكن تكيفها مع موقف اجتماعى قد تختلف عما وضعت وطورت من أجله ، وبعضها يمكن تحويله، وبعضها لايمكن • ولكن بالنسبة لهذا التمييز بين العناصر الممكن تحويلها، وتلك التى لايمكن تحويلها فانه فى عناصر التحديث فهناك تمييز آخر مختلف يجب أن يضاف ، وهو التمييز بين قواعد ونظم التقدم (١) •

ان التحديث فى حقيقة الامر يحدث كسلسلة طويلة من تتابعات صغيرة مرتبطة بعضها ببعض كل منها يقرر امكانيات ما يأتى بعده • فهو مثل مياه الفيضان تنتشر على أرض غير مستوية ، وتنقسم مجريات التغير ثم تتجمع مرة أخرى ثم تتشتت عندما تقابل مرتفعا ثم تتراجع فى منخفض ، ثم تتكون وتنتشر مرة أخرى فى اتجاهات جديدة • ويمكن أن يعطينا تاريخ الانسان فى المجتمع بعض الدلائل التى تساعدنا فى معرفة مجراه العام • فتفاصيله عبارة عن معلومات متراكمة عن الملامح الاجتماعية لكل حالة خاصة •

ويمكن هنا استخدام مفهوم « المراحل » ذات الابعاد المتعددة • والمرحلة الأولى هى المجتمع التقليدى الذى يعتبر كبناء اجتماعى ينتسب

---

1) Guy Hunter, «Modernizing Peasant Societies; A Comparative Study in Asia and AFrica». Oxford University Press, London, 1969. P. 281.

تماما الى أساسه الدينى ، والى أدواته وفنونه . وتاريخه السياسى . ونظامه والى أشكال الادارة التى سيطر عليه والى نظامه فى التعليم . وليس هناك شك فى أن التغير فى أى بعد من هذه الأبعاد سوف يؤثر بالضرورة فى الأبعاد الاخرى . ومع ذلك فان بعضها يكون مقبولا والبعض الآخر يكون مرفوضا فى هذه المرحلة لان الارضيه ليست ممهدة لها ، وقد يكون بعضها منحلا ، وقد يفتح بعضها طرقا للتقدم كانت مغلقة من قبل . وفى هذه المرحلة المبكرة يكون الامر عملا هاما فى قبول أو رفض الوسائل الجديدة . وفى المرحلة الثانيه للتحديث الجزئى فربما يكون التوتر هو المفهوم السائد . فالمجتمع ممزق بين المكافآت المغريه التى يمكن أن تقدمها الوسائل الجديدة ، والمخاوف التى لازالت ترتبط بالأساليب القديمة للحياة . وفى المرحلة الثالثة فان القواعد والطرق المألوفة للاقتصاديات المتطورة والادارة تبدأ فى التلاؤم ، عند التطبيق المبدئى لهذه القواعد والاساليب على المراحل الاولى ، وذلك فى ضوء الادراك المتأخر لما يحدث فى البلاد الحديثة المتقدمة ولهذا تحدث كثير من الاخطاء والفشل فى تطوير السياسة العامة للمجتمع الزراعى .

وقبول هذه القضايا يتضمن ضرورة حدوث التوافقات الجذرية فى التفكير . فنظرا لان الدول النامية هى فى الغالب مزيج من المجتمعات المحلية التى مازالت فى مراحل أولية للنمو الاجتماعى والسيكولوجى فأنها تتضمن درجة عالية من المرونة والتنوع فى السياسات القومية . وقد انتقدت الحكومات الاستعمارية لاستخدامها اسلوب « المناطق المنعزلة» كأداه للحكم اذ أن هذه السياسة أخرت امتصاص هذه الجماعات للتطور . وقد يكون هناك بعض الحقيقة فى هذا النقد ، ومع ذلك فالفكرة فى استخدام نظام خاص اداريا واقتصاديا للجماعات والذى يطبق على نطاق واسع فى المراحل المختلفة من النمو هو فكرة سليمة بالضرورة . والنقاش هنا يدور حول المعاملة الفردية لمناطق مختلفة فى نفس المجتمع طبقا لظروف كل منها الطبيعية والاجتماعية . فاذا كانت مناسبة ، فان التخطيط من أجل النمو والادارة يجب أن يتعلم الربط بين الاحوال

الاقتصادية ، والمثل العليا السياسية ، مع درجة كبيرة من سرعة الخاطر والذكاء التكتيكى للاستفادة من أى طريق مفتوح للنمو الذى يكون غير واضح فى أغلب الاحيان ، أو يمكن التنبؤ به قبل ذلك بسنوات ، والذى يظهر من خلال عمليات التغير (1) •

طريق جديد

ان « التحديث » يمكن أن يوصف كما أشرنا فى مواقع متعددة من هذا الكتاب بلغة انجاز تغيرات عامة معينة ، واصلاح ملكية الارض ، وخلق مؤسسات مناسبة للتقدم الزراعى والتسويق ، وبناء بيروقراطية أمينة ، ونظام سياسى مستقر مركزيا وحدليا • ويمكن أن يوصف على أنه التغير من مجتمع تقليدى يتجه نحو العرف الى مجتمع فردى أو متجه نحو التعاون الاقتصادى لأن تطور نسق القيم قادر على أن يتوسط بين المعرفة الحديثة والتكنيك مثل تعبئة الطاقة البشرية الزائدة والموارد المستخدمة وانتشار التعليم العالى •

وقد يشمل التحديث كل هذه الاشياء وأكثر منها ، ولكن السؤال الذى يظل قائما هو : الى أى مدى ، وبأى سرعة ، وبأى وسائل تستطيع المجتمعات المختلفة أن تقوم بها • وهناك اعتقاد أن الحضارة « الحديثة » (والتى يمكن تحديدها على أنها النموذج الموجود فى الثورة الصناعية فى الغرب) يجب أن تنتشر فى كل أنحاء العالم • وهناك بالتأكيد بعض العناصر التى انتشرت من الغرب إلى معظم أنحاء العالم مثل الموسيقى والطاقة الكهربائية ، فهى سهلة الانتشار الى أبعد أنحاء العالم • والكوكاكولا موجودة فى أفقر أكواخ غابات أفريقيا • ولكن المسألة ليست بهذه البساطة فى واقع الامر ، فتحت هذه العلاقات السطحية توجد

---

1) Ibid, p. 294.

ثقافات مختلفة وطرق مختلفة لاداء الواجبات « الحديثة » . فالميول السياسية والاقتصادية ، وطرق ادارة الاعمال تختلف من مجتمع الى آخر ،وكل دولة لها أسلوب معين ، ورأس مال معين من الموارد والمهارات، وقدرة معينة للتقدم فى هذا المجال أو ذاك . وحتى الدول المتقدمة مثل بريطانيا وفرنسا وأمريكا وروسيا لها أساليب مختلفة بدرجة كبيرة فى استخدام المعرفة والتكنولوجيا التى هى مشتركة عندهم جميعا .

فالتحديث فى واقع الامر يمكن أن يعنى طريقا ممكنا لكل دولة طبقا لظروفها الخاصة باستخدام أفضل طرق المعرفة العلمية المتاحة فى نفس الوقت لكل دولة فى العالم . هذا بالرغم من وجود العوائق التى قد تمنع الاستخدام الكامل للمعرفة فى مجالات مختلفة ، وقد يتمثل هذا فى نقص الموارد الطبيعة وقد تكون ثروات البلد قليلة جدا لدرجة لاتمكنها من نشر المعرفة بطريقة أوسع ، كما أنه قد يكون فى وجود بعض العادات الاجتماعية والدينية مايعوق استخدام المعرفة العلمية فى بعض المجالات، وقد يكون الفشل فى تنظيم المشاعر الشخصية والاجتماعية (مثل المشاعر العنصرية والعرقية) أو الطموح الشخصى والشراهة (كما فى الاقتصاد والسياسة) لدرجة تعوق بناء نظام سياسى ملائم للتقدم مع المعرفة ، وقد يكون الفشل فى السيطرة على النمو السكانى لدرجة أنه يزيد على الموارد المتاحة للبلاد (كما هو حادث فى المجتمع المصرى) ، هذا فضلا عن وجود اختلافات فى التوازن ، فالكونغو مثلا ذات ثروة ضخمة ولكنها لازالت فقيرة ،وسويسرا مواردها الطبيعية قليلة ولكنها طورت الامكانات الموجودة لديها وأصبحت غنية جدا (١) .

وليس هناك شك فى أن بعض المجتمعات التى تكون فيها الموارد الطبيعية فقيرة ، وبعض العوائق الاخرى شديدة ، فانها لن تصل الى

---

1) Ibid, p. 296.

مستوى عال من الثروة والتقدم خلال جيل واحد أو جيلين . ومع ذلك فهناك تطورات كبيرة فى الحياة اليومية يمكن تحقيقها بالنسبة لشعوب هذه المجتمعات أو بدون تهديد زيادة عدد السكان ، فان الارض يمكن أن تنتج طعاما ، ومواد كافية لكل أسرة ، كما يمكن التقليل من الامراض وتحسين مستوى الامن بالنسبة للكوارث الطبيعية . واذا نظرنا نظرة كلية الى أفريقيا وآسيا فاننا نلاحظ أن العوائق الاساسية للتقدم والنمو فى آسيا تتمثل فى النمو السكانى الرهيب والنظم الاجتماعية والسياسية، وهى فى أفريقيا تكمن فى ضآلة الموارد المستغلة ، والمسافات الواسعة للارض ، وتعقد العادات والقيم التقليدية .

وقد شغل نقاش الأمور السياسية كثيرا من المفكرين . فتايلاند مثلا كان من الممكن أن تكون أغنى من الآن ثلاث مرات اذا سمح بذلك نظامها السياسى والادارى . وكان يمكن للهند أن تنطلق فيها طاقة ضخمة من المهارة اذا شجع على ذلك نظامها فى الزراعة . وهناك ما هو أعمق من السياسة وهو الدين والاخلاق والتعليم التى يمكن أن تجذب أو تخصب المجهود البشرى ، وأن تعطى للمجتمع وحدة فى المستويات والقيم يمكن أن يقوم عليها نظام سياسى واجتماعى مستقر . فخلال النظام القديم سواء فى البوذية أو الهندوكية أو الاسلام أو المسيحية هناك دائما حاجة الى المعرفة العقلية ، وضوء يمكن أن يشرق فى المدارس والجامعات ، وهو اتجاه نحو العالم الطبيعى بكل مستوياته . كما أنه فوق أعماق الايمان الدينى حيث يتفوق الرمز على المعرفة العلمية (ويمكن أن يكون هذا الرمز فى صورة أى ثقافة) فهناك حاجة الى نظام أخلاقى وقيادة بدونها لايستطيع أى عدل اجتماعى أن تكون له القوة والاستمرار اللازمين من أجل النمو . فكل من الثقافات الهندوكية والافريقية هى فى الأساس دينية أكثر منها أخلاقية ، وينتج عنها مجتمعات دينية أكثر منها مجتمعات أخلاقية . فالاخلاق دون أساس دينى تميل الى أن تنهار كما ان الدين دون مرشد أخلاقى للعمل يعتبر واهيا وغير منتج . ويمكن أن نقول هنا أن كلا من غاندى ونهرو قد بدأ فى جعل الهند أخلاقية ، وأن

نيريرى وكاوندا حاولا وضع أخلاق لتنزانيا وزامبيا ، والواقع أنه بالجهود التى يبذلونها فى مجتمعاتهم بدأت المجتمعات الآسيوية والافريقية فى السيطرة على أهدافها . فنظام الجهود اليومية ، والعناية، والصبر فى المناطق الزراعية تعطى أساسا لمجتمع منظم فى آسيا وأفريقيا . وهذا النظام عليه أن يمتد (كما حدث فى أوربا) الى الأمانة والاخلاص فى الحياه الصناعية والتجارية اذا أرادت الدولة الحديثة أن تنجح (١) .

ونحن لانستطيع تقديم أى تنبؤات عن سرعة النمو فى أى مجتمع، ولكننا نشير فقط الى الامكانات وهى كبيرة بدون شك والى الوسائل ذات الأساس الجوهرى ، والى الحاجة الملحة الى هدف ديناميكى ، ونظام أخلاقى . وبدون كل هذا فان أى عمل تقوم به الدولة النامية يذهب هباء وسدى . اذ يمكن لبعض الدول الزراعية أن تحقق تقدما وحضارة تحسدها عليها الدول الغربية حتى لو كانت ثروتها الطبيعية محدودة . وسوف يكون لبعض هذه المجتمعات الريادة فى التجارب الجديدة فى العمل الاجتماعى . فالاوربيون بأوسع المعانى يمكن أن يقدموا الكثير لهذه المجتمعات وهم يستطيعون أن يتعلموا منها الكثير فى نفس الوقت .

---

1) Ibid, 298.

المراجـــع العربيــة والاجنبيــة

١ — جان فرنسوا ريفيل ، ريــاح التغــير الجديدة ، ترجمــة فؤاد مويساتى (بيروت — دار الآفاق الجديدة) .

٢ — عبد الجليل الطاهر ، مسيرة المجتمع ، بحث فى نظريـــة التقدم الاجتماعى ، (بيروت المكتبة العصرية ، ١٩٦٦) .

٣ — محمد عاطف غيث ، التغير الاجتماعى والتخطيط (الاسكندرية ، دار المعارف ، ١٩٦٢) .

٤ — افيرت أ . هاجين « حول نظرية التغير الاجتماعى ترجمة عبد المغنى سعيد ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة .

5 — Apodaca, A. «Corn and Custom : The Introduction of Hybrid Corn to Spanish American Farmers in New Mexico», in E.H. Spicer (ed.) Human Problems in Technological Change (New York : Russell Sage, 1952).

6 — Anderson, C. Arnold, «The Modernization of Education» in Myron weiner (ed.)

7 Arango J «The Urbanization of the Earth.» (Boston Beacon 1970).

8 Arensberg, C. and Niehoff, A.M. «Introducing Change : A Manual for Community Development.» (Chicago : Aldine — Atherton. 1971).

9 Banfield, E. «The Moral Basis of Backward Society, (New York; Free Press, 1958).

10 — Bates, R. «Ethnic Competition and Modernization in Contemporary Africa», Comparative Political Studies, 6 January 1974.

11 — Bell, D. «The Coming of Post - Industrial Society : A Venture in Social Forecasting.» (New York : Basic Books, 1973.)

12 — Bellah, R.N. «Religions and Progress in Modern Asia.» (New York : Free Press, 1965).

13 — Bellah, R.N. «Religious Evolution», in : S.N. Eisenstadt (ed.) Reading in Social Evolution and Development, (N.J : Pergaman, 1970).

14 Benda, H.J «Political Elite in Colonial Southeast Asia : An Historical Analysis», in : Eisenstadt (ed.) Comparative Perspectives on Social Change. (Boston : Little Brown and Co., 1968).

15 Bendix, R. «Industrialization, Ideologies and Social Structure», in : A Etzioni and E. Etzioni (eds.) Social Change : Sources, Patterns, and Conseguences (New York : Basic Books, 1973).

16 — Berg, I and Freedman, M. «The American Work Place : Illusion and Realities» Change, Novem- 1977

17 — Berger, P «Pyramids of Sacrifice. Political Ethics, and Social Change.» (New York : Basic Books, 1947).

18 — Bierstedt, R. «Power and Progress : Essays on Sociological Theory.» (New York : Mc Graw - Hill, 1974).

19 — Black, C.E. «Change as a Condition of Modern Life» in A. Anderson (ed.) Modernization : The Dynamics of Growth. (New York : Basic Books 1966).

20 — Black, C.E «The Dynamics of Modernization.» (New York : Harper and Row, 1967).

21 — Bock, P.K. (ed) «A Culture Shock : A Reader in Modern Cultural Anthropology.» (New York : Knoph 1975).

22 — Boulding, K.E. «Urbanization and the Grants Economy», An Introduction in : K.E. Boulding et al (eds) Transfer in an Urbanized Economy. (N.Y. Calif - Wad-worth. 1973).

23 — Burchinal, L. «The Rural Family of Future», in : J. Edward, (ed.) The Family and Change. (New York, 1969).

24 — Burgess, E. «The Family in a Changing Society» in : K.P. Hatt and others (eds) Cities and Society. (New York : Free Press, 1961).

25 — Burgess, E. «The Growth of the City : An Introduction to Research Project», Publications of the American Sociological Society, Vol. 18, 1924.

25 — Chodak, S. «Societal Development.» (New York : Oxford 1973).

27 — Cicourel, A. «Method and Measurment in Sociology.» (London. 1964).

28 — Commoner, B. «The Closing Circle.» (New York Knoph.. 1971)

29 — Coulson, M.A. and Riddell, D.S. «Approaching Sociology : A Critical Introduction. (London, 1975).

30 — Counts. G. «The Impact of Technological change.»

31 — Davis. K. and Blake. J. «Social Stucture and Fertility : An Analytical framework», Economic Development and Cultural Change. 1956.

32 — Davis, K. and Golden, H H. «Urbanization and the Development of Preindustrial Areas», Economic Development and Cultural Change, Vol. 3. 1954.

33 — Davis. K. «World Urbanization 1950 - 1970 : Analysis of Trends, Relationships and Developments», Population Monograph, Berkely : University of California Press. 1972.)

34 — Deloria, Jr. V.«Custer Died for Your Sins : An Indian Manifesto. (New York : Macmillan, 1970).

35 — De Tocqueville, A.«The Old Regime and the French Revolution», Trans. by : S. Gillert, (Garden City : Doubleday, 1955).

36 — Devas, G. A. (ed.) «Responses to Change, Society, Culture and Personality,» (New York : Van Nostrand, 1976).

37 — Duncan, O.D. (ed) «William Ogburn on Culture and Social Change,» Selected Papers in the Heritage of Sociology Series, (Chicago : University of Chicago Press, 1966).

38 — Eisenstadt, S.N. «Comparative Perspectives on Social Change,» (Boston : Little Brown and Co., 1968).

39 — Eisenstadt, S.N. «Modernization : Protest and Change, (N. J : Prentice - Hall. 1966).

40 — Eisenstadt, S.N. «Tradition, Change and Modernity, (New York: Wiley, 1973).

41 — Fischer O. «The urban Experinence,» (New York : Harcourt, 1976).

42 Fliegel, F. and Kivlin, J.E. «Attributes of Innovation as Factors in Diffusion». American Journal of Sociology, 72, November, 1966.

43 — Foster G. «Traditional Societies and Technological Change.» (New York : Harper and Row, 1973).

44 — Friedricks, C.J. «Sociology of Sociology.» (New York : 1971).

45 — Gerlach, L.P. and Hine, V.H.» Lifeway Leaps : The Dynamics of Change in America.» (University of Minnesota Press, 1973).

46 — Gist, N.P. and Fava, S. «Urban Society» (New York : Crowell, 1974).

47 — Goode, W. «Principles of Sociology» (New York : Mc Graw-Hill Co. 1977).

48 — Goode, W. «The Family.» (N.J. : Prentice - Hall Inc. 1964).

49 — Goode, W. «World Revolution and Family Patterns, (New York Free Press. 1963).

50 — Gould, H.A. «The Aplications of Technological Change for Folk and Scientific Medicine», American Anthropologist, 59, 1957.

51 — Goulet, D.A. «The Cruel Choice : A New Concept in the Theory of Development.» (New York : Atheneum, 1973).

52 — Graham, S. «Class and Conservatism in the Adaption of Innovations», Human Relations, 9, 1956.

53 — Gurr, T. «Sources of Rebellion in Western Societies : Some Qualitative Evidence», in : J.S. Short Jr, and M.W. Wolfgang (eds). Collective Violence (Chicago : Aldine, 1972).

54 — Hagen, E. «On The Theory of Social Change : How Economic Growth Begins», (Homewood, Dorsey, 1962).

Halpern, J. «The Changing Village Community.» (N.J. Prentice Hall 1967)

[illegible] Change (New York [illegible]orton 1973)

57 [illegible] P.M. «The [illegible] the So[illegible] Morphological Revolutions», in A. Etzioni & E. Etzioni (eds) Social Change Sources Patterns and conneguence (New York Basic Books 1973)

58 Hetzler, S. «Technolgical Growth and Social Change.» London Routledge & Kegan Paul, 1969)

59 Hobart, C. «Commitment Value Conflict and the Future of the American Family», Marriage and Family Living, 25, 1963.

60 Hunter, G. «Modernizing Peasant Societies. A Comparative Study in Asia and Africa.» (London : Oxford University Press 1961).

61 — Inkeles, A. and Smith, D.D.« Becoming Modern . Individual Change in Six Developing Countries.» (Cambridge, Mass Harvard University Press, 1971.)

62 — Inkeles, A «The Modernization of Man», in M. Weiner (ed.) Modernization : The Dynamics of Growth, (New York : Basic Books, Inc. 1966).

63 — Jacoby, Henry, «The Bureaucratization of the World.» (Berkeley: University of California Press, 1973)

64 — Johnson, H. «Sociology» (London : Routledge and Kegan Paul, 1961).

65 Katz, E. and Lazarsfeld, P.F. «Personal Influence. (New York : Free Press, 1955).

66 — Kerr, C. and Others, «Industrialism and Industrial Man,» (New York Oxford, 1964).

67 Kessing, F. M. «Cultural Anthropology The Science of Custom, (New York Holt, Rinehart and Winston, 1958).

68 Klien, D «Some Notes on the Dynamics ... in: Dennis, Benne, K. G. Benne, ... (eds.) The Planning of Change. (New York, Rinehart and Winston, 1976).

69 — ... «Diffusionism», in : A. Etzioni and E. Etzioni (eds)«Social Change : Sources, Patterns and Consequences» (New York : Basic Books, 1973).

70 — Kuzanets, S. «Economic Growth and Structure :Selected Essays.» (New York : Norton, 1965).

71 — Kuznets, S. «Population Capital and Growth.» (New York : Norton, 1973).

72 — Lauer, R H. «Perspectives of Social Change» (Boston : Allyn and Bacon, 1977).

73 — Leibenstein, H. «An Interpretation of the Economic Theory of Fertility : ... Journal of Economic literature. 1974.

74 — Lenski, G. and Lenski, J. «Human Societies : An Introduction to Macrosociology.. (New York : McGraw - Hill, 1973)

75 — Lerner, D «The Passing of Traditional Society.» .(Glencoe Ill : The Free Press, 1958).

76 — Leviskv, D. (ed) «Malnutrition Environment and Behavior : New Perspectives.» (New York : 1979).

77 — Levy, M. Jr. «Modernization and the Structure of Societies. (N. J : Princeton University Press. 1956)

78 - Levy, M.J. «Social Patterns Structures and Problems of Modernization» in Wilbert Moore and Robert Cook (eds.) Readings on Social Change. Prentice Hall international Inc. Englwood Cliffs, N.J. 1967

79 — Lewin. K. «Group Decsion and Social Change», in H Proshonsky and B. Seidenberg (eds). Basic Studies in Soaial Psychology (New York : Holt, Rinehart and Winston, 1975)

80 — Lewis, A. «The Theory of Economic Growth» (London : Allen and Unwin, 1956).

81 — Linton, R. «The Study of Man : An Introduction» (New York : Appleton, 1936).

82 — Lockwood, D. «Social Interaction and System Integration», in : C.K. Zollschan and W. Hirsch (eds) Social Change : Explorations, Diagnoses and Conjectures, (New York : Wiley, 1976).

83 — Lowry, N. and Others «Community Structure and Change», New York : Mcmillan Company, 1966.

84 — Maciver, R.M. and Page, C. «Changing Technique and Changing Society», in : Nordskog (ed.), Social Change. (New York : McGraw - Hill Book Com. Inc. 1960).

85 — Mcnees, R.A. «Cultural and Personality Factors Affecting Economics Growth», in :B. Hoselity (ed.) Progress of Underdeveloped Areas, (Chicago : University of Chicago Press, 1952).

86 — Mannheim, K.«Freedom, Power and Democratic Planning.» (London : Routhedge and Kegan Paul, 1951).

87 — Marshall, C. «Sociology of Deviant Behavior» (New York Holt Rinehart and Winston, 1961).

88 — Martindale, D. «Introduction of Exploration in Social Change.» ed. by : Z. George and Others. (London : 1964).

89 — Marx, K. «Capital.» (New York : Modern Library : 1936).

90 — Marx, K «Early Writings.»Trans. and ed. :T.B. Bottomore (London : C.A. Watts, 1963).

91 — Michak, J.«The Ecological Context» (New York :Braziller, 1970).

92 — McClelland, D.C.«The Achieving Society. (New York : Princeton. 1961).

93 — McClelland, D.C. «The Impulse to Modernization», in : M Weiner (ed.) op. cit.

94 — Mckee. J.B. «Introduction to Sociology» (N.J : Holt Rinehart and Winston Inc 1969).

95 — Meisel, L.H. (ed.)«Pareto and Mosca.»(N.J. : Prentice Hall. 1965)

96 — Merton, R. «Manifest and Latent Functions» (New York Free Press, 1957).

97 — Merton, R. «The Sociology of Social Problems», in : R. Merton and R. Nisbet (eds.) Contemporay Social Problems (New York, Harcourt, 1976).

98 — Micham, E. «The Costs of Economic Growth» (New York :Praeger, 1967).

99 — Michel, R. «Political Parties» (New York, Free Press, 1949).

100 — Mishan, E.J. «The Economic Growth Debate : An Assessment» (London : G. Allen. 1977).

101 — Montagu, A. «Man Observed» (New York : Putnam, 1968).

102 — Moore. W.E. «Changes in Occupational Structures», in, W. Faunce (et al) Comparative Perspectives on Industrial Society. (Boston : Little, Browrn. 1969).

103 — Moore, W.E. «Social Change» (N.J. : Prentice - Hall, 1974).

104 — Morton, F. «The Evolution of Political Society.» (New York : Random Hause, 1967).

105 — Murdock, G.P. «Our Primitive Contemporaries,» (New York : Macmillan, 1934).

106 — Murdock, P.G. «How Culture Change?» in : S.Harry (ed.) Man, Culture and Society (New York : Oxford University Press. 1956).

107 — Nettl J.P. and Roland Robertson, «International and the Med-

ernization of Societise» Oxford University Press. London 1968

108 — Nimkoff, M.F «Obstacles to Innovation», in F.R. Allen et al (eds) Technology and Social Change (New York Appleton, 1957).

109 Neumann. S «The International Civil War», in : C.T Gaynton and R Blackey (eds) Why Revolution? Theories and Analysis (Combridge : Mass, Schen Kman, 1971).

110 Ogburn. W.F «The Influence of Invention and Discovery» (New York McGraw - Hill. 1933).

111 Ogburn. W.F.«Technology and The Changing Family» Haugton (New York, 1955).

112 Park, R. «Social Change and Social Disorganization», in S.H. Traub and C.B. Little (eds) Theories of Deviance (Itasca:. Peacock Publisher, 1975)

111 - Parsons, T and Bales, «The Family, Socialization and Interaction Process» (New York : Free Press, 1955).

114 — Peterson, W. «The Politics of Population» (New York : Doubl-day. Anchor Books, 1965).

115 Polen. J. Social Problems (New York McGraw - Hill, 1979)

116 Potter. D. «People of Plenty Economic Abundaance and The American Character»(Chicago, Universty of Chicago Press 1954).

117 Quint, M.N «The Idea of Progress in an Iraqi Village.» Middle East Journal. 12 1958

118 Redfield. R «The Folk Culture of Yucatan.» (Chicago University of Chicago Press. 1941)

119 Robertson. I S «Innovative Behavior and Communication» (New York. Holt. Rinehart and Winston. 1971).

120 — Rogers, E.M. and Others, «Communication of Innovations» (New York : Free Press, 1971).

121 — Schwartz, R. and Miller, J.C. «Legal Evolution and Societal Complexity», in S.N. Eisenstadt (ed.) «Reading in Social Evolution and Development» (New York : Pergaman, 1970).

122 — Schneider, H.K. «Pakat Resistance to Change», in : W.B. Bascom et al (eds)«Continuity and Change in African Cultures» (Chicago : University of Chicago Press, 1959).

123— Scitovsky, T. «Paper on Welfare and Growth,» (Stanford, Calif: Stanford Universuty Press, 1964).

124 — Sott, J. and Kerkvliet, B. «The Politics of Survival : Peasant Respense to Progress in Southeast Asia», Journal of Southeast Asian Studies, 4 Septemler, 1973.

125 — Smelser, N. «The Modernization of Social Relations,» in : M. Weiner (ed.) op. cit.

126 — Sorokin, P.A. «Contemporay Sociological Theories,» (New York: Harper and Brothers, 1982).

127 — Sorokin, P. A. «Fads and Foibles», in Modern Sociology,» New York, 1962).

128 — Sorokin, P.A. «Social and Cultural Dynamics» (New York : A B. Company, 1937).

129 — Sorokin, P.A. «The Crisis of Our Age,» (New York, 1955).

130 - Walter, W.H. «Coming to Terms With Growth and The Environment», in : S.H. Schurr (ed.) Energy, Economic, Growth and The Environment (Baltimore, 1972).

131 — Warren, R.S. «Social Change and Human Purpose, Toward Understanding and Action» (Chicago : Rand McNally, 1977).

132 — Weber, M. «The Theory of Social and Economic Organization,» Trans. and ed. by T Parsons and A.M. Henderson (New York, Oxford University Press, 1947).

133 — Weisberg, B. «Beyond Repair · The Ecology of Capitalism» (Boston : Beacon, 1971).

134 — White, L. «The Science of Culture» (New York Grove Press, 1949).

135 — Wood, R.C. «The Future of Modernization», in : M. Weiner (ed.) op. cit,

136 — Zattman, G. et al, «Innovation and Organizations» (New York; Wiley, 1973).

137 — Zattman, G. «Marketing Contributions from the Behavioral Sciences» (New York : Harcourt, 1965).